

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

للإمام ابن كثير

فقيه المفسرين ومفسر المحدثين

تحقيق

أ.د. حكمت بن بشير ياسين

أستاذ كرسي الدراسات القرآنية في جامعة الملك عبد العزيز

أشرف على طبعه

سعد بن فواز الصميل

الجزء السادس

سورة القصص - حتى آخر سورة الحجرات

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام الشوكاني رحمه الله عن تفسير ابن كثير رحمه الله
وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها
د البدر الطالع ١٥٣/١

تفسير القرآن العظيم

للإمام ابن كثير

فقيه المفسرين ومفسر الحديث

جميع الحقوق محفوظة دار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٣١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٥٠٣٨٥٧٩٨٨ -
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ -
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

سُورَةُ الْقَصَصِ

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا طسم المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خبّاب بن الأرت، قال: فأتينا خبّاب بن الأرت فقرأها علينا ﷺ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ ۝ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبِإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعِي أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝﴾

فقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبِإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]؛ أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تكبر وتجبر وطغى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ أي: أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العتيد يستعمله في أحسن الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل عليه السلام، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٨٧/٧ ح ٣٩٨٠) وضعف سنده محققوه.

فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤﴾ وَتُمْكِنَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَتَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَخَوَدَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ⑦﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ⑧﴾ [الشعراء]، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدرى ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك وأنت تربيته وتدله وتنفده، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمِهِ فِي آلِيهِ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦﴾ فَأَلْقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَخَوَدَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ⑧﴾ وَقَالَتْ أُمُّرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَّا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨﴾.

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفني بني إسرائيل، فيلونهم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون. ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك، وقوابل يَدْرَنَ على النساء، فمن رأيتها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذبّاحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا، قبحهم الله تعالى.

فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفتن لها الدايات ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً، وأحبته حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ⑩﴾ [طه]: ٣٩، فلما ضاقت به ذرعاً، ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفت في روعها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمِهِ فِي آلِيهِ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑪﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت،

وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كانت ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت وأرسلته في البحر، وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله حتى مرَّ به على دار فرعون، فالتقطه الجوّاري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها، فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاء، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلمها، ولهذا قال: ﴿فَالْقَلْعَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لام العاقبة، لا لام التعليل، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق، فإنه تبقى اللام للتعليل، لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوًّا لهم وحزنًا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَخُودُهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ﴾.

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن، قال الله تعالى: ﴿وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَخُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصرًا، والله تعالى يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) يعني: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذبُّ دونه وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ﴾ فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك، وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه، وقد تقدم في حديث الفتون في سورة طه^(١) هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعاً عند النسائي وغيره.

وقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه. وقوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: أرادت أن تتخذه ولداً وتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣).

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً؛ أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، قاله ابن عباس ومجاهد، وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو

عبيدة، والضحاك والحسن البصري وقتادة وغيرهم^(١).

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَظُنَّا عَلَيْهَا تَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أَي: أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أَي: اتبعني أثره، وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ قال ابن عباس: عن جانب^(٢).

وقال مجاهد: بصرت به عن جنب عن بعد^(٣).

وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده^(٤)، وذلك أنه لما استقر موسى ﷺ بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رآته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها.

قال الله تعالى: ﴿وَعَرَّضْنَاهُ عَلَيْهِ الْمَرَضَ مِنْ قَبْلِ﴾ أَي: تحريماً قدرياً، وذلك لكرامته عند الله وصيافته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله ﷻ جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه، وهي آمنة بعد ما كانت خائفة، فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

قال ابن عباس: فلما قالت ذلك، أخذوها وشكّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعة، فأرسلوها^(٥).

فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، وفرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى وأحسنّت إليها وأعطتها عطاءً جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلًا وأولادًا، ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلوات والكساوى والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عزٍّ وجاه ورزق دارٍ. ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعة الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»^(٦).

(١) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند سوى قول ابن عباس فقد أخرجه بسند صحيح من طريق سعيد بن جبيرة عنه، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٠٦/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.

(٦) تقدم الحديث عنه في تفسير سورة طه آية ٣٠.

﴿فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: فوكزه؛ أي: طعنه بجُمع كفه^(١).

وقال قتادة: وكزه بعضا كانت معه، فقضى عليه^(٢)؛ أي: كان فيها حتفه فمات ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أَي: بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَاهِرًا﴾ أَي: معيناً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصَارَ بِالْأَمْسِ يَسْتَصِرُّهُ﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى ﷺ لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ أَي: من معرفة ما فعل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أَي: يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر في بعض الطرق، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر عليه موسى استنصره على الآخر، فقال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أَي: ظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ؟﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى ﷺ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده، فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ وصفه بالرجولية، لأنه خالف الطريق، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى: ﴿ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أَي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ أَي: من البلد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾.

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه، فذكروا أن الله ﷻ بعث إليه ملكاً على فرس، فأرشده إلى الطريق، فالله أعلم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أخذ طريقاً سالكاً مهيعاً، فرح بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: لما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: جماعة يسقون، ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تكفكان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى ﷺ رق لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ أي: ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الله، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى ﷺ لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثناه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم^(١)، إسناده صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع^(٢). وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه^(٣)، وإنه لمحتاج إلى شق تمر.

وقوله: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود والسدي: جلس تحت شجرة. وقال ابن جرير: حدثني الحسين بن عمرو العنقزي، حدثنا أبي، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حثت على جمل ليلتين حتى صبحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا هي شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي وكان جائعاً فأخذها جملي فعالجها ساعة ثم لفظها، فدعوت الله لموسى ﷺ ثم انصرفت. وفي رواية عن ابن مسعود أنه ذهب إلى الشجرة التي كلم الله منها موسى، كما سيأتي إن شاء الله^(٤)، فالله أعلم.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة بسنده ومثله (المصنف ١١/٥٣٠)، وسنده صحيح وأخرجه ابن أبي حاتم والحاكم من طريق ابن أبي شيبة به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٠٨)، وصححه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق السدي عن ابن عباس وهو لم يسمع ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وأخرجه الحاكم من طريق إسرائيل به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٥٧٦).

وقال السدي: كانت الشجرة من شجر السمر^(١).

وقال عطاء بن السائب: لما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمع المرأة^(٢).

﴿فَجَاءَتْهُ إِحَدُهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قَالَتْ إِحَدُهُمَا يَبْتَاطِ اسْتَنْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَنْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ إِيَّاهُ فَتَبَيَّنَ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى ﷺ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحَدُهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال: كانت مستتره بكم درعها^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا [أبي]^(٤)، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر رضي الله عنه: جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء دلّاجة ولّاجة خراجة^(٥). هذا إسناد صحيح.

قال الجوهري: السلفع من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجارية السليطة، ومن النوق: الشديدة^(٦).

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لثلا يوهم ريبة، بل قالت: إن أبي يدعوكم ليجزيك أجراً ما سقيت لنا؛ يعني: ليشبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: طِب نفساً وقرّ عيناً، فقد خرجت من مملكتهم، فلا حكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال:

أحدها: أنه شعيب النبي ﷺ الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد^(٧)، ورواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق إسباط بن نصر عن السدي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق إسماعيل بن علي عن عطاء بن السائب.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر رضي الله عنه.

(٤) زيادة من (ح) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وسنده صحيح كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٦) الصحاح للجوهري ص ١٢٣١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق قرة بن خالد عن الحسن بلفظ: «يقولون شعيب وليس بشعيب».

ابن عبد العزيز الأوسي، حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قصّ عليه موسى القصص^(١). قال: ﴿لَا تَخَفْ نَبَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد الغزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له: «مرحباً بقوم شعيب وأختان^(٢) موسى هُديت^(٣)».

وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب^(٤).

وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب.

وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى ﷺ بمدة طويلة لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل ﷺ ينص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى ﷺ مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد.

وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينصّ على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، كما سنذكره قريباً إن شاء الله، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: ثيرون^(٥)، والله أعلم.

قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: ثيرون هو ابن أخي شعيب ﷺ^(٦).

وعن أبي حمزة، عن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى يثرى صاحب مدين^(٧)، رواه ابن جرير به، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك^(٨).

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبْأَتِي أُسْتَجِرُّهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ أُسْتَجَرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ آي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل، قيل: هي التي ذهبت وراء موسى ﷺ، قالت لأبيها: ﴿يَبْأَتِي أُسْتَجِرُّهُ﴾ أي: لرعية هذه الغنم.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت: ﴿إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ أُسْتَجَرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطبق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلفت علي الطريق فاحذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه^(٩).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عبد العزيز الأوسي عن الإمام مالك.

(٢) أختان: كل ما كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها.

(٣) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٥٥/٧ ح ٦٣٦٤)، قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم (مجمع الزوائد ح ٦٥٩٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عمرو بن مرة عن أبي عبيدة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الرواية السابقة.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بالسند المتقدم دون ذكر ابن مسعود ﷺ، وكذا أخرجه الطبري.

(٧) أخرجه الطبري بسند فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

(٨) ذكره الطبري بنحوه.

(٩) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عنه، وقول عمر أخرجه ابن =

وقال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله هو: ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرّس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَهُ﴾، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَأَبَّتِ اسْتَجْرَةُ ابْنِكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْآمِينُ﴾^(١). قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنَّ أَكْمَلَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَتَيْنِ﴾ أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين.

قال شعيب الجبائي: وهما صفوريا وليا^(٢).

وقال محمد بن إسحاق: صفورا وشرفا، ويقال: ليا^(٣).

وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك أحد هذين العبدین بمائة، فقال: اشتريت، أنه يصح، والله أعلم.

وقوله: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: على أن ترعى غنمي ثمانين سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: لا أشاقت ولا أؤذيك ولا أماريك، وقد استدلو بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي فيما إذا قال: بعتك هذا بعشرة نقداً أو بعشرين نسيئة أنه يصح، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح، وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود: «من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما»^(٤) أو الربا^(٥) على هذا المذهب، وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ليس هذا موضع بسطه لطوله، والله أعلم.

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة، بهذه الآية، واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن حيث قال: باب استئجار الأجير على طعام بطنه، حدثنا محمد بن الحمصي، حدثنا بقرية بن الوليد، عن مسلمة بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح قال: سمعت عتبة بن [النذر]^(٦) السلمي يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طسم حتى إذا بلغ قصة موسى قال: «إن موسى أجر نفسه ثمانين سنين أو عشر سنين على عِفَّةٍ فرجه وطعام بطنه»^(٧).

= أبي حاتم بسند صحيح من طريق عمرو بن ميمون عنه، وقول شريح أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الحكم بن عتيبة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الحكم بن أبي عروبة عنه، وقول أبي مالك أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق حصين عنه، وقول ابن إسحاق أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عنه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان به، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود ولقبه: سُئِدٌ وهو ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

(٤) الوكس هو: هو النقص، ومعنى أوكسهما أي: أنقصهما.

(٥) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (السنن، البيوع، باب فيمن باع بيعتين ح ٣٤٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٢٩٥٥).

(٦) كذا في سنن ابن ماجه وفي النسخ الخطية صحف إلى: «المنذر».

(٧) أخرجه ابن ماجه بسنده ومثله (السنن، الرهون، باب إجارة الأجير على طعام بطنه ح ٢٤٤٤)، وسنده =

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف، لأن مسلمة بن علي وهو: الخشني الدمشقي البلاطي ضعيف الرواية عند الأئمة، ولكن قد روي من وجه آخر، وفيه نظر أيضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى ﷺ أجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه»^(١).

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ﷺ: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: فلا حرج علي، مع أن الكامل وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال رسول الله ﷺ لحزمة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه، وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السفر، فقال: «إن شئت فصم، وإن شئت فافطر»^(٢) مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر، هذا وقد دلّ الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأبطس، عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة؛ أي: الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل^(٣)، هكذا رواه البخاري وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير، ووقع في حديث الفتون من رواية القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية^(٤) والأول أشبه، والله أعلم.

وقد روي من حديث ابن عباس مرفوعاً، قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل؛ أي الأجلين قضى موسى؟

= ضعيف جداً لأن مسلمة بن علي متروك (التقريب ص ٥٣٠)، وفيه بقية لم يصرح بالسماع، وضعفه الحافظ ابن كثير، ولكنه يتقوى برواية البخاري التالية.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتمه وأطول، وفي سننه ابن لهيعة فيه مقال.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٢٥/٤٢٣ ح ١٦٠٣٧)، وصححه محققوه بالمتابعات، وأخرجه النسائي (السنن، الصيام، ٤/١٨٥).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتمه (الصحيح، الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ح ٢٦٨٤).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة طه آية ٤٠، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال: أتمهما وأكملهما^(١) ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الحميدي، عن سفيان وهو ابن عيينة: حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب وكان من أسناني أو أصغر مني... فذكره^(٢). وفي إسنادة قلب، وإبراهيم هذا ليس بمعروف. ورواه البزار، عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي... فذكره، ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً عن ابن عباس إلا من هذا الوجه^(٣).

ثم قال ابن أبي حاتم: قُرئ على يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، عن يحيى بن ميمون الحضرمي، عن يوسف بن تيرح أن رسول الله سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «لا علم لي» فسأل رسول الله ﷺ جبريل، فقال جبريل: لا علم لي، فسأل جبريل ملكاً فوقه، فقال: لا علم لي، فسأل ذلك الملك ربه ﷻ عما سأله عنه جبريل، عما سأله عنه محمد ﷺ فقال الرب ﷻ: قضى أبرهما وأبقاهما، أو قال: أزكاهما^(٤)، وهذا مرسل، وقد جاء مرسلًا من وجه آخر.

وقال سُنيْد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: قال مجاهد: إن النبي ﷺ، سأل جبريل: أي: الأجلين قضى موسى؟ فقال: سوف أسأل إسرافيل فسأله، فقال: سوف أسأل الرب ﷻ، فسأله فقال: أبرهما وأوفاهما^(٥).

طريق أخرى مرسله أيضاً.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأتمهما»^(٦). فهذه طرق متعاضدة، ثم قد روي هذا مرفوعاً من رواية أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عوبد ابن أبي عمران الجوني، عن أبيه، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبرهما». قال: - وإن سئلت: أي المرأتين تزوج؟ فقل الصغرى منهما^(٧) ثم قال البزار: لا نعلم يروى عن أبي ذرٍّ إلا بهذا الإسناد. وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عوبد ابن أبي عمران، وهو ضعيف.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لأن إبراهيم بن يحيى لا يعرف قاله الذهبي (تلخيص المستدرک ٤٠٨/٢)، وقال في ميزان الاعتدال (٧٤/١)، روى عنه سفيان بن عيينة بخبر منكر، ويتقوى برواية البخاري السابقة فيكون حسناً لغيره.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وحكمه كسابقه.

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ١٤٩٥)، وحكمه كسابقه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإرساله، ويشهد له ما تقدم عن البخاري.

(٥) أخرجه الطبري من طريق سُنيْد به، وسنده ضعيف لإرساله وابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف ابن وكيع وأبي معشر وإرسال محمد بن كعب ويشهد له ما سبق.

(٧) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٢٢٤٤)، وسنده ضعيف لضعف عوبد (لسان الميزان ٣٨٦/٤).

ثم قد روي أيضاً نحوه من حديث عتبة بن [النَّدْر]^(١) بزيادة غريبة جداً، فقال أبو بكر البزار: حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النَّدْر يقول: إن رسول الله ﷺ سئل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أبرهما وأوفاهما» ثم قال النبي ﷺ: «إن موسى ﷺ لما أراد فراق شعيب ﷺ، أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون، قال: فما مرّت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه، فولدت قوالب ألوان^(٢) كلها، وولدت ثنتين وثلاثاً كل شاة ليس فيها فشوش^(٣) ولا ضبوب، ولا [كميشة]^(٤) تفوت الكف ولا ثغول» وقال رسول الله ﷺ: «إذا فتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية»^(٥) هكذا أورده البزار.

وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة (ح) وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، أنبأنا الوليد، أنبأنا عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النَّدْر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى ﷺ أجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه، فلما وفي الأجل قيل: يا رسول الله؟ أي: الأجلين؟ قال: أبرهما وأوفاهما، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسناء، فانطلق موسى ﷺ، إلى عصاه، فسمّاها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردّها فسقاها، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا وضرب جنبها شاة شاة، قال: فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها [فشوش]^(٦)»، قال يحيى: ولا ضبوب، وقال صفوان: ولا ضبوب، قال أبو زرعة: الصواب ضبوب ولا عزوز ولا ثغول ولا كميشة تفوت الكف، قال النبي ﷺ: «لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية»^(٧).

وحدثنا أبو زرعة، أنبأنا صفوان قال: سمعت الوليد قال: سألت ابن لهيعة ما الفشوش؟ قال: التي تفش بلبنها واسعة الشخب، قلت: فما الضبوب؟ قال: الطويلة الضرع تجره، قلت: فما العزوز؟ قال: ضيقة الشخب. قلت: فما الثغول؟ قال: التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين، قلت: فما الكميشة؟ قال: التي تفوت الكف كميشة الضرع صغير لا يدركه الكف^(٨).

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وحكمه كسابقه.
- (٢) قال ابن الأثير: «أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها؛ كأن لونها قد انقلب». النهاية ٩٧/٤.
- (٣) الفشوش: هي التي ينفش لبنها من غير حلب: أي يجري؛ وذلك لسعة الإحليل. والضبوب: ضيقة ثقب الإحليل والكميشة: الصغيرة الضرع. والثغول: الشاة التي لها زيادة حلمة، وهو عيب.
- (٤) هذه الكلمة الغريبة وما بعدها يأتي التعريف بها بعد الرواية التالية.
- (٥) كذا في رواية البزار وفي تفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صحفت إلى: «كمشة».
- (٦) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح) ٢٢٤٦.
- (٧) كذا في رواية ابن أبي حاتم، وفي الأصل صحفت إلى: «قنوش».
- (٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وفي سنده ابن لهيعة فيه مقال.
- (٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وسنده صحيح إلى ابن لهيعة ولا يضر ما قيل فيه لأنه لم يروه عن أحد وإنما هو من تفسيره.

مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري، وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم.

وينبغي أن يروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ولا ضبوب ولا ثعول ولا كميشة، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة.

وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفاً عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد، فقال: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، حدثنا قتادة، حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها، فلك ولدها، فعمد موسى فرفع حبلاً على الماء، فلما رأت الخيال فزعت، فجالت جولة، فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام^(١).

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكْ إِيَّاتِي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَلِّلُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُكُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَبِّكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكِ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأتقاهما، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: الأكمل منهما، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيج عن مجاهد: قضى عشر سنين وبعدها عشراً آخر^(٢)، وهذا القول لم أره لغيره، وقد حكاه عنه ابن أبي حاتم وابن جرير، فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً، فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أي: رأى ناراً تضيء على بعد ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بها من البرد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وجود سند الحافظ ابن كثير، وأخرجه ابن عساكر من طريق معاذ بن هشام به (تاريخ دمشق ٤٠/٦١).

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيج به.

يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف^(١) الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرهما، فناداه ربه ﴿مَنْ سَطِيَّ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: رأيت الشجرة التي نودي منها موسى ﷺ سمرة خضراء ترف^(٢)، إسناده مقارب.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض من لا يتهم عن وهب بن منبه قال: شجرة من العليق، وبعض أهل الكتاب يقول إنها من العوسج^(٣).

[وقال قتادة: هي من العوسج، وعصاه من العوسج]^{(٤)(٥)}.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ وَلِيَّ فِيهَا مَثَابُ رِثَىٰ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ [طه]، والمعنى أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ﴿٢٠﴾ [طه] فعرف وتحقق أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء: كن فيكون، كما تقدم بيان ذلك في سورة طه، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ﴾ أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَُا جَانٌّ وَلَىٰ مُدِيرٌ﴾ أي: في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها، واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في واد فعند ذلك ﴿وَلَىٰ مُدِيرٌ وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَصَاءٌ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها، فإنها تخرج تتلألاً كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي: من غير [برص]^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال مجاهد: من الفزع^(٧).

(١) اللحف: أصل الجبل.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان: فيه مقال، وأبو عبيدة لم يسمع من ابن مسعود وقد توبعا فقد أخرجه ابن عساكر من طريق عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، (تاريخ دمشق ٤٨/٦١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره وتاريخه (٤٠١/١)، وسنده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق.

(٤) زيادة من (ح) و(حم).

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة قال: الشجرة عوسج، قال معمر وقال غير قتادة: عصا موسى من العوسج، والشجرة من العوسج.

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل ضحفت إلى: «مرض».

(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد بلفظ: «الفرق».

وقال قتادة: من الرعب^(١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية^(٢)، والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر ﷺ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ الصالح، أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله بن مسلم، عن مجاهد قال: كان موسى ﷺ قد ملئ قلبه رعباً من فرعون، فكان إذا رآه قال: اللهم إني أدرك بك في نحره، وأعوذ بك من شره، فنزع الله ما كان في قلب موسى ﷺ، وجعله في قلب فرعون، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَذَنِّكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾، يعني: إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحيان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدين الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾.

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾، يعني: ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي: إذا رأوني ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى ﷺ كان في لسانه لشغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٣٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي (٣٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٣٩) هَارُونُ أَخِي (٤٠) أَشَدُّ بِرِيٍّ أَزْرَى (٤١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٤٢) [طه]؛ أي: يؤنسني فيما أمرني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد، ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرني، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله ﷻ، لأن خبر الإثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي: يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثنه عند الآية (٣٥) من هذه السورة، وسنده ضعيف لضعف عبد الله بن مسلم وهو ابن هرمز المكي كما في التقريب.

لا يفهمون^(١)، فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنقوي أمرك، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [٥٢] [مريم]، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليه السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطٰنًا﴾ أي: حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّنَّا﴾ أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِلَغٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا، ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ أَغْلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [٥١] يوم لا ينفع الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [٥٢] [غافر].

ووَجَّه ابن جرير على أن المعنى: ونجعل لكم سلطاناً فلا يصلون إليكما، ثم يبتدئ فيقول: ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ أَغْلِبُونَ﴾ تقديره أنتم ومن اتبعكم الغالبون بآياتنا^(٢)، ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [٣٦] وَقَالَ مُوسَى رَبِّيْٓ أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدٰى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُوْنُ لِمَنْ عٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُوْنَ ۝ ٣٧ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [٣٧].

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما أتاهما الله من المعجزات الباهرة، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله ﷻ من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباغاة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، يعنون عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى ﷺ مجيباً لهم ﴿رَبِّيْٓ أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدٰى مِنْ عِنْدِهِ﴾، يعني: مني ومنكم، وسيفصل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق.

(٢) ذكره الطبري بنحوه.

يَبْنِي وَبَيْنَكُمْ، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ أي: من النصرة والظفر والتأييد ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون بالله ﷻ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩) ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى الْتَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢).

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وإفترائه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ﴾ (٥١) [الزخرف]، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقله عقولهم وسخافة أذهانهم، ولهذا قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، وقال تعالى إخباراً عنه: ﴿فَضَرَّ فَنَادَى﴾ (٣٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ [النازعات]، يعني: أنه جمع قومه، ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم الله تعالى منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك، فقال: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى﴾، يعني: أمر وزيره هامان ومدير رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، يعني يتخذ له آجرأ لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِي بَيْنِي يَهْمَنُنْ بَيْنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَضُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٣٧) [غافر] وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في قوله: إن ثم رباً غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]؟ وقال: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩) أي: طغوا وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (٤٣) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَالَغُ الْعَذَابِ﴾ (٤٤) [الفجر]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى الْتَارِ﴾ أي: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَمَلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود^(١)].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملاه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤَيَّدَاتُ بِلَحَاطَتِهِ ۖ فَصَوَّرَ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَلَاحِظُهُمْ أَخَذَهُ رَابِيَةً ۖ﴾ [الحاقة]، وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا: حدثنا عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسحوا قرده بعد موسى، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ الآية^(٢)، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عوف بن أبي [جميلة]^(٣) الأعرابي بنحوه^(٤)، وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد موقوفاً^(٥)، ثم رواه عن نصر بن علي، عن عبد الأعلى، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رفعه إلى النبي ﷺ قال: «ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى» ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ الآية^(٦).

وقوله: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: من العمى والغي، وهدى إلى الحق ورحمة؛ أي: إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن.

(٣) كذا في ابن أبي حاتم وهو الصواب كما في ترجمته، وفي الأصل صحف إلى: «حميد»، وفي (حم): حميلة، وفي (مح): حبيبة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق هوزة بن خليفة عن عوف به، وسنده حسن، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٠٨).

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار ح ٢٢٤٧ وذكر الهيثمي: إن رجاله رجال لصحيح (مجمع الزوائد ٨٨/٧).

(٦) المصدر السابق ح ٢٢٤٨، والصحيح وقفه.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنَ رَبِّكَ إِنِشْدَرُ قَوْمًا مَّا أَتْنَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَغْلَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤) [آل عمران]؛ أي: وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُنْتَظَرِ﴾ (٤٦) الآية [هود]، وقال في آخر السورة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [هود: ١٠٠]، وقال بعد ذكر قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٧]، وقال في سورة طه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (٩١)، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك ولكن الله ﷻ أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولاً ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾.

قال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه: أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا عيسى بن يونس، عن حمزة الزباد، عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال: نودوا أن: يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأجبتكم قبل أن تدعوني، وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ^(١) من حديث جماعة عن حمزة وهو ابن حبيب الزيات، عن الأعمش. ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن

(١) أخرجه النسائي (السنن الكبرى، التفسير ح ١١٣٨٢)، وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق الأعمش به وأخرجه الحاكم من طريق حمزة الزيات به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٠٨/٢).

الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة وهو: ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه^(١)، والله أعلم.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت^(٢).

وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى^(٣). وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَمِناً﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك والعباد وبارسالك إليهم ﴿لِنُنْذِرَ قَوْماً مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله ﷻ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ الآية؛ أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [٥٦] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهْدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوَّلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ [٥٨] قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنِيعَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٥٩] فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٦٠] وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٥١].

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وحكمه كسابقه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق صالح بن سعيد عن مقاتل بن حيان، وصالح قال عنه ابن أبي حاتم: شيخ الجرح والتعديل (٤٠٤/٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ الآية، يعنون - والله أعلم - من الآيات كثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى ﷺ حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبنو إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَنْحَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا وَإِلَهِ آبَائِنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكَ لَكِرُونَ﴾ أي: بكل منهما كافرون، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون، دل ذكر أحدهما على الآخر، كما قال الشاعر:

فما أدري إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

أي: فما أدري يليني الخير أو الشر.

قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك^(١)، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا﴾ قال: يعني: موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر؟ وبهذا قال سعيد بن جبيرة وأبو رزين في قوله: ﴿ساحران﴾ يعنون: موسى وهارون^(٢)، وهذا قول جيد قوي، والله أعلم.

وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال: يعنون: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم^(٣)، وهذه رواية الحسن البصري^(٤).

وقال الحسن وقتادة: يعني: عيسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم^(٥)، وهذا فيه بعد، لأن عيسى لم يجر له ذكر ههنا، والله أعلم.

وأما من قرأ: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾^(٦) فقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس: يعنون:

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.
- (٢) قول سعيد بن جبيرة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه، وقول أبي رزين أخرجه الطبري بسند صحيح كسابقه.
- (٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق مسلم بن يسار به.
- (٤) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين بن داود، وهو ضعيف.
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وقول الحسن تقدم في سابقه.
- (٦) كلاتهما قراءتان متواترتان.

التوراة والقرآن^(١)، وكذا قال عاصم [الجحدري]^(٢) والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٣). قال السدي: يعني: صدق كل واحد منهما الآخر.

وقال عكرمة: يعنون: التوراة والإنجيل، وهو رواية عن أبي رزين^(٤)، واختاره ابن جرير.

وقال الضحاك وقتادة: الإنجيل والقرآن^(٥)، والله ﷻ أعلم بالصواب، والظاهر على قراءة «سحران» أنهم يعنون: التوراة والقرآن، لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتَبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩١ - ٩٢]، وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٥٥] [الأنعام]، قالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى^(٦).

وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران ﷺ، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّحِيمُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومحلاً لبعض ما حرم على بني إسرائيل، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتَبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُ﴾ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ أي: فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فإن لم يجيبوك عما قلت لهم، ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتْلَعُونَ أَحْوَاءَهُمْ﴾ أي: بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قال مجاهد: فصلنا لهم القول^(٧).

(١) كذا في الأصول الخطية وفي تفسير ابن أبي حاتم، والطبري بسند ثابت عن علي به بلفظ: التوراة والفرقان، وأما قول العوفي عن عباس فقد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف بلفظ: «هم أهل الكتاب».

(٢) كذا في تفسير ابن أبي حاتم، وفي النسخ الخطية صحف إلى: «الجندى».

(٣) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي رزين.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر عن الضحاك.

(٦) أخرجه الشيخان (صحيح البخاري، بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ ح ٣، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بدء الوحي ح ٢٥٢).

(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد وليث فيه مقال.

وقال السدي: بينا لهم القول^(١).

وقال قتادة: يقول تعالى: أخبرهم كيف صنع بمن مضى، وكيف هو صانع^(٢) ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال مجاهد وغيره: ﴿وَصَلْنَا لَهُمْ﴾ يعني: قريشاً^(٣)، وهذا هو الظاهر.

لكن قال حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، عن رفاعه، رفاعه هذا هو ابن قرظة القرظي، وجعله ابن منده: رفاعه بن شموال خال صفية بنت حيي وهو الذي طلق تميمه بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا، كذا ذكره ابن الأثير^(٤) [قال: نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا أحدهم، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه]^{(٥)(٦)}.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَئِنْ يُنَالِ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَّوْنِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمَا زَكَّاهُمْ يَتُفَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي إِلَيْكُمْ جَهَنَّمَ﴾.

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧] وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول رزق أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءامنا فاكْتُبْكَ مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ [المائدة].

قال سعيد بن جبیر: نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم: ﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ [يس] حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَئِنْ يُنَالِ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يعني: من قبل هذا القرآن كنا مسلمين، أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: هؤلاء المتصفون بهذا الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم الثاني، ولهذا مال ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على اتباع الحق، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) ينظر أسد الغابة ٢/٢٢٨، ٢٣٢.

(٥) زيادة من (ح) و(حم).

(٦) أخرجه الطبري وابن حاتم كلاهما من طريق حماد بن سلمة به وسنده صحيح.

(٧) لم أجده عن سعيد بن جبیر بهذا اللفظ، وعلى كل حال سنده ضعيف بسبب الإرسال.

وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي، عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها ففترجها»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيني، حدثنا ابن لهيعة، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن القاسم بن أبي أمامة قال: إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً، وقال فيما قال: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله ما لنا وعليه ما علينا ومن أسلم من المشركين فله أجره وله ما لنا وعليه ما علينا»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْسَّيِّئَةَ﴾ أي: لا يقابلون السيء بمثله، ولكن يعفون ويصفحون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِئُوا الْجَهْلِينَ﴾ أي: إذا سفه عليهم سفیه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب، ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِئُوا الْجَهْلِينَ﴾ أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نجبها.

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه، ورجال من قريش في أندية حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخير الرجل، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه فيما قال: قال: ما نعلم ركباً أحق منكم، أو كما قالوا لهم فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيراً. قال: ويقال: إن نفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أي ذلك كان. قال: ويقال - والله أعلم - أن فيهم نزلت هذه الآيات ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥١) إلى قوله: ﴿لَا تَبْنِئُوا الْجَهْلِينَ﴾ قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا

(١) صحيح البخاري، العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله (ح ٩٧)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (ح ١٥٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٦/ ٥٧٠ ح ٢٢٢٣٤) وصححه محققوه بالمتابعات.

أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه ﷺ، والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُنَّ قَبِيلَ مُذَاجٍ وَرَهْبَانًا﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٨٢ - ٨٣] ^(١).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا مَأْمُونًا يَخُجُّ إِلَيْهِ تَمُرْتُ كُلُّ شَيْءٍ زَرْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ [يوسف].

وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شريعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام. فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة.

قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه، وهو المسيب بن حزن المخزومي ﷺ قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أخرجاه من حديث الزهري، وهكذا رواه مسلم في صحيحه ^(٢)، والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «يا عمه قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حملة عليه إلا جزع الموت، لأقررتُ بها عينك، لا أقولها إلا لأقرّ بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾، وقال الترمذي: حسن.

(١) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/٣٩٢) وسنده ضعيف لإرساله.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، سورة القصص، باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] (ح ٤٧٧٢)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (ح ٢٤).

غريب، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان^(١). ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان، عن يزيد بن كيسان: حدثني أبو حازم، عن أبي هريرة فذكره بنحوه^(٢)، وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله، فأبى عليه ذلك، وقال: أي ابن أخي ملّة الأشياخ، وكان آخر ما قاله هو على ملّة عبد المطلب^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن أبي راشد قال: كان رسول قيصر جاء إلي، قال: كتب معي قيصر إلى رسول الله ﷺ كتاباً، فأتيته فدفعت الكتاب فوضعه في حجره، ثم قال: «ممن الرجل؟» قلت: من [تنوخ]^(٤). قال: «هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفة؟» قلت: إني رسول قوم وعلى دينهم حتى أرجع إليهم، فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه، وقال: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّبِيعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ يعني: هذا الذي اعتذروا به كذبا وباطل؛ لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟ وقوله تعالى: ﴿يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولهذا قالوا ما قالوا.

وقد قال النسائي: أنبأنا الحسن بن محمد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن أبي مليكة قال: قال عمرو بن شعيب، عن ابن عباس، ولم يسمعه منه: إن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: ﴿إِن نَّبِيعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾^(٦).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرِيبٍ بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَنِلَك مَسْكَنَهُمْ لَوْ شِئْنَا مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٥٨) وَمَا كَانَ رِئُكَ مَهْلِكِ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمًا رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩).

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرِيبٍ بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا﴾ أي:

- (١) سنن الترمذي، التفسير، سورة القصص (ح ٣١٨٨). (٢) المسند ٤٣٤/٢.
- (٣) هذه الآثار أخرجه الطبري وابن أبي حاتم ويشهد لها ما تقدم في الصحيحين.
- (٤) كذا في (ح) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل ضُحفت إلى: «تيرح».
- (٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وسنده ضعيف لضعف سعيد بن أبي راشد (لسان الميزان ٢٨/٣).
- (٦) أخرجه النسائي بسنده ومثله (السنن الكبرى، التفسير، سورة القصص ح ١١٣٨٥)، وسنده ضعيف للانقطاع بين عمرو بن شعيب وابن عباس، كما أشار الحافظ ابن كثير.

طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [النحل]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: رجعت خراباً ليس فيها أحد.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لعمر: إن سليمان عليه السلام قال للهامة - يعني البومة -: ما لك لا تأكلين الزرع؟ قالت: لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه، قال: فما لك لا تشربين الماء؟ قالت: لأن الله تعالى أغرق قوم نوح به. قال: فما لك لا تأوين إلا إلى الخراب؟ قالت: لأنه ميراث الله تعالى، ثم تلا: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾^(١).

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾، وهي مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿لِنُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وتمام الدليل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: الآية]، فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى؛ لأنه رسول إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها. وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه علي أنه قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(٢)، ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي من بعده ولا رسول؛ بل شرعه باقٍ بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد بقوله: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾ أي: أصلها وعظيمنتها كأمهات الرساتيق والأقاليم، حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما، وليس ببعيد.

﴿وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ أَعَدَّ لَهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند معلق وفيه أيضاً رجل ضعيف وهو مالك بن سليمان (ينظر ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٧).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٢٠.

أَعَدَّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ الْمَقِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْضَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [١٧] [الأعلى].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمَسُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ»^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾ أَي: أَفَلَا يَعْقِلُ مَنْ يَقْدُمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَنَنْعِدْنَهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيرَ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [١١] يَقُولُ تَعَالَى: أَفَمَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَا مُحَالَةً، كَمَنْ هُوَ كَافِرٌ مُكَذِّبٌ بِلِقَاءِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَهُوَ مُتَمَتِّعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلِيلًا: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: مِنَ الْمَعْدِينِ^(٢).

ثُمَّ قَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبِي جَهْلٍ^(٣).

وَقِيلَ: فِي حِمْزَةٍ وَعَلِيٍّ وَأَبِي جَهْلٍ^(٤)، وَكِلَاهُمَا عَنْ مُجَاهِدٍ، الظَّاهِرُ أَنَّهَا عَامَةٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ حِينَ أَشْرَفَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهُوَ فِي الدَّرَجَاتِ، وَذَاكَ فِي الدَّرَكَاتِ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ لِحْنَتُهُ إِيْتَهُمْ لِمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [١٢] قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [١٣] وَقِيلَ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [١٤] وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٥] فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [١٦] فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوْفَ أُنْزِلُ إِلَيْهِ الْوَسِيلُ﴾ [١٧] فَهُوَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [١٨].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُؤَخَّرُ بِهِ الْكَفَّارَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يَعْنِي: أَيْنَ الْآلِهَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟ وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَأَءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [١٩] [الأنعام].

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ١٨٥.

(٢) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق أبان بن تغلب عن مجاهد، وهو مرسل.

(٤) ذكره الطبري دون أن ينسبه إلى أحد.

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنه أغوهم فاتبعوهم ثم تبرأوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٢﴾ [مریم]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ [الأحقاف]، وقال الخليل ﷺ لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بِعَصَاكُمْ بَعْضًا وَمَأْوِيَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ ﴿٨٥﴾ [العنكبوت] الآية، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّاهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ تَبَرُّوا وَلَئِنْ لَمْ يَنفَرِ مِنْهُمْ لَذَرَيْنَا لَهُمُ الشَّيْءُ وَمَا يَكُونُ لَهُمْ جُنُودٌ فَلَا يَنْصُرُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿٨٧﴾ [البقرة]، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صاترون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ ﴿٥٢﴾ وَرَمَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٣﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم، وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك، ومن نبيك، وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاهاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾.

قال مجاهد: فعमित عليهم الحجج ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ^(١) بالأنساب.

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: في الدنيا ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي: يوم القيامة وعسى من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها

(١) أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه، وقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيَرَةُ﴾ نفى على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقد اختار ابن جرير أن ﴿مَا﴾ ههنا بمعنى الذي تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة^(١)، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح، والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس^(٢)، وغيره أيضاً. فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٦٩) أي: يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (٧٠) [الرعد].

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢) وَمَنْ رَحِمْتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

يقول تعالى مُمتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضرَّ ذلك بهم، ولسئمت النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً؛ أي: دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضرَّ ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكَلَّتْ من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢) وَمَنْ رَحِمْتِهِ ﴿يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر.

(١) ذكره الطبري.

(٢) لم يرد في تفسير ابن أبي حاتم ما يفيد إنها نافية.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَنَّا مِنۢ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وهذا أيضاً نداء ثانٍ على سبيل التوبيخ والتفريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في دار الدنيا ﴿وَزَعَنَّا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني: رسولا^(١).

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره، فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِم بِاتِّبَاعِهِمْ مِّنَ الْكُفْرِ مَا إِن مَّفَاحِمُهُم لَنُنَوِّئُ بِالْعُسْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْصِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قال الأعمش: عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾ قال: كان ابن عمه^(٢)، وهكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب^(٣)، وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام^(٤).

قال ابن جريج: هو قارون بن يصر بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث^(٥).

وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام.

قال ابن جريج: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه^(٦)، والله أعلم.

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من الطريق الأعمش به، وكذا أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤٠٩).

(٣) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري بخمسة أسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٤) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول مالك بن دينار أخرجه الطبري عنه بلاغاً.

(٥) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف.

(٦) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

وقال قتادة بن دعامة: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله^(١).

وقال شهر بن حوشب^(٢): زاد في ثيابه شبراً طويلاً ترفعاً على قومه.

وقوله: ﴿وَأَيَّتُهُ مِنَ الْكُتُوبِ﴾ أي: الأموال ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ أي: ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها^(٣).

قال الأعمش، عن خيثمة: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع، كل مفتاح على خزانة على حدته، فإذا ركب حملت على ستين بغلاً أغرَّ محجلاً^(٤)، وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: وعظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصيحة والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

قال ابن عباس: يعني: المرحين^(٥).

وقال مجاهد: يعني: الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم^(٦).

وقوله: ﴿وَأَنْبَغَ فِيمَا عَاتَلَكُمُ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح الله فيها من المأكول والمشرب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، فأت كل ذي حق حقه ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن إلى خلقه، كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أُولَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤَيْهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه، وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: لا أفترق إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني

(١) ذكره الطبري دون سند عن ابن جريج.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كلاهما من طريق ليث، وهو ابن أبي سليم، عن شهر وليث فيه مقال.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الأعمش به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق علي بن أبي نجيع عن مجاهد.

أستحقه ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَحْمًا إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ أي: على علم من الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]؛ أي: هذا أستحقه.

وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: أنه كان يعاني علم الكيمياء، وهذا القول ضعيف، لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل^(١)، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»^(٢)، وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى؟ هذا زور ومحال، وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصبغ في الصور الظاهرة، وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر وليس كذلك قطعاً لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صحَّ مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفَّاكون، فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك، فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات، وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسَّموات واختياره وفعله، كما روي عن حيوة بن شريح المصري رحمه الله تعالى أنه سأله سائل، فلم يكن عنده ما يعطيه، ورأى ضرورته، فأخذ حصاة من الأرض فأجالها في كفه، ثم ألقاها إلى ذلك السائل، فإذا هي ذهب أحمر، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول ذكرها.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم، فدعا الله به فتمول بسببه. والصحيح المعنى الأول، ولهذا قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْتَلْ عَنْ دُؤْبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم. قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ على خير عندي^(٣).

وقال السدي: على علم أني أهل لذلك^(٤).

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمَ

(١) يقصد غير علم الكيمياء المعاصر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي بلفظ: «عَلِمَ الله أني أهل لذلك».

أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١﴾
[وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطي] ﴿٢﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ
إِنَّمَا لَكُمْ لَدُوْ حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْأَعْمَىُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجميل باهر، من
مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها
وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا: ﴿يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ إِنَّمَا لَكُمْ لَدُوْ
حَظٌّ عَظِيمٌ﴾ أي: ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم:
﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في
الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح «يقول الله تعالى أعددت لعبادي
الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ
نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾» [السجدة] ﴿٣﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْأَعْمَىُونَ﴾ قال السدي: ولا يلقي الجنة إلا الصابرون ﴿٤﴾، كأنه جعل
ذلك من تمام الكلام الذين أوتوا العلم.

قال ابن جرير: ولا يلقي هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار
الآخرة ﴿٥﴾. وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك، وجعله من كلام الله ﷻ، وإخباره بذلك.

﴿لَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ
الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَابُنَا لَا يُلْجِ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به
وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه أن
رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم
القيامة». ثم رواه من حديث جرير بن زيد، عن سالم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحوه ﴿٦﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن.

(٢) زيادة من (ح) و(حم).

(٣) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ، (صحيح البخاري، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ
أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] ح ٨٤٩٨، وصحيح مسلم، الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة ح ١٨٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

(٥) ذكره الطبري بنحوه.

(٦) صحيح البخاري، اللباس، باب من جر ثوبه من الخلاء (ح ٥٧٩٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(١) تفرد به أحمد، وإسناده حسن.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا أبو يعلى بن منصور، أخبرني محمد بن مسلم، سمعت زياد النميري يحدث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل فيمن كان قبلكم خرج في بردين فاختلف فيهما، فأمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٢).

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب «العجائب الغريبة» بسنده عن نوفل بن مساحق قال: رأيت شاباً في مسجد نجران، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتماحه وجماله، فقال: ما لك تنظر إلي؟ فقلت: أعجب من جمالك وكمالك. فقال: إن الله ليعجب مني، قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر، فأخذه بعض قرابته في كمه وذهب به.

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله ﷺ، واختلف في سببه:

فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تبته موسى بحضرة الملائكة من بني إسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى، فتقول يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا، فلما قالت ذلك في الملائكة لموسى ﷺ أرعد من الفرق، وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال: أنشدك بالله الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون، وفعل كذا وكذا لما أخبرني بالذي حملك على ما قلت؟ فقالت: أما إذ نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول ذلك لك، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فعند ذلك خرَّ موسى ﷺ ساجداً، وسأل الله في قارون، فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبثله وداره، فكان ذلك، وقيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب، وعليه خدمه ثياب الأرجوان المصبغة، فمرَّ في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى ﷺ، وهو يذكرهم بأيام الله، فلما رأى الناس قارون انصرف وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه، فدعاه موسى ﷺ، وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لنخرجن لتدعوني عليّ وأدعو عليك، فخرج موسى وخرج قارون في قومه، فقال موسى ﷺ: تدعو أو أدعو أنا، فقال: بل أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب له، ثم قال موسى: أدعو؟ قال: نعم، فقال موسى: اللهم مُر الأرض أن تطيعني اليوم، فأوحى الله إليه أني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم. قال: فأقبلت

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٠/٣)، وحسن سنده الحافظ ابن كثير، ويشهد له سابقه.

(٢) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ٢٧٩/٧ ح ٤٣٠٢)، وسنده ضعيف لضعف زياد بن عبد الله النميري (مجمع الزوائد ١٢٦/٥) ويتقوى بما سبق.

بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده، ثم قال: اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض^(١). وعن ابن عباس قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة^(٢).

وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة^(٣)، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة^(٤)، وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ فَتْنَةٍ يَصُورُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: الذين لما رأوه في زينتته قالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوقِفَ قَدْرُونَ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظِي عَظِيمٌ﴾ [القصص: ٧٩] فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة.

وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»^(٥).

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿وَيَكُنَّ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يعنون أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا: [ويكأن]^(٦) فقال بعضهم: معناه ويلك اعلم أن، ولكن خفف فقليل ويك ودل فتح أن على حذف اعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن، والكتابة أمر وضعي اصطلاح، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم.

وقيل: معناها: ويكأن أي: ألم تر أن؟ قاله قتادة.

وقيل: معناها: وي كآن، ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى أظن وأحسب.

قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنما بمعنى ألم تر أن^(٧)، واستشهد بقول

الشاعر:

(١) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عنه بنحوه، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عنه لكنه مرسل، والخبر عنهما من الإسرائيلييات.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أبي نصر، وهو الكوفي الأسدي، عن ابن عباس، وأبو نصر مجهول كما في التقريب.

(٣) أي: قامة الرجل؛ أي: بطوله.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكن قتادة لم يصرح باسم شيخه.

(٥) تقدم تخريجه في تفسيره سورة البقرة آية ٢٦٧.

(٦) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «يك أن».

(٧) ذكره الطبري بنحوه.

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَانِي قَلَّ مَالِي جِئْتَمَانِي بِنُكْرٍ
وَيَكُنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحِبُّ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشُ عَيْشُ ضُرٍّ^(١)

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنِجَّاهُ مِنَ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوًّا في الأرض؛ أي: ترفعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم، كما قال عكرمة العلو: التجبر^(٢).

وقال سعيد بن جبير: العلو البغي^(٣).

وقال سفيان بن سعيد الثوري، عن منصور، عن مسلم البطين: العلو في الأرض التكبر بغير حق، والفساد أخذ المال بغير حق^(٤).

وقال ابن جريج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ تعظماً وتجبراً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي^(٥).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أشعث السمان، عن أبي سلام الأعرج، عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣). وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتناول على غيره، فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»^(٦).

وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال»^(٨).

وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنِجَّاهُ﴾ أي: ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة، وهذا مقام الفضل ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى

(١) نسبه سيويه إلى زيد بن عمرو بن نفيل (الكتاب ١٥٥/٢)، واستشهد به الطبري.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق زياد بن أبي زياد عن عكرمة، وزیاد ضعيف كما في التقريب، ومعناه صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سفيان به.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وفيه أشعث، سكت عنه ابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٢٧٧/٢).

(٧) أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار ؓ (الصحيح، الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ح ٢٨٦٥).

(٨) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود، الإيمان، باب تحريم الكبر (ح ٩١).

الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل]، وهذا مقام الفضل والعدل.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا أَعْلَمُ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْنَا أَعْلَمُ﴾ أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال السدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا أَعْلَمُ﴾ يقول لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن. قاله السدي.
وقال أبو سعيد^(١) مثلاً.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْنَا أَعْلَمُ﴾ قال: إلي يوم القيامة^(٢)، ورواه مالك عن الزهري^(٣).

وقال الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿لَرَادُّكَ إِلَيْنَا أَعْلَمُ﴾ إلى الموت^(٤)، ولهذا طرق عن ابن عباس ؑ، وفي بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة^(٥).

وقال مجاهد: يحييك يوم القيامة^(٦)، وكذا روي عن عكرمة وعطاء وسعيد بن جبير وأبي قرزة وأبي مالك وأبي صالح^(٧).

وقال الحسن البصري: إي والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة^(٨).

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق السدي به، وسنده ضعيف لأن أبا صالح وهو باذام أو باذان: ضعيف، والسدي لم يسمع من أبي سعيد وهو الخدري وقد صرح ابن أبي حاتم بأنه الخدري.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق حفص بن عمر العدني عن الحكم به، وحفص ضعيف كما في التقريب.
(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن والزهري.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن الأعمش به، قال الحافظ ابن حجر: وإسناده لا بأس به (فتح الباري ٥١٠/٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه خُصيف وهو صدوق سيء الحفظ.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٧) قول أبي مالك وأبي صالح والحسن البصري أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة عنهم.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن قتادة عن الحسن البصري.

وقد روي عن ابن عباس غير ذلك، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل، أنبأنا يعلى، حدثنا سفيان العصفري، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة^(١)، وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه^(٢)، وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسي به، وهكذا رواه العوفي، عن ابن عباس ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها^(٣).

وقال محمد بن إسحاق، عن مجاهد في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مولدك بمكة^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: وقد روي عن ابن عباس ويحيى بن الجراز وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك^(٥).

وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة، فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مكة^(٦). وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم.

وقد قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: هذه مما كان ابن عباس يكتهما^(٧).

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القارئ أنه قال في قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال: إلى بيت المقدس^(٨)، وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة، لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب.

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر]، أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم^(٩)، ولهذا فسر ابن عباس

(١) أخرجه البخاري بسنده ومثنته (الصحيح، التفسير، سورة القصص باب ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص: ٨٥] الآية ح ٤٧٧٣).

(٢) السنن الكبرى، التفسير (ح ١١٣٨٦)، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري من الطريقتين والأول يقوي الثاني وهو طريق عطية العوفي.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لأن ابن إسحاق لم يسمع من مجاهد، ولم يصرح بالسماع منه، ويتقوى بما سبق.

(٥) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، ويشهد لهم ما تقدم في الصحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثنته، وسنده ضعيف لأنه معضل.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثنته، وسنده صحيح إلى قتادة ولكن ابن عباس صرح بتفسيرها إنه إلى مكة كما

تقدم في الرواية السابقة في صحيح البخاري، فعمل قتادة لم يبلغه تفسير ابن عباس ﷺ.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق حُرَيْز بن عثمان عن نعيم القارئ.

(٩) سيأتي تخريجه في تفسير سورة النصر.

تارة أخرى قوله: ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل: ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ أي: إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي: معيناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، ولكن فارقهم وناذهم وخالفهم.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُتِرْتَ بِإِلَافِكَ﴾ أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك لا تلوي على ذلك ولا تباله، فإن الله معك كلمتك ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٧﴾﴾ [الرحمن]، فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا إياه.

وقد ثبت في الصحيح من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل^(١)

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاها البخاري في صحيحه كالمقرر له^(٢).

قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل^(٣)

- (١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية (ح ٣٨٤١)، وصحيح مسلم، كتاب الشعر ح (٢٢٥٦).
- (٢) أخرجه البخاري معلقاً (الصحيح)، تفسير سورة القصص قبل حديث (٤٧٧٢)، ووصله ابن أبي حاتم من طريق خُصيف عن مجاهد، وخُصيف صدوق سيء الحفظ كما في التقريب، ووصله ابن أبي حاتم أيضاً من طريق عطاء بن مسلم الحلبي عن الثوري، وعطاء هذا: صدوق يخطئ كثيراً كما في التقريب.
- (٣) ذكره الطبري بلفظ: «واستشهدوا لتأويلهم ذلك كذلك بقول الشاعر»... فذكر الشعر.

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشرعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا عمر بن سليم الباهلي، حدثنا أبو الوليد قال: كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخبرة، فيقف على بابها فينادي بصوت حزين، فيقول أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١).

وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم، فيجزىكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والله سبحانه أعلم.
[آخر تفسير سورة القصص]^(٢).

(١) سنده ضعيف لجهالة أبي الوليد (التقريب ص ٦٨٢).

(٢) زيادة من (حم) و(ح).

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

[وهي^(١) مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَلَمْۤ اَحْسِبِ الْاِنْسَانَ اَنْ يُزَكَّرَ اَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِيْنَ ﴿٢﴾ اَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السَّيِّئٰتِ اَنْ يَّسِفُوْنَا سَآءَ مَا يَحْكُمُوْنَ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُزَكَّرُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ استفهام إنكار، ومعناه أن الله ﷻ لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمل فالأمل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء»^(٢)، وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران] ومثلها في سورة براءة. وقال في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة] ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِيْنَ﴾ ﴿٢﴾ أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله ﷻ يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣] إلا لنرى. وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١﴾ أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا﴾ أي: يفوتونا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بش ما يظنون.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعمل الصالحات ورجا ما

عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كلاماً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦﴾.

قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف^(١).

ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع برّه وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أن يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذين كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثْقَالَ دُرٍّ وَإِنَّكَ حَسَنَةٌ تُصْنَفُهَا وَيُوْفُّهُ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ٦٠﴾ [النساء] وقال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧٠﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٨١﴾.

يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْيَ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ٢٤﴾ [الإسراء] ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب؛ أي: حباً دينياً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٨١﴾.

وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: نزلت في أربع آيات، فذكر قصته وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي بشير الحلبي عن الحسن البصري.

لا أطلع طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهاً، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية^(١)، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً^(٢). وقال الترمذي: حسن صحيح.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذي يدعون الإيمان بالسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله^(٣)، وكذا قال غيره من علماء السلف^(٤)، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج].

ثم قال ﷺ: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد، وفتح ومغانم، ليقول هؤلاء لكم: إنا كنا معكم؛ أي: إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بَيْتَكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢] وقال تعالى مخبراً عنهم ههنا: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ ثم قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: وليختبرن الله الناس بالضرء والسرء، ليميز هؤلاء من هؤلاء، من يطيع الله في الضرء والسرء، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

(١) أخرجه الترمذي بسنده ومثله وتعليقه (السنن، التفسير، باب ومن سورة العنكبوت ح ٣١٨٩)، وسنده صحيح.

(٢) المسند ١/ ١٨١، وصحيح مسلم، الجهاد والسير، باب الانفال (ح ١٧٤٨/ ٣٤)، وهو طرف من حديث أطول من المذكور، وليس فيه المتن المذكور، وأخرجه أبو داود، السنن، الجهاد، باب في النفل (ح ٢٧٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٢٣٧٨)، ولفظه كلفظ مسلم.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويشهد له ما يليه.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق آدم بن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

[محمد]. وقال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الْطَيِّبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَكُمْ يَوْمَ الْفَيْكَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: أرجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ أي: وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتى، قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ نَدْعُ ثِقَلَهُ إِلَّا جَمِلَهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيَهُ حِمِيًا ﴿١٢﴾ يُصَرِّفُهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً آخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [النحل: ٢٥]، وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»^(١).

وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظملاً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَسَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون ويختلقون من البهتان. وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا [عثمان أبو حفص ابن أبي العاتكة]^(٣)، حدثني سليمان بن حبيب المحاربي، عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به، ثم قال: «إياكم والظلم، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان بن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الرحمن ﷻ، ثم يأمر المنادي فينادي: من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلهم، فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة، وقد بقي من

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٢.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٣٠.

(٣) كذا في تفسير ابن أبي حاتم هو الصواب كما في ترجمته (في تهذيب التهذيب ١٢٤/٧)، وفي الأصل صحف إلى: «عثمان بن حفص بن أبي العاملة».

أصحاب الظلمات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة، فيقول خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه» ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٤). وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا، وأخذ من مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبق له حسنة، أخذ من سيئاتهم فطرح عليه».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا أبو بشر الحذاء، عن أبي حمزة الثمالي، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه، فلا ألفينك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك» (٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾.

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكدياً له، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر، وإليه ترجع الأمور ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾ [يونس]، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم، ويجعلهم أسفل السافلين.

قال حماد بن سلمة: عن علي بن زيد، عن يوسف بن ماهك، عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا (٣).

وقال قتادة: يقال: إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، ودعاهم ثلاثمائة سنة، ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين عاماً، وهذا قول غريب، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وسنده ضعيف لضعف عثمان أبو حفص بن أبي العاتكة (ينظر تهذيب التهذيب ١٢٤/٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وسنده ضعيف لضعف أبي حمزة الثمالي واسمه: ثابت بن أبي صفية (التقريب ص ١٣٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم كلاهما من طريق حماد بن سلمة به، وسكت عنه الحاكم والذهبي (المستدرک ٥٤٥/٢)، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جعدان.

وقال عون بن أبي شداد: إن الله تعالى أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة، وهذا أيضاً غريب، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١). وقول ابن عباس أقرب، والله أعلم.

وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنبِئْنَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾ أي: الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا تلك السفينة باقية إما عينها، كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَٰهُمَّ إِنَّا جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الْفَلَاحِ الْمَشْهُورِ ۝١٤ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۝١٥ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ۝١٦ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝١٧﴾ [يس] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ ۝١٨ لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذْكِرَةً وَتَعِبَاءَ أَدْنَىٰ وَرِيعَةً ۝١٩﴾ [الحاقة] وقال ههنا: ﴿فَأَنبِئْنَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ۝٢٠﴾ وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] أي: وجعلنا نوعها رجوماً فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝٢١ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢٢﴾ [المؤمنون]، ولهذا نظائر كثيرة.

وقال ابن جرير: لو قيل إن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهاً، والله أعلم.

﴿وَأَنذَرِيهِمْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٣ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝٢٥﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوجيهه في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مسدي لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق نوح بن قيس عن عون بن أبي شداد.

(٢) سنده صحيح.

يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وإنما هي مخلوقة مثلكم، هكذا رواه العوفي عن ابن عباس^(١)، وبه قال مجاهد^(٢) والسدي.

وروى الوالي، عن ابن عباس: وتصنعون إفكاً^(٣)؛ أي: تحتونها أصناماً، وبه قال مجاهد في رواية^(٤)، وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم^(٥)، واختاره ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة]، ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١] ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً ﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ قال: يُعْزِي نَبِيَّهُ ﷺ^(٦)، وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [الكهف: ٢٤] وهكذا نص على ذلك ابن جرير^(٧) أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢١) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُ لَكُم مِّنْ أُولَٰئِكَ مَا تَأْمُرُونَ (٢٢) وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به بلفظ: «إفكاً».

(٢) أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت صحيح من طريق ابن أبي طلحة الوالي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس، وهو لم يسمع من ابن عباس.

(٥) قول قتادة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) ذكره الطبري بنحوه.

مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد، وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝﴾ أم خلقوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [الطور].

وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر مهما فعل فعديل، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم» ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝﴾ أي: ترجعون يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه فقير إليه، وهو الغني عما سواه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۝﴾ أي: جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿أُولَٰئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي: لا نصيب لهم فيها ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه شديد في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَمُنَّ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۝﴾ [الصافات] وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحوطوا حولها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن،

وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيغان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَنُوهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: سلّمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٦) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يقول لقومه مقررأ لهم وموبخأ على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع^(١)، فمعناه إنما اتخذكم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنائاً ثم ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاهدون ما كان بينكم ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن الاتباع المتبوعين، والمتبوعون الاتباع ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أَخِيهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف] وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ﴾ الآية؛ أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار وما لكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل [الأحمسي]^(٢)، حدثنا أبو عاصم الثقفي، الربيع بن [إسماعيل]^(٣)، عن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي، عن أبيه، عن جده، عن أم هانئ أخت علي ابن أبي طالب قالت: قال لي النبي ﷺ: «أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد، فمن يدري أين الطرفان؟ قالت: الله ورسوله أعلم، ثم ينادي مناد من تحت العرش: يا أهل التوحيد، فيشرئبون - قال أبو عاصم يرفعون رؤوسهم - ثم ينادي: يا أهل التوحيد، ثم ينادي الثالثة: يا أهل التوحيد، إن الله قد عفا عنكم، قال: فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا - يعني المظالم - ثم ينادي: يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض، وعلى الله الثواب»^(٤).

﴿فَأَمَّن لَّمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ وَآيَاتِنَا أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٨).

يقول تعالى مخبرأ عن إبراهيم أنه آمن له لوط، يقال إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون هو لوط بن هاران بن آزر؛ يعني: ولم يؤمن به، من قومه سواء وسارة امرأة إبراهيم الخليل، لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار

(١) القراءتان متواترتان.

(٢) كذا في (ج) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «الأحمسي».

(٣) كذا في (ج) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «سليمان».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وسنده ضعيف لأن أبا عاصم الربيع بن إسماعيل منكر الحديث كما قال أبو حاتم، (ينظر لسان الميزان ٤٤٤/٢).

فسأل إبراهيم عن سارة ما هي منه، فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأنت أختي في الدين^(١)؟ وكأن المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وأقام بها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَيْثٍ﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ على لوط. لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم.

قال ابن عباس والضحاك^(٢): وهو المكنى عنه بقوله: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ﴾ أي: من قومه، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدريّة والشرعية.

وقال قتادة: هاجروا جميعاً من كوثى، وهي من سواد الكوفة إلى الشام. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضهم، وتقذرهم روح الله ﷻ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير^(٣)»، تبيت معهم إذا باتوا، وتقبل معهم إذا قالوا، وتأكل ما سقط منهم».

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث فرواه مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن شهر بن حوشب قال: لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي، فجتته إذ جاء رجل فانتبذ الناس وعليه خميص، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فتلفظهم أرضهم تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، فتبيت معهم إذا باتوا، وتقبل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف منهم» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع - حتى عدها زيادة على عشرين^(٤) مرة - كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم»^(٥). ورواه الإمام أحمد، عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي، عن قتادة به^(٦)، وقد رواه أبو

(١) صحيح مسلم، الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (ح ٢٣٧١).

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٣) قول قتادة ذو شقين: الأول أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، والشق الثاني فيه وذكر لنا فإنه مرسل.

(٤) كذا في النسخ الخطية، وفي مسند الإمام أحمد بلفظ: «عشرة مرات».

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته مع الفرق المتقدم (المسند ٤٥٥/١١، ٤٥٦ ح ٦٨٧١)، وضعفه محققوه.

(٦) (المسند ٥٤١/١١، ٥٤٢ ح ٦٩٥٢)، وضعف سنده محققوه وذكروا لبعضه شواهد.

داود في سننه فقال في كتاب الجهاد (باب ما جاء في سكنى الشام): حدثنا عبيد الله بن عمر، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، وينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها، تلفظهم أرضهم، وتقذرهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية، عن شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، وتركتم الجهاد في سبيل الله، ليلزمكم الله مذلة في أعناقكم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه، وتتوبوا إلى الله تعالى» وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، وتلفظهم أرضهم، وتقذرهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تقيل معهم إذا قالوا، وتبيت معهم حيث يبيتون، وما سقط منهم فلها»، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يسيئون الأعمال، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد: لا أعلمه إلا قال - يحقر أحدكم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام، فإذا خرجوا فاقتلوه، ثم إذا خرجوا فاقتلوه، ثم إذا خرجوا فاقتلوه، فطوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه، كلما طلع منهم قرن قتله الله» فردّد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة وأكثر، وأنا أسمع^(٢).

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: حدثنا أبو الحسن بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا: حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الأوزاعي، عن نافع، وقال أبو النضر: عمن حدثه، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها، تلفظهم الأرضون، وتقذرهم روح الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، لها ما سقط منهم»^(٣) غريب من حديث نافع، والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء، والله أعلم. وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ.

(١) السنن (ح ٢٤٨٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتمه مقطوعاً (المسند ٩/٣٩٥ - ٣٩٨ ح ٥٥٦٢)، وقطعة محققوه إلى قسمين فضعفوا القسم الأول وذكروا له شواهد، ثم صححوا القسم الثاني وذكروا له شواهد، والسند واحد، والشواهد لمعظمه. وقال الهيثمي فيه أبو جناب الكلبي وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٥/٢٥١) وقال الحافظ ابن حجر: سنده لا بأس به (فتح الباري ١١/٣٨٠).

(٣) أخرجه البيهقي (الأسماء والصفات ٩٧١)، وضعفه الحافظ ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا أَغْرَقْنَاهُمْ وَمَا يَرْجُؤْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم] أي: أنه لما فارق قومه، أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده، وكذلك قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] أي: زيادة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: يولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقرُّ به أعينكما، وكون يعقوب ولد لإسحاق نصًّا عليه القرآن وثبتت به السُّنَّة النبوية، قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة].

وفي الصحيحين: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام»^(١).

فأما ما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال: هما ولدا إبراهيم^(٢). فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد، فإن هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَعَاقِبَتُهُ أَجْرٌ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم^(٣)، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم] أي: قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَاقِبَتُهُ أَجْرٌ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٢٥] شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [٢٦] وَعَاقِبَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَ الصَّالِحِينَ [٢٧] [النحل].

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة مريم آية ٤٩.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق علي بن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنُكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسله، ويخالفون ويقطعون السبيل؛ أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملاء، قاله مجاهد^(١).

ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، قالته عائشة رضي الله عنها^(٢) والقاسم. ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك يصدر عنهم وكانوا شراً من ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: «يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه»^(٣). ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة، عن أبي يونس القشيري، عن حاتم بن أبي صغيرة به، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير، عن عمرو بن قيس، عن الحكم، عن مجاهد ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: الصفير ولعب الحمام والجلاهق^(٥) والسؤال في المجلس، وحلّ أضرار القباء^(٦)^(٧).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

- (١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بخمسة أسانيد بعضها صحيح وبعضها دون ذلك يقوي بعضها بعضاً.
- (٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كلاهما بسند ضعيف جداً من طريق عمر بن مصعب عن عائشة، وقد ذكره العقيلي وقال الحافظ ابن حجر باطل وذلك في ترجمة عمر بن مصعب. (ينظر لسان الميزان ٤/٣٣١).
- (٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٤/٤٥٩ ح ٢٦٨٩١)، وضعف سنده محققه.
- (٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والترمذي (السنن، التفسير، باب ومن سورة العنكبوت ح ٣١٩٠)، وسنده ضعيف كسابقه لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ح ٦٢٣)، وأخرجه الحاكم من طريق حماد بن أسامة به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٠٩).
- (٥) قال في القاموس: الجلاهق - كغلايط - البندق الذي يرمى به.
- (٦) القباء: هو ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص، ويحاط بنطاق.
- (٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وسنده حسن.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَهُ يَوْمَ وَضَّافَ بِهِمْ وَضَّافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

لما استنصر لوط عليه السلام بالله ﷻ عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رآهم أنه لا همة لهم إلى الطعام، نكرهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم البشري وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظرون لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: من الهالكين، لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سِوَهُ يَوْمَ وَضَّافَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ أي: اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضيفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين بعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة متنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ لَتُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ صَاحِبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ وَبِالْبَيِّنَاتِ أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الصافات].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾ فَكَذَّبُوهُ فَخَذَّوْنَهُمْ الرِّجْعَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثِيمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

قال ابن جرير: قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر^(١)، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثم نهاهم عن العبث في الأرض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله

(١) ذكره الطبري بلفظه.

برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهاق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطه في سورة الأعراف وهود والشعراء.

وقوله: ﴿فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ قال قتادة: ميتين^(١).
وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْتٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَفَرَعُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَمْنٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثُؤَمَانٌ بِالْبَيِّنَاتِ فَلَا تُسْكِنُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى ورسوله ﷺ ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقىها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده، فيبقى بدنا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر.

﴿وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سأله سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه وتوعدهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخدمت الأصوات منهم والحركات.

﴿وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا، وعصى الربَّ الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

﴿وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ووزير هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة.

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

ثم قال: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روى ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قال: قوم لوط، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قال: قوم نوح^(١).

وهذا منقطع عن ابن عباس: فإن ابن جريج لم يدره.

ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء، وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادة: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قال قوم لوط^(٢): ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ قوم شعيب، وهذا بعيد أيضاً لما تقدم، والله أعلم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفهم ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها.

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم، إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني ابن لهيعة، عن أبي قبيل، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل^(٣).

وهذه منقبة عظيمة لعمر بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، حدثنا ابن سنان، عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾^(٤).

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به، كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كلاهما بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «قوم فرعون».

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٤١/٢٩ ح ١٧٨٠٦)، وضعف سنده محققوه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وسنده حسن.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق؛ يعني: لا على وجه العبث واللعب ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، ﴿لِيُجْزَى الَّذِينَ أَسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية.

ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات؛ أي: مواظبتها تحمل على ترك ذلك.

وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بعداً»^(١).

ذكر الآثار الواردة في ذلك:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون المخرمي الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد، حدثنا عمر بن أبي عثمان، حدثنا الحسن، عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»^(٢).

وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي، حدثنا أبو معاوية، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزد بها من الله إلا بعداً»^(٣) ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن العلاء بن المسيب، عن ذكره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر، لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً^(٥)، فهذا موقف.

قال ابن جرير: وحدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن جوير، عن الضحاك، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة» وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر^(٦).

(١) الحديث المرفوع ضعيف من الروايتين كما سيأتي تفصيله في الأحاديث الستة التالية.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وسنده ضعيف لجهالة عمر بن أبي عثمان (الجرح والتعديل ١٢٣/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف ليث وهو: ابن أبي سليم.

(٤) (المعجم الكبير ١١/٥٤ ح ١١٠٢٥) وسنده كسابقه.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإبهام شيخ العلاء بن المسيب.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف جوير والحسين وهو ابن داود، والضحاك لم يلق ابن مسعود.

قال: قال سفيان: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] قال: فقال سفيان: إي والله تأمره وتنهاه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن جوير، عن الضحاك، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ - وقال أبو خالد مرة عن عبد الله -: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر»^(١) والموقوف أصح، كما رواه الأعمش، عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قيل لعبد الله: إن فلاناً يطيل الصلاة، قال: إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا علي، حدثنا إسماعيل بن مسلم، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر، لم يزد بها من الله إلا بعداً»، والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش^(٣) وغيرهم، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، أنبأنا جرير - يعني: ابن عبد الحميد - عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أراه عن جابر، شك الأعمش، قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق. قال: «سينهأ ما تقول»^(٤).

وحدثنا محمد بن موسى الجرسى، أخبرنا زياد بن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي ﷺ بنحوه، ولم يشك، ثم قال: وهذا الحديث قد رواه عن الأعمش غير واحد، واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو غيره. وقال قيس، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال جرير وزياد، عن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، أخبرنا الأعمش، قال: أخبرنا أبو صالح، عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: «إنه سينهأ ما تقول»^(٦).

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم.

- (١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثله، وسنده ضعيف كسابقه في الكلام عن جوير والضحاك.
- (٢) أخرجه الإمام أحمد من طريق الأعمش به (الزهدي ص ١٥٩)، وسنده صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة بسند حسن من طريق شقيق عن ابن مسعود بنحوه (المصنف ٢٩٨/١٣).
- (٣) قول ابن مسعود وابن عباس والأعمش تقدم، وقول الحسن وقتادة، أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن.
- (٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٧٢١) وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢/٢٥٨) لكنه معضل فإن الأعمش لم يدرك أحداً من الصحابة، ويتقوى برواية الإمام أحمد التالية.
- (٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٧٢٢)، ويتقوى بما يليه.
- (٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٨٣/١٥ ح ٩٧٧٨)، وصححه سندته محققوه.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه^(١).

وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة، فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر^(٢).

وقال حماد بن أبي سليمان: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني: ما دمت فيها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه^(٣)، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، [وبه قال مجاهد وغيره^(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عباس^(٥) ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله عند طعامك وعند منامك، قلت: فإن صاحباً لي في المنزل يقول غير الذي تقول، قال: وأي شيء يقول؟ قلت: يقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه، قال: صدق^(٦).

قال: وحدثنا أبي، حدثنا النفيلى، حدثنا إسماعيل، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: لها وجهان، قال: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه^(٧).

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، أخبرنا هشيم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولاً عجيباً وما هو كذلك ولكنه إنما يقول ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه^(٨).

وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، وروي أيضاً عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد في تفسيره.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه آدم والطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٥) زيادة من (ح) و(حم).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثنه، وسنده ضعيف لإبهايم شيخ داود.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثنه، وسنده صحيح، وإسماعيل هو ابن علي، وخالد هو الحذاء.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومثنه، وسنده ضعيف لجهالة عبد الله بن ربيعة (التقريب ص ٣٠٢)، وأخرجه

عبد الرزاق وابن أبي حاتم من الطريق نفسه.

الفارسي وغيرهم^(١)، واختاره ابن جرير.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف^(٣).

وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين^(٣)، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤) [النحل]، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٥) [طه] وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال ويقاثلون بما يمنعهم ويردعهم، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٦) [الحديد] قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.

قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فلعلة أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل

(١) قول عبد الله بن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة بسند حسن من طريق شقيق عنه (المصنف ٢٩٨/١٣) وقول أبي الدرداء أخرجه الطبراني بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول سلمان الفارسي أخرجه الطبري بسند ضعيف لإبهام الراوي عن سلمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن الرحمن بن زيد بن أسلم..

(٤) رجحه الطبري وقول ابن زيد تقدم تخريجه في الرواية السابقة.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق خُصِيف عن مجاهد، وخُصِيف سيئ الحفظ.

الكتاب ولا تكذبوهم»، ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُمَا وَلَهُنَّكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١) وهذا الحديث تفرد به البخاري.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمرو، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني ابن أبي نملة، أن أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد هل تتكلم هذه الجنابة؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم» قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم»^(٢).

(قلت): وأبو نملة هذه هو عمارة. وقيل عمار: وقيل عمرو بن معاذ بن زراراة الأنصاري رضي الله عنه. ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً.

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عاصم، أخبرنا سفیان، عن سليمان بن عامر، عن عمارة بن عمير، عن حريث بن ظهير، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال^(٣).

وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن [عبيد الله بن عبد الله]^(٤)، عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا وغيروا وكتبوا بأيديكم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(٥).

وقال البخاري: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني [حميد بن عبد الرحمن]^(٦) أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا - مع ذلك - لنبلو عليه الكذب^(٧).

(١) أخرجه البخاري بسنده ولفظه باختصار الآية (الصحيح، التفسير، سورة البقرة) باب ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] (ح ٤٤٨٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٣٦/٤)، وفي سننه ابن أبي نملة مقبول كما في التقريب، وأخرجه أبو داود (السنن، العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب ح ٣٦٤٤) من طريق الزهري به ولم يذكره الألباني في صحيح سنن أبي داود، والشرط الثاني من الحديث يتقوى بسابقه في صحيح البخاري.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وسنده ضعيف لجهالة حريث بن ظهير (التقريب ص ١٥٦).

(٤) كذا في صحيح البخاري وفي الأصل: (ح) و(حم) و(مع) صحف إلى: «عبد الله بن عبد الله».

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، الإعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء» ح ٧٣٦٣).

(٦) كذا في (ح) و(حم) وصحيح البخاري، وفي الأصل حُرف إلى: عبيد بن عبد الرحمن.

(٧) أخرجه البخاري بسنده ومثله (المصدر السابق ح ٧٣٦١).

(قلت): معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيم، ومع ذلك وقرب العهد، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله ﷻ، ومن منحه الله تعالى علماً بذلك كل بحسبه، والله الحمد والمنة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قال ابن جرير: يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وهذا الذي قاله حسن ومناسبه وارتباطه جيد^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء، وكعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني: العرب من قريش وغيرهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيئات.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفة في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرأ ولا حرفاً بيده، بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه ﷺ كتب يوم الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: ثم أخذ فكتب. وهذه محمولة على الرواية الأخرى: ثم أمر فكتب. ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم، وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيما يظهر عنه^(٢)، أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال ﷺ إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه كافر»^(٣) وفي رواية: «ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن»^(٤).

(١) ذكره الطبري بلفظه.

(٢) ذكر الحافظ رأي الباجي وبعض الأناشيد. (ينظر فتح الباري ٥٠٣/٧).

(٣) أخرجه البخاري من حديث أنس ؓ (الصحيح، الفتن، باب ذكر الدجال ح ٧١٣١).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أنس ؓ (الصحيح، الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ح ٢٩٣٣).

وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل^(١) له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا﴾ أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَحْطُوا بِيَمِينِكُمْ﴾، تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزْ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمَطْلُونُ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا: ذلك مع علمهم بأنه أُمِّي لا يحسن الكتابة ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كَتَبَهَا فِيهِ تَمَلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٦﴾ [الفرقان]، وقال ههنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً، يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿٧﴾ [القمر].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً»^(٢).

وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم يقول الله تعالى: «إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً»^(٣) أي: لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل، لأنه قد جاء من الحديث الآخر: «لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار»^(٤)، ولأنه محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذا الأمة أناجيلهم في صدورهم.

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً، ولا تخطه يمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، ونقله عن قتادة وابن جريج^(٥)، وحكي الأول، عن الحسن البصري فقط^(٦).

قلت: وهو الذي رواه العوفي، عن ابن عباس^(٧)، وقاله الضحاك^(٨) وهو الأظهر والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون؛ أي: المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

(١) عزاه الحافظ ابن حجر إلى ابن أبي شيبة وعمر بن شبة وضعف سنده لأنه مرسل. (ينظر فتح الباري ٥٤/٧).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الرعد آية ٣١.

(٣) أخرجه مسلم (الصحيح، الجنة، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ح ٢٨٦٥).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (المسند ١٥١/٤) وسنده حسن.

(٥) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود وهو ضعيف.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ [يونس].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات، يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا تُدَوِّدُ النَّفَاةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقولهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبا ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا بِحَيْثُ تُرْسِلُ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١) أخرجاه من حديث الليث^(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذا القرآن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢/ ٢٤١) وسنده صحيح.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير الآية ٤٩ من هذه السورة الكريمة.

لرحمة؛ أي: بياناً للحق وإزاحة للباطل، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِدًا﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ﴾ (٤٤) ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦) ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَمٍّ عَنْهُ حَبْرِينَ﴾ (٤٧) [الحاقة] وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ مُرِّ الْعَذَابِ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٢) ﴿يَسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) ﴿يَوْمَ يَفْسُخُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٥).

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحلّ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مَا ظَهَرَ عَلَيْنَا مِنْ جَزَاءٍ مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ آثِنَةٍ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) [الأنفال] وقال ههنا: ﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ مُرِّ الْعَذَابِ﴾ أي: لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٢) ﴿يَسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) أي: يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

قال شعبة: عن سماك، عن عكرمة: قال في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال: البحر^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد، حدثنا أبي، عن مجالد، عن الشعبي أنه سمع ابن عباس يقول: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنثر الكواكب فيه، وتكور فيه الشمس والقمر، ثم يوقد فيكون هو جهنم^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم، أخبرنا عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حبي، أخبرني صفوان بن يعلى، عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «البحر هو جهنم» قالوا ليعلى: فقال: ألا ترون أن الله تعالى يقول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ سَاقِطٍ عَلَيْهَا﴾ [الكهف: ٢٩] قال: لا والذي نفس يعلى

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من شعبة به.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسنده ومثته، وسنده ضعيف جداً لأن عمر بن إسماعيل بن مجالد، متروك (التقريب ص ٤١٠).

بيده، لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله تعالى^(١)، هذا تفسير غريب، وحديث غريب جداً، والله أعلم.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩] فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ دُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ٥٨ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدْرِ ٥٩﴾ [القمر] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ٦٢﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تُكْذِبُونَ ﴿٦٣﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٤﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ [الطور].

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ٥١ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ٥٧ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ﴾ ٥٨ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ٥٩ ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٦٠.

هذا أمر من الله تعالى المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدر على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ٥١.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني جبير بن عمرو القرشي، حدثني أبو سعد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام، عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فاقم»^(٢).

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فأواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سيوماً^(٣) ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابه الباقيون إلى المدينة النبوية يشرب المطهرة.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ٥٧ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووفاه أتم الثواب ولهذا قال

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٩/٤٧٨ ح ٧٩٦٠)، وضعف سنده محققوه لجهالة محمد بن حبي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٣٧ ح ١٤٢٠)، وضعف سنده محققوه لوجود ثلاثة مجاهيل.

(٣) أي: آمنين وهي كلمة حبشية وتروى بفتح السين، وقيل سيوم: دمع سائم أي: تسومون في بلدي كالغنائم السائمة لا يعارضكم أحد (النهاية ٣/٤٣٤، ٤٣٥).

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً لا يبعثون عنها حولاً ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على دينهم. وهاجروا إلى الله وناذبوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي، أخبرنا صفوان المؤذن، أخبرنا الوليد بن مسلم، أخبرنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام الأسود، حدثني أبو معاوية الأشعري، أن أبا مالك الأشعري حدثه، أن رسول الله ﷺ، حدثه أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام^(١).

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي، حدثنا يزيد يعني: ابن هارون، حدثنا الجراح بن منهال الجزري - هو أبو العطوف -، عن الزهري، عن رجل، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟» قال: قلت: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: «لكني أشتهيه، وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبثون رزق ستهم بضعف اليقين؟» قال: فوالله ما برحنا ولا رما حتى نزلت ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية، فإن الحياة بيد الله، ألا وإنني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد^(٢). هذا حديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف، وقد ذكروا أن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن معانق أو أبي معانق عن أبي مالك الأشعري به (المسند ٣٧/٥٣٩ ح ٢٢٩٠٥)، وقال محققوه: إسناده حسن إن كان ابن معانق سمعه من أبي مالك. اهـ. ويتقوى بمتابعة أبي معاوية الأشعري المتقدمة، وله شاهد أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (المسند ٢/١٧٣)، وبمجموع طرقه يكون حسناً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عمر رضي الله عنه. وضعف سنده الحافظ ابن كثير لضعف أبي العطوف.

الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياماً حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيراً صغاراً كالبرغش^(١)، فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رآوه أبيض الريش نفرا عنه، فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالحضانة والرزق، ولهذا قال الشاعر:

يا رازق النعاب^(٢) في عشه وجابر العظم الكسير المهيض^(٣)

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر كقوله النبي ﷺ: «سافروا تصحوا وترزقوا»^(٤).

قال البيهقي: أخبرنا إملاء أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد، أخبرنا محمد بن غالب، حدثني محمد بن سنان، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن [رداد]^(٥) شيخ من أهل المدينة، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا تصحوا وتغنموا»^(٦) قال: ورويناه عن ابن عباس^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، أخبرنا ابن لهيعة، عن دراج، عن عبد الرحمن بن حجية، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا»^(٨) وقد ورد مثل حديث ابن عمر، عن ابن عباس مرفوعاً، وعن معاذ بن جبل موقوفاً، وفي لفظ: «سافروا مع ذوي الجد والميسرة»^(٩) قال: ورويناه عن ابن عباس.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُوقُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَآخِيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

يقول تعالى مقررّاً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، فتفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير وهو العليم بما يصلح كلاً منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد

(١) البرغش: البعوض اللساع.

(٢) أي: فرخ الغراب.

(٣) أي: المكسور بعدما كاد ينجر.

(٤) سيأتي تخريجه وضعفه في الرواية التالية.

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «رداد».

(٦) أخرجه البيهقي (السنن الكبرى ١٠٢/٧) قال ابن أبي حاتم عن أبيه: هذا حديث منكر (العلل ٣٠٦/٢).

(٧) أخرجه ابن عدي بسند فيه نهشل بن سعيد وهو متروك. (الكامل في الضعفاء ٢٥٢١/٧).

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده بلفظ: «واغزوا تستغنوا». (المستد ٥٠٧/١٤ ح ٨٩٤٥) وضعف سنده محققوه.

(٩) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٣٣٨٧) من حديث معاذ رضي الله عنه وسنده ضعيف أيضاً فيه إسماعيل بن زياد

وهو ضعيف وضعف سنده السيوطي والمناوي كما في فيض القدير شرح الجامع الصغير، ٨٣، ٨٢/٤.

الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ تَحْصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْتَهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ تَحْصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا بَجَّهْتُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل، أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربهم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد، فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك^(١).

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْتَهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة، لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا﴾ [القصص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمة الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا آلْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

(١) سنده ضعيف للانقطاع بين ابن إسحاق وعكرمة، ويتقوى بما تقدم في تفسير سورة الإسراء آية ٦٧ فقد صحت القصة.

وقوله تعالى: ﴿أَفِإِذَا بَطُلَ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد و﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] وكفروا بنبي الله وعبدوه ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وأن لا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقتلوه، وأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيدر، ثم صارت الدولة^(١) لله ولسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم أنافهم وأذل رقابهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء. ومن قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني: الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ أي: لنبصرنهم سبلنا؛ أي: طرقتنا في الدنيا والآخرة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان الداراني، فأعجبه وقال: ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمد الله حتى وافق ما في نفسه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الري، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن المغيرة، عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك^(٢)، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة العنكبوت. والله الحمد والمنة]^(٣).

(١) الدولة: الغلبة.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم الروائين، وسند الثانية مرسل، لأن ما يروى عن الأنبياء لا بد أن يكون بحديث مرفوع أوله حكم الرفع.

(٣) زيادة من (مح).

سُورَةُ الرُّومِ [وهي^(١) مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ ۝

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم. واضطره هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق، عن سفيان، عن حبيب بن أبي عمرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴿٣﴾ قال: غُلِبَتْ وَعُغِبَتْ، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال: «ألا جعلتها إلى دون - أراه قال: العشر -» قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد قال: فذلك قوله: ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴿٢﴾ هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن الحسين بن حريث، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن سفيان بن سعيد الثوري به. وقال الترمذي: حسن غريب إنما نعرفه من حديث سفيان، عن حبيب^(٣)، ورواه ابن أبي حاتم، عن

(١) زيادة من (حم).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٩٦/٤ - ٢٩٧ ح ٢٤٩٥)، وصححه سننه محققوه.

(٣) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الروم (ح ٣١٩٣)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح ١١٣٨٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٥٥١).

محمد بن إسحاق الصاгани، عن معاوية بن عمرو به، ورواه ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن سعيد أبو سعيد [الثعلبي]^(١) الذي يقال له أبو سعد من أهل طرسوس، حدثنا أبو إسحاق الفزاري فذكره، وعندهم قال سفيان: فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر^(٢).

حديث آخر: قال سليمان بن مهران الأعمش: عن مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: خمس قد مضين، الدخان، واللزام، والبطشة، والقمر، والروم، أخرجه^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن عامر - هو الشعبي -، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان فارس ظاهراً على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم. وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم، فلما نزلت ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا فَاسْتَأْذِنُوا فِي الْأَرْضِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٤) قالوا: يا أبا بكر إن صاحبك يقول إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق. قالوا: هل لك أن نقامر؟ فبايعوه على أربع قلائص^(٥) إلى سبع سنين، فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك، وشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ما بضع سنين عندك؟» قالوا: دون العشر. قال: «أذهب فزايدهم، وازدد سنتين في الأجل» قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا فَاسْتَأْذِنُوا فِي الْأَرْضِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٦) إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلَفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾^(٧).

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي، حدثنا مؤمل، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا فَاسْتَأْذِنُوا فِي الْأَرْضِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٨) قال المشركون لأبي بكر: ألا ترى إلى ما يقول صاحبك يزعم أن الروم تغلب فارس؟ قال: صدق صاحبي. قالوا: هل لك أن نخاطرك^(٩)؟ فجعل بينه وبينهم أجلاً، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فساء ذلك وكرهه، وقال لأبي بكر: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقاً لله ولرسوله. قال: «تعرض لهم وأعظم الخطر واجعله إلى بضع سنين» فأتاهم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العود، فإن العود أحمد؟ قالوا: نعم، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس، وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية، فجاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هذا السحت، قال: «تصدق به»^(١٠).

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي

(١) كذا في (حم) و(ح) وتفسير الطبري، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «الثعلبي».

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وحكمه كسابقه. وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الشيخان من طريق الأعمش به. (صحيح البخاري، التفسير، سورة الدخان ح ٤٧٦٧، وصحيح مسلم، صفة القيامة والجنة، باب الدخان ح ٢٧٩٨).

(٤) أي: أربع من الإبل الشابة.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال ويتقوى بالروايات التالية.

(٦) أي: نراهنك (ينظر لسان العرب ٢٥١/٤). (٧) سنده حسن.

أويس، أخبرني ابن أبي الزناد، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ مَكِيدُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب، ولا إيمان بيعت، فلما أنزل الله هذه الآية، خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ مَكِيدُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلاك نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه؟ قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت ست السنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس: فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله قال في بضع سنين، قال: فأسلم عند ذلك ناس كثير. هكذا ساقه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد^(١).

وقد روي نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري وغيرهم^(٢)، ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود في تفسيره حيث قال: حدثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كان في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشير علي أيهم أستعمل؟! فقالت: هذا فلان وهو أروغ من ثعلب، وأحذر من صقر، وهذا فرخان وهو أنفذ من سنان، وهذا شهريراز وهو أحلم من كذا، تعني أولادها الثلاثة، فاستعمل أيهم شئت، قال: فإني قد استعملت الحلیم، فاستعمل شهريراز، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر عليهم فقتلهم وخرب مدائنهم، وقطع زيتونهم، قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال: أما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا، قال: أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت والزيتون الذي قطع، فأتيت الشام بعد ذلك فرأيتها. قال عطاء الخراساني: حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلاً يدعى قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز فالتقى بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إليكم، فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس، وفرحت بذلك كفار قريش، وكرهه المسلمون، قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخوانكم من أهل فارس على إخواننا من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم،

(١) أخرجه الترمذي بسنده ومتمه وتعليقه (السنن، التفسير باب ومن سورة الروم ح ٣١٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٥٥٢).

(٢) معظم هذه المراسيل أخرجه الطبري وهي تشد بعضها بعضاً وتتقوى بما سبق.

وسنید فیہ مقال، وضعفہ متہ الحافظ ابن کثیر۔

ولنتكلم عن كلمات هذه الآيات الكريمة، فقله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محارب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له قيصر، فكان أول من دخل في دين النصراني من الملوك قسطنطين ابن [قسطنس]^(١) وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض حرّان، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً فتابعها، يقال: تقيّة^(٢)، واجتمعت به النصراني وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً متشراً متشتتاً لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيروا دين المسيح ﷺ، وزادوا فيه ونقصوا منه، فصلوا إلى المشرق، واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير، واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعائين^(٣)، وجعلوا له الباب، وهو كبيرهم، ثم البتاركة، ثم المطارنة، ثم الأساقفة والقساوسة، ثم الشماسية، وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية. يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاث محاريب، وبنى أمه القمامة، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك.

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف، ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة»^(٤) والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل، وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهامهم، وأبعدهم غوراً، وأقصاهم رأياً، فتملك عليهم في رئاسة عظيمة وأبهة كبيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والريّ وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رئاسة العجم، وحماقة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار.

فتقدم عن عكرمة أنه: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده، فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة، حتى ضاقت عليه، وكانت النصراني تعظمه تعظيماً زائداً، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «قيطس». (٢) أي: حذراً.

(٣) الشعائين: عيد النصراني يقع يوم الأحد السابق لعيد الفصح، يحتفل فيه بذكرى دخول المسيح بيت المقدس.

(٤) أخرجه أبو داود من حديث عوف بن مالك ؓ. (السنن، السنة، باب شرح السنة ح ٤٥٩٦)، وقال الألباني: حسن صحيح. (صحيح سنن أبي داود ح ٣٨٤٢).

أمكنه ذلك لحصانتها لأن نصفها من ناحية البر، ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيمهم الميرة والمدد من هنالك، فلما طال الأمر، دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه ويشترط عليه ما شاء، فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية فجمع أهل ملته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول، فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها، فأنتم بالخيار: إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة^(١) في جيش متوسط هذا، وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة أولاً فأولاً، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأس ولده وركبه على حماره، وبعث معه من الأساورة^(٢) من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذ، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصىه إلا الله تعالى، واشتد حنقه على البلد، فاشتد في حصارها بكل ممكن، فلم يقدر على ذلك، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون^(٣) التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علم قيصر بذلك، احتال بحيلة عظيمة، لم يسبق إليها وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبر والروث، فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً، ثم أمر باللقاء تلك الأحمال في النهر، فلما مرت بكسرى ظن وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض، فخاضوا وأسرعوا السير، ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية، فكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصاري، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون، لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادهم قد خربتها الروم، وأخذوا حواصلهم، وسبوا ذراريهم، ونساءهم، فكان هذا من غلب الروم لفارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم، وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز^(٤).

وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم.

(٢) أي: الفرسان.

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

(٣) أي: نهر جيحون.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود وهو ضعيف.

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع، فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع، وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وغيرهما من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مناجاة^(١): ﴿اللَّهُ ۖ غُلِبَتِ الرُّومُ ۖ﴾ الآية: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟» ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه^(٢). وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو أنه قال ذلك^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبني على الضم لما قطع المضاف، وهو قوله قبل عن الإضافة ونويت.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى، وهم المجوس، وكانت نصره الروم على فارس يوم وقعة بدر في قوله طائفة كثيرة من العلماء، كابن عباس والثوري والسدي^(٤) وغيرهم.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبخاري من حديث الأعمش عن عطية، عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم علي فارس، فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به، وأنزل الله ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ينصرون الله ينصرون من يشاء وهو العكز الرجم^(٥).

وقال الآخرون: بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية، قاله عكرمة والزهري وقتادة وغير واحد^(٦).

ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا وهو بيت المقدس، شكراً لله تعالى ففعل، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية بن خليفة، فأعطاه دحية لعظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كبار قريش، وكانوا بغزة، فجاء بهم إليه فجلسوا بين يديه. فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا، فقال لأصحابه وأجلسهم خلفه: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذب فكذبوه، فقال أبو سفيان،

(١) أي: مراعاة.

(٢) أخرجه الطبري والترمذي من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي به، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ح ٦٢٤).

(٣) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٤) تقدم تخريجه في بداية تفسير الآية.

(٥) أخرجه الترمذي (السنن، التفسير، باب ومن سورة الروم ح ٣١٩٢)، والطبري، وفي سنده عطية وهو العوفي وفيه مقال ويتقوى بما سبق من الروايات في بداية تفسير الآية ولهذا قال الألباني صحيح بما بعده (صحيح سنن الترمذي ح ٢٥٥٠).

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وقول الزهري عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

فوالله لولا أن يأتروا عليّ الكذب لكذبت، فسأله هرقل عن نسبه وصفته، فكان فيما سأله أن قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها^(١)؛ يعني: بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية، لأن قيصر إنما وفي بنذره بعد الحديبية، والله أعلم.

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي له إصلاحه وتفقده بلاده، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفي بنذره، والله أعلم، والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس، فرح المؤمنون بذلك، لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَتِيلَتَيْنِ مِنْهُمْ قَتِيلَتَيْنِ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٧) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾ [المائدة]. وقال تعالى ههنا: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّ الْمُؤْمِنُونَ بِإِنِّهِمْ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالرَّحِيمِ﴾ (٩٠).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثني أسيد الكلابي قال: سمعت العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه قال: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس ثم رأيت غلبة المسلمين فارس، والروم كل ذلك في خمس عشرة سنة^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَعْيُنِهِمْ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالرَّحِيمِ﴾ بعباده المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أننا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق، وخبر صدق لا يخلف ولا بد من كونه ووقوعه، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بحكم الله في كونه، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧) أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة.

قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أن يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي^(٣).

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس ؓ (الصحيح، بدء الوحي باب رقم ٦ ح ٧).

(٢) في متنه نكارة إذ خالف ما تقدم من الروايات الصحيحة بأن البضع ما بين ثلاث إلى تسع.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفَلُونَ﴾ (٧) يعني: الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال^(١).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٨) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوءَاتِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠).

يقول تعالى منبهاً على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة، فاعلموا أنها ما خلقت سدىً ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه وعمرها فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أجل بهم من العذاب والنكال ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوءَاتِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠)، كما قال تعالى: ﴿وَنَقْلُبُ أَقْدَارَهُمْ وَنَصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَعَلَّمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] وعلى هذا تكون السوأي منصوبة مفعولاً لأسأوا، وقيل: بل المعنى في ذلك ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوءَاتِ﴾ أي: كانت السوأي عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأي منصوبة خبر كان، هذا توجيه ابن جرير، ونقله عن ابن عباس وقتادة^(٢)، ورواه ابن أبي حاتم

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

عنهما، وعن الضحاك بن مزاحم^(١)، وهو الظاهر - والله أعلم - [لقوله]^(٢) ﴿وَكَاثُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفَرِّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦).

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله. ثم قال: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢).

قال ابن عباس: يبأس المجرمون^(٣).

وقال مجاهد: يفتضح المجرمون^(٤)، وفي رواية يكتب المجرمون^(٥) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفَرِّقُونَ﴾ (١٤) قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها^(٦)؛ يعني: أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥). قال مجاهد وقاتدة: ينعمون^(٧).

وقال يحيى بن أبي كثير: يعني سماع الغناء والحبرة أعم من هذا كله^(٨)، قال العجاج:

الحمد لله الذي أعطى الحبر^(٩) موالى الحق^(١٠) إن المولى شكر^(١١)

﴿فَسَبَّحَنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩).

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس والضحاك وقاتدة.

(٢) زيادة من (ح) و(حم).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والفريابي (ينظر تغليق التعليق ٢٧٩/٤)، والطبري كلهم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٨) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً. (٩) أي: السرور.

(١٠) أي: أولياء الحق.

(١١) استشهد به الطبري، والبيت في ديوان العجاج ص ٤.

المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه. ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض.

ثم قال تعالى: ﴿وَعِشْيَا وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام، والإظهار قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا، فائق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا (١) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٢)﴾ [الشمس]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (٣) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٤)﴾ [الليل]، وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَى (٥) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٦)﴾ [الضحى] والآيات في هذا كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا [زبان] (١) بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم لم سَمَّى الله إبراهيم خليله الذي وفي؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون» (٢).

وقال الطبراني: حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، عن سعيد بن بشير، عن محمد بن عبد الرحمن بن [البيلماني] (٣)، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «ومن قال حين يصبح ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (٧)﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِشْيَا وَحِينَ تَظْهَرُونَ (٨)﴾، الآية بكمالها أدرك ما فاته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته» (٤). إسناده جيد ورواه أبو داود في سننه (٥).

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣١)﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٢)﴾ [يسر]، وقال: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢)﴾ [الحج] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(١) كذا في (ح) و(حم) والمسند، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «ريان».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٨٨/٢٤ ح ١٥٦٢٤) وضعف سننه محققوه.

(٣) كذا في (ح) و(حم) والمعجم الكبير للطبراني، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «السلماي».

(٤) المعجم الكبير (٢٣٩/١٢)، وسنده ضعيف لضعف سعيد بن بشير ومحمد بن عبد الرحمن البيلماني، ولعل الحافظ ابن كثير جود سننه سابقة.

(٥) سنن أبي داود، الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (ح ٥٠٧٦)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَفَّالًا سُقْنَهُ لِّلْكَرِّ مَتَّيْتٌ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ [الأعراف]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تَخْرُجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقه ثم مضغة، ثم صار عظاماً مشكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قالوا: حدثنا عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك»^(١) ورواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إنثاءً يكن لكم أزواجاً ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الإثتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهنَّ ﴿مَوَدَّةً﴾ وهي: المحبة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ وهي: الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إنما لمحبتته لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٢/٣٥٣ ح ١٩٥٨٢)، وصححه سننه محققوه.

(٢) سنن أبي داود، السنة، باب في القدر ٤٦٩٤، وسنن الترمذي، التفسير، سورة البقرة (ح ٢٩٩٥).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ السَّيِّئَاتِ وَالْوَنُكْرُ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾
 ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وسقوف أجرامها، وزهرة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية وبحار، وقفار وحيوان وأشجار.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء فرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم وهي حُلاهم، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب. وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار وهذا ضد النوم ﴿إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يعون.

قال الطبراني: حدثنا حجاج بن عمران السدوسي، حدثنا عمرو بن الحصين العقبلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن علاثة، حدثنا ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أصابني أرق من الليل، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، يا حي يا قيوم، أنم عيني وأهدئ ليلي» فقلتها، فذهب عني ^(١).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
 ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢٤/٥ (ح ٤٨١٧)، وسنده ضعيف، قال ابن عدي: تفرد به عمرو بن الحصين وهو مظلم الحديث (الكامل ١٧٩٩/٥).

أي: بعد ما كانت هامة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء ﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين يقول: لا والذي تقوم السماء والأرض بأمره؛ أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِمْ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥١﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَاحِدَةً ۝٥٢﴾ فإذا هم بالسَّاهِرَةِ ۝٥٣﴾ [النازعات] وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٤﴾ [يس].

﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَمْ قَنِئُونَ ۝٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥٧﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبيده ﴿كُلٌّ لَمْ قَنِئُونَ﴾ أي: خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً.

وفي حديث دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد مرفوعاً «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة»^(١).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني أيسر عليه^(٢).

وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هيّن^(٣). وكذا قال عكرمة^(٤) وغيره.

وروى البخاري: حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال الله كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوله لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوله اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٥) انفراد

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١١٦.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سماك عن عكرمة.

(٥) أخرجه البخاري بسنده بلفظ: «لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد»، (الصحيح، التفسير، سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] ح ٤٩٧٤).

بإخراجه البخاري، كما انفرد بروايته أيضاً من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة به^(١). وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة: حدثنا أبو يونس سليم بن جبير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله^(٢).

وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء.

وقال العوفي عن ابن عباس: كل عليه هين^(٣)، وكذا قاله الربيع بن خثيم^(٤)، ومال إليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة، قال: ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخلق؛ أي: وهو أهون على الخلق.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٥) [الشورى: ١١].

وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره^(٦)، وقال مثل هذا ابن جرير، وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إذا سكن الغدير على صفاء وجُنِبَ أن يحركه النسيم
تري فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلي يُرى في صفوها الله العظيم
وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، الحكيم في أقواله وأفعاله شرعاً وقدرًا.

وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله^(٧).

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنَ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا في تلبيتهم يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك^(٨). فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ

(١) المصدر السابق (ح ٤٩٧٥).

(٢) المسند ٣٥٠/٢، وفي سنده ابن لهيعة ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ومعناه صحيح.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن منذر الثوري عن الربيع بن خثيم.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) سنده صحيح ويؤيد قول قتادة. (٨) سيأتي تخريجه في الحديث التالي.

فِيهِ سَوَاءٌ أَي: لا يرتضي أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: تخافون أن يقاسموكم الأموال.

قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له^(١)، والمعنى إن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون الله الأنداد من خلقه؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] أَي: من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بشر ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿يَتَوَزَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ أَثَرٌ بِدُسْهِ فِي الرَّأْيِ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] فهم يأنفون من البنات، وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر، وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقته، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال الطبراني: حدثنا محمود بن الفرج الأصفهاني، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي، حدثنا حماد بن شعيب، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فأنزل الله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢).

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿فَنَسِيَ بَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أَي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَنْصِيرٍ﴾ أَي: ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مُجِير ولا مُحِيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَاقْنِي وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مُذِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْباً كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

يقول تعالى: فسدد وجهك على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عمران، وهو ابن حدير السدوسي البصري (ينظر تهذيب التهذيب ٨/ ١٢٥)، عن أبي مجلز.

(٢) (المعجم الكبير ١٢/ ٢٠ ح ١٢٣٤٨)، وسنده ضعيف لضعف حماد بن شعيب (مجمع الزوائد ٣/ ٢٢٣).

تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ الَّتِي بَرَّيْتُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وفي الحديث: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشياطين عن دينهم»^(١).

وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طراً على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَاقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وهو معنى حسن صحيح.

وقال آخرون: هو خبر على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك. ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبيرة ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد في قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَاقِ اللَّهِ﴾ لدين الله^(٢).

وقال البخاري: قوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَاقِ اللَّهِ﴾ لدين الله^(٣)، خلق الأولين دين الأولين، الدين والفطرة الإسلام.

حدثنا عبدان: أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول: ﴿فَفَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِحَاقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي الْقَيْمُ﴾^(٤). ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري به^(٥)، وأخرجاه أيضاً من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ^(٦). وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة، فمنهم الأسود بن سريع التميمي.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن، عن الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبحت ظهراً، فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان، فبلغ ذلك

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٧٢.

(٢) قول ابن عباس عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وقول إبراهيم النخعي أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق مغيرة عنه، وقول سعيد بن جبيرة أخرجه الطبري بسند فيه ابن وكيع ويتقوى بالسابق واللاحق، وقول مجاهد أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بأسانيد يقوى بعضها بعضاً، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جوير عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) أخرجه البخاري في بداية الحديث التالي، ويشهد له ما سبق.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، سورة الروم، باب ﴿لَا يَبْدِيلُ لِحَاقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠ ح ٤٧٧٥].

(٥) صحيح مسلم، القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (ح ٢٦٥٨).

(٦) تقدم في تفسير سورة النساء آية ١١٩.

رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله إنما هم أبناء المشركين؟ فقال: «ألا إنما خياركم أبناء المشركين، ثم قال: لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية، وقال: كل نسمة تولد على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها»^(١). ورواه النسائي في كتاب السير عن زياد بن أيوب، عن هشيم، عن يونس وهو ابن عبيد بن الحسن البصري به^(٢).

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري. قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، [حدثنا]^(٣) أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً»^(٤).

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم»^(٥). أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس الشكري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك^(٦).

وقد قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد؛ يعني: ابن سلمة، أنبأنا عمار بن أبي عمار، عن ابن عباس قال: أتى عليّ زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين، حتى حدثني فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عنهم، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». قال: فلقيت الرجل فأخبرني، فأمسكت عن قولي^(٧).

ومنهم عياض بن حمار المجاشعي. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن مطرف، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم، فقال في خطبته: «إن ربي ﷻ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأفصلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله ﷻ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان: ثم إن الله أمرني أن أحرق قریشاً، فقلت: يا ربّ إذاً يثلغ^(٨) رأسي فيدعه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق عليهم فسنفق عليك، وابعث جيشاً نبعت خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بلفظ: «ألا لا تقتلوا الذرية». (المسند ٢٤/٣٥٦ - ٣٥٧ ح ١٥٥٨٩) قال محققوه: رجاله ثقات، لكن سماع الحسن من الأسود بن سريع لا يثبت عند بعضهم. اهـ. وأخرجه الحاكم من طريق يونس به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/١٢٣) وقد صرح الحسن البصري بالتحديث عن الأسود في رواية الحاكم، من أجل ذلك صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ٤٠٢).

(٢) (السنن الكبرى ح ٨٦١٦).

(٣) سقط في الأصل واستدرک من (ح) و(حم) ومسند الإمام أحمد.

(٤) (المسند ٣/٣٥٣) وسنده ضعيف لأن أبا جعفر وهو الرازي سيئ الحفظ.

(٥) (المسند ١/٣٢٨) وسنده صحيح. (٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ١٥.

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ١٥.

(٨) الثَّلَغ: الشدخ، وقيل: هو ضربك الشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشدخ.

عصاك، قال: وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، ورجل غفيف فقير متصدق وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر^(١) له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إخائه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلِكَ ومالك^(٢) وذكر البخيل أو الكذاب، والشنظير: الفحاش^(٣). انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من طرق عن قتادة به^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَيْتُمْ﴾ أي: التمسك بالشرعة والفطرة السلية هو الدين القيم المستقيم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خِضَلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد وابن جريج: أي: راجعين إليه^(٥).
﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يوسف بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مريم قال: مرَّ عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت.

حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، حدثنا أيوب، عن [أبي قلابة]^(٥) أن عمر رضي الله عنه قال لمعاذ: ما قوام هذا الأمر؟ فذكر نحوه^(٦).

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ جَزِئٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم؛ أي: بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقرأ بعضهم: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ فارقوا^(٧) دينهم؛ أي: تركوه وراء ظهورهم، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبداء الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. فاهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول

(١) الزبر: العقل والرأي.

(٢) (المسند ٤/١٦٢) وسنده صحيح.

(٣) صحيح مسلم، الجنة وصفه نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (ح ٢٨٦٥).

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأخرجه بسند ضعيف، فيه الحسين بن داود وهو ضعيف، عن ابن جريج.

(٥) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «أبي ذلامه».

(٦) أخرجهما الطبري بسنديهما وهذان السندان يقوي أحدهما الآخر.

(٧) وهي قراءة متواترة.

من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧).

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الإضطراب يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره. وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون؟ ثم قال: منكرأ على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾، وهذا استفهام إنكار؛ أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣٦) هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر. وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّْي إِنَّهُمْ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] أي: صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء. كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَسِيرَ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَٰ يَبْرَأُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ ذَكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠).

يقول تعالى أمراً بإعطاء ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي: من البر والصلة، ﴿وَالْيَسِيرَ﴾ وهو الذي لا

(١) أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ؓ وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/١٢٩)، وحسنه الحافظ ابن حجر، (الكافي الشاق في تخريج أحاديث الكشاف ص ٦٣).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٥٣.

شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفائته، ﴿وَأَنَّ السَّيْلَ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله، بهذا فسر ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبي^(١)، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا تَسْتَكْثِرُوا﴾ [المذثر] أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه^(٢).

وقال ابن عباس: الربا رباؤه: فربا لا يصح؛ يعني: ربا البيع؟ وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها، وأضعافها، ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣). وإنما الثواب عند الله في الزكاة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن ذَّكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء. كما جاء في الصحيح: «وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيرببها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد»^(٤).

وقوله ﷺ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرزاق، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوة، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأموال والمكاسب. كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سلام أبي شريحيل، عن حبة وسواء ابني خالد قالوا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعنناه، فقال: «لا تياسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ﷻ»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُيَسِّتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة، ﴿ثُمَّ يُخَيِّكُم﴾ أي: يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ مِّن شَيْءٍ؟﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿سُبْحَنَهُ

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويشهد له ما يليه.

وقول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق والبيهقي بسند حسن من طريق عبد العزيز بن أبي رواد عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٢) عزاه السيوطي إلى الفريابي وابن أبي شيبه والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك، وأخرجه الطبري عن الضحاك مختصراً، وسنده ضعيف معضل لأن الضحاك وهو ابن مزاحم: تابع تابعي.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم دون ذكر تلاوة الآية.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٧٦.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٨٦/٢٥ ح ١٥٨٥٥) وضعف سنده محققوه.

وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجلّ وعزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾.

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم: المراد بالبر ههنا الفياضي، وبالبحر الأمصار والقرى.

وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر الأمصار، والقرى ما كان منهما على جانب نهر^(١). وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف.

وقال زيد بن رفيع: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ يعني: انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه، رواه ابن أبي حاتم^(٢).

وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، عن سفيان، عن حميد بن قيس الأعرج، عن مجاهد ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً^(٣).

وقال عطاء الخراساني: المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر جزائره^(٤). والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة: إن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب إليه ببحره^(٥)؛ يعني: ببلده، ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي.

وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «لحْدُ يُقام في الأرض أحبُّ إلى أهلها من أن يمتطروا أربعين صباحاً»^(٦). والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض. ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم ﷺ في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض:

(١) قول ابن عباس عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وأخرجه البستي بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم. (٣) سنده حسن.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

(٥) سنده ضعيف لأنه لم يسنده، والخبر مشهور.

(٦) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ؓ (المسند ٣٥١/١٤ ح ٨٧٣٨)، وضعف سنده محققوه، وللمزيد ينظر تخريجه في تفسير سورة النور آية ٢.

أخرجني بركتك، فيأكل من الرمانة الفئام^(١) من الناس ويستظلون بقحفها^(٢)، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا ثبت في الصحيح: أن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب^(٣).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا محمد والحسين قالا: حدثنا عوف، عن أبي قحزم قال: وجد رجل في زمان زياد أو ابن زياد، صرة فيها حب؛ يعني: من برّ، أمثال النوى عليه مكتوب: هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل^(٤).

وروى مالك، عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك^(٥)، وفيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الآية؛ أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي: فانظروا ما حلّ بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة إذا أراد كونه فلا رادّ له ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾ أي: يترفون، ففريق في الجنة وفريق في السعير، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها،

(١) أي: الجماعة.

(٢) أي: بقشرها.

(٣) أخرجه البخاري (الصحيح، الرقاق، باب سكرات الموت ح ٦٥١٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده بلفظ وجَد في زمان.

(المسند ٣٣١/١٣ ح ٧٩٤٩)، وضعف سنده محققوه.

(٥) سنده صحيح.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في التجارات والمعاش والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُومًا﴾، هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أمهم به من الدلائل الواضحات. ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو حق أوجه على نفسه الكريمة تكراً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يُردَّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بِعَدِّ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَلَمِيقٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله ﷻ ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: يمدده فيكشره وينميه، ويجعل من القليل كثير، ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً مملوء ماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلْعِبَادِ مَوْتًا فَانْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف]، وكذلك قال ههنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كِسْفًا﴾، قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق وقتادة: يعني قطعاً^(٢).

وقال غيره: متراكماً، قاله الضحاك^(٣).

وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهماً ثقیلاً قريباً من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: فتري المطر وهو القطر، يخرج من بين ذلك

(١) سنده ضعيف لأن ليث وهو ابن أبي سليم، وشهر بن حوشب كلاهما فيهما مقال.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي نجيع عن مجاهد بلفظ: «القطر».

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم عن الضحاك بلفظ: «سماء دون سماء».

السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: إليه يفرحون لحاجتهم بنزوله عليهم ووصوله إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ (٤٩) معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قانطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً.

وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ فقال ابن جرير: هو تأكيد^(١)، وحكاة عن بعض أهل العربية.

وقال آخرون: من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله؛ أي: الإنزال لمبلسين، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إيبانه، فتأخر، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعدما كانت أرضهم مقشعة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُعْجِزٌ﴾ أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١) يقول تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا يَابِسةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِي زَرَعُوهُ وَنَبَتَ وَشَبَّ وَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا؛ أي: قد أصفر وشرع في الفساد لظَلُّوا من بعده؛ أي: بعد هذا الحال، يكفرون؛ أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم. كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٤) لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (١٥) إِنَّا لَمَعْرِضُونَ﴾ (١٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (١٧) [الواقعة].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا هشيم، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: الرياح ثمانية: أربعة منها رحمة، وأربعة عذاب، فأما الرحمة: فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات، وأما العذاب: فالعقيم والصرصر وهما في البر، والعاصف والقاصف وهما في البحر^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله بن أخي بن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عبد الله بن عياش، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دراج، عن عيسى بن هلال الصديقي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الريح مسخرة من الثانية - يعني: الأرض الثانية - فلما أراد أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن رسل عليهم ريحاً تهلك عاداً، فقال: يا رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور، قال له الجبار تبارك وتعالى: لا إذا تكفأ الأرض وما عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهي التي قال الله في كتابه^(٣) ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْمِيمِ﴾ (٢١)»

(٢) سنده حسن.

(١) روجه الطبري.

(٣) في سنده دراج وفيه مقال وضعفه الحافظ ابن كثير.

[الذاريات] هذا حديث غريب، ورفع منكر، والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾.

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها^(١)، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردّهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذي يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦) [الأنعام].

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال عمر: يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟^(٢) فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» وتأولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق»^(٣).

وقال قتادة: أحياءهم الله له حتى سمعوا مقالته تقيحاً وتوبيخاً ونقمة. والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه، إلا ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام»^(٤).

[وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين^(٥)، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده، إلا استأنس به وردّ عليه حتى يقوم»^(٦). وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: إذا مرّ رجل بقبر يعرفه فسلم عليه، ردّ عليه السلام.

(١) جمع جدث وهو القبر.

(٢) جيفوا: أي أنشوا، يقال جافته الميتة وجيفت واجتافت. والجيفة جثة الميت إذا أنتت.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ٤٤.

(٤) أخرجه ابن عبد البر من طريق عبيد بن عمير عن ابن عباس وصححه (الاستذكار ١٦٥/٢).

(٥) سيأتي تخريجه في آخر هذه الروايات.

(٦) في سننه عبد الله بن سمعان قال الذهبي: تركوه. (تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ص ٤٠٣١).

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجَحْدَرِي قال: رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بستين، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله، في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني، فنتلقى أخباركم. قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! قد بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته^(١).

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، ثنا بكر بن محمد، ثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتي أهل الجبان^(٢)، فنقف على القبور فنسلم عليهم، وندعو لهم ثم نصرف، فقلت ذات يوم: لو صيرت هذا اليوم يوم الإثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها. قال: ثنا محمد، ثنا عبد العزيز بن أبان قال: ثنا سفيان الثوري قال: بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، فقليل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

حدثنا خالد بن خدّاش، ثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التّياح يقول: كان مطرّف يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أدلج. قال: وسمعت أبا التّياح يقول: بلغنا أنه كان ينزل بغوطة، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره^(٣)، فقالوا: هذا مطرّف يأتي الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير. قلت: وما يقولون؟ قال: يقولون: سلام عليكم.

حدثني محمد بن الحسن، ثنا يحيى بن أبي بكر، ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال: لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً، فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إنني أتيت يوماً، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عيناى فنمت، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال: فكأنني بكيت لما رأيته، قال: يا بني، ما أبطأ بك عني؟ قلت: وإنك أعلم بمجيئي؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك، قال: فكنت آتية بعد ذلك كثيراً.

حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، ثنا عثمان بن سويد الطّفاوي قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة، قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخري وذخيرتي من عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني. قال: فماتت. فكنت آتياً في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمي، كيف أنت؟ قالت: أي بني، إن للموت لكربة شديدة، وإنني بحمد الله لفي برزخ محمود يفرش فيه الرياحان، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور،

(١) في سنده رجل مبهم من آل عاصم الجحدري. (٢) أي: الصحراء التي فيها القبور.

(٣) أخرجه الثوري بلاغاً عن الضحاك.

فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، يقال لي: يا راهبة، هذا ابنك، قد أقبل، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطاعون وكان رجل يختلف إلى الجبان^(١)، فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال: آس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن مسيئكم، وقبل حسناتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينما أنا نائم إذ بخلق قد جاؤوني، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها، قال: قلت: فإني أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد.

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه. قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد، عن إبراهيم، عن أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا: اللّهُمَّ راجع به.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال: ثنا محمد أخي قال: دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال: عظمي، قال: بم أعظك، أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته. قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، ثنا خالد بن عمرو الأموي، ثنا صدقة بن سليمان الجعفري قال: كانت لي شِرة سمجة، فمات أبي فبتت وندمت على ما فرطت، ثم زلت أيما زلة، فرأيت أبي في المنام، فقال: أي بني، ما كان أشد فرحي بك وأعمالك تعرض علينا، فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات، قال: فكنت أسمعه بعد ذلك يقول في دعائه في السحر، وكان جاراً لي بالكوفة: أسألك إياها لا رجعة فيها ولا حور، يا مصلح الصالحين، يا هادي المضلين، يا أرحم الراحمين.

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة، يقول: اللّهُمَّ إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله.

وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية»^(٢) فهذا

(١) أي الصحراء التي فيها القبور.

(٢) أخرجه مسلم بنحوه من حديث أم المؤمنين عائشة ؓ (الصحيح، الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ح ٩٧٤).

السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، والله أعلم^(١).

﴿وَالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

يُنبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم يصير عظماً، ثم تكسى العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوي، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً ثم مراهقاً شاباً. وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن فضيل ويزيد، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية العوفي قال: قرأت على ابن عمر ﴿وَالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ فقال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ ثم قال: قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت عليّ، فأخذ عليّ كما أخذت عليك^(٢)، ورواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث فضيل^(٣)، ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر، عن عطية، عن أبي سعيد بنحوه^(٤).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وقال الذين أوتوا العلم والأيمن لقد لئتم في كتيب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وقال الذين أوتوا العلم والأيمن لقد لئتم في كتيب الله إلى يوم البعث أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ﴿لقد لئتم في كتيب الله﴾ أي: في كتاب الأعمال ﴿إلى يوم البعث﴾ أي: من يوم خلقتكم إلى أن بعثتم ﴿ولكنكم كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) ما بين المعقوفين زيادة من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٨٥/٩ ح ٥٢٢٧)، وضعف سنده محققوه.

(٣) سنن أبي داود، الحروف (ح ٣٩٧٨)، وسنن الترمذي، القراءات (ح ٢٩٣٦) وحكمه كسابقه.

(٤) سنن أبي داود، الحروف (ح ٣٩٧٩).

قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: اعتذارهم عما فعلوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٠).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧) [يونس] ولهذا قال ههنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بل أثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه.

قال سعيد عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً عليه السلام وهو في صلاة الغداة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) [الزمر] فأنصت له علي حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٠) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم^(١).

وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن شريك، عن عثمان بن أبي زرة، عن علي بن ربيعة قال: نادى رجل من الخوارج علياً عليه السلام وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) [الزمر] فأجابه علي عليه السلام وهو في الصلاة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٠)^(٢).

طريق أخرى قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شريك، عن عمران بن ظبيان، عن أبي يحيى قال: صلى علي بن أبي طالب عليه السلام صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج ﴿لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] فأجابه علي عليه السلام وهو في الصلاة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٠)^(٣).

(١) أخرجه الطبري من طريق سعيد به، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من علي عليه السلام.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتمنه، وسنده ضعيف لضعف ابن وكيع وهو سفيان.

(٣) سنده ضعيف لضعف وتشيع عمران بن ظبيان.

ما روي في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيب أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ، صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم^(١)، فقال: «إنه يُلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يصلُّون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء»^(٢). وهذا إسناد حسن، ومتن حسن وفيه سرٌّ عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به، فدلَّ ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام. والله أعلم.

آخر تفسير سورة الروم. والحمد لله وحده.

(١) أوهم في الصلاة أو في القراءة: ترك منها شيئاً. يقال أوهمت الشيء إذا تركته وأوهمت في الكلام والكتاب إذا أسقطت منه شيئاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسند بنحوه (المسند ٢٥/٢٠٩ ح ١٥٨٧٣)، وحسن سنده محققوه. وكذا الحافظ ابن كثير.

سُورَةُ الْقُشْمَانِ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ .

تقدم في سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه ﷺ جعل هذا القرآن هدىً وشفاءً ورحمةً للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقرباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراؤوا به، ولا أرادوا جزاءً من الناس ولا شكوراً، فمن فعل ذلك كذلك، فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: على بصيرة وبيّنة ومنهج واضح جلبي ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُنَادَى عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ وَلَوْ أَنَّنَا كَانُوا يَسْمَعُونَ كَانُوا فِي أَذْنٍ وَقَدْ فِشْرَةٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَنْقُشُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٢٣﴾ [الزمر]، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هو والله الغناء.

روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب، أخبرني يزيد بن يونس، عن أبي صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يُسأل عن هذه الآية: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال عبد الله بن مسعود: الغناء والله الذي لا إله إلا هو، يردّها ثلاث مرات^(١).

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه الحاكم من طريق حميد الخراط عن عمار عن سعيد بن جبير به، =

حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا حميد الخراط، عن عمار، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء أنه سأل ابن مسعود، عن قول الله: ﴿وَمَنْ الْتَأَسَّ مِنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ قال: الغناء^(١)، وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب و[علي بن نديمة]^{(٢)(٣)}.

وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ الْتَأَسَّ مِنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في الغناء والمزامير^(٤).

وقال قتادة: قوله: ﴿وَمَنْ الْتَأَسَّ مِنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالاً، ولكن شراؤه استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق^(٥)، وما يضر على ما ينفع^(٦).

وقيل: أراد بقوله: ﴿يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ اشتراء المغنيات من الجواري.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن خلاد الصفار، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله ﷻ علي: ﴿وَمَنْ الْتَأَسَّ مِنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾»، وهكذا رواه الترمذي وابن جرير من حديث عبيد الله بن زحر بنحوه، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وضعف علي بن يزيد المذكور^(٧).

(قلت): علي وشيخه والراوي عنه كلهم ضعفاء، والله أعلم.

وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ الْتَأَسَّ مِنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ قال: يعني الشرك^(٨)، وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٩).

واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله^(١٠).

= وصححه وقال الذهبي: حميد هو ابن زياد: صالح الحديث (المستدرک ٤١١/٢)، وحميد قد توبع فسنده حسن.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفيه حميد الخراط وقد توبع في الرواية السابقة.

(٢) كذا في (حم) وهو الصواب كما في ترجمته، وفي الأصل ضحف إلى: «علي بن نديمة».

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بثمانية طرق يقوي بعضها بعضاً، وقول جابر أخرجه الطبري بأسانيد صحيحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن أبي ظبيان عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، ويشهد له ما تقدم.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) أخرجه الترمذي من طريق عبيد الله بن زحر به (السنن، التفسير، باب ومن سورة لقمان ح ٣١٩٥)، وسنده ضعيف لضعف علي بن يزيد وهو ابن أبي زياد الألهماني كما في التقريب.

(٨) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان، عن الضحاك.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(١٠) ذكره الطبري بنحوه.

وقوله: ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله، وعلى قراءة فتح الياء^(١) تكون اللام لام العاقبة أو تعليلاً للأمر القدري؛ أي: قيصوا لذلك ليكونوا كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزئ بها^(٢). وقال قتادة: يعني ويتخذ آيات الله هزواً^(٣)، وقول مجاهد أولى.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولَّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم، وما به من صمم، كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها، ﴿فَنَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذي آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي: يتمتعون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنصرة والسماع، الذي لم يخطر ببال أحد وهم في ذلك مقيمون دائماً لا يظعنون دائماً ولا ييغون عنها حولاً.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، لأنه الكريم المَنَّان الفعال لما يشاء القادر على كل شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدىً للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٧].

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفَلَقِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَيَتَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

بيِّن سبحانه [بهذا]^(٤) قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيها وما بينهما، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ قال الحسن وقاتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية^(٥).

(١) ليضل: وهي قراءة متواترة.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بمعناه.

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «بذا».

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة والحسن بلفظ: ليس لها عمد.

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: لها عمد لا ترونها^(١).

وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾ يعني: الجبال أرسست الأرض وثقلتها لثلاثا تضطرب بأهلها على وجه الماء، ولهذا قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لثلاثا تميد بكم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: وذراً فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبّه على أنه الرازق بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من كل زوج من النبات كريم؛ أي: حسن المنظر. وقال الشعبي: والناس أيضاً من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكره الله تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرْوِفْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿بِالْظَّالِمُونَ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي: جهل وعمى ﴿ثُبِينَ﴾ أي: واضح ظاهر لا خفاء به.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني.

وقال سفيان الثوري، عن الأشعث، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً^(٢).

وقال قتادة: عن عبد الله بن الزبير: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطس من النبوة^{(٣)(٤)}.

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة^(٥).

وقال الأوزاعي: حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من

(١) تقدم تفسيره في تفسير سورة الرعد آية ٢.

(٢) أخرجه الثوري بسنده ومثته (ينظر فتح الباري ٤٦٦/٦)، وأخرجه الطبري من طريق سفيان به، وسنده ضعيف لضعف الأشعث وهو ابن سوار الكندي الكوفي (ينظر تهذيب التهذيب ٣٥٢/١).

(٣) النبوة: بلدة تقع في شمال السودان.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وسنده ضعيف لعدم سماع قتادة من عبد الله بن الزبير.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق يحيى بن سعيد به.

السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر^(١).
وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأشهب، عن خالد الربيعي قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، وقال: أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها، فأخرجتهما؟ فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا^(٢).

وقال شعبة، عن الحكم، عن مجاهد: كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً^(٣).

وقال الأعمش: قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين^(٤).

وقال [حكاه بن سلم]^(٥)، عن سعيد الزبيدي، عن مجاهد: كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، قاضياً على بني إسرائيل، وذكر غيره أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام^(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو بن قيس قال: كان لقمان عبداً أسود، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس ناس يحدثهم، فقال له: ألسن الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث والصمت عما لا يعني^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألسن عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قَدَّرَ الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وترك ما لا يعني^(٨).

فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك، لأن كونه عبداً قد مسه الرق ينافي كونه نبياً، لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، ولهذا كان جمهور السلف

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق الأوزاعي به.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق أبي الأشهب به وسنده صحيح (المصنف ١٣/ ١٢٤)، وأبو الأشهب هو جعفر بن جيان وهو ثقة (التقريب ص ١٤٠).

(٣) أخرجه الطبري من طريق محمد بن جعفر، عن شعبة به، وسنده حسن.

(٤) أخرجه الطبري من طريق يحيى بن عيسى، عن الأعمش به، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق يحيى بن عيسى عن الأعمش به، (المصنف ١٣/ ٢١٣) وسنده حسن.

(٥) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «حكاه بن سلم».

(٦) أخرجه الطبري من طريق حكاه به، وسنده ضعيف لضعف سعيد الزبيدي وهو سعيد بن عبد الجبار، ويقال سعيد بن أبي سعيد.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، وقد توبع فأخرجه ابن أبي الدنيا من طريق أبي شهاب عن عمرو بن قيس (الصمت رقم ١١٦)، وسنده مرسل.

(٨) سنده مرسل.

على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صحَّ السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وقال ابن أبي حاتم من حديث وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرمة، قال: كان لقمان نبياً^(١)، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الله بن عياش القتباني، عن عمر مولى غفرة، قال: وقف رجل على لقمان الحكيم، فقال: أنت لقمان، أنت عبد بني الخشخاش؟ قال: نعم، قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم، قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادى فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟ قال: وطء الناس بساطك، وغشيم بابك، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك، قال لقمان: غضي بصري وكفي لساني، وعفة طعمتي وحفظي فرجي، وقولي بصدق، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري وتركى ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا عمرو بن واقد، عن عبدة بن رباح، عن ربيعة، عن أبي الدرداء أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم، فقال: ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صمصامة سكيناً، طويل التفكير، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخع، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل، ولا يعبث ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج وولد أولاد، فماتوا فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي^(٣).

وقد ورد أثر غريب عن قتادة رواه ابن أبي حاتم فقال: حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الوليد، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي، حدثنا سعيد، عن ابن بشير، عن قتادة قال: خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة على النبوة، قال: فأتاه جبريل وهو نائم، فذر عليه الحكمة، أو رش عليه الحكمة، قال: فأصبح ينطق بها، قال سعيد: فسمعت عن قتادة يقول: قيل للقمان: كيف اخترت الحكمة على النبوة، وقد خيرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إلي بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه، ولكن أرجو أن أقوم بها، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إلي^(٤). فهذا من رواية سعيد بن بشير، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه، فالله أعلم، والذي رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه^(٥).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير ﴿إِنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن

(١) أخرجه الطبري من طريق وكيع به وسنده ضعيف كما قرر الحافظ ابن كثير لضعف جابر بن يزيد الجعفي.

(٢) أخرجه البستي عن أحمد بن عمرو بن سرح عن ابن وهب به، وسنده ضعيف لضعف عبد الله بن عياش (تهذيب التهذيب ٣٥١/٥).

(٣) سنده ضعيف جداً لأن عمرو بن واقد: متروك.

(٤) سنده ضعيف لضعف سعيد بن بشير.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة به.

يشكر الله ﷻ على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عما سواه، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه.

﴿وَلَوْ قَالَ لَقَمَنْ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعْظُمُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ١٤ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وهو لقمان بن عنقاء بن سدون، واسم ابنه ثاران في قول حكاه السهيلي^(١)، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم.

قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أين لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». ورواه مسلم من حديث الأعمش^(٢) به، ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن، وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ﴾، قال مجاهد: مشقة وهن الولد^(٣). وقال قتادة: جهداً على جهد^(٤).

وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف^(٥).

وقوله: ﴿وَفَضَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَضَّلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾.

(١) ينظر التعريف والإعلام ص ١٠٠.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٨٢.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وأخرجه البستي بسند حسن عن الضحاك.

[الإسراء: ٢٤] ولهذا قال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَٰهِي الْمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي شيبه ومحمود بن غيلان قالا: حدثنا عبيد الله، أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل، وكان بعثه النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً، وإن المصير إلى الله إلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت^(١).

وقوله: ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً؛ أي: محسناً إليهما، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني: المؤمنين، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال الطبراني في «كتاب العشرة»: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داود بن أبي هند، أن سعد بن مالك قال: أنزلت في هذه الآية ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، قال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدث؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعل بي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت^(٢).

﴿يَبْنِيْ اِيْنَهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِيْ السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيْ اَقْمِرَ الصُّكُوٰةِ وَاَمْرٌ بِالْمَعْرُوْفِ وَاِنَّهٗ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبَرَ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْاُمُوْر ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْبِرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْاَرْضِ مَرَحًا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُوْرٍ ﴿١٨﴾ وَاَقْصِدْ فِي مَسٰيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ اِنَّ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ ﴿١٩﴾﴾.

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم، ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَبْنِيْ اِيْنَهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل، وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله إنها ضمير الشأن والقصة، وجوز على هذا رفع مثقال، والأول أولى.

وقوله ﷻ: ﴿يٰۤاَيُّهَا اللّٰهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِيْنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ

(١) سنده صحيح.

(٢) سنده ضعيف لأن داود بن أبي هند لم يسمع من سعد ﷺ ويشهد لبعضه حديث مسلم المتقدم في تفسير سورة العنكبوت آية ٨.

نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مُثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَيْنَمَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].
وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت، ﴿خَبِيرٌ﴾ بديب النمل في الليل البهيم.

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع، وذكره السدي بإسناده ذلك المطروق، عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة^(١) إن صحَّ ذلك، ويروى هذا عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمرو وغيرهم^(٢)، وهذا - والله أعلم - كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والظاهر - والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيبيدها ويظهرها بلطيف علمه. كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنًا ما كان»^(٣).

ثم قال: ﴿يَبْنِي أَقْرِ الصَّلَاةِ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها، ﴿وَأَمُرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾، علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله»^(٤).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك^(٥)، وكذا روى العوفي وعكرمة عنه^(٦).

(١) أخرجه الطبري من طريق السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، وسنده ضعيف لأن السدي خلط بين الأسانيد الضعيفة والصحيحة فلم يميز بينها، كذا ذكر الحافظ ابن حجر في المقدمة النفيسة لكتابه القيم «العجاب في بيان الأسباب».

(٢) الرواية من الإسرائيليات كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومته (المسند ١٧/٣٣٠ ح ١١٢٢٩)، وضعف سنده محققوه.

(٤) أخرجه أبو داود من حديث جابر بن سليم مطولاً (السنن، اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار ح ٤٠٨٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٣٤٤٢).

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويشهد له سابقه.

وقال مالك: عن زيد بن أسلم ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تتكلم وأنت معرض^(١)، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة ويزيد بن الأصم وأبي الجوزاء وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد وغيرهم^(٢).

وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشديق في الكلام^(٣). والصواب القول الأول. وقال ابن جرير: وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حيي التغلبي.

وكنا إذا الجبار صَعَّرَ خَدَّهْ أقمنا له من ميله فتقوُّما^(٤)
وقال أبو طالب في شعره:

وكنا قديماً لا نقر ظلامه إذا ما ثنوا صعر الرؤوس نقيمها^(٥)
وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: خيلاء متكبراً جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور؛ أي: على غيره. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء] وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى، حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ثابت بن قيس بن شماس قال: ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شراك نعلي، وعلاقة سوطي، فقال: «ليس ذلك الكبر، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس»^(٦). ورواه من طريق أخرى بمثله، وفيه قصة طويلة، ومقتل ثابت ووحيته بعد موته.

وقوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين.

وقوله: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالح في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه،

(١) سنده صحيح.

(٢) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق أبي مكين نوح بن ربيعة عنه، وقول يزيد بن الأصم أخرجه البستي بسند حسن من طريق جعفر بن برقان عنه وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق المغيرة عن إبراهيم.

(٤) ذكره الطبري، واستشهد به الفراء (معاني القرآن ١٢٧/٢).

(٥) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٢٦٩/١).

(٦) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٧٠/٢ ح ١٣١٧) وسنده ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من ثابت رضي الله عنه.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير^(١)؛ أي: غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم، لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه»^(٢).

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأَتْ شيطانا»^(٣). وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن جعفر بن ربيعة به^(٤)، وفي بعض الألفاظ: بالليل، فالله أعلم.

فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا سفيان، أخبرني نهشل بن مجمع الضبي، [عن قرعة]^(٥)، عن ابن عمر قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه»^(٦).

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم [بن مخيمرة]^(٧) أن رسول الله ﷺ قال: «قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني إياك والتقنع، فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار»^(٨).

وقال: حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عثمان عن ضمرة، حدثنا السدي بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني إن الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك»^(٩).

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا عبد الرحمن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام؛ يعني: السلام، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في

(١) أخرجه البستي بسند صحيح من طريق أبان بن تغلب عن مجاهد.

(٢) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة الأعراف آخر تفسير آية ١٧٧.

(٣) أخرجه النسائي بسنده ومثله (السنن الكبرى، التفسير ح ١١٣٩١) وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، بدء الخلق (ح ٣٣٠١)، وصحيح مسلم، الذكر، باب استحباب الذكر عند صياح الديك (ح ٢٧٧٩)، وسنن أبي داود، الأدب، باب ما جاء في الديك والبهايم، وسنن الترمذي، الدعوات، باب ما يقول إذا سمع نهيق الحمار (ح ٣٤٥٦).

(٥) كذا في (ح) و(حم) ومسنند أحمد، وفي الأصل بدون عن قرعة.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسنند ٨٧/٢) وسنده جيد.

(٧) زيادة من (ح) و(حم).

(٨) سنده ضعيف لإرسال القاسم بن مخيمرة وهو تابعي ويتقوى برواية الحاكم فقد أخرجه موصولاً من طريق القاسم بن مخيمرة عن أبي موسى الأشعري وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤١١/٢).

(٩) سنده مرسل ضعيف.

ذكر الله، فأجل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم^(١).
وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ضمرة، عن حفص بن عمر قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفذ الخردل، فقال: يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تظفر، قال: فتفطر ابنه^(٢).
وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي، حدثنا [أبين]^(٣) بن سفيان المقدسي، عن خليفة بن سلام، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن» قال أبو القاسم الطبراني أراد الحبش^(٤).

فصل في الخمول والتواضع^(٥)

وذلك متعلق بوصية لقمان ﷺ لابنه. وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً، ونحن نذكر منه مقاصده، قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله بن موسى المدني، عن أسامة بن زيد بن حفص بن عبد الله بن أنس، عن جده أنس بن مالك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رُبَّ أشعث ذي طمرين^(٦) يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره»^(٧). ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت، وعلي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ فذكره، وزاد: «منهم البراء بن مالك».
وقال أبو بكر بن سهل التميمي: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن زيد، عن عياش بن عباس، عن عيسى بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر ﷺ أنه دخل المسجد، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته عن رسول الله ﷺ: سمعته يقول: «إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة»^(٨).

(١) سنده مرسل ضعيف. (٢) سنده مرسل ضعيف.

(٣) كذا في (ح) والمعجم الكبير للطبراني وكذا في (حم) لكن من غير نقط، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «أنس».

(٤) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١٩٨/١١ ح ١١٤٨٢)، وسنده ضعيف لضعف أبين بن سفيان (مجمع الزوائد ٢٣٥/٤)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢٣١/٢).

(٥) هذا العنوان مقتبس من كتاب: التواضع والخمول كما سيأتي في الروايات بعد التالية.

(٦) الطمر: الثوب القديم (ينظر النهاية ١٣٨/٣).

(٧) لم أجده في كتاب التواضع والخمول، وقد أخرجه الطبراني من طريق إبراهيم بن المنذر به (المعجم الأوسط ح ٨٦٥)، وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (السنن، المناقب، باب مناقب البراء بن مالك ﷺ ح ٣٨٥٤)، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ح ٣٠٢٨)، وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ، وصحيح مسلم، البر والصلة، باب (فضل الضعفاء والخالين ح ٢٦٢٢).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (التواضع والخمول ص ١٠٣ رقم ٨)، وسنده ضعيف جداً لأن عيسى بن =

حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا عثمان بن علي، عن حميد بن عطاء الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رُبَّ ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الجنة، ولم يعطه من الدنيا شيئاً»^(١).

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاء إياها، ولو سأل الدنيا لم يعطه إياها، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»^(٢). وهذا مرسل من هذا الوجه.

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا عوف قال: قال أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتجلجل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم»^(٣).

قال: وأنشدني عمر بن شبة، عن ابن عائشة، قال: قال عبد الله بن المبارك:

ألا رُبَّ ذي طمرين في منزل غدا زرابيه مبثوثة ونَمَارُقُهُ
قد اظردت أنهاره حول قصره وأشرق والتفت عليه حدائقُهُ^(٤)

وروي أيضاً من حديث عبيد الله بن زحر، عن [علي بن يزيد]^(٥)، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «قال الله: من أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع إن صبر على ذلك» قال: ثم أنفذ رسول الله ﷺ بيده، وقال: «عجلت منيته، وقل ترائه، وقلت بواكيه»^(٦).

وعن عبد الله بن عمرو قال: أحبُّ عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم^(٧).

وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أنعم عليك؟ ألم

= عبد الرحمن وهو الزرقى: متروك (التقريب ص ٤٣٨).

(١) يشهد لشطر الأول ما صحَّ عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (التواضع والخمول رقم ١ ص ٩٧) وسنده ضعيف لإرساله.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (الأولياء رقم ٩)، وسنده ضعيف للانقطاع بين عوف، وهو ابن أبي جميلة، وأبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (التواضع والخمول رقم ٥ ص ١٠٠)، وسنده صحيح، وابن عائشة هو عبيد الله بن محمد التيمي.

(٥) كذا في كتاب التواضع والخمول (ح)، وفي الأصل (حم) صُحِفَ بلفظ: «علي بن زيد».

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر به، (التواضع والخمول رقم ١٣ ص ١٠٧)، وسنده ضعيف لضعف علي بن يزيد وهو الألهماني، وأخرجه الحاكم من الطريق نفسه وصححه وتعبه الذهبي بقوله: لا بل إلى الضعف هو (المستدرک ٤/ ١٢٣).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند فيه محمد بن مسلم الطائفي عن عثمان بن عبد الله بن أوس. (التواضع والخمول رقم ١٦ ص ١٠٩)، ومحمد الطائفي صدوق يخطئ وعثمان: مقبول كما في التقريب.

أعطك؟ ألم أسترِكَ؟ ألم... ألم... ألم أُخمل ذكرك؟ ثم قال الفضيل: إن استطعت ألا تعرف فافعل، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس محموداً عند الله^(١). وكان ابن مُحِيرِيز يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ ذِكْرًا خَامِلًا^(٢).

وكان الخليل بن أحمد يقول: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي عِنْدَكَ مِنْ أَرْفَعِ خَلْقِكَ، واجْعَلْنِي فِي نَفْسِي مِنْ أَوْضَعِ خَلْقِكَ. وعند الناس مِنْ أَوْسَطِ خَلْقِكَ^(٣).

باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصري، حدثنا ابن وهب، عن عمر بن الحارث وابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسب امرئ من الشر إلا من عصم الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه، وإن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٤). وروي مثله عن إسحاق بن البهلول، عن ابن أبي فديك، عن محمد بن عبد الواحد الأخنسي، عن عبد الواحد بن أبي كثير، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً مثله^(٥)، وروي عن الحسن مرسلاً نحوه ف قيل للحسن: فإنه يشار إليك بالأصابع، فقال: إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة، وفي دنياه بالفسق^(٦).

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لا تبدأ لأن تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار^(٧).

وقال إبراهيم بن أدهم عليه السلام: ما صدق الله من أحبَّ الشهرة.

وقال أيوب: ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه^(٨).

وقال محمد بن العلاء: من أحبَّ الله أحب أن لا يعرفه الناس^(٩).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق إبراهيم بن الأشعث عن الفضيل (المصدر السابق رقم ١٧ ص ١١٠)، وسنده مرسل.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق عبد الواحد بن موسى عن ابن مُحِيرِيز (المصدر السابق رقم ١٨ ص ١١١)، وسنده جيد.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا عن الخليل بن أحمد. (المصدر السابق رقم ٢١ ص ١١٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله دون قوله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم...» (التواضع والخمول رقم ٣٠ ص ١١٦) وهذا الشطر هو جزء من الرواية التالية، وسنده حسن ويشهد له الحديث التالي.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا عن إسحاق بن البهلول به (المصدر السابق رقم ٣١) وسنده حسن، وقوله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم...» له شاهد في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عليه السلام كما سيأتي في تفسير سورة الحجرات آية ١٣.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق علي بن الجعد عن المبارك بن فضالة عن الحسن (المصدر السابق رقم ٣٢) وسنده مرسل ويشهد له ما سبق.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند فيه رجل مبهم يروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام (المصدر السابق رقم ٣٤).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق عن أبي بكر بن الفضل عن أيوب (المصدر السابق رقم ٣٥).

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا من كتاب محمد بن العلاء (المصدر السابق رقم ٣٦).

وقال سماك بن سلمة: إياك وكثرة الأخلاء^(١).

وقال أبان بن عثمان: إن أحببت أن يسلم إليك دينك فأقل من المعارف^(٢).

كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم^(٣).

وقال: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن عوف، عن أبي رجاء قال: رأى طلحة قوماً يمشون معه فقال: ذباب طمع وفراش النار^(٤).

وقال ابن إدريس، عن هارون بن أبي عنترة، عن سليم بن حنظلة قال: بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال: إنها مذلة للتابع وفنتة للمتبع^(٥).

وقال ابن عون: عن الحسن: خرج ابن مسعود فاتبعه أناس، فقال: والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلاً^(٦).

وقال حماد بن زيد: كنا إذا مررنا على المجلس ومعنا أيوب فسلم، ردوا ردّاً شديداً، فكان ذلك يغمه^(٧).

وقال عبد الرزاق، عن معمر: كان أيوب يطيل قميصه، ف قيل له في ذلك، فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص، واليوم في تشميره^(٨). واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي ﷺ، فلبسهما أياماً ثم خلعهما، وقال: لم أر الناس يلبسونهما^(٩).

وقال إبراهيم النخعي: لا تلبس من الثياب ما يشهرك في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء^(١٠).

وقال الثوري: كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم. والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه^(١١).

وحدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا حماد، عن أبي حنيفة صاحب الزيادي قال: كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال: إياكم وهذا الحمار النفاق^(١٢).

وقال الحسن رحمه الله: إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق مغيرة عن سماك (المصدر السابق رقم ٤٠) وسنده صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق فضالة بن صيفي (المصدر السابق رقم ٤٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق ليث عن أبي العالية (المصدر السابق رقم ٤٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (المصدر السابق رقم ٥٠).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله بلفظ: «بيننا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة» (المصدر السابق رقم ٥١).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق عون، وليس ابن عون، عن الحسن به (المصدر السابق رقم ٥٢) وفي الحالتين فيه الحسن لم يسمع من ابن مسعود رحمه الله.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق أبي داود عن حماد، وفي آخره تصحيف بلفظ: «فكان ذلك نقمة» (المصدر السابق رقم ٥٨).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح من طريق عبد الرزاق به (المصدر السابق رقم ٦١).

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق عدي بن الفضل عن أيوب (المصدر السابق رقم ٦٢).

(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق منصور عن إبراهيم به (المصدر السابق رقم ٦٣).

(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق غسان بن عبيد عن الثوري بنحوه (المصدر السابق رقم ٦٤).

(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله، وفيه عن أبي خشينة صاحب الزيادي (المصدر السابق رقم ٦٥).

بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه^(١) ما لهم تفاقدوا^(٢).
وفي بعض الأخبار أن موسى ﷺ قال لبني إسرائيل: ما لكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان،
وقلوبكم قلوب الذئاب، البسوا ثياب الملوك، وألبنوا قلوبكم بالخشية.

فصل في حسن الخلق

قال أبو التياح: عن أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً^(٣).
وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل: يا رسول الله؟ أي: المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً»^(٤).
وعن نوح بن عباد، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة
وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد»^(٥).
وعن سنان بن هارون، عن حميد، عن أنس مرفوعاً: «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»^(٦).
وعن عائشة مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار»^(٧).
وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدثنا عبد الله بن إدريس،
أخبرني أبي وعمي، عن جدي، عن أبي هريرة رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس
الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال:
«الأجوفان: الفم والفرج»^(٨).

وقال أسامة بن شريك: كنت عند رسول الله ﷺ فجاءته الأعراب من كل مكان، فقالوا: يا
رسول الله ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: «حسن الخلق»^(٩).
وقال يعلى بن سماك، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء يبلغ به قال: ما شيء أثقل في الميزان
من حسن الخلق، وكذا رواه عطاء، عن أم الدرداء به^(١٠).

- (١) المطرف: الثوب الذي في طرفه علّمان. النهاية ١٢١/٣.
- (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق رجل مبهم عن أبي بكر عن الحسن (المصدر السابق رقم ٦٦).
- (٣) أخرجه مسلم من طريق أبي التياح به (الصحيح، الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ح ٢١٥٠).
- (٤) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق فروة بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر رضي الله عنهما (المصدر السابق رقم ١٦٥)،
وسنده ضعيف لأن فروة مجهول كما في التقريب، وحسنه الألباني بشواهد (السلسلة الصحيحة ح ١٣٨٤).
- (٥) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق النضر بن عبد الجبار عن نوح بن عباد (التواضع والخمول رقم ١٦٨)،
ويتقوى بالشواهد السابقة واللاحقة.
- (٦) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق سنان به (المصدر السابق رقم ١٦٩)، وفي سننه سنان بن هارون صدوق
فيه لين كما في التقريب ص ٢٥٦.
- (٧) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق المطلب عن عائشة (المصدر السابق رقم ١٦٦)، وأخرجه الإمام أحمد
المطلب به (المسند ١٤٥/٤١ ح ٢٤٥٩٥) وقال محققوه: حديث صحيح لغيره.
- (٨) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (المصدر السابق رقم ١٧٠)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق داود بن
يزيد عن أبيه عن أبي هريرة بنحوه (المسند ٢٨٧/١٣ ح ٧٩٠٧) وحسنه محققوه.
- (٩) أخرجه الإمام أحمد مطولاً (المسند ٣٩٥/٣٠ ح ١٨٤٥٤)، وصحيح سننه محققوه وأخرجه الحاكم وصححه
ووافقه الذهبي (المستدرک ١/١٢١).
- (١٠) أخرجه الإمام أحمد من طريق عطاء بن نافع عن أم الدرداء به (المسند ٤٨٧/٤٥ ح ٢٧٤٩٦)، وصححه سننه
محققوه.

وعن مسروق، عن عبد الله مرفوعاً: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»^(١).

حدثنا عبد الله بن أبي بدر، حدثنا محمد بن عيسى، عن محمد بن أبي سارة، عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليعطي العبد على الثواب من حسن الخلق، كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه الأجر ويروح»^(٢).

وعن مكحول، عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»^(٣).

وعن أبي أويس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً: «ألا أخبركم بأكملكم إيماناً أحسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً»^(٤) الذين يؤلفون ويألفون»^(٥).

وقال الليث: عن يزيد بن عبد الله بن أسامة، عن بكر بن أبي الفرات قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حسن الله خلق رجل وخلقته فتطمعه النار»^(٦).

وعن عبد الله بن غالب الحداني، عن أبي سعيد مرفوعاً: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»^(٧).

وقال ميمون بن مهران: عن رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق»^(٨) وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر.

قال: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو المغيرة الأحمسي، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن رجل من قریش قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق، إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب. كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»^(٩).

وقال عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن جده، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق»^(١٠).

(١) أخرجه البخاري من طريق مسروق به (الصحيح، المناقب، باب صفة النبي ﷺ ح ٣٥٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (التواضع رقم ١٧٦)، وسنده ضعيف لأن محمد بن أبي سارة لم يسمع من الحسن بن علي عليه السلام (لسان الميزان ١٧٣/٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد من طريق مكحول به (المسند ٢٩/٢٦٧ ح ١٧٧٣٢) وقال محققوه: حسن لغيره، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢٤/٨).

(٤) أي: المتواضعون الذين يعتمد عليهم في الصلابة ولا يتأذى من يصاحبهم.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق أبي أويس به (التواضع رقم ١٧٨). وسنده حسن بشواهد.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق الليث به (المصدر السابق رقم ١٨٠)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/١٦٥)، والسيوطي في (الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/١١٩).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق عبد الله بن غالب به (المصدر السابق رقم ١٨٢) وله شواهد سابقة ولاحقة.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق ميمون بن مهران به (المصدر السابق رقم ١٨٣)، وسنده ضعيف لإرساله.

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثله (المصدر السابق رقم ١٨٤)، وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق (التقريب ٣٣٦) وهو لم يلق أحداً من الصحابة فشيخه مجهول.

(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق عبد الله بن إدريس به (المصدر السابق رقم ١٩٠)، وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ١٩٧٩) وحسنه المنذري (الترغيب ٣/٢٦٤ ح ٣٩٣٥)، وأخرجه الحاكم وصححه، وتعبه =

وقال محمد بن سيرين: حسن الخلق عون على الدين^(١).

فصل في ذم الكبر

قال علقمة: عن ابن مسعود رفعه: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان»^(٢).

وقال إبراهيم بن أبي عبلة: عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، أكبه الله على وجهه في النار»^(٣).

حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعاً: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب»^(٤).

وقال مالك بن دينار: ركب سليمان بن داود عليه السلام ذات يوم البساط في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء، ثم خفضه حتى مست قدمه ماء البحر، فسمعوا صوتاً لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع^(٥).

حدثنا أبو خيثمة، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقدر نفسه فيقول: خرج من مجرى البول مرتين^(٦).

وقال الشعبي: من قتل اثنين فهو جبار، ثم تلا: «أَتُرِيدُ أَنْ قَتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمِينِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ»^(٧) [القصص: ١٩].

وقال الحسن: عجباً لابن آدم يغسل الخراء بيده في اليوم مرتين، ثم يتكبر يعارض جبار السموات^(٨).

قال: حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا حماد بن زيد، عن علي بن زيد، عن الضحاك بن سفيان، فذكر حديث ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم^(٩).

= الذهبي بأن عبد الله: واه (المستدرک ١/ ١٢٤).

(١) يشهد له ما سبق من الروايات التي ذكرت حسن الخلق.

(٢) أخرجه مسلم من طريق علقمة به (الصحيح، الإيمان، باب تحريم الكبر ح ٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق إبراهيم بن أبي عبلة به (التواضع رقم ١٩٦)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق إبراهيم بن أبي عبلة به (المسند ٥٨٩/ ١١ ح ٧٠١٥) وصححه سننه محققوه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثته (التواضع رقم ١٩٨) وسنده ضعيف لضعف عمر بن راشد.

(٥) سنده مرسل وعليه أمارات الإسرائيليات وأخرجه ابن أبي الدنيا (التواضع رقم ١٩٩).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثته (التواضع رقم ٢٠٠).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق إسماعيل بن سالم عن الشعبي، (التواضع رقم ٢٠٣).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق أبي محمد البصري عن الحسن (التواضع رقم ٢٠٩).

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثته (التواضع رقم ٢١٠) وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

وقال الحسن: عن [عتي]^(١) عن أبي قال: إن مطعم ابن آدم ضرب مثلاً للدنيا وإن قزحه^(٢) وملّحه^(٣).

وقال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي عليه السلام -: ما دخل قلب رجل شيء من الكبر، إلا نقص من عقله بقدر ذلك^(٤).

وقال يونس بن عبيد: ليس مع السجود كبر، ولا مع التوحيد نفاق.

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته، وذلك قبل أن يستخلف، فطعن طاوس في جنبه بأصبعه، وقال: ليس هذا شأن من في بطنه خرق؟ فقال له كالمعتذر إليه: يا عمّ لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها^(٥).

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلمون هذه المشية.

فصل في الاختيال

عن ابن أبي ليلى، عن ابن بُريدة، عن أبيه مرفوعاً: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه»^(٦). ورواه عن إسحاق بن إسماعيل، عن سفيان بن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله^(٧). وحدثنا محمد بن بكار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبتة نفسه خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٨) وروى الزهري عن سالم، عن أبيه بينما رجل إلى آخره^(٩).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد، وجعله

(١) كذا في النسخ والتصويب من كتاب التواضع. (٢) أي: جعل الأباذير في قدر الطعام.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق الحسن به (التواضع رقم ٢١١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا معلقاً بصيغة حدثت عن أبي همام (التواضع رقم ٢٢٦)، وسنده ضعيف لعدم التصريح باسم شيخه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق شيخ مجهول به (التواضع رقم ٢٤١).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق ابن أبي ليلى به (التواضع رقم ٢٣٨) وله شاهد صحيح كما يلي.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده ومثته (التواضع رقم ٢٣٩)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق زيد بن أسلم به وأطول (المسند ٤١٣/١٠ ح ٦٣٤٠)، وصححه سندته محققوه.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق محمد بن بكار به (التواضع رقم ٢٣٢) وأخرجه البخاري من طريق أبي الزناد به (الصحيح، اللباس، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء ح ٥٧٨٨).

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق الزهري به (التواضع رقم ٢٣٤) ويشهد له سابقه.

إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من [يجادل]^(١) في الله؛ أي: في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ أي: مبين مضيء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلّف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه [لله]^(٢)؛ أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتباع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً لا يعذبه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٣) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا؛ أي: فيجزئهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية، ثم قال تعالى: ﴿نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: لنلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب مشق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٥].

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢١﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) كذا في (ج) و(حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «مجادل».

(٢) كذا في (ج) و(حم)، وفي الأصل ضُحِفَ بدون لفظ: «لله».

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خلقه وملكه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه. وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْهٌ وَاحِدٌ إِنَّ اللَّهَ مَتِّعٌ بِصِيرٍ ﴿٨﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنی وصفاته العُلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١) فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مدداً وأمدته سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً.

وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف]، فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخر فقط بل بمثله ثم بمثله، ثم بمثله ثم هلم جرا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

قال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مدداً، وقال الله إن من أمري كذا ومن أمري كذا، لنفذ ماء البحر وتكسرت الأقلام^(٢).

وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفذ عجائب ربي وحكمته وخلقته وعلمه^(٣).

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ الآية، يقول: لو كان البحر مدداً لكلمات الله، والأشجار كلها أقلاماً، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يشني كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يشني على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول.

وقد روي أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود.

(١) أخرجه مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (الصحيح، الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ح ٤٨٦).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عن الحسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة مختصراً وسنده مرسل، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة، عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد أرايت قولك: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعَلَمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله ﷺ: «كلاهما» قالوا: أأنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم» وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ الآية (١)، وهكذا روي عن عكرمة وعطاء بن يسار (٢)، وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية، لا مكية، والمشهور أنها مكية، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه. وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّيْنِ وَحِدَةً﴾ أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحِدَةً كُنْتَ بِالصَّبْرِ﴾ [القمر: ٥٠] أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّيْنِ وَحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [النازعات: ١٤].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الأنعام: ٢٦] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [الأنعام: ٣٠].

يخبر تعالى أنه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يعني: يأخذ منه في النهار فيطول ذاك، ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف، يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدوده، وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت» (٣).

(١) في سننه محمد بن أبي محمد لم يعرف « وأخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق عن رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبيرة به. ويتقوى بمرسل عكرمة التالي.

(٢) قول عكرمة أخرجه البيهقي بسند صحيح من طريق داود بن أبي هند عنه، وقول عطاء بن يسار أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق، عن بعض أصحابه عن عطاء.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٥٨.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلکها، فإذا غربت جرت بالليل في فلکها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، قال: وكذلك القمر، إسناده صحيح^(١).

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحج: ٧٠) ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق؛ أي: الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السموات والأرض جميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [٣١] أي: العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبُ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [٣٢] وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجُّ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا يَجْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ [٣٣].

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره؛ أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لو لا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجُّ كَالظُّلُلِ﴾ أي: كالجبال والغيام ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ثم قال تعالى: ﴿قَلَّمَا يَجْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي: كافر^(٢)، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿قَلَّمَا يَجْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل^(٣)، وهذا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالمقتصد ههنا هو

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وصححه سننه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيج عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد بلفظ: الذي على صلاح من الأمر.

المتوسط في العمل، ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْعَلُ يَتَابِعِينَ إِلَّا كُلَّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فالختر هو: الغدار، قاله مجاهد والحسن وقتادة ومالك، عن زيد بن أسلم^(١)؛ وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والختر أتم الغدر وأبلغه. قال عمرو بن معديكرب:

وإنك لو رأيت أبا عُمير ملأت يديك من غدر وختر^(٢)
وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَتَابِعُ النَّاسَ أَنْفُسُ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٣).

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وأمرأ لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه. وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه. لم يقبل منه.

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة^(٣): فإنه يغر ابن آدم ويغده ويمنيه، وليس من ذلك شيء بل كان ما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء].

قال وهب بن منبه: قال عزيز عليه السلام: لما رأيت بلاء قومي، اشتد حزني وكثر همي وأرق نومي، فضرعت إلى ربي وصليت وصمت، فأنا في ذلك أتضرع أبكي، إذ أتاني الملك فقلت له: خبرني هل تشفع أرواح المصدقين للظلمة أو الآباء لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء، ومملك ظاهر ليس فيه رخصة لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده، ولا ولد عن والده، ولا أخ عن أخيه، ولا عبد عن سيده، ولا يهتم أحد بهم غيره، ولا يحزن لحزنه، ولا أحد يرحمه، كل مشفق على نفسه، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان، كل يهتم همه، ويبيكي عوله، ويحمل وزره، ولا يحمل وزره معه غيره، رواه ابن أبي حاتم^(٤).

(١) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه وقول الحسن أخرجه البستي والطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول مالك عن زيد بن أسلم صحيح السند.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٠٥ واستشهد به الطبري.

(٣) قول ابن عباس عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) الخبر من الإسرائيليات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٤).

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواء، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩].

وقد وردت السُّنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني حسين بن واقد، حدثني عبد الله بن بريدة، سمعت أبي - بريدة - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» (١)، هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجه.

(حديث ابن عمر) قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» (٢). انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في كتاب الاستسقاء في صحيحه عن محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان بن سعيد الثوري به (٣). ورواه في التفسير من وجه آخر، فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، أن أباه حدثه، أن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس» ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (٤) انفرد به أيضاً.

ورواه الإمام أحمد، عن عُندَر، عن شعبة، عن عمر بن محمد أنه سمع أباه يحدث عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» (٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٨/٩٠ ح ٢٢٩٨٦) وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد قوي. اهـ. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٩٢/٧)، وصححه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢/٢٤) وسنده صحيح.

(٣) الصحيح (ح ١٠٣٩).

(٤) الصحيح، التفسير، باب ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] (ح ٤٧٧٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢/٨٥) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/٤٦٢).

(حديث ابن مسعود رضي الله عنه). قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثني عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١). وكذا رواه عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عمرو بن مرة به. وزاد في آخره. قال: قلت له أنت سمعته من عبد الله؟ قال: نعم، أكثر من خمسين مرة (٢)، ورواه أيضاً عن وكيع، عن مسعر، عن عمرو بن مرة به (٣). وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن، ولم يخرجوه.

(حديث أبي هريرة) قال البخاري عن تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق، عن جرير، عن [أبي حيان] (٤)، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر» قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أسرارها: إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أسرارها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أسرارها في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ الآية»، ثم انصرف الرجل فقال: «ردوه عليّ» فأخذوا ليردوه، فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» (٥). ورواه البخاري أيضاً في كتاب الإيمان (٦)، ومسلم عن طرق، عن أبي حيان به (٧). وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخاري، وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم.

(حديث ابن عباس) قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا [شهر] (٨)، حدثنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه، قال: جلس رسول الله ﷺ مجلساً فأتاه جبريل، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ فقال يا رسول الله: حدثني ما الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تسلم وجهك لله ﻋﺰﻩ، وتشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد أسلمت» قال: يا رسول الله، فحدثني ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبیین، وتؤمن بالموت وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار،

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٧٢/٦ - ١٧٣ ح ٣٦٥٩)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد يحتمل التحسين.

(٢) (المسند ٢٣٢/٧ ح ٤١٦٧). (٣) (المسند ٢٨٦/٧ ح ٤٢٥٣).

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وصحيح البخاري، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «أبي حسان».

(٥) الصحيح، التفسير، باب ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] (ح ٤٧٧٧).

(٦) باب سؤال جبريل النبي ﷺ (ح ٥٠). (٧) الصحيح، الإيمان (ح ٩).

(٨) كذا في (ح) و(حم) ومسند الإمام أحمد، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «بهز».

والحساب والميزان، وتؤمن بالقدر كله: خيره وشره» قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: «إذا فعلت ذلك فقد آمنت» قال: يا رسول الله حدثني ما الإحسان؟ قال رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك» قال: يا رسول الله فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «- سبحان الله - في خمس لا يعلمهن إلا هو: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٤) ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك، قال: أجل يا رسول الله، فحدثني، قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الأمة ولدت ربتها - أو ربها - ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراتها» قال: يا رسول الله ومن أصحاب الشاء الحفاة الجياع العالة؟ قال: «العرب»^(١). حديث غريب، ولم يخرجوه.

حديث رجل من بني عامر روى الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمة: «اخرجي إليه، فإنه لا يحسن الاستئذان، فقولي له فليقل: السلام عليكم، أأدخل؟» قال: فسمعتة يقول ذلك، فقلت: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن لي فدخلت، فقلت: بَمَ آتيتنا به؟ قال: «لم آتكم إلا بخير، آتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات، وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم» قال: فقال فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: «قد علّمني الله ﷻ خيراً، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ﷻ: الخمس ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢٤)»، وهذا إسناد صحيح.

وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد: جاء رجل من أهل البادية فقال: إن امرأتي حبلى، فأخبرني ما تلد، وبلادنا مجدية، فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمت متى ولدت، فأخبرني متى أموت فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قال مجاهد: وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(٣).

وقال الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾^(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٩٢/٥ - ٩٥ ح ٢٩٢٤)، وحسنه محققوه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٠٦/٣٨ ح ٢٣١٢٧)، قال محققوه صحيح لغيره. اهـ. وصححه سنده الحافظ ابن كثير.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيج به لكنه مرسل.

(٤) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف وفيه ذكر قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، والشطر الأول في صحيح البخاري من طريق =

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل أو نهار: ﴿وَيُنَزَّلُ الْغَيْثُ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود، وما هو: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل^(١).

وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة» فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير في مسند أسامة بن زيد: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة»^(٢).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن مطر بن [عكاش]^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضى الله ميتة عبد بأرض جعل له إليها حاجة»^(٤) وهكذا رواه الترمذي في القدر من حديث سفيان الثوري به، ثم قال: حسن غريب، ولا يعرف لمطر عن النبي ﷺ غير هذا الحديث^(٥)، وقد رواه أبو داود في المراسيل، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن أبي المليح بن أسامة، عن أبي عزة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال - بها حاجة»^(٦) وأبو عزة هذا هو [يسار]^(٧) بن عبيد الله، ويقال ابن عبد الهذلي. وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل [بن إبراهيم وهو ابن عُليّة، وقال: صحيح^(٨).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني، حدثنا المؤمل بن إسماعيل^(٩)،

= الشعبي عن مسروق عن عائشة بنحوه (الصحيح، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾... [الجن] ح ٧٣٨٠).

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ١/١٧٨ ح ٤٦١)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/١٩٦).

(٣) كذا في (ج) و(حم) ومسند أحمد، وفي الأصل صحف إلى: «عكاش».

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٦/٣٠٨ ح ٢١٩٨٣) وقال محققوه: صحيح لغيره.

(٥) سنن الترمذي، القدر، باب ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتب لها (ح ٢١٤٦)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/٤٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٤/٣٠١ ح ١٥٥٣٩)، وصححه سند محققوه.

(٧) كذا في (ج) و(حم) وسنن الترمذي، وفي الأصل صحف إلى: «بشار».

(٨) السنن، القدر، باب ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتب لها (ح ٢١٤٧).

(٩) زيادة من (ج) و(حم).

حدثنا عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن أبي عزة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن ثابت الجحدري ومحمد بن يحيى القطعي قالا: حدثنا عمر بن علي، حدثنا إسماعيل، عن قيس، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة» ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عمر بن علي المقدمي (٢).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني سليمان بن أبي شيخ قال: أنشدني محمد بن الحكم لأعشى همدان:

فما تزودَ مما كان يَجْمَعُهُ سوى حنوطٍ (٣) غداةَ البينِ مع خرق
وغيرَ نفحةِ أعوادٍ تُشَبُّ له وقلّ ذلك من زادٍ لمنطلق
لا تأسَيْنَ على شيءٍ فكلّ فتى إلى منيته سَيَّارٌ (٤) في عَنَقِي
وكلّ من ظنَّ أن الموتَ يُخِطُّه مُعَلَّلٌ بأعاليل من الحَمَقِ
بأيّما بلدةٍ تُقَدَّرُ منيَّتهُ إن لا يُسَيَّرَ إليها طائِعاً يُسَقِ

أورده الحافظ ابن عساكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث (٥)، وهو أعشى همدان، وكان الشعبي زوج أخته، وهو مزوج بأخت الشعبي أيضاً، وقد كان ممن طلب العلم والتفقه، ثم عدل إلى صناعة الشعر فعرف به.

وقد روى ابن ماجه، عن أحمد بن ثابت وعمر بن شبة، كلاهما عن عمر بن علي مرفوعاً: إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبته له إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أثره قبضه الله ﷻ، فتقول الأرض يوم القيامة: ربّ هذا ما أودعنتي (٦).

قال الطبراني: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن

(١) تقدم صحته بدون ذكر قراءة الآية، ولعل هذه الزيادة من أخطاء مؤمل بن إسماعيل لأنه صدوق سيء الحفظ (التقريب ص ٥٥٥).

(٢) أخرجه البزار (المسند رقم ١٨٩٩)، وأخرجه ابن ماجه من طريق أحمد بن ثابت الجحدري به، وصححه البوصيري (السنن، الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له ح ٤٢٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٤٣٨)، وأخرجه الحاكم من طريق محمد بن خالد الوهبي عن إسماعيل بن أبي خالد به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٦٧).

(٣) في تاريخ دمشق بلفظ: «إلا حنوطاً».

(٤) في تاريخ دمشق: يسير.

(٥) أخرجه ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله بن أحمد الصفار، عن أبي بكر بن أبي الدنيا به (تاريخ دمشق ٤٠/ ٤٤٣) تحقيق سكيّنة الشهابي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٦) تقدم تخريجه في الرواية السابقة.

أبي المليح عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال: «ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له إليها حاجة»^(١).

آخر تفسير سورة لقمان.

والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) تقدم تخريجه قبل خمس روايات.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

[وهي مكية^(١)]

روى البخاري في كتاب الجمعة: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السجدة و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١]^(٢). ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثوري به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا الحسن بن صالح، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السجدة، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ﴾ [الملك: ١]، تفرد به أحمد^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين: أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ أي: يتبعون الحق.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء،

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ح ٨٩١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٦/٢٣ ح ١٤٦٥٩)، وصححه محققوه بالمتابعات. وصححه أيضاً بالمتابعات الألباني (السلسلة الصحيحة ح ٥٨٥، وصحيح الأدب المفرد ح ١٩١٧).

المدير لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقد أورد النسائي ههنا حديثاً فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثني محمد بن الصباح، حدثني أبو عبيدة الحداد، حدثنا الأخضر بن عجلان، عن ابن جريج المكي، عن عطاء، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الإثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، وخلق من آدم الأرض: أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث»^(١). هكذا أورد هذا الحديث إسناداً وممتناً، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضاً من حديث حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق^(٢).

وقد علله البخاري في كتاب التاريخ الكبير فقال: وقال بعضهم: أبو هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح^(٣)، وكذا علّله غير واحد من الحفاظ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ﴾ أي: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعُلَمَاءِ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق]، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد وقتادة والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مسيرة خمسمائة^(٤) عام، ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: المدير لهذه الأمور، الذي هو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته،

(١) أخرجه النسائي بسنده ومثته (السنن الكبرى، التفسير ح ١٠١٠) وقد اختلف في مثته قديماً وحديثاً وهو في صحيح مسلم كما يأتي.

(٢) صحيح مسلم، صفات المنافقين وأحكامهم، باب ابتداء الخلق وخلق آدم ﷺ (ح ٢٧٨٩)، والسنن الكبرى للنسائي (ح ١١٠١).

(٣) التاريخ الكبير ١/٤١٣.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ليث عنه، وليث هو ابن أبي سليم فيه مقال، وفي سننه أيضاً ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف ويتقوى بما يليه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جوير عنه.

لوهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل^(١).

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها.
وقال مالك، عن زيد بن أسلم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء^(٢) كأنه جعله من المقدم والمؤخر، ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٨) أي: يتناسلون كذلك من نطفة من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني: آدم لما خلقه من تراب، خلقاً سوياً مستقيماً ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يعني: العقول ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله ﷻ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه ﷻ.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (١٠) ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أننا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة إبراهيم، وقد سُمِّيَ في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم وتناولها ملك الموت.

قال مجاهد: حُوت له الأرض فجعلت مثل الطُّست يتناول منها متى يشاء^(٣)، ورواه زهير بن محمد، عن النبي ﷺ بنحوه مرسلًا، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما^(٤).

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقري، حدثنا عمرو بن شمر،

(١) زيادة من (ح) و(حم). (٢) سنده صحيح.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد بلفظ: «جويب له الأرض...» لكنه مرسل.

(٤) رواية زهير بن محمد عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، ورواية ابن عباس عزاه السيوطي إلى الكلبي عن أبي صالح عنه وهو سند ضعيف جداً.

عن جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ: «يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن»، فقال ملك الموت: يا محمد طب نفساً وقرّ عيناً، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم أن ما في الأرض بيت مدرّ ولا شعر في برّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات، حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها. قال جعفر: بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان، ولقّنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة^(١).

وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهداً يقول: ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدرّ إلا وملك الموت يطوف به كل يوم مرتين^(٢).
وقال كعب الأحبار: والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه^(٣)، رواه ابن أبي حاتم.
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وحالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله ﷻ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم؛ أي: من الحياء والخجل يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أي: إلى دار الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يُوقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُنْكَدِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ الآية [الأنعام: ٢٧]، وقال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك. ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يقال لأهل النار

(١) سنده ضعيف جداً لأن عمرو بن شمر: متروك (ينظر: الإصابة ٢/٢٧٧) وفي متنه نكارة.

(٢) سنده مرسل.

(٣) سنده مرسل.

على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾ أي: سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الباقية: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ٧٤ ﴿إِلَّا حِمِيمًا مَّسْفُوفًا﴾ ٧٥ ﴿حَرَّاءَ وَفَاقًا﴾ ٧٦ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ٧٧ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ ٧٨ ﴿وَكُلُّ شَوْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ٧٩ ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ٨٠ [النبأ].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ١٥ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ١٦ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٧.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن أتباعهم والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني: بذلك قيام الليل وترك النوم والإضطجاع على الفرش الوطيئة.

قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني: بذلك قيام الليل^(١).

وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبي حازم وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين^(٢).

وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة^(٣). ورواه ابن جرير بإسناد جيد.

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة في جماعة.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً من وبال عقابه وطمعاً في جزييل ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الحسن أخرجه أبو داود بسند صحيحه الألباني عن الحسن. (سنن أبي داود، الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل ح ١٣٢١، وصحيح سنن أبي داود ح ١١٧٣).

(٢) قول أنس أخرجه الطبري بإسناد صحيح من طريق قتادة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بإسناد صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول ابن المنكدر وأبي حازم أخرجاها محمد بن نصر في مختصر قيام الليل ص ٩ والبيهقي في السنن الكبرى ١٩/٣.

(٣) أخرجه الطبري والترمذي كلاهما عن عبد الله بن أبي زياد عن عبد الله الأوسي عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد عن أنس وقال الترمذي: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. (السنن، التفسير، باب ومن سورة السجدة ح ٣١٩٦) وجود سنده الحافظ ابن كثير.

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطعاً
[أرانا الهدى بعد العمى، فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع]^(١)
ببيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
وقال الإمام أحمد: حدثنا روح وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب،
عن مروة الهمداني، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من
وطائه ولحافه من بين حيه وأهله إلى صلاته فيقول ربنا: أيا ملائكتي انظروا إلى عبدي، ثار من
فراشه ووطائه من بين حيه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، ورجل غزا في
سبيل الله تعالى فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار وما له في الرجوع، فرجع حتى أهرق دمه رغبة
فيما عندي وشفقة مما عندي، فيقول الله ﷻ للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي
ورغبة مما عندي حتى أهرق دمه»^(٢). وهكذا رواه أبو داود في الجهاد عن موسى بن إسماعيل،
عن حماد بن سلمة به بنحوه^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي
وائل، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير
فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم
وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة،
وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة
تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، حتى
بلغ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت:
بلى يا رسول الله فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في
سبيل الله»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه ثم قال:
«كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: «ثكلتك أمك يا
معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد
الاستنهم»^(٤)، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم من طرق عن معمر به. وقال
الترمذي: حسن صحيح^(٥).

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٦١/٧ - ٦٢ ح ٣٩٤٩)، وحسن سنده محققوه، ونقلوا عن الدارقطني تصحيحه موقوفاً.

(٣) السنن، الجهاد، باب في الرجل يشري نفسه (ح ٢٥٣٦) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٢٢١١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٦/٣٤٤ ح ٢٢٠١٦)، وصححه سنده محققوه بالمتابعات والشواهد.

(٥) سنن الترمذي، الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (ح ٢٦١٦) وقال: حسن صحيح، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] (ح ١١٣٩٤)، وسنن ابن ماجه، الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (ح ٣٩٧٣) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٢٠٩).

ورواه ابن جرير من حديث شعبة، عن الحكم قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تكَفِّرُ الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل»، وتلا هذه الآية ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١)، ورواه أيضاً من حديث الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن الحكم، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ، عن النبي ﷺ بنحوه. ومن حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، والحكم عن ميمون بن أبي شبيب^(١)، عن معاذ مرفوعاً بنحوه. ومن حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النجود، عن شهر، عن معاذ أيضاً، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ قال: «قيام العبد من الليل»^(٢).

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا فطر بن خليفة، عن حبيب بن أبي ثابت والحكم وحكيم بن جرير، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال: «إن شئت أنبأتك بأبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣).

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: ليقيم الذين كانت ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، فيقومون وهم قليل»^(٤).

وقال البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا الوليد بن العطاء بن الأغبر، حدثنا عبد الحميد بن سليمان، حدثني مصعب، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: قال بلال: لما نزلت هذه الآية: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، كُنَّا نجلس في المجلس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلُّون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ ثم قال: لا نعلم روى أسلم، عن بلال سواه، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية؛ أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحِفَتْ إلى: «سبيب».

(٢) أخرج هذه الروايات كلها الطبري بالأسانيد نفسها ويقوي بعضها بعضاً، ويشهد لها جميعاً الرواية الصحيحة السابقة.

(٣) أخرجه الحاكم من طريق حبيب بن أبي ثابت به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤١٢ - ٤١٣) ويشهد له ما سبق.

(٤) سنده ضعيف فيه سويد بن سعد وشهر وكلاهما فيهما مقال.

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٢٢٥٠) وسنده ضعيف لضعف عبد الله بن سبيب (مجمع الزوائد ٩٠/ ٧).

أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً، فإن الجزاء من جنس العمل.
قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم، فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر^(١). رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاري: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. قال: وحدثنا سفيان، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال الله مثله. قيل لسفيان: رواية؟ قال: فأي شيء^(٢)؟ ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة به. وقال الترمذي: حسن صحيح^(٣).

ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذخراً من بله ما اطلعتم عليه»، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤). قال أبو معاوية عن الأعمش، عن أبي صالح: قرأ أبو هريرة: «قُرَّتْ أَعْيُنٌ». انفرد به البخاري من هذا الوجه^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(٦) أخرجاه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق^(٧)، ورواه الترمذي في التفسير، وابن جرير من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ بمثله، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٨).

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت بن أبي رافع، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال حماد: أحسبه عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين

(١) أخرجه الطبري بسند فيه ابن وكيع وهو سفيان وفيه مقال، ورواية ابن أبي حاتم دائماً فيها متابعة لسفيان لكن هذا الجزء والجزء الباقي من تفسير ابن أبي حاتم مفقود.

(٢) أخرجه البخاري بسنديه ومثنيه (الصحيح، التفسير، سورة السجدة باب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ح ٤٧٧٩).

(٣) صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها (ح ٢٨٢٤)، وسنن الترمذي التفسير، باب ومن سورة السجدة (ح ٣١٩٧).

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثته. (المصدر السابق ح ٤٧٨٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣١٣/٢) وسنده صحيح.

(٦) أخرجه من طريق معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة، صحيح البخاري، التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] (ح ٧٤٩٨).

(٧) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الواقعة (ح ٣٢٩٢) وتفسير الطبري.

رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به^(١).
وروى الإمام أحمد: حدثنا هارون، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، أن أبا حازم حدثه
قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه
الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
على قلب بشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿نَجَافِي جُثُوبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾^(٢).
وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف وهارون بن سعيد، كلاهما عن ابن وهب
به^(٣).

وقال ابن جرير: حدثني العباس بن أبي طالب، حدثنا معلى بن أسد، حدثنا سلام بن أبي
مطيع، عن قتادة، عن عقبة بن عبد الغافر، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ يروي عن
ربه ﷻ قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب
بشر»^(٤). لم يخرجوه.

وقال مسلم أيضاً في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر وغيره، حدثنا سفيان، حدثنا مطرف بن
طريف وعبد الملك بن سعيد، سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال: سمعته على المنبر
يرفعه إلى النبي ﷺ قال: سأل موسى عليه السلام ربه ﷻ: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل
يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي ربّ كيف وقد نزل
الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكٍ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟
فيقول: رضيت ربّ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله، ومثله فقال في الخامسة، رضيت
ربي، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت ربّ،
قال: ربّ فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم
تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصادقه من كتاب الله ﷻ: ﴿فَلَا
تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية^(٥)، ورواه الترمذي، عن ابن أبي عمر وقال: حسن
صحيح. قال: ورواه بعضهم عن الشعبي، عن المغيرة ولم يرفعه، والمرفوع أصح^(٦).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن منير المدائني، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا
زياد بن خيثمة، عن محمد بن جحادة، عن عامر بن عبد الواحد قال: بلغني أن الرجل من أهل
الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول: قد آن
لك أن يكون لنا منك نصيب، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من الميزد، فيمكث معها سبعين
سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه، فتقول له: قد آن لك أن يكون لنا منك
نصيب، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا التي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

(١) صحيح مسلم، الجنة، باب في دوام نعيم أهل الجنة (ح ٢٨٣٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٣٤/٥) وسنده صحيح.

(٣) المصدر السابق (ح ٢٨٣٥). (٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، ويشهد له ما سبق.

(٥) صحيح مسلم، الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة (ح ١٨٩).

(٦) سنده مرسل، ومثته فيه نكارة.

وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير قال: تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ويخبرون أن الله عنهم راضٍ^(١).

وروى ابن جرير: حدثنا سهل بن موسى الرازي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أبي اليمان الهوزني - أو غيره -، قال: الجنة مائة درجة، أولها درجة فضة، وأرضها فضة، ومساكنها فضة، وأنيتها فضة، وترابها المسك، والثانية ذهب، وأرضها ذهب، ومساكنها ذهب، وأنيتها ذهب، وترابها المسك، والثالثة لؤلؤ، وأرضها لؤلؤ، ومساكنها اللؤلؤ، وأنيتها اللؤلؤ، وترابها المسك، وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر^(٢)، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا معتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، عن الروح الأمين قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ينقص بعضها من بعض، فإن بقيت حسنة واحدة وسَّعَ الله له في الجنة»، قال: فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا الحديث، قال: فقلت: فأين ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنفَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف]، قلت: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ قال: العبد يعمل سرّاً أسره إلى الله لم يعلم به الناس، فأسرَّ الله له يوم القيامة قُرَّةَ أَعْيُنٍ^(٣).

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ (٢٠) وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَنَّهُمْ رَجَعُوا (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ (٢٢).

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً؛ أي: خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً لرسول الله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّجْزِيهِمْ وَمَنَّا هُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

(١) سنده مرسل.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده مرسل وفيه تردد الراوي بقوله أو غيره.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفيه الغطريف هو أبو هارون بن عبيد الله اليماني (كذا في المستدرک ٤/ ٢٥٢)، أو العماني ذكره ابن أبي حاتم والبخاري وسكتا عنه. وأخرجه الحاكم من طريق مسدد عن المعتمر به وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٤/ ٢٥٢).

الْجَنَّةَ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٢٢﴾ [الحشر]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: عند الله يوم القيامة.

وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط^(١)، ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ أي: التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، كقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

قال الفضيل بن عياض: «والله إن الأيدي لموثقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم» ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما، وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا إليه^(٢). وروي مثله عن أبي بن كعب وأبي العالية والحسن وإبراهيم النخعي والضحاك وعلقمة وعطية ومجاهد وقتادة وعبد الكريم الجزري وخصيف^(٣).

وقال ابن عباس في رواية عنه: يعني به إقامة الحدود عليهم^(٤).

وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر^(٥).

وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة، عن عبد الله ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ

(١) قول عطاء بن يسار أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار، وسنده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق، وقول السدي عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم والسدي فيه تشيع، وأخرجه الواحدي (أسباب النزول ص ٢٩١)، وابن عساكر (تاريخ دمشق ٢٣٥/٦٣ و ١٧ ل ٨٧٦ صورة عن النسخة الظاهرية)، كلاهما من طريق عبيد الله بن موسى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وقال الذهبي: إسناده قوي، لكن سياق الآية يدل على أنها في أهل النار. (سير أعلام النبلاء ٤١٥/٣) لكن فيه وعبيد الله بن موسى فيه تشيع.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.

(٣) قول أبي بن كعب أخرجه الطبري من عدة طرق عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عنه، وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً، وقول أبي العالية أخرجه الطبري والبيهقي (شعب الإيمان رقم ٩٨٢٢)، كلاهما بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وقول الحسن وقتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن، وقول النخعي أخرجه ابن أبي شيبه بسند صحيح من طريق منصور عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جوير عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عكرمة، عن ابن عباس.

(٥) قول البراء لم أجده، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي يحيى عنه، وأبو يحيى هو القنات وهو لين الحديث (التقريب ص ٦٨٤)، وقول أبي عبيدة أخرجه هناد (الزهد رقم ٣٤٥).

الْأَكْبَرِ ﴿١﴾ قال: سنون أصابتهم^(١).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني عبد الله بن عمر القواريري، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن عروة، عن الحسن العُرنِي، عن يحيى الجزار، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب في هذه الآية: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى ذُو الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: القمر والدخان قد مضيا والبطشة واللزام^(٢). ورواه مسلم من حديث شعبة به موقوفاً نحوه^(٣). وعند البخاري، عن ابن مسعود نحوه^(٤).

وقال عبد الله بن مسعود أيضاً في رواية عنه: العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر^(٥)، وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم^(٦).

قال السدي وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير، فأصيبوا أو غرموا، ومنهم من جمع له الأمران.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدتها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها.

قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغترأ أكبر الغرّة، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

وروى ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا محمد بن المبارك، حدثنا إسماعيل بن [عياش]^(٧)، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله، عن عبادة بن نسي، عن جُنادة بن أبي أمية، عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله يقول: ثلاث من فعلهن فقد أجرم: من عقد لواء في غير حق، أو عَقَّ والديه، أو مشى مع ظالم ينصره فقد أجرم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾^(٨). ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش به وهذا حديث غريب جداً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ﷺ أنه آتاه الكتاب، وهو التوراة، وقوله

(١) أخرجه النسائي بسنده ومثته (السنن الكبرى، التفسير، ح ١١٣٩٥) وسنده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٢٨/٥) وسنده صحيح.

(٣) صحيح مسلم، صفات المنافقين، باب نزول أهل الجنة (ح ٢٧٩٩).

(٤) صحيح البخاري، التفسير، سورة الدخان (ح ٤٨٢٠).

(٥) أخرجه سفيان الثوري عن السدي عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود وسنده حسن، وأخرجه الحاكم من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي الضحى به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤١٤/٢).

(٦) سنده صحيح.

(٧) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «عباس».

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف عبد العزيز بن عبيد الله وهو الحمصي.

تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء.

ثم روي عن أبي العالية الرياحي قال: حدثني ابن عم نبيكم؛ يعني ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أريت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكا خازن النار والدجال» في آيات أراهن الله إياه ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به^(١).

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن علي الحلواني، حدثنا روح بن عبادة. حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قال: جعل موسى هدى لبني إسرائيل^(٢). وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ قال: من لقاء موسى ربه ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتينا به ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجه، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدّلوا وحرفوا وأولّوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً، ولهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾.

قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا، وكذلك قال الحسن بن صالح، قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامي عن الدنيا.

قال وكيع: قال سفيان: لا بدّ للدين من العلم، كما لا بدّ للجسد من الخبز.

وقال ابن بنت الشافعي: قرأ أبي على عمّي أو عمّي على أبي: سئل سفيان عن قول علي ﷺ: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً.

قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَوَدَّعْنَاهُمْ مِّنَ الطِّبَّتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ] ﴿١١﴾ وَأَتَيْنَاهُم بَيْنَتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ [الجاثية] كما قال هنا^(٣): ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أي: من الاعتقادات والأعمال.

(١) تقدم تخريجه في بداية تفسير سورة الإسراء.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومثته (المعجم الكبير ١٢/١٦٠ ح ١٢٧٥٨) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/٩٠) ولكن في سنده شيخ الطبراني: محمد بن عثمان بن أبي شيبة كذبه الإمام أحمد وقال ابن خراش كان يضع الحديث.

(ينظر لسان الميزان ٥/٢٨٠).

(٣) زيادة من (ح) و(حم).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر؟ ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي: هؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون منها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢] كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] وقال: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْطَلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٥٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج] ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، آيات وعبراً ومواعظ ودلائل متناظرة.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم كيف كان أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السبح، وهو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلِنَّا لَجَعَلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٨] أي: ييساً لا تنبت شيئاً، وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين أيضاً، لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطر في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً.

قال ابن لهيعة: عن قيس بن حجاج عمن حدثه قال: لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص، حين دخل بؤنة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إن كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا بؤنة^(١) والنيل لا يجري حتى هموا بالجلء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه

(١) أي: أقاموا شهراً وهو ما يسمى بؤنة عند العجم كما تقدم في بداية الرواية.

عمر: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها، فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله أن يجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم^(١).
رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب السنة له، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٧) ﴿كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلًّا (٣٠) وَفَنَكَمَهُ وَأَبَّا (٣١) مَتَاعًا لَّكَزًا وَلَآئِمًا (٣٢)﴾ [عبس]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقال ابن أبي نجیح: عن رجل عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ قال: هي التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول^(٢).
وعن ابن عباس ومجاهد: هي أرض باليمن^(٣).
وقال الحسن رضي الله عنه: هي قرى بين اليمن والشام^(٤).
وقال عكرمة والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد: الأرض الجزر التي لا نبات فيها، وهي مغبرة^(٥).

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّمُّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٥) [يس].

﴿وَقِيلُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ لَدُنَّا أَلْفَتْحًا لَّكَ﴾ (٣٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٣٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ (٤٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿وَقِيلُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ لَدُنَّا أَلْفَتْحًا﴾ أي: متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً علينا وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختلفين خائفين

- (١) سنده ضعيف لإبهام شيخ قيس بن حجاج.
- (٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري كلاهما من طريق ابن أبي نجیح به، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس رضي الله عنه.
- (٣) أخرجه البُستي والطبري بسند صحيح من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن ابن أبي نجیح عن مجاهد.
- (٤) قول الحسن عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.
- (٥) قول عكرمة والسدي عزاها السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جوير عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «المغبرة».

ذليلين، قال الله تعالى: ﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حلَّ بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية [غافر: ٨٣].

ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى: ﴿قَدْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: ١١٨] الآية، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] وقال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ [آي: ٢٥] أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٦]، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعد وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ أي: أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِكَ رَبِّهِ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ١٧] وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأيدك، وسيجدون غباً ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

آخر تفسير سورة السجدة، والله الحمد والمنة.

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

[وهي^(١) مدنية

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا خلف بن هشام، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن زَرٍّ قال: قال لي أبي بن كعب: كَأَيِّنَ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ أَوْ كَأَيِّنَ تَعْدُهَا؟ قال: قلت ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم^(٢)، ورواه النسائي من وجه آخر عن عاصم وهو ابن أبي النجود^(٣)، وهو [ابن]^(٤) بهدلة به، وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَنْتَ اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يَأْتَمِرَ مِنْ دُونِهِ بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى.

وقد قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: من قرآن وسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية، وتوكل على الله؛ أي: في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأتاب إليه.

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائده بسنده ومثله (المسند ١٣٢/٥)، وسنده حسن، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٣٥٩/٤).

(٣) السنن الكبرى، الرجم، باب نسخ الجلد عن الثيب (٧١٥٠).

(٤) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إِلَى: «أبوه».

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (١) أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢).

يقول تعالى موطناً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عليّ كظهر أمي أمّاً له، كذلك لا يصير الدعيّ ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ كقوله ﷺ: ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِن أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة ﷺ مولى النبي ﷺ (١)، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له: زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٢) [الأحزاب] وقال ههنا: ﴿ ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ يعني: تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون أبوان كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان.

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ قال سعيد بن جبير: ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أي: العدل (٢). وقال قتادة: ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أي: الصراط المستقيم (٣).

وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش كان يقال له ذو القليبين، وأنه كان يزعم أن له قليبين كل منهما بعقل وافر، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردّاً عليه. هكذا روى العوفي، عن ابن عباس، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة (٤) واختاره ابن جرير (٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، عن قابوس يعني: ابن أبي ظبيان، قال: إن أباه حدثه قال: قلت لابن عباس: رأيت قول الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ما عني بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قليبين: قلباً معكم وقلباً معهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (٦). وهكذا

(١) سيأتي تخريجه في الروايات التالية.

(٢) معناه صحيح.

(٣) معناه صحيح.

(٤) قول العوفي عن ابن عباس أخرجه الطبري وسنده ضعيف ويتقوى بالمراسيل التالية: وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق خصيف عنه، وقول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٥) رجحه الطبري.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٣٣/٤ ح ٢٤١٠)، وضعف سنده محققوه لضعف قابوس.

رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن صاعد الحراني، وعن عبد بن حميد، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن زهير وهو: ابن معاوية به. ثم قال: وهذا حديث حسن^(١)، وكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير به^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل: يقول ليس ابن رجل آخر ابنك^(٣)، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد أنها نزلت في زيد بن حارثة رضي الله عنه^(٤)، وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط والبر.

قال البخاري رحمته الله: حدثنا مَعْلَى بن أسد، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن موسى بن عقبة قال: حدثني سالم، عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٥). وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي من طرق، عن موسى بن عقبة به^(٦).

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنه: يا رسول الله إنا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه» الحديث^(٧).

ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعوي، وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال ﷺ: ﴿لَيْكِي لَا يَكُونَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقال تبارك وتعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] احترازاً عن زوجة الدعوي فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة فمَنْزِل منزلة ابن الصلب شرعاً بقوله ﷺ في الصحيحين: «حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ

(١) السنن، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣١٩٩) وسنده كسابقه.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده كسابقه وأخرجه الحاكم من طريق زهير بن معاوية وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: قابوس ضعيف (المستدرک ٢/ ٤١٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثته، وسنده صحيح لكنه مرسل ويتقوى بالمراسيل التالية.

(٤) قول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومثته (الصحيح) تفسير سورة الأحزاب، باب ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] (ح ٤٧٨٢).

(٦) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب فضل زيد بن حارثة رضي الله عنه (ح ٢٤٢٥)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣٢٠٩)، والسنن، التفسير (ح ١١٣٩٧).

(٧) أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (الصحيح)، الرضاع، باب رضاعة الكبير (ح ١٤٥٣).

من النسب»^(١)، فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهى عنه في هذه الآية بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي، من حديث سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن [الحسن العُرنِي] ^(٢)، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدّمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب على حمراء لنا من جُمع ^(٣)، فجعل يُلطخ ^(٤) أفخاذنا ويقول: «أُبَيِّنِي لَا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس» ^(٥)، قال أبو عبيدة وغيره: أُبَيِّنِي تصغير بني وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر.

وقوله: «أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ» في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففي صحيح مسلم من حديث أبي عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكري، عن الجعد أبي عثمان البصري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ» ^(٦)، ورواه أبو داود والترمذي ^(٧).

وقوله ﷺ: «فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ» أمر تعالى بردّ أنساب الأعداء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا آباءهم فهم إخوانهم في الدين ومواليهم؛ أي: عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي: يا عمّ يا عمّ، فأخذها علي رضي الله عنه وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك، فاحتملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنه في أيّهم يكفلها، فكلّ أدلى بحجة، فقال علي رضي الله عنه: أنا أحقُّ بها وهي ابنة عمي: وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي وخالتها تحتي؛ يعني: أسماء بنت عميس، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك». وقال لجعفر رضي الله عنه: «أشبهت خلقي وخلقي».

وقال لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» ^(٨)، ففي الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ حكم بالحق، وأرضى كلاً من المتنازعين. وقال لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» كما قال تعالى: «فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ».

(١) أخرجه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه (صحيح البخاري، النكاح، باب «وَأَنهَنُكُمُ النِّسَى أَنزَعَنُكُمُ» [النساء: ٢٣] ح ٥٠٩٩)، وصحيح مسلم، الرضاع، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة (ح ١٤٤٤).

(٢) كذا في (ح) و(حم) والتخريج، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «الحسن العوفي».

(٣) أي: مزدلفة.

(٤) أي: يضرب.

(٥) أخرجه الإمام أحمد، المسند (٣/ ٥٠٨ ح ٢٠٨٩)، وصححه محققوه بالشواهد، وأخرجه أبو داود (السنن، المناسك، باب التعجيل من جُمع ح ١٩٤٠)، والنسائي (السنن، الحج، باب النهي عن رمي جمره العقبة قبل طلوع الشمس ٥/ ٢٧٠)، وابن ماجه (السنن، الحج، باب من تقدم من جُمع إلى منى ح ٣٠٢٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٢٤٥١).

(٦) صحيح مسلم، الآداب، باب جواز قوله لغير ابنه: يا بُنَيَّ (ح ٢١٥١).

(٧) سنن أبي داود، الأدب، باب في الرجل يقول لابن غيره: يا بُنَيَّ (ح ٤٩٦٤)، وسنن الترمذي، الأدب، باب ما جاء في: يا بُنَيَّ (ح ٢٨٣١).

(٨) أخرجه البخاري من حديث البراء رضي الله عنه مطولاً (الصحيح، الصلح، باب كيف يُكتب «هذا ما صالح فلان بن فلان...» ح ٢٦٩٩).

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: قال الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِاخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾، فأنا ممن لا يعرف أبوه فأنا من إخوانكم في الدين، قال أبي: والله إنني لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتفى إليه ^(١).

وقد جاء في الحديث: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه كفر» ^(٢). وهذا تشديد وتهديد ووعد أكيد في التبري من النسب المعلوم، ولهذا قال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِاخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى أمراً عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: قد فعلت» ^(٣).

وفي صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر» ^(٤).

وفي حديث آخر: «إن الله تبارك وتعالى رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما يكرهون عليه» ^(٥). وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل، كما قال صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغَفْوَةِ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ بِالْآيَةِ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. وفي الحديث المتقدم: «[ليس من رجل]» ^(٦) ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر» ^(٧). وفي القرآن المنسوخ: فإن كفرأ بكم أن ترغبوا عن آبائكم ^(٨).

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، ثم قال: قد كنا نفرأ: ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام فإنما أنا عبد الله، فقولوا عبده ورسوله» وربما قال معمر: «كما أطرت النصارى ابن مريم» ^(٩).

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه بنحوه (الصحيح، المناقب، باب رقم ٥ ح ٣٥٠٨).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٨٦. (٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنبياء آية ٧٩.

(٥) تقدم تخريجه في آخر تفسير سورة الأعراف آية ١٥٧.

(٦) كذا في صحيح البخاري كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفي النسخ الخطية بلفظ: «من».

(٧) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

(٨) لم أجد تخريجه حتى في كتب الناسخ والمنسوخ.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١/ ٤١٤ ح ٣٣١)، وصححه سنداه محققوه.

ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم»^(١).

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

قد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته ونصحة لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: «فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا»^(٢) [النساء]. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»^(٣).

وفي الصحيح أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال صلى الله عليه وسلم: «الآن يا عمر»^(٤). ولهذا قال تعالى في هذه الآية ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فليح، حدثنا أبي، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأَيُّما مؤمن ترك مالا فليورثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»^(٥)، تفرد به البخاري ورواه أيضاً في الاستقراض^(٦)، وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن فليح به مثله، ورواه أحمد من حديث أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأَيُّما رجل مات وترك ديناً فإلي، ومن ترك مالا فهو لورثته»^(٨) ورواه أبو داود، عن أحمد بن حنبل به نحوه^(٩).

وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام،

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، (الصحيح، الجنائز، باب التشديد في النياحة ح ٩٣٤).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة التوبة آية ٢٤.

(٣) صحيح البخاري، الأيمان والنذور، باب كيف كان يمين النبي صلى الله عليه وسلم (ح ٦٦٣٢).

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثته، (صحيح البخاري، التفسير، سورة الأحزاب باب رقم (١) ح ٤٧٨١).

(٥) باب الصلاة على من ترك ديناً (ح ٢٣٩٩). (٦) (المسند ٢/٣٥٦).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٢/٦٤ ح ١٤١٥٨)، وصححه سننه محققوه.

(٨) سنن أبي داود، البيوع والإجازات، باب في التشديد في الدين (ح ٣٣٤٣)، وصححه الألباني في صحيح

سنن أبي داود (ح ٢٨٥٩).

ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعي رحمته الله في (المختصر)، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم، وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء رحمته الله، ونص الشافعي رحمته الله على أن يقال ذلك، وهل يقال لهن: أمهات المؤمنين فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليباً؟ وفيه قولان: صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لا يقال ذلك، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رحمته الله. وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قرآ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) ^(١). وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن ^(٢)، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي رحمته الله، حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود رحمته الله: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه». وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة ^(٣). وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث ابن عجلان ^(٤).

والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﷻ من المؤمنين والمهجرين أي: القربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قريباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ ^(٥)، وكذا قال سعيد بن جبير وغيره من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المصعب من ساكني بغداد، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: أنزل الله ﷻ علينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم وأورثناهم، فأخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد، وأخى عمر رضي الله عنه فلاناً،

(١) أخرجه الحاكم من طريق طلحة عن عطاء عن أبي عباس رضي الله عنه، وصححه وتعقبه بقوله: بل طلحة ساقط. (المستدرک ٤١٥/٢).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند فيه ابن وكيع وهو سفيان وفيه مقال.

(٣) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة ح ٨)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٦).

(٤) سنن النسائي، الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث ٣٨/١، وسنن ابن ماجه، الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة (ح ٣١٣).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنفال آية ٧٥.

وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق بن سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره، قال الزبير رضي الله عنه: وواخيت أنا كعب بن مالك فجئت فابتعلته، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، والله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى موارثنا^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يُبدل ولا يُغَيَّر، قاله مجاهد وغير واحد^(٢)، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨) [آل عمران]، فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الطرفين، والوسط الفاتح، والخاتم، ومن بينهما على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة الدمشقي، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ الآية. قال النبي ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث [فبدأ بي]^(٣) قبلهم»^(٤) سعيد بن بشير فيه ضعف، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة

(١) في سنده عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد (تهذيب التهذيب ١٧٢/٦ - ١٧٣)، والراوي عنه من أهل بغداد كما صرح ابن أبي حاتم، وهذه من دقة فنه في النقد أن يذكر الراوي إنه من ساكني بغداد.

(٢) لم أجد من أخرجه عن مجاهد أو غيره. (٣) زيادة من (ح) و(حم)، وفي الأصل بياض.

(٤) سنده ضعيف لضعف سعيد بن بشير.

مرسلاً وهو أشبه^(١)، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً: والله أعلم.

وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وخيرهم محمد ﷺ^(٢). موقوف وحمزة فيه ضعف.

وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام، كما قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم يعني ذريته، وأن فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: رب لو سويت بين عبادك، فقال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿وَلَاذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(٣). وهذا قول مجاهد أيضاً^(٤).

وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد^(٥).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدَقَاتِ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل^(٦).
وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: من أمهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٧) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قُورَيْكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(٨).

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا، وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور.

وقال موسى بن عقبة وغيره^(٩): كان في سنة أربع، وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من

(١) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً، وسنده صحيح إلى قتادة لكنه مرسل.

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٢٣٦٨)، وعلى الرغم مما قيل في حمزة، فإن معناه صحيح وله شواهد من القرآن والسنة، وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/٢٥٨).

(٣) سنده جيد.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «في ظهر آدم».

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويشهد له ما سبق.

(٦) أخرجه آدم والطبري كسابقه عن مجاهد. (٧) ذكره في البداية والنهاية (٤/٩٣).

أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبؤهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدها أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عُيينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي عليه السلام، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات. وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قُرُوبِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجال أن تصل إليهم، وجعل النساء والذراري في أطام^(١) المدينة، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حُبي بن أخطب النضري، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا الَّذِي اُبْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلِيلًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب] ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية، ركب ومعه فوارس، فاقترحوا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فيقال إنه لم يبرز أحد فأمر علياً عليه السلام فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله علي عليه السلام، فكان علامة النصر.

ثم أرسل الله ﷻ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا﴾^(٢).

قال مجاهد: وهي الصبا^(٣)، ويؤيده الحديث الآخر: «نُصِرْتُ بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»^(٤). وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عكرمة قال: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقني نصير رسول الله ﷺ، فقالت الشمال: إن الحرة لا

(١) الأطام جمع أطم: وهو البناء المرتفع.

(٢) هذه الغزوة وردت في صحيح البخاري في جملة من الأحاديث (كتاب المغازي، باب غزوة الخندق ح ٤٠٩٧ - ٤١٢٢)، وفي صحيح مسلم، الجهاد، باب غزوة الأحزاب (ح ١٧٨٨)، وسردها الحافظ ابن كثير مفصلة في البداية والنهاية (٩٣/٤ - ٩٩).

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه البخاري من طريق مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً (الصحيح، الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: نُصِرْتُ بالصبا ح ١٠٣٥).

تسري بالليل، قال: فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا^(١). ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، فذكره.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، حدثني عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: أتتنا بطعام ولحاف، قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال: «من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا»، قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال: فما يلوي أحد منهم عنق، قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، قال: فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأبعدها إلى الأرض^(٢).

وقوله: ﴿وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي، فيجتمعون إليه، فيقول: النجاء، النجاء لما ألقى الله ﷻ في قلوبهم من الرعب.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: يا أبا عبد الله رأيت رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. قال: قال حذيفة رضي الله عنه: يا ابن أخي والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل، ثم التفت فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ يشترط له النبي ﷺ أن يرجع أدخله الله الجنة»، قال: فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله، فما قام منا رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة، أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة» فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقدّم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال ﷺ: «يا حذيفة اذهب فأدخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا».

قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله ﷻ تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قراراً ولا ناراً ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال يا معشر قريش، لينظر كل امرئ من جلسه، قال حذيفة رضي الله عنه: فأخذت بيد الرجل إلى جنبي فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، ورجاله ثقات لكنه مرسل.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح.

عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل، فلما رأيته أدخلني بين رجله وطرح عليّ طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإنني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا^(١) راجعين إلى بلادهم^(٢).

وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجال: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر^(٣)، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة» فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله، ثم قال ﷺ: «يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم» فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال: «أتيتني بخبر القوم ولا تدعهم علي» قال: فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: لا تدعهم علي، ولو رميته لأصبته، قال: فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان»^{(٤)(٥)}.

ورواه يونس بن بكير عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم قال: إن رجلاً قال لحذيفة رضي الله عنه: نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ، إنكم أدركتموه ولم ندركه، ورأيتموه ولم نره، فقال حذيفة رضي الله عنه: ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه، والله لا تدري يا ابن أخي لو أدركته كيف كنت تكون، لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة، ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً^(٦). وروى بلال بن يحيى العبسي، عن حذيفة رضي الله عنه نحو ذلك أيضاً^(٧)، وقد أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال: ذكر حذيفة رضي الله عنه مشاهدتهم في رسول الله ﷺ فقال جلساؤه: أما والله لو شاهدنا ذلك كنا فعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة لليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق

(١) انشمروا: مطاوع شمرة، والمراد أسرعوا.

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وفيه عدم تصريح ابن إسحاق بالتحديث، وفيه أيضاً ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، ويتقوى بالروايات التالية.

(٣) القر: البرد. (٤) أي: كثير النوم.

(٥) صحيح مسلم، الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (ح ١٧٨٨).

(٦) أخرجه البيهقي من طريق يونس بن بكير به (دلائل النبوة ٤٥٤/٣)، وسنده مرسل ويشهد له السابق واللاحق.

(٧) أخرجه البيهقي من طريق بلال به (دلائل النبوة ٤٥٠/٣)، وأخرجه الحاكم من طريق بلال العبسي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٣/٣١).

وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم فيتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله رجلاً رجلاً، حتى أتى علي وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتني، قال: فأتاني ﷺ وأنا جاث على ركبتني فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة. قال: «حذيفة؟» فتقاصرت الأرض فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم، فقامت فقال: «إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم» قال: وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قهراً. قال: فخرجت فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته» قال: فوالله ما خلق الله تعالى فزعاً ولا قرأً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئاً، قال: فلما وليت، قال ﷺ: «يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتني»، قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني»، قال: فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي، ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرستهم^(١)، الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما انتصفت في الطريق أو نحواً من ذلك إذ أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملته يصلي، فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر، وجعلت أقرقف فأومأ إلي رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه فأسبل علي شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم، وأخبرته أنني تركتهم يرتحلون، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٢).

وأخرج أبو داود في سننه منه، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، من حديث عكرمة بن عمار به.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه بنو قريظة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي: شدة الخوف والفزع^(٣) ﴿وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك.

وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن

(١) فرستهم: فتكت بهم.

(٢) أخرجه البيهقي من طريق عكرمة بن عمار به (دلائل النبوة ٣/٤٥١) ويشهد له السابق واللاحق.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٤٥.

عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط^(١).

وقال الحسن في قوله ﷺ: ﴿وَتَطْمَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن [عاصم]^(٣) الأنصاري، حدثنا أبو عامر، (ح) وحدثنا أبي، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا الزبير يعني: ابن عبد الله مولى عثمان ﷺ، عن [رُبَيْح]^(٤) بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي سعيد ﷺ قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: نعم، قولوا: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح^(٥). وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي عامر العقدي^(٦).



﴿هَٰذَا الَّذِي آتَى الْمُؤْمِنُونَ زُلْزَلًا شَدِيدًا﴾ ١١ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ١٢ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْكُلُ يَتَرَبَّ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ١٣.

يقول الله تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزلاً شديداً، فحينئذٍ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ١٢، أما المنافق فنجم^(٧) نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة^(٨) لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال.

وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْكُلُ يَتَرَبَّ﴾ يعني: المدينة. كما جاء في الصحيح: «أريت في المنام دار هجرتكم، أرض بين حرتين، فذهب وهلي أنها هجر فإذا هي يثرب» وفي لفظ: المدينة^(٩).

(١) أخرجه البُستي بسند حسن من طريق وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن ابن إسحاق، وأخرجه ابن إسحاق مطولاً بأسانيد مرسله يقوي بعضها بعضاً كما في تفسير الطبري والسيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٤٦).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عوف - وهو الأعرابي -، عن الحسن البصري.

(٣) كذا في (حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «عصام».

(٤) كذا في (حم) والمُسند، وفي الأصل: «ريح» بدون نقط.

(٥) سنده ضعيف لأن رُبَيْح بن عبد الرحمن مقبول. (التقريب ص ٢٠٥).

(٦) أخرجه الإمام أحمد عن أبي عامر به (المُسند ١٧/٢٧ ح ١٠٩٩٦) وضعف سنده محققوه للسبب السابق.

(٧) نجم الشيء: طلع وظهر. ونجم له رأي: بدا.

(٨) الحسيكة: الحقد والعداوة.

(٩) أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ (صحيح البخاري، المناقب، علامات النبوة ح ٣٦٢٢، وصحيح مسلم، الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ ح ٢٢٧٢).

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا صالح بن عمر، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى، إنما هي طابة هي طابة»^(١) تفرد الإمام أحمد، وفي إسناده ضعف، والله أعلم. ويقال كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العمالق يقال له يثرب بن عبيل بن مهلايل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، قاله السهيلي^(٢). قال: وروي عن بعضهم أنه قال: إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة.

وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد في التوراة يقول الله تعالى للمدينة: يا طيبة ويا طابة ويا مسكينة [لا تُقْلِي الكنوز أرفع أحاجرك على أحاجر القرى]^(٣).

وقوله: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: ههنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المراقبة ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي: إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَنْزِلُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّارَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السراق^(٤)، وكذا قال غير واحد.

وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيطي^(٥)، يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة؛ أي: ليس دونها ما يحجبها من العدو، فهم يخشون عليها منهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي: ليست كما يزعمون ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: هرباً من الزحف.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ الْأَعْدَاءَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا وَلَا نَصِيرًا (١٧).

يخبر تعالى عن هؤلاء الدين ﴿يَقُولُونَ إِنْ يُؤْتِنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣] أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً، وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفرع، هكذا فسرهما قتادة وعبد الرحمن بن زيد^(٦) وابن جرير، وهذا ذمٌ لهم في غاية الذم. ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا يفرون من الزحف ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بعد هربكم وفراركم ﴿قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧].

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣/ ٤٨٣ ح ١٨٥١٩)، وضعف سنده محققوه لضعف يزيد بن أبي زياد.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٠٢. (٣) زيادة من (ح) و(حم).

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به. (٥) ذكره الطبري ابن هشام (السيرة النبوية ٢/ ٢٢٢).

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ؟ أَيْ: يمنعكم﴾ **﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾** أَيْ: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا معيذ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْقُوفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلَحَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب والقائلين لإخوانهم؛ أي: أصحابهم وعشرائهم وخطائهم **﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾** إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والشار، وهم مع ذلك **﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ أَيْ: بخلاء بالمودة والشفقة عليكم. وقال السدي: **﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾** أَيْ: في الغنائم^(١)، **﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾** أَيْ: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال **﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾** أَيْ: فإذا كان الأمن تكلّموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادّعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك. وقال ابن عباس رضي الله عنه: **﴿سَلَفُوكُمْ﴾** أَيْ: استقبلوكم.

وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة: أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم^(٢)، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق^(٣)، وهم مع ذلك أشحّة على الخير؛ أي: ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العوارك^(٤)

أَيْ: في حال المسالمة كأنهم الحمر، والأعيار جمع غير وهو الحمار، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض، ولهذا قال تعالى: **﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلَحَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾** أَيْ: سهلاً هيناً عنده.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُوتُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٩).

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف **﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾** بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم **﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُوتُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ﴾** أَيْ: ويودّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) البيت لهند بنت عتبة استشهد به ابن هشام (السيرة النبوية ١/٦٥٦).

البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جنهم وذلتهم وضعف يقينهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ﷻ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تفلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلاً اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعد الله لهم وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَوْتَىٰ نَصْرَ اللَّهِ ۖ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (١) [البقرة] أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص، وقد قررنا ذلك في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

ومعنى قوله جلت عظمتة: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

لما ذكر ﷻ عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولّون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، ويتقوى برواية قتادة التي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وأخرجها عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر، عن قتادة.

نَحَبُهُمْ ﴿١﴾ قال بعضهم: أجله^(١).

وقال البخاري: عهده^(٢). وهو يرجع إلى الأول ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه. قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها: لم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٣) تفرد به البخاري دون مسلم، وأخرجه أحمد في مسنده والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما من حديث الزهري به. وقال الترمذي: حسن صحيح^(٤).

وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثني أبي، عن ثمامة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية^(٥)، انفرد به البخاري من هذا الوجه، ولكن له شواهد من طرق أخر.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: قال أنس: عمي أنس بن النضر رضي الله عنه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبَ عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ﷻ ما أصنع. قال فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو أين واهأ^(٦) لريح الجنة إني أجده دون أحد قال: فقاتلهم حتى قُتِلَ رضي الله عنه، قال: فوجد في جسده بضع وثمانين بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته - عمتي الربيع ابنة النضر -: فما عرفت أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(٧) قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه رضي الله عنه^(٨). ورواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة به. ورواه النسائي أيضاً وابن جرير من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه به نحوه^(٩).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حميد، عن

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن البصري (ينظر فتح الباري ٥١٨/٨).

(٢) ذكره البخاري من غير نسبته إلى أحد (الصحيح، التفسير سورة الأحزاب، باب ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ...﴾ [الأحزاب: ٢٣]).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومثته (المصدر السابق ح ٤٧٨٤).

(٤) المسند ١٨٨/٥، وسنن الترمذي، التفسير، باب من سورة التوبة (ح ٣١٠٤)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح ١١٤٠١).

(٥) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ...﴾ [الأحزاب: ٢٣] (ح ٤٧٨٣).

(٦) كلمه حنان وتلهف.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٩٣/٣) وسنده صحيح.

(٨) صحيح مسلم، الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (ح ١٩٠٣) وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣٢٠٠)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح ١١٤٠٤).

أنس رضي الله عنه قال: إن عمه يعني أنس بن النضر رضي الله عنه، غاب عن قتال بدر، قال: غُيِّبَتْ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع، قال: فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني: المشركين - ثم تقدم فلقية سعد بن معاذ رضي الله عنه دون أحد، فقال: أنا معك. قال سعد رضي الله عنه: فلم أستطع أن أصنع ما صنع، فلما قتل قال: فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم، وكانوا يقولون: فيه وفي أصحابه نزلت ﴿فَإِنَّهُمْ مِّنْ قَضَىٰ نَحْبِهِمْ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ﴾^(١)، وأخرجه الترمذي في التفسير عن عبد بن حميد، والنسائي فيه أيضاً عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما عن يزيد بن هارون به. وقال الترمذي: حسن^(٢). وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة، عن مصرف، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه به، ولم يذكر نزول الآية. ورواه ابن جرير من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه به^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن الفضل العسقلاني، حدثنا سليمان بن أيوب بن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، حدثني أبي، عن جدي، عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة رضي الله عنه قال: لما أن رجع رسول الله ﷺ من أحد صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وعزى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ الآية كلها، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله من هؤلاء؟ فأقبلت وعليّ ثوبان أخضران حضرميان، فقال: «أيها السائل: هذا منهم» وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطلحي به. وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً، وابن جرير من حديث يونس بن بكير، عن طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابني طلحة، عن أبيهما رضي الله عنهما به. وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس^(٤). وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو عامر - يعني: العقدي -، حدثني إسحاق - يعني: ابن طلحة بن عبيد الله -، عن موسى بن طلحة قال: دخلت على معاوية رضي الله عنه، فلما خرجت دعاني فقال: ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نجه»^(٥).

ورواه ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطلحي، عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نجه»^(٦).

(١) سنده صحيح ويشهد له ما تقدم في الصحيحين.

(٢) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣٢٠١)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح ١١٤٠٣).

(٣) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة أحد (ح ٤٠٤٨).

(٤) أخرجه الطبري والترمذي بالسند المذكور (سنن الترمذي التفسير باب ومن سورة الأحزاب ح ٣٢٠٣) وقال

الألباني حسن صحيح. (صحيح سنن الترمذي ح ٢٥٦٠).

(٥) أخرجه الترمذي من طريق إسحاق بن طلحة به. (المصدر السابق ح ٣٢٠٢) وحسنه الألباني في صحيح سنن

الترمذي (ح ٢٥٥٩).

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده عبد الحميد الحماني فيه مقال لكنه توبع بما سبق فيتقوى إلى الحسن.

ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ يعني: عهده ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾، قال: يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء^(١).

وقال الحسن: ﴿فَمَنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ يعني: موته على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً^(٢)، وكذا قال قتادة وابن زيد^(٣). وقال بعضهم، نجه: نذره^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّ يَبُوتَنَا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبْرَ ﴿[الأحزاب]

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُؤَ آبَارَكُمْ﴾ ﴿١٦﴾ [محمد]، فهذا علم بالشيء بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلًا به قبل وجوده، وكذا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظةهم عليه، ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه، وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه فهي الغالبة لغضبه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد، ولكن قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعاتهم، وردهم خائبين خاسرين

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٤) أخرجه أبو عبيدة (ينظر فتح الباري ٥١٨/٨).

بغیظهم وحنقهم، ولم ینالوا خیراً لا فی الدنیا مما کان فی أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا فی الآخرة بما تحملوه من الآثام فی مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمهم بقتله واستئصال جیشه، ومن همّ بشيء وصدق همّه بفعله، فهو فی الحقیقة کفاعله.

وقوله تبارک وتعالی: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: لم یحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتی یجلوهم عن بلادهم، بل کفی الله وحده ونصر عبده وأعز جنده، ولهذا کان رسول الله ﷺ یقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»، أخرجاه من حدیث أبی هريرة رضی الله عنه ^(١).

وفی الصحیحین من حدیث إسماعیل بن أبی خالد، عن عبد الله بن أبی أوفی رضی الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ علی الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب سریع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم» ^(٢).

وفی قوله ﷺ: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بینهم و بین قریش، وهكذا وقع بعدها لم یغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون فی بلادهم.

قال محمد بن إسحاق: لما انصرف أهل الخندق، قال رسول الله ﷺ فیما بلغنا: «لن تغزوکم قریش بعد عامکم هذا، ولكنکم تغزونهم» فلم تغز قریش بعد ذلك، وكان رسول الله ﷺ هو یغزوهم بعد ذلك حتی فتح الله تعالی مكة ^(٣)، وهذا الحدیث الذي ذكره محمد بن إسحاق حدیث صحیح، كما قال الإمام أحمد: حدثننا یحیی، عن سفیان، حدثنی أبو إسحاق، قال: سمعت سلیمان بن صُرد رضی الله عنه یقول: قال رسول الله ﷺ یوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا یغزوننا» ^(٤). وهكذا رواه البخاری فی صحیحہ من حدیث الثوري، وإسرائيل، عن أبی إسحاق به، وقوله تعالی: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: بحوله وقوته ردّهم خائبین لم ینالوا خیراً، وأعزّ الله الإسلام وأهله، وصدق وعده ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة ^(٥).

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسٍ رَوَّعْتُمْ فَرِيقًا ۚ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حُيَي بن أخطب النضري لعنه الله، دخل

(١) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الخندق (ح ٤١١٣)، وصحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل (ح ٢٧٢٤).

(٢) صحيح البخاري، الجهاد، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة (ح ٦٣٩٢)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب استحباب الدعاء والنصر عند لقاء العدو (ح ١٧٤١).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٦/٣ والحديث منقطع ويشهد له ما يليه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٦٢/٤)، وسنده صحيح.

(٥) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الخندق (ح ٤١٠٩).

حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك قد جئتكَ بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحايبشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلون محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله أتيتني بذل الدهر، ويحك يا حيي إنك مشؤوم، فدعنا منك، فلم يزل يفتل في الذروة والغارب^(١) حتى أجابه، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم، فلما نقضت قريظة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشتى عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أیده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء^(٢) تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً^(٣) بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم» قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرُك أن تنهض إلى بني قريظة.

وفي رواية فقال له: عذيرك^(٤) من مقاتل أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم» قال: لكننا لم نضع أسلحتنا بعد انهض إلى هؤلاء، قال ﷺ: «أين؟» قال: بني قريظة، فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم، فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ، إلا تعجيل المسير.

وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يعنّف واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليه الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظنّ هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله^(٥) وأنزله في قبة المسجد ليعوده من قريب، وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فأفجرها، ولا تمنني حتى تفر عيني من بني قريظة، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة

(١) الذروة أعلى سنام البعير، والغارب مقدم السنام، وهذا مثل يضرب بحال من يريد إقناع غيره بأمر ويأبى عليه، ثم ينقاد له في نهاية الأمر، لأن الجمل النفور إذا أريد تأنيسه فإن الرجل يمد يده عليه، ويمسح غاربه، ويُقتل وبره، حتى يستأنس، حتى يتمكن من وضع الزمام له.

(٢) الوعاء: المشقة والتعب. (٣) أي: قد لفّ عمامته على رأسه.

(٤) أي: هات من عذرك فيه. (٥) أي: في وسط ذراعه.

ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه^(١)، جعل الأوس يلودون به ويقولون: يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال ﷺ: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت» فقال ﷺ: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: «نعم». قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم». قال: وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم». فقال ﷺ: «إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتُسبى ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة^(٢)»، وفي رواية: «لقد حكمت بحكم الملك»، ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فُحِدت^(٣) في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة، وسبى من لم يثبت منهم مع النساء وأموالهم^(٤).

وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً، والله الحمد والمنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آبائهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] فعليهم لعنة الله.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ صِيَاصِيهِمْ﴾ يعني: حصونهم، كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدي^(٥) وغيرهم من السلف، ومنه سمي صياصي البقر، وهي قرونها لأنها أعلى شيء فيها، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف، لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب النبي ﷺ، وليس من يعلم كمن لا يعلم، وأخافوا المسلمين وراموا قتالهم ليعزوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلبت إليهم القال، انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما رامو العزَّ ذلوا، وأردوا استئصال المسلمين فاستئصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسرى هم الأصاغر والنساء.

(١) أي: وطئوا له بوسادة حتى لا يتأذى بالركوب. (٢) أي: السموات.

(٣) أي: حُفرت.

(٤) أخرجه ابن إسحاق بطوله (السيرة النبوية لابن هشام ٢١٥/٢ - ٢٢٠)، وكثير من رواياته الموصولة في الموصولة صحيحة وبعضها في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وبعضها في كتاب الجهاد، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (ح ٣٠٤٣) وسيأتي مطولاً في المسند كما في الرواية التالية.

(٥) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه والطبري بسند صحيح من طريق عمرو بن دينار عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم بن بشير، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي قال: عرضت على النبي ﷺ يوم قريظة، فشكوا في، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا هل أُنبتُ بعد، فنظروني فلم يجدون أُنبت، فخلني عني وألحقني بالسبي^(١)، وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق، عن عبد الملك بن عمير به. وقال الترمذي: حسن صحيح^(٢)، ورواه النسائي أيضاً من حديث ابن جريج، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن عطية بنحوه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: جعلها لكم من قتلهم لهم ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا﴾ قيل: خير^(٤).

وقيل: مكة^(٥)، رواه مالك، عن زيد بن أسلم^(٦).

وقيل: فارس والروم^(٧).

وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً^(٨) ﴿وَكَاثَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ مَنٍّ قَدِيرًا﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص قال: أخبرني عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت يوم الخندق أقفوا الناس فسمعت وئيد الأرض^(٩) ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه، ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنة^(١٠)، قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد رضي الله عنه وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد رضي الله عنه من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد رضي الله عنه من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز ويقول:

لبث قليلاً يشهد الهيجا جمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت: فقمتم فافتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم رجل عليه تسبغة^(١١) له، تعني المغفر، فقال عمر رضي الله عنه: ما جاء بك؟ لعمرى والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز^(١٢)؟ قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ، فدخلت فيها، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فقال: يا عمر ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٢/١٦٣ ح ١٩٤٢١) وصححه سننه محققوه.

(٢) سنن أبي داود، الحدود، باب في الغلام يصيب الحد (ح ٤٤٠٤) وسنن الترمذي السير، باب في النزول على الحكم (ح ١٥٨٤)، وسنن النسائي، الطلاق، باب متى يقع طلاق الصبي ١٥٥/٦، وسنن ابن ماجه، الحدود، باب من لا يجب عليه الحد (ح ٢٥٤١) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٢٠٥٩).

(٣) السنن الكبرى، السير، باب حد الإدراك (ح ٨٦١٩).

(٤) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد عن يزيد بن رومان، وابن حميد هو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٥) ذكره الطبري من غير سند، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) سننه صحيح.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن.

(٨) ذكره الطبري بمعناه.

(٩) أي: صوت الوطاء على الأرض.

(١٠) أي: الترس.

(١١) تسبغة: جاء في المعجم الوسيط (سبغ): تسبغة الخوزة: ما توصل به من حلق الدروع فتستر العنق.

(١٢) تحوز: قال ابن الأثير ٥/٤٥٩: هو من قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦] أي: منضماً إليها.

تعالى؟ قالت: ورمى سعداً عليه السلام رجل من قريش يقال له: ابن العرقه بسهم له، وقال له: خذها وأنا ابن العرقه^(١)، فأصاب أكحله^(٢) فقطعه، فدعا الله تعالى سعد عليه السلام فقال: اللهم لا تمنني حتى تفر عيني من بني قريظة، قالت: وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقاً كلهم^(٣) وبعث الله تعالى الريح على المشركين ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيمهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من آدم^(٤) فضربت على سعد عليه السلام في المسجد، قالت: فجاء جبريل عليه السلام وإن على ثنياه لنقع الغبار، فقال: أوقد وضعت السلاح؟ لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم، قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته^(٥)، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فمر على بني غنم وهم جيران المسجد، فقال: «من مَرَّ بكم؟» قالوا: مَرَّ بنا دحية الكلبي، وكان دحية الكلبي يشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه الصلاة والسلام، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم إنه الذبح، قالوا: نزل على حكم سعد بن معاذ عليه السلام.

[فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ» فنزلوا، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ عليه السلام] ^(٦)، فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف^(٧) قد حمل عليه، وحفَّ به قومه فقالوا: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك، وأهل النكايه^(٨) ومن قد علمت، قالت: فلا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم. قال: قال أبو سعيد فلما طلع، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» فقال عمر رضي الله عنه: سيدنا الله، قال: «أنزلوه» فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «أحكم فيهم» قال سعد عليه السلام: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله» ثم دعا سعد عليه السلام، فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك قال: فانفجر كلمه^(٩) وكان قد برئ منه إلا مثل الخُرْص^(١٠)، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله، قالت عائشة رضي الله عنها: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، قالت: فوالذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء أبي بكر رضي الله عنه من بكاء عمر رضي الله عنه وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] قال علقمة: فقلت أي أمه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه

(١) هو حيان بن العرقه (ينظر أسد الغابة ٢/ ٣٧٤) وقد صرح باسمه في رواية البخاري، الصحيح، المغازي باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (ح ٤١٢٢).

(٢) أي: وسط ذراعه.
(٣) أي: جرحه.
(٤) أي: من جلد.
(٥) أي: الدرع والسلاح.
(٦) زيادة من (ح) و(حم).
(٧) أي: بردعة من ليف.
(٨) أي: جرحه.
(٩) أي: الأكثر فيهم من الجراح والقتل.
(١٠) أي: بقعة صغيرة.

لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته ﷺ^(١).

وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن نمير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها نحواً من هذا، ولكنه أخصر منه، وفيه دعا سعد رضي الله عنه^(٢).

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنَتَهَا فَأَعَالَيْتَ أَمَتَكَ وَأَسْرَحَكَ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَلَئِنْ كُنْتَ تُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك» وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله تعالى قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجِكَ﴾» إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة^(٣)؟ وكذا رواه معلقاً عن الليث، حدثني يونس عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة رضي الله عنها فذكره، وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت، وقد حكى البخاري أن معمرًا اضطرب فيه، فتارة رواه عن الزهري، عن أبي سلمة، وتارة رواه عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزل الخيار قال لي رسول الله ﷺ: «إني أريد أن أذكر لك أمراً، فلا تقضي فيه شيئاً حتى تستأمري أبويك» قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال فردّه عليها، فقالت: وما هو يا رسول الله؟ قالت فقراً ﷺ عليها ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنَتَهَا﴾ إلى آخر الآية، قالت: فقلت: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ففرح بذلك النبي ﷺ^(٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه وطوله (المسند ٢٥/٤٢ - ٣٠ ح ٢٥٠٩٦) وقال محققوه: بعضه صحيح، وجزء منه حسن، وهذا إسناد فيه ضعف. اهـ. وقد سردوا شواهد.

(٢) صحيح البخاري، المغازي، باب فرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة (ح ٤١٢٢)، وصحيح مسلم، الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب (ح ١٧٦٩).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنَتَهَا...﴾ [الأحزاب: ٢٨] ح ٤٧٨٥).

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثله وتعليقه المصدر السابق باب ﴿وَلَئِنْ كُنْتَ تُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [الأحزاب: ٢٩] ح ٤٧٨٦).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثله، ويشهد له سابقه.

وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت آية التخيير بدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة إني عارض عليك أمراً فلا تفتاتي فيه بشيء حتى تعرضيه على أبويك: أبي بكر وأم رومان رضي الله عنهما» فقالت: يا رسول الله وما هو؟ قال ﷺ: «قال الله ﻋﻠﻴﻚ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلُوبَ الْأَزْوَاجِ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكُمْ أُمْتَعَنَّكُمْ وَأُتْرِكَنَّ سَرَكَكُمْ جَمِيلًا ۖ وَلَنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾» (٢٨) قالت: فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ولا أؤامر في ذلك أبوي أبا بكر وأم رومان رضي الله عنهما. فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحجر فقال: «إن عائشة رضي الله عنها قالت: كذا وكذا» فقلن: ونحن نقول مثلما قالت عائشة رضي الله عنهن كلهن ^(١). رواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشج، عن أبي أسامة، عن محمد بن عمرو به.

قال ابن جرير: وحدثنا سعيد بن يحيى الأموي، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن، فدخل عليّ فقال: «سأذكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تستشيري أباك» فقلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «إني أمرت أن أخيركن» وتلا عليها آية التخيير إلى آخر الآيتين. قالت: فقلت: وما الذي تقول: لا تعجلي حتى تستشيري أباك؟ فإني أختار الله ورسوله. فسر ﷺ بذلك، وعرض على نسائه فتابعن كلهن، فاخترن الله ورسوله ﷺ ^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيد بن سنان البصري، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عقيل، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت عائشة رضي الله عنها: أنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأة من نسائه، فقال ﷺ: «إني ذاك لك أمراً فلا عليك أن تعجلي حتى تستأمرني أبويك» قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلُوبَ الْأَزْوَاجِ﴾» (٣) قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نسائه كلهن، فقلن ما قالت عائشة رضي الله عنهن، وأخرجه البخاري ومسلم جميعاً عن قتيبة، عن الليث، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها مثله ^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: خيرنا رسول الله ﷺ، فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً ^(٥). أخرجاه من حديث الأعمش ^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس،

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وحكمه كسابقه. (٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وحكمه كسابقه.

(٣) تقدم تخريجه في الصحيحين في الروايات الأول في تفسير هذه الآية.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٤٥/٦) وسنده صحيح.

(٥) صحيح البخاري، الطلاق، باب من خير أزواجه (ح ٥٢٦٢)، وصحيح مسلم، الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (ح ١٤٧٧).

والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر ﷺ، فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر ﷺ، فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر ﷺ: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر ﷺ: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفأ فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «هنّ حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها، وقام عمر ﷺ إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله ﷻ الخيار، فبدأ بعائشة ﷺ فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ الْآيَةَ، قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها»^(١) انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه هو والنسائي من حديث زكريا بن إسحاق المكي به^(٢).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا [سريج]^(٣) بن يونس، حدثنا علي بن هشام بن البريد، عن محمد بن عبيد الله بن علي بن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ خير نساء الدنيا والآخرة ولم يخيرهن الطلاق^(٤)، وهذا منقطع. وقد روي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك^(٥)، وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَتَعَالَى أُمِّتُكَ وَأَسْرَحُكَ سَرَّاحًا جَمِيلًا﴾ أي: أعطيك حقوقك وأطلق سراحك.

وقد اختلف العلماء في جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين، أصحهما نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم. قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نساء: خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضيرية وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن جميعاً^(٦).

﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُمُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣١﴾

يقول الله تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخر، واستقر أمرهن

- (١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣/٣٢٨) وسنده صحيح.
- (٢) صحيح مسلم، الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (ح ١٤٧٨)، والسنن الكبرى للنسائي، عشرة النساء، باب إذا لم يجد الرجل ما يتفق على امرأته هل يخير امرأته؟ (ح ٩٢٠٨).
- (٣) كذا في (ح) و(حم) ومسند أحمد، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «شريح».
- (٤) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد بسنده ومثته في زوائده على المسند (٢/٢٨ ح ٥٨٨) وضعف سنده محققوه لضعف محمد بن عبيد الله بن علي بن أبي رافع.
- (٥) أخرجه الطبري بسند صحيح لكنه مرسل من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة والحسن.
- (٦) أخرجه الطبري عن عكرمة معلقاً.

تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهنَّ بحكمهنَّ وتخصيصهنَّ دون سائر النساء بأن من يأت منهنَّ بفاحشة مبينة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهي النشوز وسوء الخلق ^(١). وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَلِلَّهِ الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكقوله ﷺ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٦٤]، فلما كانت محلتهنَّ رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهنَّ مغلظاً صيانة لجنابهنَّ وحجابهنَّ الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: في الدنيا والآخرة ^(٢). وعن ابن أبي نجيح مثله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً هيناً. ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنكُنَّ لَهُ دَرَسُولَهُ﴾ أي: يطيع الله ورسوله ويستجيب ﴿نُزُوحًا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: في الجنة فإنهنَّ في منازل رسول الله ﷺ في أعلى العليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [٣٢] وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [٣٣] وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تبع لهنَّ في ذلك، فقال تعالى مخاطباً نساء النبي ﷺ: بأنهن إذا اتقين الله ﷻ كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك تريق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير ^(٣)، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات» ^(٤) وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن» ^(٥).

(١) لم أجد من أخرجه. (٢) سنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٤) أي: تاركات للطيب.

(٥) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (السنن، الصلاة، باب في خروج النساء إلى المسجد ح ٥٦٥)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ح ٥٢٩).

(٦) أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. (المصدر السابق ح ٥٦٧)، وصححه الألباني (المصدر السابق ح ٥٣٠).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا أبو رجاء الكلبي روح بن المسيب - ثقة -، حدثنا ثابت البناني، عن أنس رضي الله عنه قال: جئن النساء إلى رسول الله فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها، فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهور^(١).

وقال البزار أيضاً: حدثنا محمد المثنى، حدثني عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة، عن مورك، عن أبي الأحوص، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها» رواه الترمذي، عن بNDAR، عن عمرو بن عاصم به نحوه^(٢). وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها»^(٣). وهذا إسناده جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية^(٤).

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ يقول: إذا خرجت من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فهي الله تعالى عن ذلك^(٥).

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج^(٦).

وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود بن أبي الفرات، حدثنا [علباء]^(٧) بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تلا هذه الآية ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً، وفي النساء

(١) أخرجه البزار بسنده ومثله وتعليقه (المسند ح ٢٠٦١) وهو ضعيف من مناكير أبي رجاء الكلبي (ينظر لسان الميزان ٤٦٨/٢).

(٢) أخرجه الترمذي من طريق عمرو بن عاصم به (السنن، الرضاع باب ١٨ ح ١١٧٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٩٣٦).

(٣) مسند البزار (ح ٢٠٦٠)، وسنن أبي داود، الصلاة، باب التشديد في ذلك (ح ٥٦٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٥٣٢).

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي نجيع عن مجاهد (ينظر فتح الباري ٥٢٠/٨) وسنده صحيح.

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٧) كذا في ترجمته وتفسير الطبري، وفي النسخ الخطية ضُحِفَ إلى: «علي».

دمامة. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه فكان يخدمه، فاتخذ إبليس شيئاً من مثل الذي يرمز فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج النساء للرجال، قال: ويتزين الرجال لهنّ، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهنّ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن فنزلوا معهن، وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْتَغِ الْجَنَّةَ الْأُولَى﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، وهذا نصّ في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير، عن عكرمة أنه كان ينادى في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة^(٢). وهكذا روى ابن أبي حاتم قال: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة^(٣).

وقال عكرمة: من شاء باهله أنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ^(٤)، فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ففيه نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا علي بن زيد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»^(٥) رواه الترمذي، عن عبد بن حميد، عن عفان به. وقال: حسن غريب^(٦).

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نعيم، حدثنا يونس، عن أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وقال الحافظ ابن حجر: وإسناده قوي (فتح الباري ٨/٥٢٠)، وأخرجه الحاكم من طريق موسى بن إسماعيل به وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٢/٥٤٨).

(٢) أخرجه الطبري من طريق الأصمغ بن علقمة عن عكرمة، وهو مرسل ويتقوى بالرواية التالية.

(٣) سنده حسن. (٤) سنده مرسل ويتقوى بسابقه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣/٢٥٩) وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

(٦) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣٢٠٦). وسنده كسابقه.

رسول الله ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة ﷺ فقال: «الصلاة الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»^(١). أبو داود الأعمى هو [نفع]^(٢) بن الحارث: كذاب.

حديث آخر: وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، حدثنا شداد [أبو]^(٣) عمار قال: دخلت على وائلة بن الأسقع ﷺ. وعنده قوم، فذكروا علياً ﷺ فشتموه، فشتمه معهم، فلما قاموا قال لي: شتمت هذا الرجل؟ قلت: قد شتموه فشتمه معهم، ألا أخبركم بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة ﷺ أسألها عن علي ﷺ، فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين ﷺ، أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فادنى علياً وفاطمة ﷺ، وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً ﷺ كل واحد منها على فخذه، ثم لفَّ عليهم ثوبه أو قال: كساءه، ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»^(٤).

وقد رواه أبو جعفر بن جرير، عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه، زاد في آخره قال وائلة ﷺ: فقلت: وأنا يا رسول الله صلى الله عليك من أهلك؟ قال ﷺ: «وأنت من أهلي» قال وائلة ﷺ: وإنها من أرجى ما أرتجي^(٥).

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل عن الفضل بن دكين، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد بن أبي عمار قال: إني لجالس عند وائلة بن الأسقع ﷺ، إذ ذكروا علياً ﷺ فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه إني عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي وفاطمة وحسن وحسين ﷺ، فألقى ﷺ عليهم كساء له ثم قال لهم: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» قلت: يا رسول الله وأنا؟ قال ﷺ: «وأنت» قال: فوالله إنها لأوثق عمل عندي^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة ﷺ تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف جداً لأن أبا داود الأعمى: كذاب كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٢) كذا في (ح) و(حم) وتفسير الطبري، وفي الأصل ضُحِفَ إلى «يضع».

(٣) كذا في (حم) والمسنَد، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «ابن».

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسنَد ١٠٧/٤)، وأخرجه الحاكم من طريق الأوزاعي به بدون ذكر الشتم، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرَك ١٤٧/٣).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه الحاكم من طريق الأوزاعي به دون ذكر الزيادة، وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرَك ٤١٦/٢) وهذه الزيادة شاذة مخالفة لما صح عن أم سلمة ﷺ.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه الطبراني من طريق الفضل بن دكين به (المعجم الكبير ٦٥/٢٢ ح ٢٦٦٩) قال الهيثمي: ورجال السياق رجال الصحيح غير كلثوم بن زياد وثقه ابن حبان وفيه ضعف (مجمع الزوائد ١٦٨/٩) ويشهد له ما تقدم في غير ذكر الشتم وفي غير ما ورد في آخره.

فاطمة عليها السلام ببرمة فيها خزيرة^(١)، فدخلت عليه بها فقال عليه السلام لها: «ادعي زوجك وابنيك» قالت: فجاء علي وحسن وحسين عليهم السلام، فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة^(٢) له، وكان تحته عليه السلام كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت عليها السلام: فأخذ عليه السلام فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال عليه السلام: «إنك إلى خير، إنك إلى خير»^(٣). في إسناده من لم يسم وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات.

(طريق أخرى): قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا مصعب بن المقداد، حدثنا سعيد بن زربي، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن أم سلمة عليها السلام قالت: جاءت فاطمة عليها السلام إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة، تحملها على طبق، فوضعتها بين يديه ﷺ فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت عليها السلام: في البيت، فقال عليه السلام: «ادعهم» فجاءت إلى علي عليه السلام فقالت: أجب رسول الله ﷺ أنت وابناك، قالت أم سلمة عليها السلام: فلما رآهم مقبلين مد عليه السلام يده إلى كساء كان على المنامة، فمده وبسطه وأجلسهم عليه ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله، فضمه فوق رؤوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(٤).

(طريق أخرى): قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عليه السلام عند أم سلمة عليها السلام فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تأذني لأحد» فجاءت فاطمة عليها السلام، فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها، ثم جاء الحسن عليه السلام، فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده عليه السلام وأمه عليها السلام ثم جاء علي عليه السلام، فلم أستطع أن أحجبه، فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي» فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط، قالت: فقلت: يا رسول الله وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: «إنك إلى خير»^(٥).

(طريق أخرى): قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبي المفضل، عن عطية الطفاوي، عن أبيه قال: إن أم سلمة عليها السلام حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ في بيتي

(١) الخزيرة شبه الحساء باللحم والدقيق والسمن.

(٢) منامة: أي قطيفة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٦/٢٩٢) وسنده ضعيف لجهالة الراوي عن أم سلمة عليها السلام، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثله، ويشهد له ما سبق.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف ويشهد لبعضه ما سبق.

يوماً إذ قالت الخادم: إن فاطمة وعلياً عليهما السلام بالسُدة، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «قومي فتنحي عن أهل بيتي» قالت: فقممت ففتحيت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة ومعها الحسن والحسين عليهما السلام، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما، واعتنق علياً عليه السلام بإحدى يديه، وفاطمة عليها السلام باليد الأخرى، وقبل فاطمة وقبل علياً: وأغدق عليهم خميسة سوداء، وقال: «اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي» قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «وَأَنْتِ»^(١) (٢).

(طريق أخرى): قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: إن هذه الآية نزلت في بيتي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت، فقلت: يا رسول الله أأنت من أهل البيت؟ فقال ﷺ: «إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ» قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام^(٣).

(طريق أخرى): رواها ابن جرير أيضاً، عن أبي كريب، عن وكيع، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن أم سلمة رضي الله عنها^(٤).

(طريق أخرى): قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا خالد بن مخلد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثنا هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زمعة قال: أخبرني أم سلمة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ جمع علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جأ إلى الله ﷻ ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي» قالت أم سلمة رضي الله عنها: فقلت يا رسول الله أدخلني معهم، فقال ﷺ: «أنت من أهلي»^(٥).

(طريق أخرى): رواها ابن جرير أيضاً عن أحمد بن محمد الطوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهاني، عن يحيى بن عبيد المكي، عن عطاء، عن عمر بن أبي سلمة، عن أمه رضي الله عنها بنحو ذلك^(٦).

(حديث آخر): قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع محمد بن بشير، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرطٌ مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن عليه السلام فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء علي عليه السلام فأدخله معه، ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٧). رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن

(١) هذه الرواية في الأصل تأخرت عن روايات الطبري.
(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٤٤/١٦١ - ١٦٢ ح ٢٦٥٤٠)، وضعف سنده محققوه. اهـ. ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفيه عطية وهو العوفي فيه مقال ويتقوى بسابقه ولاحقه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده، وفيه شهر بن حوشب فيه مقال ويتقوى بما سبق.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح.

محمد بن بشير به^(١).

(طريق أخرى): قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا [سُريج]^(٢) بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام يعني: ابن حوشب رضي الله عنه، عن عمِّ له قال: دخلت مع أبي علي عائشة رضي الله عنها فسألتها عن علي رضي الله عنه، فقالت رضي الله عنها: تسألني عن رجل من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللَّهُم هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً» قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال ﷺ: «تنحي فإنك على خير»^(٣).

(حديث آخر): قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا بكر بن يحيى بن زيان العنزي^(٤)، حدثنا مندل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة عليها السلام» **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**^(٥).

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة رضي الله عنها كما تقدم، وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد العجلي، عن عطية، عن أبي سعيد رضي الله عنه موقوفاً، والله ﷻ أعلم.

(حديث آخر): قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا بكير بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد رضي الله عنه قال: قال سعد رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة رضي الله عنهم، فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: «رَبِّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي وَأَهْلُ بَيْتِي»^(٦).

(حديث آخر): وقال مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب وشجاع بن مخلد، عن ابن عُليّة، قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حيان، حدثني يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تُكلّفوني، ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خُمًا، بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله

(١) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ (ح ٢٤٢٤).

(٢) كذا في (حم)، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «سُريج». (٣) يشهد له ما تقدم.

(٤) كذا في تفسير الطبري، وفي الأصل صحف إلى: العريحي، وفي (حم) صحف إلى: «العوفي».

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتمه، ويشهد له ما سبق وما سيأتي في رواية صحيح مسلم، إلا قوله: فيّ، فإنها منكراً تخالف ما في الصحيح.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتمه، ويشهد له سابقه ولاحقه.

تعالى، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحثَّ على كتاب الله ﷻ ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ﷺ، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم^(١).

ثم رواه عن محمد بن بكار بن الريان، عن حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم ﷺ، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه فقلت له: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا، وإيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده^(٢).

هكذا وقع في هذه الرواية، والأولى أولى والأخذ بها أخرى. وهذه الثانية تحتل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم آل الذين حرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آلهم، وهذا الاحتمال أرجح جمعاً بينهما وبين الرواية التي قبلها، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت، فإن في بعض أسانيدنا نظراً، والله أعلم، ثم الذي لا شك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة، قاله قتادة وغير^(٣) واحد، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق ﷺ أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العظيمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نصَّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

قال بعض العلماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأنه لم يتزوج بكرة سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ورضي الله عنه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العليا، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: «وأهل بيتي أحق». وهذا ما يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال: «هو مسجدي هذا»^(٤) فهذا من هذا القبيل، فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء كما ورد في الأحاديث الأخرى، ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عوانة، عن حصين بن

(١) أخرجه مسلم بسنده ومثله (الصحيح، فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ ح ٢٤٠٨/٣٦).

(٢) المصدر السابق (ح ٢٤٠٨/٣٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة التوبة آية ١٠٨.

عبد الرحمن، عن أبي جميلة قال: إن الحسن بن علي عليه السلام استخلف حين قتل علي عليه السلام، قال: فينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجره، وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد، وحسن عليه السلام ساجد. قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وركه، فمرض منها أشهراً ثم برأ، فقعد على المنبر فقال: يا أهل العراق اتقوا الله فينا، فإننا أمراؤكم وضيغانكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ قال: فما زال يقولها حتى ما بقي أحد في المسجد إلا وهو يحن بكاءً^(١).

وقال السدي: عن أبي الديلم قال: قال علي بن الحسين عليه السلام لرجل من الشام: أما قرأت في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾؟ فقال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلطفه بكن، بلغت هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك أعطاك ذلك وخصكن بذلك^(٢).

قال ابن جرير رحمته الله: واذكرن نعمة الله عليكم بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه^(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة، وهي السنة. خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله، وقال قتادة: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك^(٤)، رواه ابن جرير.

وقال عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعني: لطيفاً باستخراجها خبيراً بموضعها، رواه ابن أبي حاتم^(٥)، ثم قال: وكذا روي عن الربيع بن أنس، عن قتادة.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣٥).

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شيبة قال: سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قال: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، وأنا أسرح شعري، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾» إلى آخر الآية^(٦)، وهكذا رواه النسائي وابن جرير من حديث

(١) سنده صحيح.

(٢) سنده ضعيف لأن السدي فيه تشيع، وفيه نكارة في تخصيص لطف الله تعالى بآل البيت عليهم السلام.

(٣) ذكره الطبري بلفظه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٩٩/٤٤ ح ٢٦٥٧٥) وصححه سنده محققوه.

عبد الواحد بن زياد به مثله^(١).

(طريق أخرى): عنها قال النسائي أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سويد، أخبرنا عبد الله بن شريك، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قالت للنبي ﷺ: يا نبي الله ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرون؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٢). وقد رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب حدثه، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله أذكر الرجال ولا نذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية^(٣).

(طريق أخرى): قال سفيان الثوري: عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله يذكر الرجال ولا نذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية^(٤).

(حديث آخر): قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا سيار بن مظاهر العنزي، حدثنا أبو كدينة يحيى بن المهلب، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النساء للنبي ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية^(٥).

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن: قد ذكركن الله تعالى في القرآن ولم نذكر بشيء أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية^(٦).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٧) فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قرئناه أولاً في شرح البخاري.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَانِينَ وَالْقَانِسَاتِ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنْتٌ ءَانَاءَ آيَلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِئُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، ﴿يَكْمُرُ أَقْنَى لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو الإيمان، ثم القنوت ناشئ عنهما.

(١) السنن الكبرى، (ح ١٤٠٥) وتفسير الطبري.

(٢) السنن الكبرى (ح ١٤٠٤) وسنده حسن ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن ويشهد به ما سبق.

(٤) أخرجه الطبري من طريق الثوري به، وفي سنده انقطاع لأن مجاهداً لم يسمع من أم سلمة، ويشهد له ما سبق. وأخرجه الحاكم من طريق الثوري به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤١٦/٢).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده قابوس فيه لين كما في التقريب، ويشهد له ما سبق.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده إلى قتادة صحيح لكنه مرسل ويتقوى بما سبق.

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٩١.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة عليهم السلام لم تجرب عليهم كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمانة على النفاق، ومن صدق نجا، [عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار]^(١) ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً^(٢). والأحاديث فيه كثيرة جداً.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ هذه [سجية]^(٣) الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة وتلقى ذلك بالصبر عند الصدمة الأولى؛ أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث: «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤).

﴿وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه.

وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - فذكر منهم - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٥).

وفي الحديث الآخر: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»^(٦).

والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً له موضع بذاته.

﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه: «والصوم زكاة البدن»^(٧) أي: يزكيه ويظهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً، كما قال سعيد بن جبير: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾^(٨).

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة، كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٩) ناسب أن يذكر بعده ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۖ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

(١) زيادة من (ح) و(حم).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة التوبة آية ١١٩.

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صُحِفَتْ إِلَى: «نتيجة».

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية (١).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٧١.

(٦) أخرجه ابن ماجه (السنن، الزهد، باب الحسد ح ٤٢١٠)، وسنده ضعيف جداً لأن فيه عيسى بن أبي عيسى متروك الحديث (التقريب ص ٤٤٠).

(٧) أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف فيه موسى بن عبيدة الرندي وهو ضعيف كما في التقريب. (سنن ابن ماجه،

الصيام، باب في الصوم زكاة الجسد ح ١٧٤٥).

(٨) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٩) تقدم تخريجه في تفسير سورة النور آية ٣٢.

أَيَمُّهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَبَعَى وَرَاءَكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ [المؤمنون] .

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَثِيرًا﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله، حدثنا محمد بن جابر، عن علي بن الأقرم، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كتباً تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»^(١). وقد رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ بمثله^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله أي العباد أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة؟ قال ﷺ: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» قال: قلت: يا رسول الله ومن الغاي في سبيل الله تعالى؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويتخضب دماً، لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فأتى على جُمدان^(٤) فقال: «هذا جُمدان سيروا فقد سبق المُفَرِّدون» قالوا: وما المُفَرِّدون؟ قال ﷺ: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» ثم قال ﷺ: «اللهم اغفر للمحلقين» قالوا: والمقصرين؟ قال ﷺ: «اللهم اغفر للمحلقين» قالوا، والمقصرين؟ قال: «والمقصرين»^(٥). تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم دون آخره^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا [جُحَيْن] ^(٧) بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة قال: إنه بلغني عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله ﻋَظَمَ» وقال معاذ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم لكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ذكر الله ﻋَظَمَ»^(٨).

(١) أخرجه ابن ماجه من طريق علي بن الأقرم به (السنن، إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله ح ١٣٣٥، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/٢٢٣).

(٢) سنن أبي داود، الصلاة، باب قيام الليل (ح ١٣٩٠)، والنسائي، قيام الليل، باب ثواب من استيقظ وأيقظ امرأته فصلياً (ح ١٣١٠)، وسنن ابن ماجه كما في تخريج الرواية السابقة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣/٧٥) وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم.

(٤) وهو جبل شمال مكة بمئة كيلاً على طريق المدينة.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٥/١٩٢ ح ٩٣٣٢) قال محققوه: حديث صحيح، وهذا سند حسن في المتابعات.

(٦) صحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى (ح ٢٦٧٦).

(٧) كذا في (حم) والمسند، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «حجير».

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٦/٢٩٦، ٢٩٧ ح ٢٢٠٧٩) قال المحققون: إسناده ضعيف =

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا زَبَّانُ بْنُ فَائِدٍ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: إن رجلاً سأله فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أكثرهم لله تعالى ذكراً» قال: فأَي الصائمين أكثر أجراً؟ قال ﷺ: «أكثرهم لله ﷻ ذكراً» ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة. كل ذلك يقول رسول الله: «أكثرهم لله ذكراً» فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنه: ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: «أجل»^(١).

وسنذكر إن شاء الله تعالى بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ [الأحزاب] الآية، إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم؛ أي: أن الله تعالى قد أعد لهم؛ أي: هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ۝﴾

قال العوفي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بلى فانكحيه» قالت: يا رسول الله أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ الآية، قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: إذا لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي^(٢).

وقال ابن لهيعة: عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضي الله عنه فاستنكفت^(٣) منه وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها^(٤)، وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فامتنعت ثم أجابت^(٥). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها وكانت أول من هاجر من النساء؛ يعني: بعد صلح الحديبية،

= لانقطاعه، وقد صحَّ الشطر الثاني. اهـ. وله شواهد صحيحة في تفسير الآية ٤١ من هذه السورة المباركة.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٣٨/٣) وسنده ضعيف لضعف زيان والمقال في ابن لهيعة.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بالشواهد والمراسيل التالية.

(٣) أي: امتنعت عن الزواج من زيد رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري من طريق محمد بن حمير عن ابن لهيعة به، وفي سنده ابن لهيعة ويتقوى بالمراسيل التالية.

(٥) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح لكنه مرسل من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح لكنه مرسل عن معمر عنه، وهذان المرسلان يقوي أحدهما الآخر.

فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فقال: قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة ﷺ بعد فراقه زينب، فسخطت هي وأخوها وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده، قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا...﴾ إلى آخر الآية، قال: وجاء أمر أجمع من هذا ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، قال: فذاك خاص وهذا جماع^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت البناني، عن أنس ﷺ، قال: خطب النبي ﷺ على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها، فقال النبي ﷺ: «نعم إذا» قال: فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها، قالت: لاها الله^(٢) ذا ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيبا، وقد منعناها من فلان وفلان، قال: والجارية في سترها تسمع، قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره؟! إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، قال: فكأنها جلست عن أبيها، وقالوا: صدقت فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضينا، قال ﷺ: «فإني قد رضيته» قال: فزوجها، ثم فرغ أهل المدينة فركب جليبيب، فوجدوه قد قتل وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس ﷺ: فلقد رأيته وإنها لمن أنفق^(٣) بيت بالمدينة^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد يعني: ابن سلمة، عن ثابت، عن كنانة بن نعيم العدوي، عن أبي برزة الأسلمي قال: إن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلعبهن، فقلت لامرأتي: لا يدخلن اليوم عليكن جليبيبا فإنه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن، قالت: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجه حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا، فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك» قال: نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين، فقال ﷺ: «إني لست أريدها لنفسي» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لجلييب» فقال: يا رسول الله أشاور أمها، فأتى أمها، فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونعمة عين، فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجلييب، فقالت: أجلييب إنه أجلييب إنه؟^(٥) ألا لعمر الله لا نزوجه، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها، قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني إليه، فإنه لن يضيعني، فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها فزوجها جليبيبا، قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه ﷺ: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلاناً ونفقد فلاناً، قال ﷺ: «انظروا هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال ﷺ: «لكنني أفقد جليبيبا» قال ﷺ: «فاطلبوه في القتلى» فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح لكنه معضل من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. ومثته مخالف لما ثبت من المراسيل التي يقوي بعضها بعضاً.

(٢) أي: قسماً بالله، وحرف القسم محذوف. (٣) أي: كثر خطابها وطلابها للزواج.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه. (المسند ٣٨٥/١٩ ح ١٢٣٩٣)، وصححه سنداً محققوه. وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٣٧١/٩).

(٥) أي: قرة عين وسرور.

قتلوه، فقالوا: يا رسول الله ها هوذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فأنا رسول الله ﷺ فقام عليه فقال: «قتل سبعة وقتلوه، هذا مني وأنا منه» مرتين أو ثلاثاً، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفر له ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ، ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله ﷺ، قال ثابت رضي الله عنه: فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. وحديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال: قال: «اللهم صُب عليها الخير صباً، ولا تجعل عيشها كذا» وكذا كان، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها^(١). هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله^(٢).

وذكر الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ نزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٣).

وقال ابن جريج: [أخبرني عامر بن مصعب، عن طاوس قال: إنه سأل ابن عباس، عن ركعتين بعد العصر فنهاه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾]^(٤)^(٥)، فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٦) [النساء]، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(٧)، ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٨).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو الذي أنعم الله عليه؛ أي: بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له الحب، ويقال لابنه أسامة الحب بن الحب، قالت

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/٤٢٤) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل جلييب رضي الله عنه (ح ٢٤٧٢)، والسنن الكبرى للنسائي، فضائل الصحابة (ح ٨٢٤٦).

(٣) الاستيعاب ٤/٢٧٢. (٤) زيادة من (ح) و(حم).

(٥) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وغيره، وسنده ضعيف لجهالة عامر بن مصعب، قال الحافظ ابن حجر: شيخ لابن جريج لا يعرف. (التقريب ص ٢٨٨).

(٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة التوبة آية ٢٤.

عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه، رواه الإمام أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهي عنها^(١).

وقال البزار: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عوانة، ح، وحدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو داود حدثنا أبو عوانة، أخبرني عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، حدثني أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كنت في المسجد فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: فقالا: يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت: علي والعباس يستأذنان، فقال ﷺ: «أتدري ما حاجتهما؟» قلت: لا يا رسول الله، قال ﷺ: «لكني أدري» قال: فأذن لهما، قال: يا رسول الله جئناك لتخبرنا أي أهلك أحب إليك؟ قال ﷺ: «أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد» قال: يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة، قال ﷺ: «فأسامة بن زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه»^(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً وملحفة ودرعاً، وخمسين مئداً من طعام وعشرة أمداد من تمر، قاله مقاتل بن حيان^(٣)، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها.

وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضاً حديثاً من رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً^(٤). وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا معلى بن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن هذه الآية ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما^(٥).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن علي بن زيد بن جُدعان قال: سألتني علي بن الحسين رضي الله عنه ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفَى فِي

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٧٤/٤٣ ح ٢٥٨٩٨)، قال المحققون: إسناده حسن إن صح سماع البهي.

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم من طريق أبي عوانة وقال الترمذي: حسن صحيح (السنن، المناقب، باب مناقب أسامة بن زيد رضي الله عنه ح ٣٨١٩)، وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: عمر ضعيف (أي عمر بن أبي سلمة). (المستدرک ٤١٧/٢).

(٣) سنده معضل لأن مقاتل بن حيان تابع تابعي.

(٤) وهي رواية ضعيفة سنداً ومتناً (ينظر المسند ٤٩٢/١٩ ح ١٢٥١١).

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومنتنه (الصحيح، التفسير، سورة الأحزاب، باب ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ...﴾ [٣٧] ح ٤٧٨٧).

نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴿١﴾ فذكرت له، فقال: لا ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد عليه السلام ليشكوها إليه قال: «أتق الله وأمسك عليك زوجك» فقال: قد أخبرتك أنني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه ^(١). وهكذا روي عن السدي أنه قال نحو ذلك ^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثني خالد، عن داود، عن عامر، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كنتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَضَّيَ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ الوطر هو الحاجة والأرب؛ أي: لما فرغ منها وفارقها زوجها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ بمعنى أنه أوحى إليه أنه يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ^(٣).

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم؛ يعني: ابن القاسم، أخبرنا النضر، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها علي» فانطلق حتى أتاه وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ﷻ، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته، فجعل صلى الله عليه وسلم يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية كلها ^(٤)، ورواه مسلم والنسائي من طرق عن سليمان بن المغيرة به ^(٥).

وقد روى البخاري رحمته الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات ^(٦).

(١) سنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان، والقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخفى أنها ستصير زوجته وهذا الذي رجحه الحافظ ابن حجر ونقل عن الترمذي الحكيم تحسينه وقوله: إنها من جواهر العلم المكنون (فتح الباري ٨/٥٢٤).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/٥٢٤).

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لعدم سماع الشعبي من عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣/١٩٥) وسنده صحيح.

(٥) صحيح مسلم، النكاح، باب زواج زينب بنت جحش رضي الله عنها ونزول الحجاب (ح ١٤٢٨).

(٦) أخرجه البخاري بنحوه (الصحيح، التوحيد، باب ﴿وَكَاكَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴾ [هود: ٧] ح (٧٤٢١).

وقد قدمنا في سورة النور عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة عليهما السلام، فقالت زينب عليها السلام: أنا الذي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة عليها السلام: أنا التي نزل عذري من السماء، فاعترفت لها زينب عليها السلام.^(١)

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن المغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينب عليها السلام تقول للنبي ﷺ إني لأدلي عليك بثلاث، وما من نسائك امرأة تدلي بهن: إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله ﷻ من السماء، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأديعاء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكان يقول له زيد بن محمد، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَسْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش عليها السلام، لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولهذا قال تعالى في آية التحريم ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ليحترز من الابن الدعي، فإن ذلك كان كثيراً فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة، كانت زينب عليها السلام في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨).

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحلَّ له وأمره به من تزويج زينب عليها السلام التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردُّ على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاة ودعيه الذي كان قد تبناه.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

يمدح تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾

(١) تقدم في تفسير سورة النور آية ١١.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإرسال الشعبي.

أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى: ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا، وسيد الناس في هذا المقام بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿قُلْ يَتَائِفُ النَّاسِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلايته، فرضي الله عنهم وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهمجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول رب خشيت الناس، فيقول: فأنا أحق أن يخشى»^(١). ورواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن الثوري، عن زبيد، عن عمرو بن مرة. ورواه ابن ماجه، عن أبي كريب عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية كلاهما عن الأعمش به^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد؛ أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغاراً وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث، وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ، ثم مات بعده لسته أشهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كقوله ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» [الأنعام: ١٢٤]، فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثلي رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنه لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٥٧/١٧ ح ١١٢٥٥) وضعف سنده محققوه لأن أبا البخري لم يسمع من أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) المسند ٧٣/٣، وسنن ابن ماجه، الفتن، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ح ٤٠٠٨)، وسنده ضعيف للعللة السابقة. في الرواية السابقة.

ويعجبون منه، ويقولون: لو تمّ موضع هذه اللَّبَنَة، فأنا في النِّبَيِّين موضع تلك اللَّبَنَة»^(١). ورواه الترمذي، عن بندار، عن أبي عامر العقدي به، وقال حسن صحيح^(٢).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا المختار بن فُلْفُل، حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعد ولا نبي» قال: فشق ذلك على الناس، فقال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة»^(٣). وهكذا رواه الترمذي، عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن عفان بن مسلم به، وقال: صحيح غريب من حديث المختار بن فُلْفُل^(٤).

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سليم بن حيان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللَّبَنَة، فأنا موضع اللَّبَنَة ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»^(٥). ورواه البخاري ومسلم والترمذي من طرق عن سليم بن حيان به، وقال الترمذي: صحيح غريب من هذا الوجه^(٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل النبين كمثلي رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللَّبَنَة»^(٧). انفرد به مسلم من رواية الأعمش به^(٨).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عبيد الراسبي قال: سمعت أبا الطفيل رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا نبوة بعدي إلا المبشرات» قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الحسنة» - أو قال: - «الرؤيا الصالحة»^(٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثلي رجل

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٦٨/٣٥ ح ٢١٢٤٣) وحسن سنده محققوه وصححوه لغيره بالشواهد، وانظر مزيداً من التصحيح في الرواية التالية.

(٢) سنن الترمذي، المناقب، باب فضل النبي ﷺ (ح ٣٦١٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٨٥٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٢٦/٢١ ح ١٣٨٢٤) وصححه سنده محققوه.

(٤) سنن الترمذي، الرؤيا، باب ذهب النبوة وبقيت المبشرات (ح ٣٢٧٢).

(٥) أخرجه الطيالسي بسنده ومثته (المسند رقم ١٧٨٥)، وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، المناقب، باب خاتم النبين ﷺ (ح ٣٥٣٤)، وصححه مسلم، الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبين (ح ٢٢٨٧).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٩/٣) وسنده صحيح.

(٨) صحيح مسلم، الفضائل، الباب السابق بعد حديث ٢٢٨٦/٢٢.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢١٣/٣٩ ح ٢٣٧٩٥) وصححه سنده محققوه.

ابتنى بيوتاً فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك»، قال رسول الله ﷺ: «فكنت أنا اللبنة»^(١)، أخرجاه من حديث عبد الرزاق^(٢).

حديث آخر: عن أبي هريرة ؓ أيضاً قال الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلي بن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضلت على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً طهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»^(٣). ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث إسماعيل بن جعفر، وقال الترمذي: حسن صحيح^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً فإتمها إلا موضع لبنة واحدة، فجئت أنا فأتملت تلك اللبنة». ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب كلاهما عن أبي معاوية به^(٥).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، حدثنا سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرياض بن سارية ؓ قال: قال لي النبي ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته»^(٦).

حديث آخر: قال الزهري: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» أخرجاه في الصحيحين^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: «أنا محمد النبي الأمي - ثلاثاً - ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجاوز بي، وعُوفيتُ وعُوفيتُ أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله تعالى أحلوا حلاله، وحرّموا حرامه» تفرد به الإمام أحمد^(٨).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣١٢/٢) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (ح ٢١٨٨٦).

(٣) أخرجه مسلم بسنده ومثته (الصحيح، المساجد ومواضع الصلاة ح ٥٢٣).

(٤) سنن الترمذي، السير، باب ما جاء في الغنيمة (ح ١٥٥٣).

(٥) تقدم تخريجه قبل أربع روايات. (٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٢٩.

(٧) صحيح البخاري، المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (ح ٣٥٣٢)، وصحيح مسلم، الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (ح ٢٣٥٤).

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٧٢/٢). وسنده ضعيف لما قيل في ابن لهيعة والشرط الأخير من قوله: «فاسمعوا وأطيعوا...» إلخ له شاهد صحيح صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ١٤٧٢).

ورواه الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن سريج الخولاني، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، فذكر مثله سواء^(١).

والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السُّنَّة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب وأفَّاك دجال ضال مضلّ، لو تخرق^(٢) وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات^(٣) فكلها محال وضلال عند أولي الألباب كما أجرى الله ﷻ على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٦﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ الآية [الشعراء]، وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١﴾ وَسِعْهُ بَرْكُهُ وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٣﴾ فَحِثُّهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَ سَلَمًا وَاعْدْ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدثني مولى ابن عياش، عن أبي بحرية، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ذكر الله ﷻ»^(٤). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢/٢١٢) وحكمه كسابقه وشاهده.

(٢) أي: اختلق الكذب. (٣) جمع نيرج وهو أخذ كالسحر.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (٣٦/٣٤ ح ٢١٧٠٢) وصححه سننه محققوه.

زياد مولى ابن عياش، عن أبي بحرية واسمه عبد الله بن قيس التراغمي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه به، قال الترمذي: رواه بعضهم عنه فأرسله^(١).

قلت: وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَالذِّكْرُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَالذِّكْرُ لِلَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] في مسند الإمام أحمد من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش، أنه بلغه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ بنحوه^(٢)، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا فرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: اللهم اجعلني أعظم شكرًا، وأتبع نصيحتك، وأكثر ذكرًا، وأحفظ وصيتك^(٣). ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، فذكر مثله، وقال: غريب^(٤)، وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فرج بن فضالة، عن أبي سعيد المري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، فذكره^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بسر يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله؛ أي: الناس خير؟ قال ﷺ: «من طال عمره وحسن عمله»، وقال الآخر: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فمروني بأمر أتشبث به، قال ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى»^(٦). وروى الترمذي وابن ماجه الفصل الثاني من حديث معاوية بن صالح به، وقال الترمذي: حديث حسن غريب^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إن دراجاً أبا السمع حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «أكثرُوا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون»^(٨).

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم العمي، حدثنا سعيد بن سفيان الجحدري، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن عقبة بن أبي ثيب الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن

(١) سنن الترمذي، الدعاء (ح ٣٣٧٧)، وسنن ابن ماجه، الأدب، باب فضل الذكر (ح ٣٧٩٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٠٥٧).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير آية ٣٥ من هذه السورة الكريمة، الحديث السابق يشهد له.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٦/١٤٦ - ١٤٧ ح ١٠١٧٩) وضعف سنده محققوه لضعف فرج بن فضالة.

(٤) لم أجد في سنن الترمذي بهذا الإسناد، وذكره المزي وعزاه للترمذي بهذا الإسناد (تحفة الأشراف ١٠/ ٤٥٤)، وحكمه كسابقه.

(٥) (المسند ١٣/٤٦٥ ح ٨١٠١) وحكمه كسابقه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٩/٢٤٠ ح ١٧٦٩٨) وصححه سنده محققوه.

(٧) سنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن (ح ٣٣٧٥)، وسنن ابن ماجه، الأدب، باب فضل الذكر (ح ٣٧٩٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٠٦٠).

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٦٨) وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم.

ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً كثيراً [حتى]»^(١) يقول المنافقون إنكم تُراؤون»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شَدَّاد أبو طلحة الراسبي، سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة»^(٣).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال. وقال ﷺ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٤) فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته^(٥).

والأحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك. وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما. ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب (الأذكار) للشيخ محيي الدين النووي رحمته الله.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٦) أي: عند الصباح والمساء، كقوله ﷺ: ﴿فَسُبِّحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُنْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾^(٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ هَذَا تَهَيِّجُ إِلَى الذِّكْرِ﴾ أي: أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله ﷺ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَرُزُوقَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٨) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٩) [البقرة]، وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»^(١٠)، والصلاة من الله تعالى ثناءه على العبد عند الملائكة، حكاة البخاري عن أبي العالية^(١١)، ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عنه^(١٢)، وقال غيره: الصلاة من الله ﷻ الرحمة. وقد يقال: لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «يباض».

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ١٦٩/١٢ ح ١٢٧٨٦)، وسنده ضعيف لضعف الحسن بن أبي جعفر الجفري (التقريب ص ١٥٨ وينظر مجمع الزوائد ٧٦/١٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٦٦٣/١١ ح ٧٠٩٣)، وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٥٢.

(٦) أخرجه البخاري تعليقاً (الصحيح، تفسير سورة الأحزاب، باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾... [الأحزاب: ٥٦] قبل حديث رقم ٤٧٩٧).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر الرازي به (ينظر فتح الباري ٨/٥٣٣).

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [غافر: ٧ - ٩]. وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضلَّ عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفرع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لمحبتة لهم ورأفته بهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه رضي الله عنهم، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال فخفضهم رسول الله ﷺ وقال: «لا، والله لا يلقي حبيبه في النار»^(١). إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: «فوالله لا أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحييتهم؛ أي: من الله تعالى يوم يلقونه سلام؛ أي: يوم يسلم عليهم كما قال ﷺ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس].

وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة^(٣)، واختاره ابن جرير.

(قلت): وقد استدلل له بقوله تعالى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنة وما فيها من المأكول والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣/١٠٤)، وسنده صحيح وأخرجه الحاكم من طريق المعتمر عن حميد به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤/١٧٧) وذكر الهيثمي أن رجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد ١٠/٣٨٣) وصححه الحافظ ابن كثير.

(٢) صحيح البخاري، الأدب، باب رحمه الولد وتقبيله ومعانفته (ح ٥٩٩٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بلفظ: «تحية أهل الجنة: السلام».

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا نَطْعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان، حدثنا هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وحرزاً للأمينين، أنت عبيدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وأذاناً صماً، وقلوباً غلفاً^(١). وقد رواه البخاري في البيوع عن محمد بن سنان، عن فليح بن سليمان، عن هلال بن علي به^(٢). ورواه في التفسير عن عبد الله، قيل ابن رجاء: وقيل ابن صالح: عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو به^(٣). ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون به.

وقال البخاري في البيوع: وقال سعيد: عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه^(٤)، وقال وهب بن منبه: إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعيا: أن قم في قومك بني إسرائيل فإني مُنطق لسانك بوحى وأبعث أمياً من الأميين، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، لو يمرُّ إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشراً ونذيراً لا يقول الخنا، أفتح به أعيناً كمها^(٥) وأذاناً صماً وقلوباً غلفاً، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقته، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد: اسمه، أهدي به بعد الضلال، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فثاماً من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدون مؤمنين مخلصين مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لي قياماً وقعوداً ويقاتلون في سبيل الله صفوفاً وزخوفاً، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفاً، يطهرون الوجوه والأطراف ويشدون الثياب في

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٧٤/٢) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (ح ٢١٢٥).

(٣) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] (ح ٤٨٣٨).

(٤) ينظر فتح الباري ٣٤٣/٤. (٥) أي: جمع أكمه وهو الأعمى.

الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته، وذريته السابقين والصدّيقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، وأعزّ من نصرهم وأوّد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم، أو بغى عليهم أو أراد أن ينتزع شيئاً مما في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيّه من أشياء وأنا ذو الفضل العظيم. هكذا رواه ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه اليماني^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن شيّان النحوي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يسيرا إلى اليمن فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل عليّ ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾»^(٢). ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادي، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي بإسناده مثله، وقال في آخره: «فإنه قد أنزل علي يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ومبشراً بالجنة ونذيراً من النار وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه وسراجاً منيراً بالقرآن»^(٣).

فقوله تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾ أي: الله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيداً كقوله: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله ﷻ: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب.

وقوله جلت عظمتة: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿وَسَرَّاجًا مُنِيرًا﴾ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معانداً.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ أي: لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه. ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكلّ أمرهم إلى الله تعالى، فإن فيه كفاية لهم، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(١) الخبر من الإسرائيليات الصريحة.

(٢) سنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن محمد العرزمي (مجمع الزوائد ٩٢/٧)، ومثته فيه مخالفة لأن المشهور في الصحيح أن النبي ﷺ أرسل أبا موسى الأشعري ومعاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي السند أيضاً عبد الرحمن بن صالح الأزدي فيه تشيع كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٣١٢/١١ ح ١١٨٤١) وسنده ضعيف كسابقه وفيه أيضاً مخالفة أخرى في آخره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ﴾ (٤٩).

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطاء أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق، وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب والحسن البصري وعلي بن الحسين زين العابدين وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقت منه، واختلفا فيما إذا قال كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة.

وقال أبو حنيفة رحمته الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا يونس يعني ابن أبي إسحاق، قال: سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية (١).

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يناق، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما قال الله ﷻ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح (٢)، وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق قبل النكاح (٣).

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي:

(١) في سننه آدم مولى خالد وهو: ابن سليمان مولى خالد بن عقبة بن أبي معيط كذا ذكره ابن أبي حاتم وقال: صالح (الجرح والتعديل ٢/٢٦٨) ويتقوى بالروايات والأحاديث التي تليه.

(٢) في سننه الحسن بن مسلم لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما ويتقوى بما يليه.

(٣) سننه حسن بسابقه ولا حقه.

هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب^(١)، وهكذا روى ابن ماجه، عن علي والمصور بن مخزومة رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل نكاح»^(٢).

وقوله ﷺ: «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهَا» هذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعدت منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً.

وقوله تعالى: «فَتَتَعَوَّضْنَ سَرَامًا جَمِيلًا» المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها.

قال الله تعالى: «وَأِنْ طَلَقْتُهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» [البقرة: ٢٣٧] وقال ﷺ: «لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ» [البقرة].

وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالوا: إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين^{(٣)(٤)}.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن كان سمي لها صدقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمي لها صداقاً أمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل^(٥).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكِ وَبَنَاتٍ خَالَكِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحلَّ له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور ههنا، كما قاله مجاهد وغير واحد. وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشأ وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق عمرو بن شعيب به (المسند ١١/٢٨٢ ح ٦٧٦٩)، وحسن سنده محققوه، وكذا أخرجه أبو داود (السنن، الطلاق، باب في الطلاق قبل النكاح ح ٢١٩١)، والترمذي (السنن، الطلاق، باب ما جاء لا طلاق قبل النكاح ح ١١٨١)، وابن ماجه (السنن، الطلاق، باب ما جاء لا طلاق قبل النكاح ح ٢٠٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٩١٦).

(٢) سنن ابن ماجه، الباب السابق (ح ٢٠٤٧) وحسنه البوصيري (مصباح الزجاجة ٢/١٣٢) ويشهد له سابقه.

(٣) وهي ثياب من قطن أبيض.

(٤) صحيح البخاري، الطلاق، باب وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق (ح ٥٢٥٦).

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

وجعل عتقها صداقها، كذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها رضي الله عنهن أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفيه وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراري عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عِمَكِ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾، هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع، وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عِمَكِ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ﴾ فوحد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾، [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وله نظائر كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ قال ابن أبي حاتم رحمته الله: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث الرازي، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن السدي، عن أبي صالح، عن أم هانئ قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعدرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحلّ له، ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء^(١). ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن عبيد الله بن موسى به^(٢)، ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح عنها بنحوه^(٣)، ورواه الترمذي في جامعه^(٤). وهكذا قال أبو رزين وقتادة إن المراد من هاجر معه إلى المدينة.

وفي رواية عن قتادة: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ أي: أسلمن.

وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: ﴿واللاتي هاجرن معك﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُّؤْمَنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ﴾ أي: ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وكقول موسى عليه السلام: ﴿يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَقَلِيلٌ مَّا تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال ههنا: ﴿وَأَمْرًا مُّؤْمَنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾.

(١) سنده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هاني. (٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وحكمه كسابقه.

(٣) حكمه كسابقه.

(٤) السنن، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣٢١٤).

(٥) أخرجه الطبري بسند فيه إبهام اسم شيخه عن الضحاك به وهي قراءة شاذة تفسيرية بين معناها بقوله: يعني بذلك: كل شيء هاجر معه ليس من بنات العم والعمة، ولا من بنات الخال والخالة.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي، أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: «هل عندك من شيء تصدقها إياه؟» فقال: ما عندي إلا إزارى هذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً» فقال: لا أجد شيئاً، فقال: «التمس ولو خاتماً من حديد» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هل معك من القرآن شيء؟» قال: نعم سورة كذا وسورة كذا - لِسُورَ يَسْمِيهَا - فقال له النبي ﷺ: «زوجتكها بما معك من القرآن»^(١). أخرجاه من حديث مالك^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا مرحوم، سمعت ثابتاً يقول: كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله هل لك في حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها، فقال: «هي خير منك رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها»^(٣). انفرد بإخراجه البخاري من حديث مرحوم بن عبد العزيز، عن ثابت البناني، عن أنس به^(٤).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا سنان بن ربيعة، عن الحضرمي، عن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ابنة لي كذا وكذا، فذكرت من حسناتها وجمالها فأثرتك بها، فقال: «قد قَبِلْتُهَا» فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تُصدِّع ولم تشك شيئاً قط، فقال: «لا حاجة لي في ابنتك»^(٥). لم يخرجوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا ابن أبي الوضاح يعني: محمد بن مسلم، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم^(٦).

وقال ابن وهب: عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ^(٧). وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنا نتحدث أن خولة بنت

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٣٦/٥)، وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، النكاح، باب عرض المرأة نفسها (ح ٥١٣٥)، وصحيح مسلم، النكاح، باب الصداق وجواز كون تعليم قرآن وخاتم حديد (ح ١٤٢٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٦٨/٣) وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، النكاح، باب عرض المرأة نفسها (ح ٥١٢٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٨/٢٠ - ٣٩ ح ١٢٥٨٠)، وضعف سنده محققوه لضعف سنان بن ربيعة.

(٦) في سنده ابن أبي الوضاح وهو محمد بن مسلم: صدوق يهيم، ولكنه قد توبع فأخرجه الطبري من طريق ابن وهب عن سعيد عن هشام بن عروة به، وسنده حسن، وأخرجه البخاري موقوفاً على عروة. (الصحيح، النكاح، باب عرض المرأة نفسها ح ٥١١٣).

(٧) أخرجه الطبري من طريق ابن وهب به.

حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ وكانت امرأة صالحة. فيحتمل أن أم سليم هي: خولة بنت حكيم أو هي امرأة أخرى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ستاً من قريش: خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة، وثلاثاً من بني عامر بن صعصعة، وامرأتين من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وزينب أم المساكين، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات، وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيتين صفية بنت حيي بن أخطب وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية^(١).

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: هي ميمونة بنت الحارث^(٢)، فيه انقطاع، هذا مرسل، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، فالله أعلم.

والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، كما قال البخاري: حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامة قال: حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجَى مَن نَّفْسُهُ مِثْنُ نَفْسِكَ مِّنْ نَّفْسَةٍ وَمِنْ أُنْفُسٍ مِّمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك^(٣).

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن منصور الجعفي، حدثنا يونس بن بكير، عن عنبسة بن الأزهر، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له^(٤). ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن يونس بن بكير^(٥)؛ أي: أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به، لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ الْتَأْتِي أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: إن اختار ذلك.

وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي: لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً^(٦)، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما^(٧)؛ أي: أنها إذا فوّضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر

(١) سنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة وهو الربذي.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة به، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من ابن عباس.

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتمنه (الصحيح، تفسير سورة الأحزاب، باب ﴿تُرْجَى مَن نَّفْسُهُ مِثْنُ نَفْسِكَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾... [الأحزاب: ٥١] ح ٤٧٨٨).

(٤) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢٥٥/٩)، وحسن الحافظ ابن حجر رواية الطبراني (فتح الباري ٣٨٦/٨).

(٥) أخرجه الطبري عن أبي كريب به، وسنده حسن.

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم ويشهد له الآثار التالية.

(٧) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الحكم عنه بلفظ: «أن تهب»، وقول الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة والطبري والبستي بسند صحيح من طريق عبد الله بن أبي السفر عنه بلفظ: «أنها امرأة من الأنصار، وهبت نفسها للنبي وهي مما أرجأ» (المصنف ٣١٦/٤) ومعنى أرجأ أي: أخر.

مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بَرُوع بنت واشق لما فَوَّضَتْ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي، ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةٌ لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ^(١).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقاتدة وابن جرير في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شأوا من الإماء واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه^(٢) ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أَنْفَعَتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ إِذْ قَرَأْتَ نَحْوَهُنَّ وَلَا يُحْزَنُ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١).

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله ﷻ ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ الآية، قالت: إني أرى ربك يسارع لك في هواك^(٣).

وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث أبي أسامة، عن هشام بن عروة^(٤)، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجَى﴾ أي: تؤخر ﴿مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات ﴿وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ أي: من شئت قبلتها ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عدت فيها فأوليتها، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ أَنْفَعَتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

قال عامر الشعبي في قوله تعالى: ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ﴾، كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده، منهن أم شريك^(٥). وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجَى مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ﴾ الآية؛ أي: من أزواجك لا حرج عليك

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) قول أبي بن كعب أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مجهول عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند فيه ليث وهو ابن أبي سليم وفيه مقال، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٥٨/٦) وسنده صحيح.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير الآية السابقة.

(٥) أخرجه البُستي والبيهقي (السنن الكبرى ٥٥/٧) كلاهما بسند حسن من طريق يونس بن بكير، عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي.

أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت وتترك من شئت، هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأبي رزين وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم^(١)، ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وقال البخاري: حدثنا حبان بن موسى، حدثنا عبد الله هو ابن المبارك، وأخبرنا عاصم الأحول، عن معاذ، عن عائشة أن رسول الله ﷺ: كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ مِنْهُمْ وَقُوَىٰ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمِنْ أَبْنَيْتٍ مِّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول إن كان ذلك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوتر عليك أحداً^(٢).

فهذا الحديث عنها يدلُّ على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء، اللَّاتِي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزِبَكِ وَيَرْضَيْنَكِ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به، وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه، كما قال الإمام [أحمد: حدثنا] يزيد^(٣)، حدثنا حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللَّهُم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(٤). ورواه أهل السنن الأربعة من حديث حماد بن سلمة، وزاد أبو داود بعد قوله: «فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(٥) يعني: القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات، ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بضمائر السرائر ﴿حَلِيمًا﴾ أي: يحلم ويغفر.

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ: «تؤخر»، وقول مجاهد آدم بن أبي إياس والطبري من طريق ابن أبي نجيع عنه بنحوه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وقول أبي رزين أخرجه عبد الرزاق وابن سعد بسند صحيح من طريق منصور عنه.
(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَاءُ مِنْهُمْ وَقُوَىٰ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] ح ٤٧٨٩).

(٣) زيادة من (ح) و(حم).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٦/٤٢ ح ٢٥١١١)، قال المحققون: هذا إسناد رجاله ثقات... وقد أخطأ حماد بن سلمة في وصله، والصواب أنه مرسل.

(٥) سنن أبي داود، النكاح، باب القسم بين النساء (ح ٢١٣٤)، وسنن الترمذي، النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر (ح ١١٤٠)، والسنن الكبرى للنسائي، عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض (ح ٣٩٤٣)، وسنن ابن ماجه، النكاح، باب القسمة بين النساء (ح ١٩٧١) وحكمه مرسل كسابقه.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝٥٢﴾ .

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم، أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن على حسن صنعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإمام والسراي فلا حرج عليه فيهن^(١)، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج المنة لرسول الله ﷺ عليهن.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء^(٢)، ورواه أيضاً من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة^(٣)، ورواه الترمذي والنسائي في سننهما^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبه، حدثني عمر بن أبي بكر، حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الخزاعي، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عبد الله بن وهب بن زمعة، عن أم سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مِّنْ نَّسَاءِ مِّثْنٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٥١] فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها^(٥)، والله أعلم.

وقال آخرون: بل معنى الآية ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك، اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم

(١) في هذا التفسير دمج الحافظ أقوال المفسرين وصاغها بالمعنى فقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه بلفظ: «نهي رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً»، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه بنحوه، وقول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي شيبه بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «لا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة». (المصنف ٤/٢٦٩) وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه بلفظ: «لا بأس أن تبادل بجاريك ما شئت أن تبادل، فأما الحرائر فلا».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٠/١٦٤ - ١٦٥ ح ٢٤١٣٧)، قال المحققون: حديث ضعيف وإن كان رجاله ثقات رجال الشيخين قد اختلف فيه على عطاء وهو ابن أبي رباح.

(٣) أخرجه الإمام أحمد من طريق وهيب عن ابن جريج به (المسند ٤٢/٢٩٤ ح ٢٥٤٦٧) وضعف سنده محققوه.

(٤) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣٢١٦)، وحسنه الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٥٦٨)، وسنن النسائي، النكاح، باب ما افترض الله ﷻ الله ﷻ رسول الله ﷺ ٥٦/٦.

(٥) في سنده عمر بن أبي بكر مقبول كما في التقريب وأخرجه الحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٣٧).

والعمات والخال والخالات والواهة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحلّ لك، وهذا ما روي عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه، وعكرمة والضحاك في رواية، وأبي رزين في رواية عنه، وأبي صالح والحسن وقتادة في رواية، والسدي^(١) وغيرهم.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علي، عن داود بن أبي هند، حدثني محمد بن أبي موسى، عن زياد، عن رجل من الأنصار قال: قلت لأبي بن كعب: أ رأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت قول الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ فقال: إنما أحلّ الله له ضرباً من النساء، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ثم قيل له: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾^(٢). ورواه عبد الله بن أحمد من طرق عن داود به^(٣).

وروى الترمذي، عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ فأحلّ الله فتياتكم المؤمنات، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي وحرّم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيُّ ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وحرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء^(٤).

وقال مجاهد: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: من بعد ما سمي لك من مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة.

وقال أبو صالح: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية، ويتزوج بعد من نساء تهامة وما شاء من بنات العم والعمة والخال والخالة إن شاء ثلاثمائة^(٥).

وقال عكرمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أي: التي سمى الله^(٦).

واختار ابن جرير رحمه الله: أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في

(١) قول أبي بن كعب لم يثبت عنه كما سيأتي في الرواية المسندة عن الطبري وعبد الله بن أحمد، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح عن طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف عن شيخ مبهم للطبري، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول أبي صالح أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام الراوي عن أبي صالح.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي.

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق داود عن محمد بن أبي موسى عن زياد الأنصاري عن أبي (المسند ٣٥/١٣٥ ح ٢١٢٠٨) وضعفه محققوه لجهالة زياد الأنصاري.

(٤) أخرجه الترمذي من طريق شهر بن حوشب عن ابن عباس وحسنه (السنن، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب ح ٣٢١٥) وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ح ٦٣١).

(٥) قول مجاهد وأبي صالح تقدم الحكم عليهما قبل الرواية السابق.

(٦) أخرجه ابن سعد بسند صحيح من طريق سليمان بن يسار عن عكرمة (الطبقات الكبرى ٨/٢٠٠ - ٢٠١). وتخريجه تقدم عند تفسير هذه الآية.

عصمته وكن تسعاً، وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة، والله أعلم.

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طَلَّقَ حفصة ثم راجعها! وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ الآية، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، فالله أعلم.

فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا شُكْرًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الآية^(١) [النساء: ١٢٨].

وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من طرق، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حي، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن عمر أن رسول الله ﷺ طَلَّقَ حفصة ثم راجعها^(٢)، وهذا إسناد قوي.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك، إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً^(٣)، ورجاله على شرط الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فنهاه عن الزيادة إن طلق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها، إلا ما ملكت يمينه، وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره ههنا، فقال: حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله القرشي، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: كان البذل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك: وأبدلك بامرأتي؛ أي: تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال فدخل عُيَيْنَةُ بن حصن الفزاري على النبي ﷺ وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين الاستئذان؟» فقال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين»

(١) تخريجه تقدم عند تفسير هذه الآية.

(٢) سنن أبي داود، الطلاق، باب في المراجعة (ح ٢٢٨٣)، وسنن ابن ماجه، الطلاق (ح ٢٠١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٩٩٨)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ١٩٧).

(٣) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ١/ ١٦٠ ح ١٧٢)، وأخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٢٣/ ٣٠٥)، وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٤).

قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ قال: «يا عيينة إن الله قد حرم ذلك» فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: «هذا أحرق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه» ثم قال البزار: إسحاق بن عبد الله لين الحديث جداً، وإنما ذكرناه لأننا لم نحفظه إلا من هذا الوجه وبيننا العلة فيه^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِخَبَرِ اللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ إِنَّ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي ﷺ في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّنْ كُنَّ﴾ [التحریم: ٥] فنزلت كذلك^(٢)، وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر وهي قضية رابعة^(٣).

وقد قال البخاري: حدثنا مسدد، عن يحيى، عن حميد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب^(٤). وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش الأسدية التي تولّى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مجلز، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٢٢٥١)، وسنده ضعيف جداً لأن إسحاق بن عبد الله متروك (مجمع الزوائد ٩٢/٧).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٢٥.

(٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (ح ٢٣٩٩).

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ [الأحزاب: ٥٣] ح ٤٧٩٠).

فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ الآية^(١)، وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم والنسائي من طرق عن معتمر بن سليمان به^(٢).

ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قلابه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه، ثم قال: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا رسول الله ما أجد أحداً أدعوه، قال: «ارفعوا طعامكم» وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته» قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلَكَ يا رسول الله؟ بارك الله لك؟ فَتَقَرَّرَى^(٣) حجر نسائه كلهن يقول لهنَّ كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة^(٤) الباب داخله والأخرى خارجة، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزل آية الحجاب^(٥). انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة سوى النسائي في اليوم واللييلة من حديث عبد الوارث، ثم رواه عن إسحاق هو ابن منصور، عن عبد الله بن بكر السهمي، عن حميد، عن أنس بنحو ذلك، وقال رجلان^(٦): انفرد به من هذا الوجه، وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو المظفر، حدثنا جعفر بن سليمان، عن الجعد أبي عثمان الشكري، عن أنس بن مالك قال: أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم حيساً^(٧) ثم جعلته في تور^(٨) فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ وأقرئه مني السلام وأخبره أن هذا منا له قليل، قال أنس: والناس يومئذ في جهد، فجئت به فقلت: يا رسول الله بعثت بهذا أم سليم إليك، وهي تقرئك السلام وتقول: أخبره أن هذا منا له قليل، فنظر إليه ثم قال: «ضعه» فوضعت في ناحية البيت ثم قال: «اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً» فسمى رجالاً كثيراً وقال: «ومن لقيت من المسلمين» فدعوت من قال لي ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصفة

(١) أخرجه البخاري بسنده ومته (المصدر السابق ح ٤٧٩١).

(٢) صحيح مسلم، النكاح، باب زواج زينب بنت جحش رضي الله عنها (ح ١٤٢٨/٩٢)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، سورة الأحزاب (ح ١١٤٣٠).

(٣) أي: تتبع الحجرات واحدة واحدة (فتح الباري ٨/ ٥٣٠).

(٤) أسكفة الباب: عتبة.

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومته (المصدر السابق ح ٤٧٩٣).

(٦) المصدر السابق (ح ٤٧٩٤).

(٧) الحيس: تمر أو أقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالشريد.

(٨) وهو إناء يشرب فيه.

والحجرة ملأى من الناس، فقلت: يا أبا عثمان كم كانوا؟ فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة. قال أنس: فقال لي رسول الله ﷺ «جئ به» فجئت به إليه فوضع يده عليه ودعا وقال: «ما شاء الله» ثم قال: «ليتحلق عشرة عشرة، وليسموا، وليأكل كل إنسان مما يليه» فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ارفعه» قال: فجئت فأخذت التور، فنظرت فيه فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت؟ قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوج رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ وكان أشد الناس حياء، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً، فقام رسول الله ﷺ، فخرج فسلم على حجره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل البيت وأنا في الحجرة، فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً وأنزل الله عليه القرآن، فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآيات، قال أنس: فقرأهن عليّ قبل الناس، فأنا أحدث الناس بهن عهداً^(١)، وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي جميعاً عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان به، وقال الترمذي: حسن صحيح^(٢)، وعلقه البخاري في كتاب النكاح، فقال: وقال إبراهيم بن طهمان، عن الجعد أبي عثمان، عن أنس فذكر نحوه. ورواه مسلم أيضاً، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الجعد به، وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن بيان بن بشر، عن أنس بنحوه^(٣)، ورواه البخاري والترمذي من طريقين آخرين عن بيان بن بشر الأحمسي الكوفي، عن أنس بنحوه، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من حديث أبي نضرة العبدى، عن أنس بن مالك بنحو ذلك، ولم يخرجوه، ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد ومن حديث الزهري، عن أنس بنحو ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز وهاشم بن القاسم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها علي» قال: فانطلق زيد حتى أتاه، قال: وهي تخمر عجينها، فلما رأيتها عظمت في صدري، وذكر تمام الحديث كما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وزاد في آخره بعد قوله: ووعظ القوم بما وعظوا به. قال هاشم في حديثه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِظِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجَدِيدٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(٤). وقد أخرجه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة^(٥).

(١) سنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ﷺ (٩٤/١٤٢٨)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح٣٢١٨).

(٣) المصدر السابق (ح١٤٢٨/٩٥).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/١٩٥)، وسنده صحيح.

(٥) صحيح مسلم، النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ﷺ (ح٨٩/١٤٢٨)، والسنن للنسائي، النكاح، باب صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ٧٩/٦.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب، حدثني عمي عبد الله بن وهب، حدثني يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: إن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أفيح^(١) - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب^(٢)، هكذا وقع في هذه الرواية، والمشهور أن هذا بعد نزول الحجاب^(٣).

كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة، لا تخفى على من يعرفها، فرأها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق^(٤)، فدخلت فقالت: يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك»^(٥) لفظ البخاري، فقلوه تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء»^(٦) الحديث، ثم استثنى من ذلك فقال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِظِينَ إِنَّهُ﴾.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحينين نضجه واستواءه^(٧)؛ أي: لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن^(٨)، وقد صنف الخطيب

(١) أي: واسع. (٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن.

(٣) لكن ما ورد في البخاري يؤيد رواية الطبري فقد أخرجه البخاري من طريق عقيل عن الزهري به مختصراً وفيه قوله: قد عرفناك يا سودة... إلى آخره.

وقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروایتين فقال: المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثاني، والحاصل أن عمر رضي الله عنه وقع في قلبه نفرة من إطلاع الأجانب على الحرم النبوي، حتى صرح بقوله له عليه الصلاة: احجب نساءك، وأكد ذلك إلى أن نزلت آية الحجاب، ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدن أشخاصهن أصلاً ولو كنَّ مستترات، فبالغ في ذلك، فمنع منه، وأذن لهن في الخروج لحاجتهن دفعاً للمشقة ورفعاً للحرج (فتح الباري ٥٣١/٨).

(٤) أي: العظم بلحمه.

(٥) المسند ٥٦/٦ وصحيح البخاري، التفسير، باب ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ...﴾ [الأحزاب: ٥٣] (ح ٤٧٩٥)، وصحيح مسلم، السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان (ح ٢١٧٠).

(٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة النور آية ٣١.

(٧) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٨) أي: الذي يجيء مع الضيف.

البغدادي في ذلك كتاباً في (ذم الطفيليين)، وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، وفي صحيح مسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجِبْ عَرَساً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ»^(١) وأصله في الصحيحين.

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ: «لَوْ دُعِيتَ إِلَى ذِرَاعٍ لَأَجَبْتَ وَلَوْ أَهْدَى إِلَيَّ كِرَاعٍ»^(٢) لقبلت، فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض»^(٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَفْسِدِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجْ مِنْكُمْ﴾.

وقيل: المراد إن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حياته ﷺ حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب..

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مسعر، عن موسى بن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت أكل مع النبي ﷺ حيساً في قفب^(٤)، فمرَّ عمر فدعاه فأكل، فأصابته إصبعة إصبعي، فقال: جسّ أو أوه، لو أطاع فيكن ما رأيتك عين، فنزل الحجاب ﴿ذَلِكَ أَمْطَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾^(٥) أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطره وأطيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت في رجل همّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذلك^(٦). وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن

(١) صحيح مسلم، النكاح، باب الأمر بإجابة الراعي إلى دعوة (ح ١٤٢٩).

(٢) أي: ما دون الركبة.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الهبة، باب القليل من الهبة ح ٢٥٦٨).

(٤) أي: القدر الضخم.

(٥) أخرجه البستي من طريق ابن أبي عمر العدني به، وفي سنده مجاهد وهو لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الطبراني من طريق ابن أبي عمر به (المعجم الأوسط ٤٥٢/٣ ح ٢٩٧١) وقال الطبراني لم يروه عن مسعر إلا سفيان بن عيينة (ينظر مجمع البحرين ٥٩/٦ ح ٣٣٧٤).

(٦) سنده حسن.

أسلم^(١)، وذكر بسنده عن السدي إن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه^(٢)، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا اجتمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته: هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعاً، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قبيلة ابنة الأشعث - يعني: ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه، إنها لم يخيرها رسول الله ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها: قال: فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن^(٣).

وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ثم قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: مهما تكنه ضمائرهم وتنطوي عليه سرائرهم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر].

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِلَهًا كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١] وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقد سأل بعض السلف فقال: لِمَ لم يذكر العمّ والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرنا لأنهما قد يصفان ذلك لبنينهما.

قال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، حدثنا داود، عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ﴾ الآية، قلت: ما شأن العمّ والخال لم يُذكر^(٤)؟ قال لأنهما ينعنانهما لأبنائهما وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

(٢) سنده مرسل.

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده مرسل، وأخرجه ابن سعد من طريق داود بن هند دون ذكر عامر الشعبي (الطبقات الكبرى ١٤٧/٨).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُهُنَّ﴾ يعني: بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات.
وقوله تعالى: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني: به أرقاءهن من الذكور والإناث كما تقدم التنبيه عليه وإيراد الحديث فيه^(١).

قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإمام فقط، رواه ابن أبي حاتم.
وقوله تعالى: ﴿وَأَنْقَضِينَ اللَّهُ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: واخشيته في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء.

وقال ابن عباس: يصلون يبركون، هكذا علقه البخاري عنهما^(٢)، وقد رواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية كذلك، وروي مثله عن الربيع^(٣) أيضاً، وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس كما قاله سواء^(٤)، رواهما ابن أبي حاتم.

وقال أبو عيسى الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم، قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار^(٥).

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو الأودي، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، قال الأعمش أراه عن عطاء بن أبي رباح ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال: صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس، سبقت رحمتي غضبي والمقصود من هذه الآية أن الله ﷻ أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه^(٦).

ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الشاء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر؛ يعني: ابن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى ﷺ: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه ﷻ: يا موسى سألوكم هل يصلي ربك، فقل: نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٧).

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة النور آية ٣١.

(٢) الصحيح، التفسير، باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] قبل حديث (٤٧٩٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر به (ينظر فتح الباري ٥٣٣/٨) وسنده جيد.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

(٥) سنن الترمذي، أبواب الوتر، باب فضل الصلاة على النبي ﷺ.

(٦) سنده مرسل.

(٧) في سنده جعفر بن أبي المغيرة وهو صدوق بهم.

وقد أخبر ﷺ بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسِعِهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤١﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب] وقال تعالى: ﴿وَيَسِّرِ الصَّدِيقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝٤٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ۝٤٧﴾ [البقرة]. وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»^(١).

وفي الحديث الآخر: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(٢) وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها: «صلى الله عليك وعلى زوجك»^(٣)، وقد جاءت الأحاديث المتواترة، عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، أخبرنا أبي، عن مسعر، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة قال: قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم قال: سمعت ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله قد علمنا أو عرفنا كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٥). وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم من طرق متعددة عن الحكم وهو ابن عتيبة، زاد البخاري وعبد الله بن عيسى كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى فذكره^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هشيم بن بشير، عن يزيد بن أبي زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ

(١) أخرجه أبو داود من حديث عائشة ؓ (السنن، الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف ح ٦٧٦) وقال الألباني حسن بلفظ: «على الذين يصلون الصفوف» (ح ٦٢٨).

(٢)(٣) تقدم تخريجهما في تفسير سورة التوبة آية ١٠٣.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦ ح ٤٧٩٧]).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٤١/٤) وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥ ح ٣٣٧٠]، وصحيح مسلم، الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ (ح ٤٠٦)، وسنن أبي داود، الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ (ح ٩٧٦)، وسنن الترمذي، الصلاة، باب ما جاء في صفة الصلاة على النبي ﷺ (ح ٤٨٣١)، وسنن النسائي، الصلاة، باب كيفية الصلاة على النبي ﷺ ٤٧/٣، وسنن ابن ماجه إقامة الصلاة باب كيفية الصلاة على النبي ﷺ (ح ٩٠٤).

عَلَى النَّبِيِّ بِكَائِنَا الَّذِي آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾، قال: قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول وعلينا معهم. ورواه الترمذي بهذه الزيادة^(١)، ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد، الذي كان يعلمهم إياه كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم»، قال أبو صالح عن الليث: على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم.

حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبي حازم والدراوذي، عن يزيد يعني: ابن الهاد قال: كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم^(٢). وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث ابن الهاد به^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: قرأت على عبد الرحمن^(٤): مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سليم أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٥). وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذي من حديث مالك به^(٦).

حديث آخر: قال مسلم: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي قال: قرأت على مالك، عن نعيم بن عبد الله المجرم، أخبرني محمد بن عبد الله بن زيد الأنصاري قال: وعبد الله بن زيد هو الذي كان أرى النداء بالصلاة، أخبره عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف

(١) أخرجه الترمذي من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى به وبالإضافة (السنن، أبواب الوتر، باب ما جاء في صفة الصلاة على النبي ﷺ ح ٤٨٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٤٠١)، وأخرجه البخاري من طريق الحكم به بدون الزيادة كما تقدم في الرواية السابقة.

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] ح ٤٧٩٨).

(٣) سنن النسائي، الصلاة، باب كيفية الصلاة على النبي ﷺ ٤٩/٣، وسنن ابن ماجه، الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ (ح ٩٠٥).

(٤) أي: عبد الرحمن بن مهدي.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٢٤/٥) وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء (ح ٣٢٦٩)، وصحيح مسلم، الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ (ح ٤٠٧).

نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»^(١). وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير من حديث مالك به. وقال الترمذي: حسن صحيح^(٢).

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه، عن أبي مسعود البدري أنهم قالوا: يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»^(٣). وذكره ورواه الشافعي رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة بمثله^(٤)، ومن ههنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنّع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك.

وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض عنهم، وقد تعسف هذا القائل في ردّه على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك، وقال ما لم يحط به علماً، فإننا قد رويناه وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة، كما هو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي به، وبه قال إسحاق بن راهويه والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله، حتى أن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوهم، وحتى أن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آله فيما حكاه البندنجي وسليم الرازي وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيح أنه وجه على أن الجمهور على خلافه، وحكوا الإجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم.

والغرض أن الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفاً وخلفاً كما تقدم، والله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم.

(١) المصدر السابق (ح ٤٠٥).

(٢) سنن أبي داود، الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ (ح ٩٨٠)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأحزاب (ح ٣٢٢٠)، وسنن النسائي، السهو، باب الفضل في الصلاة على النبي ﷺ ٤٥/٣.

(٣) (المسند ١٩١/٤)، وسنن أبي داود، الباب السابق (ح ٩٨١)، وسنن الترمذي، الباب السابق ٣٢٢٠، وسنن النسائي، السهو باب الفضل في الصلاة على النبي ﷺ ٤٥/٣ وصحيح ابن خزيمة (ح ٧١١) والمستدرک ١/ ٢٦٨، وسنده حسن وصرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٤) ترتيب مسند الشافعي، الصلاة، باب في الدعاء (ح ٤٩٧).

ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه، والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما من رواية حيوة بن شريح المصري، عن أبي هانئ حميد بن هانئ، عن عمرو بن مالك أبي علي الجنبي، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبي، فقال رسول الله ﷺ: «عَجَلَ هذا» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله ﷻ والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ثم ليدع بعد بما شاء»^(١). وكذا الحديث الذي رواه ابن ماجه من رواية عبد المهيم بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار»^(٢) ولكن عبد المهيم هذا متروك وقد رواه الطبراني من رواية أخيه أبي بن عباس، ولكن في ذلك نظر، وإنما يعرف من رواية عبد المهيم، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمى، عن بُريدة قال: قلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللّٰهُم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٣). أبو داود الأعمى اسمه نفيع بن الحارث، متروك.

حديث آخر موقوف: رويناه من طريق سعيد بن منصور ويزيد بن هارون وزيد بن الحباب، ثلاثتهم عن نوح بن قيس، حدثنا سلامة الكندي أن علياً رضي الله عنه كان يعلم الناس هذا الدعاء: اللّٰهُم داخي المدحوات^(٤)، وبارئ المسموكات^(٥)، وجبار^(٦) القلوب على فطرتها: شقيها وسعيدها، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة [تحننك]^(٧) على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيشت الأباطيل، كما حمل فاضطلع^(٨) بأمرك لطاعتك، مستوفزاً^(٩) [في]^(١٠) مرضاتك، غير نكل في قدم، ولا واهن في

(١) (المسند ٣٩/٣٦٢ - ٣٦٣ ح ٢٣٩٣٧)، وصححه سننه محققوه، وسنن أبي داود، الصلاة، باب الدعاء (ح ١٤٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٣١٤)، وسنن الترمذي، الدعوات (ح ٣٤٧٦)، وسنن النسائي، الصلاة، باب التمجيد والصلاة على النبي ﷺ ٤٤/٣، وصحيح ابن خزيمة (ح ٧١٠) وصحيح ابن حبان (ح ١٩٦٠).

(٢) سنن ابن ماجه، الطهارة، باب ما جاء في التسمية في الوضوء (ح ٤٠٠)، وسنده ضعيف جداً لأن عبد المهيم بن عباس: متروك.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥/٣٥٣) وسنده ضعيف جداً لأن داود الأعمى: متروك.

(٤) المدحوات: الأرضون السبع. (٥) أي: السموات السبع.

(٦) أي: أقام القلوب وأثبتها على ما فطرها عليه من معرفته والإقرار به (النهاية ١/٢٣٦).

(٧) كذا في (حم) و(ح)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «تحننك».

(٨) أي: قام به. (٩) أي: أن النبي ﷺ يسرع في مرضاة الله تعالى.

(١٠) كذا في (حم) و(ح) وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «إلى».

عزم. داعياً بوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك حتى أورى قبساً لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، وأبهج موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة، اللهم افسح له في عدتك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، مهنآت غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول وجزيل عطائك المجمول، اللهم أعل على بناء البانين بنيانه. وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره واجزه من ابتعائك له مقبول الشهادة، مرضي المقالة ذا منطق عدل، وخطة فصل، وحجة وبرهان عظيم^(١). هذا مشهور من كلام علي عليه السلام، وقد تكلم عليه ابن قتيبة في مشكل الحديث، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي في جزء جمعه في فضل الصلاة على النبي ﷺ إلا أن في إسناده نظراً.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف ولم يدرك علياً، كذا قال: وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكندي قال: كان علي عليه السلام يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ فيقول: اللهم داحي المدحوات، وذكره.

حديث آخر موقوف: قال ابن ماجه: حدثنا الحسين بن بيان، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المسعودي، عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود عليه السلام قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ، فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، قال: فقالوا له علمنا، قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرين، اللهم صل على محمد وعلى آله محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد^(٢)، وهذا موقوف، وقد روى إسماعيل القاضي عن عبد الله بن عمرو أو عمر على الشك من الراوي قريباً من هذا^(٣).

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو إسرائيل، عن يونس بن خباب قال: خطبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥١) فقال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول: هكذا أنزل،

(١) أخرجه أبو نعيم من طريق سعيد بن منصور به (عوالي سعيد بن منصور رقم ١٨) وسنده ضعيف لأن سلامة الكندي مجهول ولم يسمع من علي عليه السلام (ينظر الجرح والتعديل ٣٠٠/٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه بسنده ومثله (السنن، إقامة الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ ح ٩٠٦) وفي سنده المسعودي وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، صدوق اختلط وضابطه من سمع منه ببغداد فبعد الاختلاط (التقريب ص ٢٤٤)، ولبعض هذا الحديث له شواهد صحيحة تقدم ذكرها في بداية هذه الأحاديث.

(٣) فضل الصلاة على النبي ﷺ (رقم ٦٢).

فقلنا: أو قالوا يا رسول الله علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ، كَمَا رَحَّمْتَ آلَ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(١).

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور، ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، ولا ترحم معنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجرت واسعا»^(٢).

وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلى علي صلاة، لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فليقل عبداً من ذلك أو ليكثر»^(٣). ورواه ابن ماجه من حديث شعبة به^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي ويونس هو ابن محمد، قالوا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمر، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبيرة بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ، فاتبعته حتى دخل نخلاً، فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله أو قبضه، قال فجئت أنظر فرفع رأسه فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل ﷺ قال لي: ألا أبشرك إن الله ﷻ يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه»^(٥).

طريق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: قام رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخر ساجداً فأطال السجود حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: «من هذا؟» قلت: عبد الرحمن. قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول الله سجدت سجدة خشيت أن يكون الله قبض روحك فيها، فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله ﷻ يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله ﷻ شكراً»^(٦). ورواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه عن يحيى بن عبد الحميد، عن الدراوردي، عن عمرو بن

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس ﷺ، ولشقه الأول شواهد تقدمت.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ (الصحيح، الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ح ٦٠١٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٤٥١/٢٤ ح ١٥٦٨٠) وحسنه محققوه.

(٤) سنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ (ح ٩٠٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٠٠/٣ ح ١٦٦٢) قال محققوه: حسن لغيره.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٠١/٣ ح ١٦٦٤) قال محققوه: حسن لغيره.

عبد الواحد، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف به، ورواه من وجه آخر عن عبد الرحمن.

حديث آخر: قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بحير بن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان، حدثنا يحيى بن أيوب، حدثني عبد الله بن عمر، عن الحكم بن عتيبة، عن إبراهيم النخعي، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، ففزع عمر فأتاه بمطهرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً في مشربة، فتنحى عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: «أحسن يا عمر حين وجدتني ساجداً فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ورفعه عشر درجات»^(١). وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج على الصحيحين^(٢)، وقد رواه إسماعيل القاضي عن القعنبى عن سلمة بن وردان، عن أنس، عن عمر بنحوه ورواه أيضاً عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وردان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب بنحوه^(٣).

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا بندار، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثني موسى بن يعقوب الزمعي، حدثني عبد الله بن كيسان أن عبد الله بن شداد أخبره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة» تفرد بروايته الترمذي رحمته الله، ثم قال: هذا حديث حسن غريب^(٤).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال لي: ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشراً» فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل دعائي لك كله. قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة» فقال شيخ كان بمكة يقال له منيع لسفيان عمّن أسنده: لا أدري^(٥).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا سفيان الثوري، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراحفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» فقال أبي:

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الأوسط ٦/٣٥٣) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني (مجمع الزوائد ٢/٨٩). وله شواهد تالية.

(٢) أخرجه الضياء المقدسي من طريق الطبراني به (المختارة ١/١٨٦ ح ٩٣) وحسنه محققه.

(٣) صفة الصلاة على النبي ﷺ رقم (٤) و(٥).

(٤) أخرجه الترمذي بسنده ومثله (السنن، الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ ح ٤٨٤).

قال الحافظ ابن حجر: وله شاهد عند البيهقي عن أبي أمامة.. ولا بأس بسنده (فتح الباري ١١/١٦٧) ورواية البيهقي في السنن الكبرى ٣/٢٤٩.

(٥) أخرجه القاضي إسماعيل بسنده ومثله وتعليقه (فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ١٣)، وسنده ضعيف لإرسال يعقوب بن زيد بن طلحة، ويشهد له رواية الترمذي التالية.

يا رسول الله إني أصلي من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الثلثان». قال: أفأجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن يغفر لك الله ذنبك كله»^(١).

وقد رواه الترمذي بنحوه، فقال: حدثنا هناد، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل، قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه» قال أبي: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت» قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالنصف؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك». قلت فالثلاثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تكفي همك، ويغفر لك ذنبك» ثم قال: هذا حديث حسن^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك»^(٣).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت بن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك ﷻ يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً، قال: بلى»^(٤). ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة به^(٥)، وقد رواه إسماعيل القاضي، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه، عن سليمان بن بلال، عن عبيد الله بن عمر، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحة بنحوه^(٦).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا أبو معشر، عن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبي طلحة الأنصاري قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر، قال: «أجل أتاني آت من ربي ﷻ فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة، كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وردَّ عليه مثلها»^(٧). وهذا أيضاً إسناده جيد، ولم يخرجوه.

(١) المصدر السابق رقم ١٤ وسنده ضعيف جداً لأن سعيد بن سلام العطار كذاب وضاع (ينظر لسان الميزان ٣١/٣). ولشطره الأخير شاهد كما في الرواية التالية.

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومثته وقال: حسن صحيح. (السنن، صفة القيامة، باب رقم ٢٣ ح ٢٤٥٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٦٦/٣٥ ح ٢١٢٤٢) وحسن سنده محققوه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٦/٢٨٣ ح ١٦٣٦٣) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٥) السنن الكبرى (ح ٩٨٨٨). (٦) فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم (١).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٦/٢٧٢ - ٢٧٣ ح ١٦٣٥٢) وضعف سنده محققوه لضعف =

حديث آخر: روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف وعامر بن ربيعة وعمار وأبي طلحة وأنس وأبي بن كعب^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «صلوا عليّ، فإنها زكاة لكم وسلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في أعلى الجنة، ولا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا هو»^(٢) تفرد به أحمد. وقد رواه البزار من طريق مجاهد، عن أبي هريرة بنحوه، فقال: حدثنا محمد بن إسحاق البكالي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا [ذوّاد بن علبة]^(٣)، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا عليّ فإنها زكاة لكم، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة» فسألناه أو أخبرنا فقال: «هي درجة في أعلى الجنة، وهي لرجل، وأرجو أن أكون ذلك الرجل» في إسناده بعض من تكلم فيه^(٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن [مُريح]^(٥) الخولاني، سمعت أبا قيس مولى عمرو بن العاص، سمعت عبد الله بن عمرو يقول: من صلّى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر، وسمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال: «أنا محمد النبي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش وتجوّز بي، عوفيت وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله وحرّموا حرامه»^(٦).

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو سلمة الخراساني، حدثنا أبو إسحاق، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذكرت عنده فليصل عليّ، ومن صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه عشراً»^(٧). ورواه النسائي في اليوم والليلة من حديث أبي داود الطيالسي، عن أبي سلمة وهو المغيرة بن مسلم الخراساني، عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي، عن أنس به^(٨).

= أبي معشر وهو نجيب بن عبد الرحمن السدي، والشرط الأول شواهد صحيحة سابقة ولاحقة، ولهذا جود سنده الحافظ ابن كثير.

(١) صحيح مسلم، الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (ح ٤٠٨) وسنن أبي داود، الوتر، باب في الاستغفار (ح ١٥٣٠)، وسنن الترمذي، أبواب الوتر، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ح ٤٨٥)، وسنن النسائي، السهو، باب الفضل في الصلاة على النبي ﷺ ٥٠/٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٧٩/١٤ ح ٨٧٧٠) وضعف سنده محققوه.

(٣) كذا في كشف الأستار وترجمته في التقريب ص ٢٠٣، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «داود بن علية».

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٣٦٣) وسنده ضعيف لضعف ذوّاد بن علبة كما في التقريب.

(٥) كذا في (حم) و(ح) والمسند، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «شريح».

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٧٨/١١ ح ٦٦٠٥) وضعفه محققوه لجهالة عبد الرحمن بن مُريح.

(٧) أخرجه الطيالسي بسنده ومثله (المسند ح ٢١٢٢) وله شواهد سابقة ولاحقة.

(٨) السنن الكبرى (ح ٩٨٨٩).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو يعني: يونس بن أبي إسحاق، عن بُريد بن أبي مريم، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحطَّ عنه عشر خطيئات»^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد، قالا: حدثنا سليمان بن بلال، عن عمارة بن [غزية]^(٢)، عن عبد الله بن علي بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «البخيل من ذكرت عنده ثم لم يُصلِّ عليَّ» وقال أبو سعيد: «فلم يصلِّ عليَّ»^(٣) ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح^(٤)، ومن الرواة من جعله من مسند الحسين بن علي، ومنهم من جعله من مسند علي نفسه.

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن معبد بن بلال العنزي، حدثني رجل من أهل دمشق، عن عوف بن مالك، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ»^(٥).

حديث آخر مرسل: قال إسماعيل: وحدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن يقول: قال رسول الله ﷺ: «بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي عليَّ»^(٦).

حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا ربعي بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغَمَ أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورَغَمَ أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورَغَمَ أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخلا الجنة» ثم قال: حسن غريب^(٧).

قلت: وقد رواه البخاري في الأدب عن محمد بن عبيد الله: حدثنا ابن أبي حازم، عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه، ورويناه من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به. قال الترمذي: وفي الباب عن جابر وأنس^(٨).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥٧/١٩ ح ١١٩٩٨) وصححه محققوه بالمتابعات والشواهد.

(٢) كذا في المسند، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «عنة».

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٥٨/٣ ح ١٧٣٦) قال محققوه: إسناده قوي. اهـ. ويؤكد ذلك الترمذي كما يلي.

(٤) سنن الترمذي، الدعوات، باب رقم ١٠١ (ح ٣٥٤٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢٨١١.

(٥) أخرجه إسماعيل القاضي بسنده ومثله (فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٣٧) وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن عوف بن مالك، ويشهد له ما يليه.

(٦) المصدر السابق رقم ٣٨ وسنده مرسل ويشهد له ما تقدم في رواية الترمذي.

(٧) أخرجه الترمذي بسنده ومثله وحكمه (السنن - الدعوات - باب قول رسول الله ﷺ: رَغَمَ أنف رجل ح ٣٥٤٥).

قال الألباني: حسن صحيح. (صحيح سنن الترمذي ح ٢٨١٠).

(٨) المصدر السابق.

قلت: وابن عباس وكعب بن عجرة، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام عند قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْتَغْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾^(١) [الإسراء: ٢٣]، وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي، ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه: حدثنا جبارة بن المغلس، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة علي أخطأ طريق الجنة»^(٢) جبارة ضعيف، ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله: «من نسي الصلاة علي أخطأ طريق الجنة» وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله، والله أعلم.

وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب، نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة»^(٣) يوم القيامة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»^(٤) تفرد به الترمذي من هذا الوجه، ورواه الإمام أحمد، عن حجاج ويزيد بن هارون كلاهما عن ابن أبي ذئب، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله^(٥)، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد روي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ من غير وجه. وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة، عن سليمان، عن ذكوان، عن أبي سعيد قال: «ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب»^(٦).

وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام، في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية. ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة. قال: وقد حكى الطبري أن محملاً الآية على الندب وادّعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على المرة والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب ومرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله.

(قلت): وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه.

(١) وتقدم تخريجه عند تفسير هذه الآية.

(٢) أخرجه ابن ماجه بسنده ومثله (السنن، إقامة الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ ح ٩٠٨)، ضعفه البوصيري لضعف جبارة. (مصباح الزجاجة ١/٣١٣).

(٣) أي: حسرة وندامة.

(٤) أخرجه الترمذي بسنده ومثله (السنن، الدعوات، باب ما جاء في القوم يجلسون ولا يذكرون الله ح ٣٣٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٦٩١).

(٥) (المسند ٢/٤٥٣).

(٦) فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٥٥، ويشهد له سابقه عند الترمذي.

فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيو، حدثنا كعب بن علقمة أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول: إنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا علي فإنه من صلى عليّ صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة» وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن علقمة^(١).

طريق أخرى: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عمر بن علي بن أبي بكر الجشمي، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله لي الوسيلة حقّت عليه شفاعتي يوم القيامة»^(٢).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب الأحبار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علي فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم، وسلوا الله لي الوسيلة» قال: فأما حدثنا وإما سألناه، قال: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل» ثم رواه عن محمد بن أبي بكر، عن معتمر، عن ليث وهو ابن أبي سليم^(٣) به، وكذا الحديث الآخر.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سودة عن زياد بن نعيم، عن [وفاء] الحضرمي^(٤)، عن روفيع بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى علي محمد وقال: اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»^(٥). وهذا إسناد لا بأس به ولم يخرجوه.

أثر آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثني معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاععة محمد الكبرى وارفع درجته العليا، وأعطه سؤله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى ﷺ^(٦). إسناد جيد قوي صحيح.

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٣٥.

(٢) المصدر السابق رقم ٥٠ وفي سنده عمر بن علي والجشمي وكلاهما فيهما مقال ويشهد له سابقه.

(٣) المصدر السابق رقم ٤٦ و٤٧، وفي سنده ليث وهو ابن أبي سليم وفيه مقال، وتقدم تخريجه وتضعيفه من رواية البزار من حديث أبي هريرة.

(٤) كذا في مسند الإمام أحمد وترجمة وفاء، وفي الأصل و(حم) و(ح) صُحِفَ إلى: «ورقاء».

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٠٨/٤) وفي سنده ابن لهيعة فيه مقال، وفيه وفاء الحضرمي وهو مقبول (التقريب ص ٥٨١) ويشهد له سابقة ولا حقة.

(٦) أخرجه إسماعيل القاضي بسنده ومثته (فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٥٢)، وقول الحافظ ابن كثير: إسناده جيد قوي صحيح لأنه روي بدرجة هذه الأسانيد حسب نقله رحمه الله تعالى.

الحسين، عن جدته فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»^(١).

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان بن عمر التميمي، عن سليمان الضبي، عن علي بن الحسين قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: إذا مررت بالمساجد فصلوا على النبي ﷺ^(٢).

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة، فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير ومن ذهب إلى ذلك من العلماء، منهم الشافعي رحمه الله وأكرمه، وأحمد، وأما التشهد الأول فلا يجب فيه قولاً واحداً وهل تستحب؟ على قولين للشافعي، ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية يصلي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

قال الشافعي رحمه الله: حدثنا مطرف بن مازن، عن معمر، عن الزهري، أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ أن السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سراً في نفسه^(٣). ورواه النسائي عن أبي أمامة نفسه أنه قال من السنة، فذكره^(٤)، وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيل القاضي عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل، عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة في الصلاة على الجنازة، فذكره^(٥).

وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عمر والشعبي، ومن ذلك في صلاة العيد قال إسماعيل القاضي: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، حدثنا حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن علقمة، أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة، خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك، وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٣/٤٤ ح ٢٦٤١٦) قال محققوه صحيح لغيره، دون قوله: «اللهم اغفر لي ذنوبي» فحسن.

(٢) أخرجه إسماعيل القاضي بسنده ومثته (فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٨٠). في سنده سفيان بن عمر التميمي لم أقف على ترجمته.

(٣) أخرجه الإمام الشافعي بسنده ومثته (الأم ٢٣٩/١). وسنده صحيح كما يليه.

(٤) أخرجه النسائي (السنن كتاب الجنائز، باب الدعاء ٧٥/٤) وصححه الألباني (في صحيح سنن النسائي ح ١٨٨٠).

(٥) فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٩٤ وسنده كسابقه.

على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ثم تركع، فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن^(١)، إسناده صحيح.

ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذي: حدثنا أبو داود، حدثنا النضر بن شميل، عن أبي قرّة الأسدي، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك^(٢). وكذا رواه أيوب بن موسى، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب. ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قرّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر مرفوعاً، وكذا رواه رزين بن معاوية في كتابه مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد حتى يُصلى عليّ، فلا تجعلوني كغُمر الراكب^(٣)، صلوا عليّ أول الدعاء وآخره وأوسطه^(٤)»، وهذه الزيادة إنما تُروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي حيث قال: حدثنا جعفر بن عون، أخبرنا موسى بن عبيدة، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «لا تجعلوني كقدح الراكب إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملاه من الماء، فإذا كان له حاجة في الوضوء توضأ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا أهرق ما فيه، اجعلوني في أول الدعاء وفي وسط الدعاء وفي آخر الدعاء^(٥)». وهذا حديث غريب، وموسى بن عبيدة ضعيف الحديث.

ومن أكد ذلك دعاء القنوت لما رواه أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث أبي الجوزاء، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: اللهم اهْدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، وزاد النسائي في سننه بعد هذا وصلى الله على محمد^(٦). ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجعفي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي

(١) المصدر السابق رقم ٨٨ وصححه سننه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومثله (السنن، الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة النبي ﷺ ح ٤٨٦)، وسنده ضعيف لجهالة أبي قرّة الأسدي كما في التقريب. وحسنه الألباني بالشواهد والمتابعات (السلسلة الصحيحة ٢٠٣٥).

(٣) أي: كالقدح الصغير الذي يحمله الراكب في رحله، أراد أن عنده ليس بهمهم (ينظر النهاية ٣/٣٨٥).

(٤) عزاه ابن الأثير إلى رزين. (جامع الأصول ٤/١٥٥).

(٥) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومثله (المنتخب من مسند عبد بن حميد رقم ١١٣٠) وسنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة وهو الربذي كما في التقريب.

(٦) (المسند ٣/٢٤٥ ح ١٧١٨) وصححه سننه محققوه وسنن أبي داود، الوتر، باب القنوت في الوتر ١٤٢٥، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٢٦٣) وسنن الترمذي، الوتر، باب ما جاء في القنوت والوتر ح ٤٦٤، وسنن النسائي، قيام الليل، باب الدعاء في الوتر ٢٤٨/٣، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ما جاء القنوت في الوتر (ح ١١٧٨)، وصححه ابن خزيمة (ح ١٠٩٥)، وصححه ابن حبان ٢/١٤٨.

الأشعث الصنعاني، عن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، وفيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ» قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ يعني: وقد بليت، قال: «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١). ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث حسين بن علي الجعفي^(٢). وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والنووي في «الأذكار».

حديث آخر: قال أبو عبد الله ابن ماجه: حدثنا عمرو بن سواد المصري، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عبادة بن نسي، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة، فإنه مشهود تشهده الملائكة، وإن أحداً لا يصلي عليّ فيه إلا عرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها» قال: قلت وبعد الموت؟ قال: «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبى الله حيّ يرزق»^(٣). هذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع بين عبادة بن نسي وأبي الدرداء فإنه لم يدركه، والله أعلم.

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة^(٤) وابن مسعود عن النبي ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم. وروي مرسلًا عن الحسن البصري.

قال إسماعيل القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن البصري فقال رسول الله ﷺ: «لا تأكل الأرض جسد من كلمه روح القدس»^(٥). مرسل حسن.

وقال الشافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة، فأكثروا الصلاة عليّ»^(٦) هذا مرسل، وهكذا يجب على الخطيب أن يصليّ على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك لأنها عبادة، وذكر الله شرط فيها فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة، هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٨٤/٢٦ ح ١٦١٦٢) وصححه سننه محققوه، وللتأكيد على صحته ينظر ما يلي.

(٢) سنن أبي داود، الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (ح ١٠٤٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٩٢٥)، وسنن النسائي، الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ ٦١/٣، وسنن ابن ماجه الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (ح ١٦٣٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه بسنده ومثله (السنن، الجنائز، باب ذكر وفاته ﷺ ح ١٦٣٧)، وسنده ضعيف بسبب الانقطاع، ويتقوى بالشواهد السابقة.

(٤) السنن الكبرى ٢٤٩/٣، وحسنه السخاوي (القول البديع ص ١٥٣).

(٥) فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٢٣، وسنده ضعيف لإرساله ويتقوى بالشواهد السابقة.

(٦) أخرجه الشافعي بسنده ومثله (الأم ١٨٤/١) وحكمه كسابقه.

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ. قال أبو داود: حدثنا ابن [عوف]^(١) هو محمد، حدثنا المقرئ، حدثنا حيوة، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد يسلم علي إلا ردَّ الله عليَّ رuchi حتى أُرَدَّ عليه السلام»^(٢). تفرد به أبو داود وصححه النووي في «الأذكار»: ثم قال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»^(٣). تفرد به أبو داود أيضاً. وقد رواه الإمام أحمد، عن سُريج، عن عبد الله بن نافع وهو الصائغ به^(٤)، وصححه النووي أيضاً.

وقد روي من وجه آخر متصلاً قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»: حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، عمَّن أخبره من أهل بيته، عن علي بن الحسين بن علي أن رجلاً كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه علي بن الحسين، فقال له علي بن الحسين: ما يحملك على هذا؟ قال: أحبُّ السلام على النبي ﷺ فقال له علي بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟ قال: نعم. قال له علي بن الحسين: أخبرني أبي عن جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلُّوا عليَّ وسلموا حيثما كنتم، فبلغني صلاتكم وسلامكم»^(٥). في إسناده رجل مبهم لم يسم.

وقد روي من وجه آخر مرسلًا قال عبد الرزاق في مصنفه عن الثوري، عن ابن عجلان، عن رجل يقال له سهيل، عن الحسن بن الحسن بن علي قال: رأى قوماً عند القبر فنهاهم وقال: إن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلُّوا علي حيثما كنتم، فإنَّ صلاتكم تبلغني»^(٦). فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة فنهاهم. وقد روي أنه رأى رجلاً ينتاب القبر فقال: يا هذا ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء؛ أي: الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن رشدين المصري، حدثنا سعيد بن أبي

(١) كذا في (ح) و(حم) وسنن أبي داود، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «عف».

(٢) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، المناسك، باب زيارة القبور ح ٢٠٤١) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٧٩٥).

(٣) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (المصدر السابق ح ٢٠٤٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٧٩٦).

(٤) (المسند ٣٦٧/٢).

(٥) أخرجه إسماعيل القاضي بسنده ومثله (فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٢٠)، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن علي بن الحسين ويشهد له ما سبق.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثله (المصنف رقم ٦٧٢٦).

وحكمه كسابقه في العلة والشاهد.

مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حميد بن أبي زينب، عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا عليَّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني»^(١).

ثم قال الطبراني: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون بن أبي شيان، عن الحكم بن عبد الله بن [خطاف]^(٢)، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيت قول الله ﻻ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمَلِكُكُمْ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ؟» فقال: «إن هذا من المكتوم، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم، إن الله ﻻ يملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلني عليَّ إلا قال ذاك الملكان غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين، ولا يصلي عليَّ أحد إلا قال ذاك الملكان: غفر الله لك، ويقول الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين»^(٣). غريب جداً، وإسناده فيه ضعف شديد.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»^(٤). وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به^(٥).

فأما الحديث الآخر: «من صلى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليَّ من بعيد بلغته» ففي إسناده نظر تفرد به محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً^(٦).

قال أصحابنا: ويستحب للمُحَرَّم إذا لبَّى وفرغ من تليته أن يصلي على النبي ﷺ لما رواه الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تليته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال^(٧).

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً وصلوا عند المقام ركعتين، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٨٢/٢) والمعجم الأوسط ح ٣٦٧، قال الهيثمي: فيه حميد بن أبي زينب لم أعرفه (مجمع الزوائد ١٠/١٦٢)، وله شواهد ثابتة سابقة.

(٢) كذا في المعجم الكبير ومجمع الزوائد وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «خطاب».

(٣) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٨٩/٣ ح ٢٧٥٣) وسنده ضعيف جداً لأن الحكم بن عبد الله بن خطاف كذاب (مجمع الزوائد ٧/٩٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٧/٢٦٠ ح ٤٢١٠)، وصححه سنداه محققوه.

(٥) سنن النسائي، السهو، باب السلام على النبي ﷺ ٤٣/٣.

(٦) أخرجه العقيلي من طريق محمد بن مروان السدي به (الضعفاء الكبير ٤/١٣٦)، وسنده ضعيف جداً لأن السدي الصغير متروك.

(٧) أخرجه الشافعي من طريق صالح بن محمد بن زائدة به (الأم، الحج، باب ما يستحب من القول في أثر التلبية ٢/١٣٤) وسنده مرسل.

سبع مرات تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه وصلاة على النبي ﷺ ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك^(١). إسناده جيد حسن قوي.

قالوا: ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح، واستأنسوا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح]، قال بعض المفسرين: يقول الله تعالى: لا أذكر إلا ذكرت معي، وخالفهم في ذلك الجمهور وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ.

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عمر بن هارون، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني»^(٢)، في إسناده ضعيفان، وهما: عمر بن هارون وشيخه، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزاق، عن الثوري، عن موسى بن عبيدة الربذي به^(٣).

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن إن صحَّ الخبر في ذلك على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال: حدثنا زياد بن يحيى، حدثنا معمر بن محمد بن عبيد الله، عن علي بن أبي رافع، عن أبيه، عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل عليَّ وليقل ذكر الله من ذكرني بخير»^(٤). إسناده غريب، وفي ثبوته نظر، والله أعلم.

مسألة: وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة، عن نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليَّ في كتاب لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»^(٥). وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة وقد روي من حديث أبي هريرة ولا يصح أيضاً^(٦)، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا أحسبه موضوعاً، وقد روي نحوه عن أبي بكر وابن عباس ولا يصح من ذلك شيء والله أعلم.

وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه (الجامع لأدب الراوي والسامع) قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيراً ما يكتب اسم النبي ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً^(٧).

(١) أخرجه إسماعيل القاضي بسنده ومثله فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٨١. وحسنه الحافظ ابن كثير.

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ٤٥ وسنده ضعيف جداً.

(٣) مصنف عبد الرزاق رقم ٣١١٨ وسنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذي.

(٤) أخرجه الطبراني في (المعجم الصغير ٢/ ١٢٠ ح ١١٠٤)، وابن عدي (الكامل في الضعفاء ٦/ ٤٥١)، معمر بن محمد به، وقال ابن عدي: معمر بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه منكر الحديث. اهـ. وسنده ضعيف جداً.

(٥) أخرجه الأصبهاني من طريق كادح بن رحمة به (الترغيب ح ١٦٩٩) والحديث موضوع كما قرر الحافظ الذهبي، وكادح بن رحمة: وضاع (ينظر لسان الميزان ٤/ ٤٨١).

(٦) المعجم الأوسط للطبراني (ح ٢٣٤).

(٧) الجامع لأخلاق الراوي والسامع ١/ ٢٧١.

فصل

وأما الصلاة على غير الأنبياء فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته، فهذا جائز بالإجماع وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ويقولون: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، ويقولون: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقته قال: «اللهم صل عليهم» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى» أخرجاه في الصحيحين^(١)، وبحديث جابر أن امرأته قالت يا رسول الله صل علي وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»^(٢).

قال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه أو قال علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد ﷺ، وإن كان عزيزاً جليلاً لأن هذا من شعار ذكر الله ﷻ، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته، وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك والله أعلم.

ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار. ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثر أنه مكروه كراهة تنزيه لأنه شعار أهل البدع وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود. قال أصحابنا والمعتد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء، كما أن قولنا: ﷻ مخصوص بالله تعالى فكما لا يقال: محمد ﷺ وإن كان عزيزاً جليلاً لا يقال: أبو بكر أو علي صلى الله عليه^(٣)، هذا لفظه بحروفه.

قال: وأما السلام؟ فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء فلا يقال: علي ﷺ وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: سلام عليك، وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه انتهى ما ذكره.

(قلت): وقد غلب هذا في عبارة كثيرة من النساخ للكتب أن ينفرد علي ﷺ بأن يقال ﷺ من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يسوى

(١) تقدم تخريجه في بداية تفسير هذه الآية من سورة الأحزاب.

(٢) تقدم تخريجه في بداية تفسير هذه الآية من سورة الأحزاب.

(٣) الأذكار ص ١٥٩.

بين الصحابة في ذلك فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين.

قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب بن زياد، حدثني عثمان بن حكيم بن عبادة بن حنيف، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة^(١).

وقال أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حسين بن علي، عن جعفر بن برقان، قال كتب عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أما بعد فإن ناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك. أثر حسن^(٢).

قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا ابن لهيعة، حدثني خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن نبيه بن وهب أن كعباً دخل على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فذكروا رسول الله ﷺ فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفون بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه^(٣).

فرع

قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول: صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فالأولى أن يقال صلى الله عليه وسلم تسليماً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨﴾.

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بغيب أو بنقص - عياداً بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في المصورين^(٤).

وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة

(١) نسبه الحافظ ابن حجر إلى القاضي إسماعيل بن إسحاق الجهمي في أحكام القرآن وصححه سننه (فتح الباري ٥٣٤/٨).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر نقلاً عن كتاب «أحكام القرآن» للقاضي الجهمي بسنده ومثله وحسن سننه. (فتح الباري ٥٣٤/٨).

(٣) أخرجه إسماعيل القاضي الجهمي بسنده ومثله (فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم ١٠٢) وسنده مرسل.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٤٥٨/٨)، والطبري كلاهما من طريق سلمة بن الحجاج عن عكرمة، وسلمة مقبول كما في التقريب.

قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره»^(١). ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله وتعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وقال العوفي: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب^(٢).

والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله كما قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عبيدة [بن أبي رائلة]^(٣) الحذاء التيمي عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(٤). وقد رواه الترمذي من حديث عبيدة بن أبي رائلة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن المغفل به، ثم قال: وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا وَإِنَّمَا مِينَا﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتقصص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً فهم في الحقيقة، منكسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين.

وقال أبو داود: حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز يعني: ابن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٦). وهكذا رواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدراوردي به ثم قال حسن صحيح^(٧).

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة الجاثية (ح ٤٨٢٦)، وصحيح مسلم، الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر (ح ٢٢٤٦).

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) كذا في المسند وفي الأصل و(ح) و(حم) ضحف إلى: «رابطة».

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٥٨/٢٧ ح ١٦٨٠٣) وضعف سنده محققوه.

(٥) السنن، المناقب، باب فيمن سب أصحاب رسول الله ﷺ (ح ٣٨٦٢) وسنده ضعيف كسابقه.

(٦) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الأدب، باب في الغيبة ح ٤٨٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٧٩).

(٧) السنن، البر والصلة، باب ما جاء في الغيبة (ح ١٩٣٤).

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن عمار بن أنس، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أي الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم» ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٩) (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ آدَبٌ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٩) ﴿لَنْ تَرَىٰ يَنْهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَغُفْرَتِكَ بِهِمْ يُخَوِّدُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أَخَذُوا وَفُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ (٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢).

يقول تعالى أمراً رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلابيبهن ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، والجلباب هو الرداء فوق الخمار، قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد (٢)، وهو بمنزلة الإزار اليوم.

قال الجوهري: الجلابب الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تمشي النسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلابيب (٣)

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويدين عينا واحدة (٤).

وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى (٥).

وقال عكرمة: تغطي ثغرة نحرها بجلاببها تدنيه عليها (٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني فيما كتب إلي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ابن خيثم، عن صفية بنت شيبة، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها (٧).

(١) سنده ضعيف لضعف عمار بن أنس، ومعاوية بن هشام صدوق له أوهام، وفي متنه غرابة في زيادة قراءة الآية بعد الحديث.

(٢) قول ابن مسعود هو الرداء عزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وقول عبيدة سيأتي بعد الرواية التالية وقول قتادة هو: أخذ الله عليهن إذا خرجن أن يقنعن على الحواجب، أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعد بن أبي عروبة عنه.

(٣) الصحاح ١٠١/١. (٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني.

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه أبو داود من طريق معمر به مختصراً لبس النساء، باب في قوله تعالى: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] (ح ٤١٠١) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٣٤٥٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا الليث، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه يعني الزهري هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة وتنتهي عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلَّ لِرَازِجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾^(١).

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن واستدل بقوله تعالى: ﴿وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَذْفَى أَنْ يَعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ أي: إذا فعلن ذلك عُرفنَّ أنهنَّ حرائر، لسن بإماء ولا عواهر.

قال السدي في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلَّ لِرَازِجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ ذَلِكَ أَذْفَى أَنْ يَعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ قال: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهنَّ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهم، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها^(٢).

وقال مجاهد: يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك، ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة^(٤) ههنا.

﴿وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء لمن لم يتتبعوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أي: لنسلطنك عليهم^(٥).

وقال قتادة: لنحرسنك بهم^(٦).

وقال السدي: لنعلمنك بهم^(٧).

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِزُونَكَ فِيهَا﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿مَلْعُونِينَ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿أَيْنَمَا تَقُفُوا﴾ أي: وجدوا ﴿أُخْذُوا﴾ لذلتهم وقتلتهم ﴿وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذه سنته في

(١) سنده صحيح.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وسنده مرسل، والسدي فيه تشيع.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس ومجاهد بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن مالك بن دينار عن عكرمة، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٨/ ٣٠٩).

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (١٦) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (١٧) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٨) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (١٩) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٢٠).

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده أن يردّ علمها إلى الله ﷻ كما قال الله تعالى في سورة الأعراف وهي مكية، وهذه مدنية فاستمر الحال في ردّ علمها إلى الذي يقيمها لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَاشْهَقُّ الْقَوْمُ﴾ (١) [القمر]، وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢) [الأنبياء]، وقال: ﴿إِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (١٦) أي: يُسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الْأَعْيَالُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (١٧) يَوْمَئِذٍ لَيَتَنَّى لَوْ أَخَذَ فَلَانًا خَلِيلًا (١٨) لَقَدْ أَضَلَّتْ عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَتْهُ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (١٩) [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿زَيْمًا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢٠) [الحجر]، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ (٢٠)، وقال طاوس: سادتنا يعني: الأشراف، وكبراءنا يعني: العلماء، رواه ابن أبي حاتم.

أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَامْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا، ﴿وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ بعض القراء بالباء الموحدة، وقرأ آخرون بالثاء المثناة^(١) وهما قريباً المعنى كما في حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي قال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» أخرجاه في الصحيحين^(٢)، يروى

(١) وهي قراءة شاذة تفسيرية قرأ بها الحسن البصري (ينظر: إتحاف فضلاء البشر ص ٣٥٦).

(٢) أخرجاه من حديث أبي بكر ﷺ صحيح البخاري الأذان، باب الدعاء قبل السلام (ح ٨٣٤) وصحيح =

كثيراً وكبيراً^(١) وكلاهما بمعنى صحيح واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه وفي ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة وهذا تارة كما أن القارئ مُخَيَّر بين القراءتين^(٢) أيهما قرأ فَحَسَنَ وليس له الجمع بينهما، والله أعلم.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا ضَرَار بن صُرْد، حدثنا علي بن هاشم، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه في تسمية من شهد مع علي عليه السلام الحجاج بن عمرو بن [غزية]^(٣)، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِمْ لَعَنًا كَبِيرًا ﴿٨﴾ ﴿٩﴾؟

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿١٠﴾

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا عوف، عن الحسن ومحمد وخلاس، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ إن موسى كان رجلاً حيياً وذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿١٠﴾. هكذا أورد هذا الحديث ههنا مختصراً جداً وقد رواه في أحاديث الأنبياء بهذا السند بعينه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أدرة^(٦) وإما آفة». وإن الله ﷻ أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ﷻ وأبراه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً^(٧) من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿١٠﴾. وهذا سياق حسن مطول وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن النبي ﷺ. وخلاس ومحمد،

= مسلم، الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (ح ٢٧٠٥).

(١) قراءة: كثيراً شاذة، وقراءة كثيراً متواترة. (٢) أي: القراءتين المتواترتين.

(٣) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل ضُحِف إلى: «غزمة».

(٤) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٢٢٣/٣) وفي سنده ضراء بن صُرْد: صدوق له أوهام وخطأ ورمي بالتشيع كما في التقريب ص ٢٨٠، وكذلك علي بن هاشم فيه تشيع.

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى﴾ [الأحزاب: ٦٩] ح ٤٧٩٩).

(٦) أي: نفخة في الخصية. (٧) الندب أي: أثر العصا.

(٨) أخرجه البخاري بالسند المتقدم في الحديث السابق ومثله. (الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب رقم ٢٨ ح ٣٤٠٤).

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ قال: قال رسول الله: «إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه». ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مطولاً^(١). ورواه عنه في تفسيره عن روح عن عوف به^(٢). ورواه ابن جرير من حديث الثوري، عن جابر الجعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحو هذا^(٣). وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ﴾ قال: قال قومه له إنك آدر فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على صخرة فخرجت الصخرة تشد بثيابه وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بني إسرائيل فرأوه ليس بأدر، فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾^(٤). وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما سواء.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الآدمي قالا: حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «كان موسى رجلاً حياً وإنه أتى - أحسبه قال الماء - ليغتسل فوضع ثيابه على صخرة وكان لا يكاد تبدو عورته فقال بنو إسرائيل^(٥): إن موسى آدر أو به آفة - يعنون أنه لا يضع ثيابه - فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء مجالس بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال» - أو كما قال - فذلك قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ قال: صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلتك كان ألين لنا منك وأشد حياء، فأذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم وإن الله جعله أصم أبكم^(٧). وهكذا رواه ابن جرير عن علي بن موسى الطوسي، عن عباد بن العوام^(٨) به. ثم

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥١٤/٢) وسنده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري من طريق روح به (المصدر السابق).

(٣) أخرجه الطبري من طريق الثوري به، وسنده ضعيف لضعف جابر الجعفي ويشهد له ما سبق.

(٤) أخرجه الطبري من أبي معاوية عن الأعمش به، وسنده حسن، ويشهد له ما سبق في رواية البخاري وأحمد.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بالشواهد السابقة.

(٦) أخرجه البزار بسنده ومثله قال الحافظ ابن حجر: هذا إسناد حسن، له شاهد في الصحيح من حديث أبي هريرة (مختصر زوائد مسند البزار ١٠٢/٢ ح ١٥٠٠) وهذا الشاهد تقدم في الحديث السابق في رواية البخاري وأحمد.

(٧) ذكره الحافظ ابن حجر وقال: إسناده قوي (فتح الباري ٥٣٤/٨). وأخرجه الحاكم من طريق عباد بن العوام به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٥٧٩/٢).

(٨) أخرجه بسنده ومثله، وحكمه كسابقه.

قال: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى وجائز أن يكون الأول هو المراد فلا قول أولى من قول الله ﷻ.

(قلت): يحتمل أن يكون الكل مراداً وأن يكون معه غيره، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال: فقلت: يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمرَّ وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر»^(١). أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش به^(٢).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هشام مولى الهمداني، عن زيد بن زائدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» فأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه، قال: فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة، قال: فتثبت حتى سمعت ما قالاً ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنك قلت لنا: «لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئاً» وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا، فاحمرَّ وجه رسول الله ﷺ وشقَّ عليه ثم قال: «دعنا منك لقد أؤذي موسى بأكثر من هذا فصبر»^(٣).

وقد رواه أبو داود في الأدب عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل، عن الوليد بن أبي هشام به مختصراً: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»^(٤). وكذا رواه الترمذي في المناقب عن الذهلي سواء إلا أنه قال زيد بن زائدة، ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمد، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد كلاهما، عن إسرائيل، عن السدي، عن الوليد بن أبي هشام به مختصراً أيضاً فزاد في إسناده السدي، ثم قال: غريب من هذا الوجه^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهاً﴾ أي: له وجهة وجاء عند ربه ﷻ.

قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله^(٦)، وقال غيره من السلف: لم يسأل الله

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١/٣٨٠) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب رقم ٢٨ (ح ٣٤٠٥)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام (ح ١٠٦٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٠٢ ح ٣٧٥٩)، وضعف مسنده محققوه وقالوا: لبعضه شواهد. اهـ. ثم سردوا تلك الشواهد. ومن هذه الشواهد: الرواية التالية.

(٤) السنن، الأدب، باب في رفع الحديث (ح ٤٨٦٠) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

(٥) السنن، المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (ح ٣٨٩٧).

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم. ومعناه صحيح.

شيئاً إلا أعطاه، ولكن منع الرؤية لما يشاء ﷻ. وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿٥٢﴾ [مريم].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧١﴾.

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وأن يقولوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم؛ أي: يوفقهم للأعمال الصالحة وأن يغفر لهم الذنوب الماضية. وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك أن يجاز من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عوف، حدثنا خالد، عن ليث، عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال: «إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً»^(١).

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب (التقوى): حدثنا محمد بن عباد بن موسى، حدثنا عبد العزيز بن عمران الزهري، حدثنا عيسى بن سمرة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٠﴾ الآية^(٢)، غريب جداً.

وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس موقوفاً: من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتنق الله^(٣).

قال عكرمة: القول السديد لا إله إلا الله^(٤).

وقال غيره: السديد الصدق^(٥).

وقال مجاهد: هو السداد^(٦).

وقال غيره: هو الصواب. والكل حق.

(١) سنده ضعيف لما قيل في ليث وهو ابن أبي سليم، وأخرجه الإمام أحمد من طريق ليث به (المسند ٣٩١/٤).

(٢) سنده ضعيف لضعف عبد العزيز بن عمران كما في لسان الميزان.

(٣) سنده ضعيف جداً لأن عبد الرحيم بن زيد العمي وهو: متروك. (التقريب ٣٥٤).

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه حفص بن عمر العدني وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن الكلبي، ويشهد له ما أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ .

قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بالأمانة الطاعة وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(١).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الأمانة الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك، وأشفقوا عليه من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعني غرّاً بأمر الله^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال: عرضت على آدم، فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك، قال: قبلت فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة^(٣)، وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريباً من هذا^(٤)، وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض^(٥)، وقال آخرون: هي الطاعة^(٦).

وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة أوثمنت على فرجها^(٧).

وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود^(٨).

وقال بعضهم: الغسل من الجنابة.

- (١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بالروايتين التاليتين.
- (٢) أخرجه الطبري وابن الأنباري (الأضداد ص ٣٨٩) بسند ثابت من طريق علي به.
- (٣) أخرجه الطبري والبستي بسنده ومثنه، وسنده صحيح، وأخرجه الحاكم من طريق شعبة به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٢٢).
- (٤) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك بدون ذكر ابن عباس عليه السلام، ويتقوى بسابقه.
- (٥) قول الضحاك تقدم في الرواية السابقة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
- (٦) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.
- (٧) أخرجه الطبري والحاكم من طريق الأعمش به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٢٢).
- (٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

وقال مالك: عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاعتزال من الجنابة^(١). وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة [البصري]^(٢)، حدثنا حماد بن واقد؛ يعني: أبا عمر الصفار سمعت أبا معمر يعني: عون بن معمر يحدث عن الحسن، يعني: البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم، وحملة العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت قالت: لا ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد، التي شدت بالأوتاد، وذلت بالمهاد، قال: فقيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت، قالت: لا، ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب، قال: قيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال لها: إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت، قالت: لا^(٣).

وقال مقاتل بن حيان: إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسموات والأرض والجبال فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة، وهي الطاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة؟ فقلن: يا رب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة ولكننا لك مطيعون، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة وتقبلنهن مني، وأعطينكن الفضل والكرامة في الدنيا؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب، ولا نطق ولكننا لك سامعون مطيعون لا نعصيك في شيء أمرتنا به. ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: ما لي عندك؟ قال: يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة، فلك عندي الكرامة والفضل، وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت، ولم ترعها حق رعايتها، وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار، قال: رضيت يا رب، وتحملها، فقال الله ﷻ عند ذلك قد حملتها فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ رواه ابن أبي حاتم^(٤).

وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السموات فقالت: يا رب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. قال: وعرضها على الأرض فقالت: يا رب غرست في الأشجار وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة، وقالت الجبال مثل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ في عاقبة أمره^(٥).

(١) سنده صحيح.

(٢) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل: «بدون».

(٣) سنده ضعيف لضعف حماد بن واقد وإرسال الحسن البصري ولبعضه شواهد تقدمت عن ابن عباس.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وسنده ضعيف معضل ويشهد لبعضه ما تقدم عن ابن عباس.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وهو مرسل.

وهكذا قال ابن جريج. وعن ابن أشوع أنه قال: لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ضججن إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن، وقلن: ربنا لا طاقة لنا بالعمل ولا نريد الثواب^(١).

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾. فقال الإنسان: بين أذني وعاتقي، فقال الله ﷻ: إني معينك عليها، إني معينك على عينيك بطبقتين، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق، ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه إلى ما أكره^(٢). ثم روي عن أبي حازم نحو هذا^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾، قال: إن الله تعالى عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ويجعل لهن ثواباً وعقاباً، ويستأمنهن على الدين، فقلن لا، نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً، قال: وعرض الله تبارك وتعالى على آدم فقال: بين أذني وعاتقي، قال ابن زيد: قال الله تعالى له: أما إذا تحملت هذا فساءعنيك، أجعل لبصرك حجاباً فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك، فأرخ عليه حجاباً وأجعل للسانك باباً وغلقاً، فإذا خشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحلت لك^{(٤)(٥)}.

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية، حدثنا عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير رضي الله عنه، وكان من أصحاب النبي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء فأرسلوا به، فمنهم رسول الله، ومنهم نبي، ومنهم نبي رسول، ونزل القرآن وهو كلام الله، وأنزلت العجمية والعربية، فعلموا أمر القرآن، وعلموا أمر السنن بألسنتهم، ولم يدع الله تعالى شيئاً من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهي الحجج عليهم إلا بيّنه لهم، فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقيح، ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب، فعالم يعمل وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها، حتى وصل إلي وإلى أمتي، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يغفله إلا تارك، فالحذر أيها الناس، وإياكم والوسواس الخناس، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملاً^(٦). هذا حديث غريب جداً، وله شواهد من وجوه أخرى.

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، حدثنا أبو العوام القطان، حدثنا قتادة وأبان بن أبي عياش، عن خُليد العصري، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة:

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وهو معضل. (٢) سنده صحيح لكنه مرسل.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وسنده مرسل.

(٤) كذا في تفسير الطبري، ولم ترد في الأصل وفي (حم) (ح).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته وسنده ضعيف معضل.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، واستغربه الحافظ ابن كثير، ولبعضه شواهد.

من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها - وكان يقول: - وإيّم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن وأدى الأمانة». قالوا: يا أبا الدرداء وما أداء الأمانة؟ قال ﷺ: الغسل من الجنابة، فإن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره^(١). وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبري، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي، عن أبي العوام عمران بن دوار القطان به^(٢).

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق، عن شريك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها - أو قال - يكفر كل شيء إلا الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له: أدّ أمانتك، فيقول أنى يا ربّ وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أدّ أمانتك، فيقول: أنى يا ربّ وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال له: أدّ أمانتك، فيقول: أنى يا ربّ وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول: اذهبوا به إلى أمه الهاوية، فيذهب به إلى الهاوية، فيهوي فيها حتى يتتهي إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها، فيحملها فيضعها على عاتقه فيصعد بها إلى سفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت قدمه فهوى في أثرها أبرد الآبدین» قال: والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم والأمانة في الوضوء، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع، فقلت البراء فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق.

وقال شريك: وحدثنا عياش العامري، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ بنحوه، ولم يذكر الأمانة في الصلاة وفي كل شيء^(٣)، إسناده جيد، ولم يخرجوه.

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنّة. ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينال الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجمل^(٤) كجمر دحرجته على رجلك، تراه متبرأ^(٥) وليس فيه شيء، قال: ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله قال: فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردّنه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنه على ساعيه^(٦)، فأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه أبو داود من طريق أبي العوام عمران بن دواد القطان به (السنن، الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات ح ٤٢٩) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤١٤). وأراه موقوفاً أو مرسلأً عن التابعين وأن الذي رفعه أبو العوام عمران فإنه صدوق يهم (التقريب ص ٤٢٩)، وقد أخرجه الطبراني من طريق عمران به بدون ذكر أبي الدرداء (المعجم الصغير ٥/٢) وكذا أخرجه أبو نعيم من طريق عمران به بدون ذكر أبي الدرداء ﷺ (أخبار أصبهان ١٨٩/٢).

(٢) تقدم تخرجه في الرواية السابقة.

(٣) أخرجه الطبري بطريقه ومثته، وجوّده سنده الحافظ ابن كثير، لكن في سند شريك وفيه مقال في حفظه.

(٤) أي: أثر العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. (٥) أي: متفخاً.

(٦) أي: رئيسهم.

وفلاناً^(١). وأخرجه في الصحيحين من حديث الأعمش به^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا. حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة طعمة» هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما^(٣).

وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا يحيى بن أيوب العلاف المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن ابن حجرية، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة طعمة»^(٤). فزاد في الإسناد ابن حجرية وجعله في مسند ابن عمر رضي الله عنه.

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق الشيباني، عن خناس بن سحيم أو قال: [جَبَلَة]^(٥) بن سحيم، قال: أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية فقلت في كلامي لا والأمانة، فجعل زياد يبكي ويبكي فظننت أنني أتيت أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يكره هذا؟ قال: نعم، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي^(٦). وقد ورد في ذلك حديث مرفوع قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائي، عن ابن بُريدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا»^(٧) تفرد به أبو داود رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: إنما حمل بني آدم الأمانة وهي التكاليف، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسوله ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: ويرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسوله العالمين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

[آخر تفسير سورة الأحزاب، والحمد لله رب العالمين]^(٨).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٨٣/٥) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، الفتن، باب إذا بقي حثالة من الناس (ح ٧٠٨٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب رفع الأمانة (ح ١٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٧٧/٢) وفي سنده ابن لهيعة وفي حفظه مقال، وهنا رواه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي هذه الرواية والثالثة رواه من حديث عبد الله بن عمر.

(٤) عزاه الهيثمي إلى الطبراني وحسن سنده (مجمع الزوائد ١٤٥/٤)، ولكن فيه ابن لهيعة ولا يحسن على الإطلاق وإنما إذا عرف أن الراوي عنه قبل احتراق كتب ابن لهيعة.

(٥) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «خيله».

(٦) أخرجه عبد الله بن المبارك بسنده ومثله (الزهد رقم ٢١٣) وفي سنده شريك في حفظه مقال، ويشهد له الخبر التالي.

(٧) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الإيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالأمانة ح ٣٢٥٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٢٧٨٨).

(٨) زيادة من (ح).

سُورَةُ سُورَةِ سُورَةِ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصر]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأَوَّلَ ﴿٦١﴾﴾ [الليل].

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء.

وقال مالك، عن الزهري: خير بخلقه، حكيم بأمره^(١)، ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبدور، والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من قطر ورزق، وما يعرج فيها؛ أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يُعَذِّبُهُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٢﴾ لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرُونَ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٦٤﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦٥﴾﴾.

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهنَّ مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه

العظيم على وقع: المعاد، لما أنكره من أهل الكفر والعناد، فأحداهن في سورة يونس عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَسْتَأْتِيُوكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾ [يونس]، والثانية هذه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾، والثالثة في سورة التغابن، وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْجِزَهُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْجِزَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِتَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن]، فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره، فقال: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قال مجاهد وقتادة: لا يعزب عنه لا يغيب عنه^(١)؛ أي: الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت، أين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم. ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة، بقوله تعالى: ﴿لَيُعْجِزَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [١] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال عليه السلام: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [٢٨] [ص].

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ويقال أيضاً: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَئِثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَئِثِ﴾ [الروم: ٥٦]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [١] العزيز هو المنيع الجنب الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمُ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّزْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي حَكِيمٍ جَدِيدٍ﴾ [٧] أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ [٨] أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَ خَسِيفٍ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ شَقِطٌ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ [٩].

هذا إخبار من الله عليه السلام عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول عليه السلام في إخباره بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمُ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّزْقٍ﴾ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي: بعد هذا الحال

(١) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد، لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون، ولهذا قالوا: ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قال الله ﷻ رادًّا عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد، الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا.

ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: حيثما توجهوا وذهبوا، فالسمااء مطلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٥٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ ﴿٥٨﴾ [الذاريات].

قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: إنك إن نظرت عن يمينك، أو عن شمالك، أو من بين يديك، أو من خلفك، رأيت السماء والأرض^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ شَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

قال معمر، عن قتادة: ﴿مُنِيبٍ﴾ تائب^(٢).

وقال [شيبان]^(٣)، عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله تعالى^(٤)؛ أي: إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاء إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفافها، وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) [غافر].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَىٰ مَعْمُ وَالطَّيْرِ ۖ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿٥٩﴾ ۖ إِنَّ أَعْمَلَ سَبِّغَتْ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ۖ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل

(١) سنده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) كذا في (حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «سفيان».

(٤) سنده صحيح وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «المقبل التائب».

المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات، والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ، سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا زمماراً من مزامير آل داود»^(١).

وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج^(٢) ولا بربط^(٣) ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه^(٤).

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْبَى﴾ أي: سبحي، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد^(٥). وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبحي بلسان الحبشة، وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطيور أن ترجع معه بأصواتها^(٦).

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه (الجميل)^(٧) في باب النداء منه ﴿يَجِئَالُ أَوْبَى مَعَهُ﴾ أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب سير النهار كله، والإسَاد سير الليل كله، وهذا لفظه، وهو غريب جداً لم أره لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية ههنا، والصواب أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوْبَى مَعَهُ﴾ أي: رجعي مسبحة معه كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط^(٨)، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّفَتٍ﴾ وهي: الدروع.

قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح^(٩).

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنبياء آية ٧٩.

(٢) الصنج صحيفة مدورة من نحاس يضرب بها على أخرى مثلها، وهي من الآلات الموسيقية.

(٣) أي: العود وهو من الآلات الموسيقية.

(٤) أخرجه القاسم بن سلام أبو عبيد عن إسماعيل بن إبراهيم حدثنا سليمان التيمي - أو نبئت عنه - حدثنا أبو عثمان النهدي فذكره.

(٥) ينظر فضائل القرآن لابن كثير ص ٩٦ وفي سنده تردد إسماعيل بن إبراهيم لم يجزم هل سمعه عن سليمان التيمي أم بواسطة.

(٦) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي شيبه (المصنف ٦/٣٤٤)، والطبري كلاهما بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبه (المصنف ١١/٥٦٠)، والطبري بسند صحيح من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أبي ميسرة.

(٨) كذا في (حم)، وفي الأصل صحف إلى: «المجمل».

(٩) قول الحسن عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه بنحوه.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابن سماعة، حدثنا ابن ضمرة، عن ابن شاذب قال: كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم، ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري^(١).

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ﴾ لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر^(٢).

وقال الحكم بن عيينة: لا تغلظه فيقصم، ولا تدقه فيقلق^(٣)، وهكذا روي عن قتادة وغير واحد^(٤).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السرد حلق الحديد^(٥).

وقال بعضهم: يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:

وعليهما مسرودتان [قضاهما]^(٦) داود أو صنَّع السوابغ تبع^(٧)

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه الصلاة والسلام من طريق إسحاق بن بشر، وفيه كلام، عن أبي إلياس، عن وهب بن منبه ما مضمونه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً، فيسأل الرُّكبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله عليه السلام.

قال وهب: حتى بعث الله تعالى ملكاً في صورة رجل، فلقبه داود عليه الصلاة والسلام فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأتمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً. قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني: بيت المال، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه ﷻ في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله، فالأن الله ﷻ له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدروع، وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ﴾ يعني: مسامير الحلق.

قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله درع، باعها فتصدق بثلاثها، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها، وقال: إن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبور تجتمع الوحوش إليه حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج^(٨)، إلا على أصناف

(١) سنده مرسل وهو من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والبستي والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن عيينة عن أبيه عن الحكم.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) كذا في (حم) وديوان الهذليين ١٩/١، وفي الأصل صحف إلى: «معناها». ومعنى قضاهما أي: فرغ منهما.

(٧) هو ملك من ملوك حمير في اليمن.

(٨) تقدم تعريفهما في رواية أبي عثمان النهدي السابقة.

صوته ﷺ، وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أعطي سبعين مزمراً في حلقه^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: في الذين أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليّ من ذلك شيء.

﴿وَلَسَلَيْنَا الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْدِثٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَّانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له، تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر.

قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل باصطخر^(٢) يتغذى بها ويذهب راثحاً من اصطخر فيبيت بكابل^(٣)، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرّع، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرّع^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس ؓ ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ومالك، عن زيد بن أسلم وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد: القطر النحاس^(٥).

قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ﷺ^(٦). قال السدي: وإنما أسيلت له ثلاثة أيام^(٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه؛ أي: بقدره وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنيات وغير ذلك ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو الحريق.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً، فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفير، عن أبي ثعلبة الخشني ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطفرون في الهواء، وصنف

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٠٨٧/٥، والخبر من الإسرائيليات التي يكثر منها وهب بن منبه.

(٢) وهي بلدة من أقدم بلاد فارس. (٣) هي عاصمة أفغانستان حالياً.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر بن الحسن، وأخرجه البستي بسند صحيح من طريق قرة بن سليمان عن الحسن.

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد بلفظ: «الصفير»، وقول عكرمة عزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٧) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون^(١) رفعه غريب جداً.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا حرملة، حدثنا ابن وهب، أخبرني بكر بن مضر، عن محمد بن بحير، عن ابن أنعم أنه قال: الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم الثواب وعليهم العقاب، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنف حيات وكلاب.

قال بكر بن مضر: ولا أعلم إلا أنه قال: حدثني أن الإنس ثلاثة أصناف: صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة، وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، وصنف في صورة الناس على قلوب الشياطين^(٢).

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا سلمة؛ يعني: ابن الفضل، عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً، فهو ولي الله تعالى، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحَرِّبٍ وَتَمَنٍّ﴾ أما المحارِب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدوره.

وقال مجاهد: المحارِب ببيان دون القصور^(٤).

وقال الضحاك: هي المساجد^(٥).

وقال قتادة: هي القصور والمساجد^(٦).

وقال ابن زيد: هي المساكن^(٧).

وأما التماثيل، فقال عطية العوفي والضحاك والسدي: التماثيل: الصور^(٨).

قال مجاهد: وكانت من نحاس^(٩).

وقال قتادة: من طين وزجاج^(١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ الجواب جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء، كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

- (١) في سنده معاوية بن صالح وهو صدوق له أوهام وأخشى الرفع من طرفه، وأخرجه الحاكم من طريق أبي صالح به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٥٦/٢).
- (٢) سنده ضعيف لضعف بن أنعم وهو عبد الرحمن بن زياد الإفريقي.
- (٣) سنده ضعيف لإرساله، وفي سنده أيضاً سلمة بن الفضل وهو صدوق كثير الخطأ كما في التقريب.
- (٤) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.
- (٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جوير عن الضحاك.
- (٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
- (٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.
- (٨) قول عطية العوفي عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جوير عنه.
- (٩) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.
- (١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة من زجاج وشبهه.

تروح على آل المخلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تَفْهَقُ^(١) وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالجوبة من الأرض^(٣). وقال العوفي عنه كالحياض، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم^(٤). والقذور الراسيات؛ أي: الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها، كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما^(٥). وقال عكرمة: أضافها منها^(٦).

وقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي: وقلنا لهم: اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، وشكراً مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، كما قال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا قال أبو عبد الرحمن الحُبَلِيُّ: الصلاة شكر والصيام شكر، وكل خير عمله لله ﷻ شكر، وأفضل الشكر الحمد^(٧)، رواه ابن جرير، وروى هو وابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي قال: الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح^(٨)، وهذا لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود ﷺ كذلك قائلين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، حدثنا جعفر؛ يعني: ابن سليمان، عن ثابت البناني، قال: كان داود ﷺ قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٩).

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»^(١٠).

وقد روى أبو عبد الله ابن ماجه من حديث سُنيِد بن داود: حدثنا يوسف بن محمد بن

(١) الفهق: أي: الامتلاء والانتاع. (٢) استشهد به الطبري.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه أيضاً بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وأخرجه أيضاً هو والبُستي بسند صحيح من طريق أبي رجاء عن الحسن.

(٥) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٦) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر والطبري عن ابن عباس ولم أجده في تفسير الطبري.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق زهرة بن معبد عن أبي عبد الرحمن.

(٨) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي. ضعيف.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق جعفر بن سليمان به (المصنف ٤٦٤/٧) وسنده مرسل.

(١٠) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه (صحيح البخاري، التهجد، باب من نام عند السحر ١١٣١، وصحيح مسلم، الصيام، باب النهي عن صوم الدهر ح ١١٥٩).

المنكدر، عن أبيه، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليه السلام، لسليمان، يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»^(١).
وروى ابن أبي حاتم، عن داود عليه الصلاة والسلام ههنا أثراً غريباً مطولاً جداً وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى، حدثنا أبو زيد فيض بن إسحاق الرقي قال: قال فضيل في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مِثْلَ مَا دَاوُدُ شَكَرَ﴾ قال داود: يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: «الآن شكرتني حين قلت إن النعمة مني»^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا فَصَيَّنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(٣).

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه، وهي منسأته، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد^(٣)، مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة. وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب وفي صحته نظر.

قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان نبي الله سليمان عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول كذا، فيقول: لأي شيء أنت؟ فإن كانت تغرس غرس، وإن كانت لدواء كتبت، فيبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب، قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان عليه السلام: اللهم عم على الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، فنحتها عصاً فتوكأ عليها حولاً ميتاً والجن تعمل، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين» قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك، قال: فشكرت الجن للأرضة، فكانت تأتيها بالماء^(٤)، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث إبراهيم بن طهمان به. وفي رفعه غرابة ونكارة، والأقرب أن يكون موقوفاً، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابات وفي بعض حديثه نكارة.

(١) أخرجه ابن ماجه بسنده ومثته (السنن، إقامة الصلاة، باب ما جاء في قيام الليل ح ١٣٣٢)، وضعف سنده البوصيري (مصباح الزجاجة ٤٣٣/١) والخبر من الإسرائيليات.

(٢) سنده ضعيف لإرساله، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأعله الحافظ ابن كثير بعطاء الخراساني.

وقال السدي في حديث ذكره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ . قال: كان سليمان عليه الصلاة والسلام يتحرر^(١) في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه، فأدخله في المرة التي توفي فيها، فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا ينبت الله في بيت المقدس شجرة، فيأتيها فيسألها: فيقول ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا، فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت تنبت دواء قالت: نبت دواء كذا وكذا، فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة، فسألها: ما اسمك؟ قالت: أنا الخروبة، قال ولأي شيء نبت؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد، قال سليمان عليه الصلاة والسلام: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فترعها وغرسها في حائط له، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه، فمات ولم تعلم به الشياطين، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج عليهم فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول: ألسنت جلدأ إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان ﷺ في المحراب إلا احترق، فمر ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق، ونظر إلى سليمان ﷺ قد سقط ميتاً، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات، ففتحوا عليه فأخرجوه. ووجدوا منسأته، وهي العصا بلسان الحبشة، قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وهي في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، فمكثوا يدينون له من بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم يطلعون على الغيب، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له، وذلك قول الله ﻋَﻠَﻲْ ﻣَﻮْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكننا سننقل إليك الماء والطين، قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت، قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطين شكراً لها^(٢). وهذا الأثر - والله أعلم - إنما هو مما تلقي من علماء أهل الكتاب، وهي وقف لا يصدق منه إلا ما وافق الحق، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

وقال ابن وهب وأصبع بن الفرّج، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا دَعَّمُ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ قال: قال سليمان ﷺ لملك الموت: إذا

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي رواية الطبري: يتجرد.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لأن السدي خلط بين الأسانيد الصحيحة والضعيفة، وضعف سنده الحافظ ابن حجر في مقدمة العجائب في بيان الأسباب.

أمرت بي فأعلمني، فأتاه فقال: يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير وليس له باب، فقام يصلي فاتكأ على عصاه، قال: فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت، قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي، قال: فبعث الله ﷻ دابة الأرض، قال: والدابة تأكل العيدان يقال لها: القادح، فدخلت فيها فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً، فلما رأت ذلك الجن، انفضوا وذهبوا، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر، وذكر غير واحد من السلف نحوه من هذا^(١).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر، كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة.

قال الإمام أحمد رحمته الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الرحمن بن وعلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال رحمته الله: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون، فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأما الشامية: فلخم وجذام وعاملة وغسان»^(٢) ورواه عبد عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة به^(٣). وهذا إسناد حسن، ولم يخرجوه، وقد رواه الحافظ أبو عمر ابن عبد البر. في كتاب (القصد والأمم، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم) من حديث ابن لهيعة، عن علقمة بن وعلة^(٤)، عن ابن عباس رضي الله عنه، فذكر نحوه. وقد روي نحوه من وجه آخر.

(١) سنده رجاله ثقات لكن الخبر من الإسرائيليات كسابقه، وأخرجه الطبري من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) أخرجه الإمام بسنده بلفظ: «وأنمار وحمير عرباء كلها». (المسند ٧٥/٥ ح ٢٨٩٨)، وحسن سنده محققوه. وأخرجه الحاكم من طريق أبي عبد الرحمن به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٢٣/٢)، وحسنه الحافظ ابن كثير ويشهد له ما يليه.

(٣) وسنده كسابقه.

(٤) كذا ذكره: علقمة بن وعلة، وفي رواية أحمد السابقة: عبد الرحمن بن وعلة، ولعله التبس على ابن لهيعة.

وقال الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا [أبو جناب يحيى بن أبي حية]^(١) الكلبي، عن يحيى بن هانئ بن عروة، عن فروة بن مسيك رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أقاتل بمقبل قومي مدبرهم، قال رسول الله ﷺ: «نعم فقاتل بمقبل قومك مدبرهم» فلما وليت دعائي فقال: «لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام» فقلت: يا رسول الله أرأيت سبأ، وإد هو أو جبل أو ما هو؟ قال ﷺ: «لا بل هو رجل من العرب، ولد له عشرة فتيا من ستة، وتشاءم أربعة، تيامن الأزد والأشعريون وجمير وكندة ومذحج وأنمار، الذين يقال لهم بجيلة وخنعم، وتشاءم لخم وجذام وعاملة وغسان»^(٢). وهذا أيضاً إسناد جيد وإن كان فيه أبو جناب الكلبي، وقد تكلموا فيه لكن رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن العنقري، عن أسباط بن نصر، عن يحيى بن هانئ المرادي، عن عمه أو عن أبيه - شك أسباط - قال: قدم فروة بن مسيك رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فذكره^(٣).

طريق أخرى لهذا الحديث: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني ابن لهيعة، عن توبة بن نمر، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عبيدة بن عبد الرحمن بأفريقية، فقال يوماً: ما أظن قوماً بأرض إلا وهم من أهلها، فقال علي بن رباح: كلا قد حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطيفي رضي الله عنه قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية، وإنني أخشى أن يرددوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال ﷺ: «ما أمرت فيهم بشيء بعد» فأنزلت هذه الآية ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ الآيات، فقال له رجل: يا رسول الله ما سبأ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله أن رسول الله ﷺ سئل عن سبأ ما هو: أبلد أم رجل أم امرأة؟ قال ﷺ: «بل رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة، أما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد الأشعريون وأنمار وجمير غير ما حلها، وأما الشام فلخم وجذام وغسان وعاملة»^(٤). فيه غرابة من حيث ذكر نزول الآية بالمدينة، والسورة مكية كلها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الحسن بن الحكم، حدثنا أبو سبرة النخعي، عن فروة بن مسيك الغطيفي رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أخبرني عن سبأ ما هو: أرض أم امرأة؟ قال ﷺ: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد له عشرة من الولد، فتيا من ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان، وأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وجمير وأنمار» فقال رجل: ما أنمار؟ قال ﷺ: «الذين

(١) كذا في (حم) والمسنند، وفي الأصل: «أبو خباب بن أبي».

(٢) لم يرد في المسنند، وقد ذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند ١٧٨/٥. وجود سنده الحافظ ابن كثير بالمتابعة التالية الواردة في تفسير الطبري.

(٣) أخرجه الطبري عن أبي كريب به.

(٤) سنده ضعيف لإبهام شيخ علي بن رباح، ويتقوى إذ توبع في رواية الترمذي فأخرجه من طريق أبي سبرة النخعي عن فروة بن مسيك به وقال: حسن غريب (السنن، التفسير، باب ومن سورة سبأ ح ٣٢٢٢) وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي، وأخرجه الحاكم من طريق سعيد بن أبيض عن فروة، وصححه ووافقه الذهبي). (المستدرک ٤٢٤/٢) وحسنه ابن عبد البر كما سيأتي بعد الرواية التالية.

منهم خثعم وبجيلة»^(١). ورواه الترمذي في جامعه عن أبي كريب وعبد بن حميد قالا: حدثنا أبو أسامة فذكره أبسط من هذا، ثم قال: هذا حديث حسن غريب^(٢).

وقال أبو عمر بن عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا ابن كثير هو عثمان بن كثير، عن الليث بن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حصين، عن تميم الداري رضي الله عنه قال: إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ، فذكر مثله^(٣)، فقوي هذا الحديث وحسن. قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق -: اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان^(٤).

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له الرائش لأنه أول من غنم في الغزو، فأعطى قومه فسمي الرائش، والعرب تسمي المال ريشاً ورياشاً. وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً:

سيملك بعدنا ملكاً عظيماً	نبي لا يُرَخَّصُ في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك	يدينوه العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوك	يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي	تقي مخبت خير الأنام
وسُمي أحمداً يا ليت أني	أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري	بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصره	ومن يلقاه يبلغه سلامي ^(٥)

ذكر ذلك الهمداني في كتاب (الإكليل) واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال:

(أحدها): أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاثة طرائق.

(والثاني): أنه من سلالة عابر، وهو هود عليه الصلاة والسلام، واختلفوا أيضاً في كيفية نسبه به على ثلاثة طرائق أيضاً.

(والثالث): أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه على ثلاث طرائق أيضاً. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمري رحمه الله تعالى عليه في كتابه المسمى: (الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة). ومعنى قوله ﷺ: «كان رجلاً من العرب»؛ يعني: العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح، وعلى القول الثالث كان من سلالة الخليل ﷺ، وليس هذا المشهور عندهم، والله أعلم. ولكن في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ مرّ بنفر من أسلم

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وتقدم تخريجه وتصحيحه في الرواية السابقة.

(٢) تقدم تخريجه في الرواية قبل السابقة.

(٣) القصد والأهم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم ص ٢٠.

(٤) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/ ١٠).

(٥) هذه الأبيات ذكرها الحافظ ابن كثير (البدية والنهاية ٢/ ١٥٨).

ينتضلون، فقال: «ارموا بني إسماعيل؟ فإن أباكم كان رامياً»^(١). فأسلم قبيلة من الأنصار - والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ - نزلوا يثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله ﷺ عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل: باليمن، وقيل لهم غسان بماء نزلوا عليه قيل: إنه قريب من المشلل، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إما سألت فلاناً معشر نجب الأزد نسبنا والماء غسان^(٢)

ومعنى قوله ﷺ: «ولد له عشرة من العرب»؛ أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة، والأقل والأكثر، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب.

ومعنى قوله ﷺ: «فتيامن منهم ستة وتشاء منهم أربعة»؛ أي: بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزع عنها إلى غيرها. وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين. وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرتة ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب. بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب، وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحده ويعبدوه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ ثم فسرها بقوله ﷺ: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِمَوْلَاكُمْ طِيبَةٌ رَبُّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (٣١) إني وجدت أمراً تليكم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (٣٢) وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٣٣) [النمل].

وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: بعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً^(٣).

وقال السدي: أرسل الله ﷺ إليهم اثني عشر ألف نبي، والله أعلم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ المراد بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الجرد،

(١) أخرجه البخاري من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه (صحيح البخاري، المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل ح ٣٥٠٧).

(٢) ديوان حسان رضي الله عنه ٢٥١ واستشهد به ابن هشام في السيرة ١/١٠١.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، والخبر من الإسرائيليات.

(٤) الخبر من الإسرائيليات.

وقيل: الماء الغزير، فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز، حكى ذلك السهيلي^(١).

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك: إن الله ﷻ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض يقال لها: الجرذ نقبته^(٢).

قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمن فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم^(٣).

وقال قتادة وغيره: الجرذ هو الخلد، نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهي^(٤)، وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فبيست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَطَرٍ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقتادة والسدي: وهو الأراك^(٥) وأكله البربر^{(٦)(٧)}.

﴿وَأَثَلٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: هو الطرفاء^(٨).

وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السمر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَشَقَوُا مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال: ﴿وَشَقَوُا مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والتمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ (٧) أي: عاقبناهم بكفرهم.

(١) ذكره في الروض الأنف ١٥/١.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه ويتقوى بالآثار التي تليه فقول وهب أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٣) أخرجه الطبري بالسند المتقدم.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول السدي عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٦) البربر: هو ثمر شجر الأراك. (٧) أخرجه الطبري بالسند المتقدم بلفظ: «أكله بربره».

(٨) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور^(١).

وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور.

وقال طاوس: لا يناقش إلا الكفور^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التغلبي، عن ابن خيرة، وكان من أصحاب علي عليه السلام، قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصه إياها^(٣).

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَهُ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا مَّأْمِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾.

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها، وزروعها وثمارها بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا، ويقل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وكذا قال أبو مالك^(٤).

وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ومالك، عن زيد بن أسلم وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد وغيرهم؛ يعني: قرى الشام^(٥)، يعنون أنهم كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة.

وقال العوفي، عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس^(٦)، وقال العوفي عنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿قُرَى ظَهْرَهُ﴾ أي: بيئة واضحة يعرفها المسافرون يقلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا مَّأْمِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وقرأ آخرون: ﴿بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾^(٧) وذلك أنهم بطروا

(١) أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه.

(٣) لم أقف على ترجمة أبي البيداء.

(٤) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق حصين، وهو ابن عبد الرحمن، عن أبي مالك.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٧) وهي قراءة متواترة.

هذه النعمة كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد^(١)، وأحبوا مفاوز ومهامة يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في منّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة، ولهذا قال لهم: ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَمْ يَلْبِغُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ بِطَرَفِ مَعِشَتِهِمْ﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى في حق هؤلاء: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثاً للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سباً وأيادي سباً، وتفرقوا شَذَرَ مَذَرَ^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال: سمعت أبي يقول: سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦] وكانت فيهم كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال وأنه أخبر أن زوال أمرهم قد دنا وأن العذاب قد أظلمهم، فلم يدر كيف يصنع لأنه كان له مال كثير من عقار، فقال لرجل من بنيهِ وهو أعزهم أخوالاً: يا بني إذا كان غداً وأمرتك بأمر فلا تفعله، فإذا انتهرتك فانتهرني، فإذا لطمتك فالطمني، قال: يا أبت لا تفعل إن هذا أمر عظيم وأمر شديد، قال: يا بني قد حدث أمر لا بد منه، فلم يزل به حتى وافاه على ذلك، فلما أصبحوا واجتمع الناس قال: يا بني افعل كذا وكذا، فأبى فانتهره أبوه، فأجابه فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلطمه، فوثب على أبيه فلطمه، فقال: ابني يلطمني؟ علي بالشفرة، قالوا: ما تصنع بالشفرة؟ قال: أذبحه، قالوا تريد أن تذبح ابنك؟ الطمه أو اصنع ما بدا لك، قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خذ منا ما بدا لك فأبى إلا أن يذبحه، قالوا: فلتموتن قبل أن تذبحه، قال: فإذا كان الحديث هكذا، فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ابني فيه، اشتروا مني دوري، اشتروا مني أرضي، فلم يزل حتى باع دوره وأرضه وعقاره، فلما صار الثمن في يده وأحضره قال: أي قوم إن العذاب قد أظلمكم وزوال أمركم قد دنا، فمن أراد منكم داراً جديداً وحمى شديداً وسفراً بعيداً، فليلحق بعمان، ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير. وكلمة قال إبراهيم

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أي: تفرقوا في كل ناحية.

لم أحفظها، فليلحق ببصرى، ومن أراد الراسخات في الوحل: المطاعم في المحل، المقيمات في الضحل، فليلحق بيثرب ذات نخل، فأطاعه قومه، فخرج أهل عمان إلى عمان. وخرجت غسان إلى بصرى، وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل، قال: فأتوا على بطن مر، فقال بنو عثمان هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً، فأقاموا به فسموا لذلك خزاعة، لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجه أهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان إلى بصرى^(١). هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤوساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بإرسال العرم عليهم، فقال: وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثني به أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النقلة عن اليمن، فكاد قومه، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي وعرض أمواله. فقال أشراف من أشراف اليمن اغتبنوا غصبة عمرو، فاشتروا منه أمواله وانتقل هو في ولده وولد ولده، وقالت الأزدي: لا نتخلف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم وخرجوا معه، فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان، فحاربتهم عك وكانت حربهم سجلاً، ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى رحمته الله:

وعك بن عدنان الذين تغلبوا بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصيدة له. قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلدان، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مرأ، ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عُمَانِ عُمَان، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله ﷻ هذه الآيات^(٢). وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق، إلا أنه قال: فأمر ابن أخيه مكان ابنه، إلى قوله: فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا، رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، أخبرنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عمرو بن عامر وهو عمّ القوم، كان كاهناً فرأى في كهنته أن قومه سيمزقون ويباعد بين أسفارهم، فقال لهم: إني قد علمت أنكم ستمزقون، فمن كان منكم ذا هم بعيد وحمل شديد، ومزاد حديد، فليلحق بكاس أو كرود. قال: فكانت وادعة بن عمرو. ومن كان منكم ذا هم مُدِنٍ، وأمرٍ ذعر، فليلحق بأرض شن، فكانت عوف بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق، ومن كان منكم يريد عيشاً آيناً^(٣)، وحرماً آمناً فليلحق بالأرزين، فكانت خزاعة، ومن كان منكم يريد

(١) رجاله ثقات إلى عكرمة لكن الحافظ ابن كثير استغربه، ولعله أخذه عكرمة من أخبار أهل الكتاب.

(٢) سنده ضعيف، وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١٠/١ - ١٢).

(٣) العيش الآين: الرفاه الوادع.

الراسيات في الوحل، المطاعم في المحل^(١)، فليلحق بيثرب ذات النخل، فكانت الأوس والخزرج، وهما هذان الحيان من الأنصار ومن كان منكم يريد خمراً وخميراً وذهباً وحريراً، وملكاً وتأميراً، فليلحق بكوثي^(٢) وبُصرى^(٣)، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ومن كان منهم بالعراق.

قال ابن إسحاق: وقد سمعت بعض أهل العلم يقول إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر^(٤). وكانت كاهنة فرأت في كهانتها ذلك، فالله أعلم أي ذلك كان.

وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبي: أما غسان فليحقوا بالشام، وأما الأنصار فليحقوا بيثرب، وأما خزاعة فليحقوا بتهامة، وأما الأزد فليحقوا بعمان^(٥). فمزقهم الله كل ممزق. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عبيدة قال: قال الأعشى - أعشى بني قيس بن ثعلبة - واسمه: ميمون بن قيس:

وفي ذاك للمؤتسي أسوة ومأرب عفى^(٦) عليها العرم
رُخام بنته لهم حُمير إذا جاء موار^(٧) لم يرم
فأروى الزروع وأعنا بها على سعة مأوهم إذ قسم
فصاروا أيادي ما يقدرون منه على شرب طفل فُطم^(٨)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعني قالا: أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن العيزار بن حريث، عن عمر بن سعد، عن أبيه هو: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته»^(٩). وقد رواه النسائي في اليوم والليلة من حديث أبي إسحاق السبيعي به^(١٠)، وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد، عن أبيه، ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي

(١) أي: الجوع الشديد. (٢) مدينة تقع في جنوب العراق.

(٣) مدينة في سوريا.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة به، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

(٦) أي: أذهب معالمها. (٧) أي: الشديد المور.

(٨) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/١٤).

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٨٢/٣ ح ١٤٨٧) وحسنه محققوه، وله شاهد في الصحيح كما سيأتي.

(١٠) السنن الكبرى (ح ١٠٩٠٦) وحكمه كسابقه.

هريرة رضي الله عنه: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(١).

قال عبد: حدثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة رضي الله عنه: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» قال: كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر^(٢).

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾.

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشیطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنَنَنَّ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣) [الإسراء: ٦٢]. وقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] والآيات في هذا كثيرة.

وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبت من الأيوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال عند ذلك إبليس: لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح أعدده وأمنيه وأخدعه، فقال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفر إلا غفرت له»^(٤)، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: أي: من حجة.

وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعضاً ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأمانى، دعاهم إليها فأجابوه، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسن عبادة ربه تعالى في الدنيا ممن هو منها في شك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ أي: ومع حفظه ضلّ من ضلّ من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءه سلّم من سلّم من المؤمنين أتباع الرسل.

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ٩٥ من حديث صهيب رضي الله عنه في صحيح مسلم.

(٢) سنده صحيح. وعبد هو عبد بن حميد الكشي صاحب التفسير والمسنّد. وأخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به وسنده صحيح.

(٣) ذكره السيوطي بنحوه ونسبه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) سنده ضعيف لإرسال الحسن البصري.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

يُبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عُبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه.

قال قتادة في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ من عون يعينه بشيء^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفَعِّ شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَتِهِ مُسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال: «فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيتها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع» الحديث بتمامه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما^(٣).

﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها، قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي وإبراهيم النخعي والضحاك والحسن وقاتدة في قوله ﷺ: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ يقول: جُلِّي عن قلوبهم^(٤)، وقرأ بعض السلف، وجاء مرفوعاً: إذا فُزِعَ،

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٧٩.

(٣) قول ابن مسعود أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات من طريق عامر الشعبي عن ابن مسعود، ولكن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود ويتقوى بالشاهد التالي عن أبي هريرة في صحيح البخاري، وقول مسروق أخرجه بسند رجاله ثقات، لكنه مرسل ويشهد له أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه البستي =

بالغين المعجمة^(١) ويرجع إلى الأول، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا^(٢).

قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة^(٣). وقال الحسن: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك والتكذيب^(٤).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ما فيها من الشك قال: فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ قال: وهذا في بني آدم هذا عند الموت، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار^(٥)، وقد اختار ابن جرير القول الأول: إن الضمير عائد على الملائكة، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عكرمة قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها، ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته، ثم يلقها الآخر إلى من تحته، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبه فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»^(٦). انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة به، والله أعلم^(٧).

= بسند فيه مجهول عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) وهي قراءة شاذة تفسيرية نسبها الطبري إلى الحسن البصري، وأخرجه البستي بسند صحيح من طريق قرة بن خالد عن الحسن.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد.

(٤) نسبة السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

(٦) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ...﴾ [سبأ: ٢٣] ح ٤٨٠٠).

(٧) سنن أبي داود، الحروف والقراءات، باب (١) (ح ٣٩٨٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٣٣٧٤)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة سبأ (ح ٣٢٢٣)، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (ح ١٩٤).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق قالا: حدثنا معمر، أخبرنا الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه، قال عبد الرزاق: من الأنصار، فرمي بنجم فاستنار، فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية» قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبَّح حملة العرش، ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون» هكذا رواه الإمام أحمد^(١)، وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعي ويونس ومعقل بن عبيد الله، أربعتهم عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رجل من الأنصار به. وقال يونس: عن رجال من الأنصار رضي الله عنهم، وكذا رواه النسائي في التفسير من حديث الزبيدي، عن الزهري به، ورواه الترمذي فيه عن الحسين بن حريث، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رجل من الأنصار رضي الله عنه، والله أعلم^(٢).

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي، والسياق لمحمد بن عوف، قالا: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا الوليد هو ابن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحى بأمره تلكم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صُعِقُوا وخرّوا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة، كلما مرّ بسماء سماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول ﷺ: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض»^(٣). وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة، عن زكريا بن أبان المصري، عن نعيم بن حماد^(٤) به.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: ليس هذا الحديث بالتام عن الوليد بن مسلم رضي الله عنه.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢١٨/١)، وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (ح ٢٢٢٩)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن

سورة سبأ (ح ٣٢٢٤)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، (ح ١١٢٧٢).

(٣) في سننه نعيم بن حماد وهو صدوق يخطئ كثير (التقريب ٥٦٤). ويتقوى بما سبق من رواية أبي هريرة

وابن عباس رضي الله عنهما

(٤) أخرجه الطبري وابن خزيمة من طريق نعيم بن حماد به (التوحيد ص ٩٥) وسنده كسابقه.

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما ^(١) وعن قتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إحياء الله تعالى إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية ^(٢).

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٤) ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (١٦) ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْفَضْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٧).

يقول تعالى مقررًا تفردة بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض؛ أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هذا من باب اللف والنشر؛ أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياهم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد ^(٣).

وقال عكرمة وزياذ بن أبي مريم: معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفي ضلال مبين ^(٤). وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥) معناه التبري منهم؛ أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيدة وإفراد العبادة له، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتهم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) [يونس]. وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَتَأَيَّمُوا الْكَافِرُونَ﴾ (١) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦) [الكافرون].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق؛ أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزئ كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصر والسعادة الأبدية كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ يَنْفَرُونَ﴾ (١) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (٢) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

(١) سنده ضعيف لضعف العوفي ومن يروي عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري من طريق عتاب بن بشير عن خُصيف عن عكرمة وزياذ بن أبي مريم. وفي سنده عتاب وخُصيف كلاهما صدوق يخطئ كما في التقريب.

يَتَابِعَتْنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ [الروم] ولهذا قال ﷺ: ﴿وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقدس.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٩﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَتَابِعَتْنَا النَّاسُ إِنْ رَسُوهُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ [الفرقان].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف] ﴿وَلَنْ تُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ يعني إلى الناس عامة^(١).

وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم الله ﷺ^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم يعني ابن أبان، عن عكرمة، قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس فبم فضله على الأنبياء؟ قال ﷺ: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾، فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس^(٣). وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجداً

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) سنده ضعيف لضعف حفص بن عمر العدني، ويشهد له حديث جابر رضي الله عنه التالي.

وطهوراً، فأیما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وُبعثت إلى الناس عامة^(١).

وفي الصحيح أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت إلى الأسود والأحمر»^(٢).

قال مجاهد: يعني: الجن والإنس^(٣).

وقال غيره: يعني: العرب والعجم، والكل صحيح.

ثم قال ﷺ مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: «وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٤)، وهذه الآية كقوله ﷺ: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ» الآية [الشورى: ١٨].

ثم قال تعالى: «قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ»^(٥) أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محدد لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: «إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ» [نوح: ٤]، وقال ﷺ: «وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ»^(٦) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ»^(٧) [هود: ١٠٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٨) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٩).

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، وبما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» قال الله ﷻ متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الدليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحتاجهم «يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا» وهم الأتباع «لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» منهم وهم قادتهم وسادتهم «لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ» أي: لولا أنتم تصدوننا لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا «أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى إِذْ جَاءَكُمْ» أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: «بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ»^(١٠) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ» أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً نهاراً وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين.

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنفال آية ٦٧. (٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٢٠.

(٣) معناه صحيح.

قال قتادة وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ أَلِيلٍ وَالتَّهَارِ﴾ يقول: بل مكركم بالليل والنهار^(١)، وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم بالليل والنهار.

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي: نظراء وآلهة معه وتقيمون لنا شبيهاً وأشياء من المحال تضلوننا بها.

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضرار بن صرد، عن عبد الله بن أبي الهذيل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهابها، ثم لفحتهم لفحة لم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»^(٢).

وحدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن يحيى الخشني قال: ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة إلا اسم صاحبها عليها مكتوب، قال: فحدثته أبا سليمان؛ يعني: الداراني رحمة الله عليه، فبكى ثم قال: ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه، فجعل القيد في رجله والغل في يديه، والسلسلة في عنقه، ثم أدخل النار وأدخل المغار؟ اللهم سلم^(٣).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٢٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْغَيْبِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (٢٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٢٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٢٩).

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ وأمرأ بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿أَنذَرْتُكُمْ لَكِ وَأَتَّبَعَكِ الْأَوْدَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿وَمَا زُرْتُكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]،

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) سنده ضعيف لضعف محمد بن سليمان بن الأصبهاني (مجمع الزوائد ٢٨٩/١٠)، وأخرجه الطبراني من طريق محمد بن سليمان بن الأصبهاني به (المعجم الأوسط ح ٩٣٦٥).

(٣) سنده مرسل، ومثل هذا الخبر لا يؤخذ إلا بحديث مرفوع لأنه من الغيبات.

وقال الكبراء من قوم صالح ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف]، وقال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦١﴾﴾ [الإسراء]، وقال جلّ وعلا ههنا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ﴿١﴾﴾ أي: نبي أو رسول ﴿إِلَّا قَالُوا مُتْرَفُوهَا﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة.

قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر^(١). ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، عن سفيان بن عاصم، عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه، قال: وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب، قال فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى كذا وكذا» قال: أشهد أنك رسول الله. قال ﷺ: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالُوا مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الآية، قال: فأرسل إليه النبي ﷺ إن الله ﷻ قد أنزل تصديق، ما قلت^(٢).

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرفهم؟ فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل^(٣).

وقال تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذابين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة وهيهات لهم ذلك قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ سَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]، وقال ﷻ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿٧﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُمْ ضُغُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر]، وقد أخبر الله ﷻ عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال وثمر وولد، ثم لم يغن عنه شيئاً بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة، ولهذا قال ﷻ

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) سنده مرسل، ويشهد لبعضه الحديث الذي يليه.

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري من حديث ابن عباس ؓ (الصحيح، بدء الوحي، باب رقم ٦ ح ٧).

هاهنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا إعتنائنا بكم.

قال الإمام أحمد رحمته الله: حدثنا كثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١). ورواه مسلم وابن ماجه من حديث كثير بن هشام، عن جعفر بن برقان به^(٢)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَكْبَرُ﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي، حدثنا القاسم وعلي بن مسهر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها» فقال أعرابي: لمن هي؟ قال ﷺ: «للمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»^(٣).

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾ أي: جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة ييسط على هذا من المال كثيراً. ويضيق على هذا ويقتصر على رزقه جداً. وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير وهذا غني موسع عليه، فكَذلك هم في الآخرة هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدرجات، وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» رواه مسلم من حديث ابن عمرو رضي الله عنه^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: مهما أنفقتُم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥٣٩/٢) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، البر، باب تحريم ظلم المسلم (ح ٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب القناعة (ح ٤١٤٣).

(٣) سنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق وهو الواسطي، والنعمان بن سعد: مقبول.

(٤) صحيح مسلم، الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (ح ١٠٥٤).

الحديث: «يقول الله تعالى أنفق، أنفق عليك»^(١).

وفي الحديث: «أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما: اللّٰهُمَّ أعط ممسكاً تلفاً، ويقول الآخر: اللّٰهُمَّ أعط منفقاً خلفاً»^(٢). وقال رسول الله ﷺ: «أنفق بلائاً، ولا تخشى من ذي العرش إقللاً»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: ذكر، عن يزيد بن عبد العزيز الفلاس، حدثنا هشيم، عن [الكوثر]^(٤) بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض، يعضّ الموسر ما في يده حذار الإنفاق» ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(٥).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا روح بن حاتم، حدثنا هشيم، عن [الكوثر]^(٦) بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض، يعضّ الموسر على ما في يده حذار الإنفاق» قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

«وينهل شرار الناس يبايعون كل مضطر ألا إن بيع المضطرين حرام، ألا إن بيع المضطرين حرام، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله إن كان عندك معروف فعد به على أخيك، وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه»^(٧). هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف. وقال سفيان الثوري: عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه، فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم^(٨).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَقَوْلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٣١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زُلْفَى، فيقول للملائكة: ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال تعالى في

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٢٩. (٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٢٩.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢١٢.

(٤) كذا في (مح) وترجمته، وفي الأصل و(حم) ضُحِفَ إلى: «المكوثر».

(٥) سنده ضعيف لأن مكحولاً. رواه بلاغاً ولم يسمع من حذيفة، وكوثر بن حكيم ضعيف ويروي أحاديث باطلة (لسان الميزان ٤/ ٤٩٠).

(٦) كذا في (مح) و(حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «المكوثر».

(٧) عزاه الحافظ ابن حجر (المطالب العلية ١/ ٢٦١) إلى أبي يعلى في مسنده وكذا السيوطي في الدر المنثور وضعف سنده، وسنده كسابقه، وضعفه الحافظ ابن كثير.

(٨) سنده صحيح ونسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

سورة الفرقان ﴿أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [١٧] وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدسست عن أن يكون معك إله ﴿أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ، لَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ زِينُوا لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَضَلُّوهُمْ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧، ١١٨]، قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكهم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً.

﴿وَقُولُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون: ﴿ذُقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً.

﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مَائِنًا يَنْتَحِبُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [١٢] ﴿وَمَا ءَايَتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [١٣] ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَايَتُهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [١٤].

يخبر الله عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تنزل عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ يعنون: أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ يعنون: القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ءَايَتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [١٣] أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَايَتُهُمْ﴾ قال ابن عباس ؓ: أي: من القوة في الدنيا^(١). وكذلك قال قتادة والسدي وابن زيد^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

رسله، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلتي؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦).

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بَوَاحِدَةً﴾ أي: إنما أمركم بواحدة وهي: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: تقوموا قياماً خالصاً لله ﷻ من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون. فينصح بعضكم بعضاً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقتادة وغيرهم^(١)، وهذا هو المراد من الآية.

فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعطيت ثلاثاً لم يعطهن أحد قبلي ولا فخر: أحلت لي الغنائم ولم تحل لمن قبلي، كانوا قبلي يجمعون غنائمهم فيحرقونها، وبُعِثت إلى كل أحمر وأسود، وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أتيتم بالصعيد وأصلي فيها حيث أدركتني الصلاة، قال الله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ﴾ وأُعنيت بالرعب مسيرة شهر بين يدي»^(٢). فهو حديث ضعيف الإسناد، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادي بعيد، ولعله مقحم في الحديث من بعض الرواة، فإن أصله ثابت في الصحاح^(٣) وغيرها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، قال البخاري عندها: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن خازم، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا. فأنزل الله ﷻ ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد]. وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات، فقال: «أيها الناس أتدرون ما

(١) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه بلفظ: «بطاعة الله»، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بلفظ: «فهذه واحدة وعظمت بها».

(٢) سنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان، ولأغلبه شواهد تقدم بعضها في الآية ٢٨ من هذه السورة.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الشعراء آية ٢١٤.

مثلي ومثلكم؟» قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم قال ﷺ: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يترأى لهم فيبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه، أيها الناس أوتيتم أيها الناس أوتيتم ثلاث مرات^(١)، وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ جَمِيعاً، إِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِي»^(٢) تفرد به الإمام أحمد في مسنده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠).

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله ﷻ إليكم ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨)، كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] أي: يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمحل، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسن قوسه ويقرأ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية، كلهم من حديث الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر عبد الله بن سخرية، عن ابن مسعود رضي الله عنه به^(٣)؛ أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة.

وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل ههنا إبليس^(٤). أي: أنه لا يخلق أحداً ولا يعيده ولا يقدر على ذلك، وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المراد ههنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزل الله ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضلَّ

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثنه بلفظ: «ثلاث مرار». (المسند ٣٦/٣٨ ح ٢٢٩٤٨) قال محققوه: صحيح لغيره.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثنه (المسند ٣٥/٣٨ ح ٢٢٩٤٧) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٨١.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

فإنما يضلُّ من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله [بريثان] ^(١) ^(٢) منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روى النسائي هنا حديث أبي موسى في الصحيحين: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً» ^(٣).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ۚ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۖ﴾

يقول تعالى: ولو ترى يا محمد إذ فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة، فلا فوت أي: فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يمكننا أن يمعنوا في الهرب بل أخذوا من أول وهلة.

قال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم ^(٤).

وقال مجاهد وعطية العوفي وقتادة: من تحت أقدامهم ^(٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك؛ يعني: عذابهم في الدنيا ^(٦).

وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر ^(٧)، والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك، وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس رضي الله عنهم. ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكلية ^(٨)، ثم لم ينبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه.

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ۚ﴾ أي: يوم القيامة يقولوا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّخَفْنَا نَعْمَلْ صَلِاحًا إِنَّا مَوْفُونَ﴾ [السجدة] ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف لهم تعاطي

(١) كذا في (ح) و(حم)، وفي الأصل صحف إلى: «بريان».

(٢) المسألة في زواج الرجل ثم يموت ولا يفرض لزوجته شيئاً، وأجاب ابن مسعود رضي الله عنه: «فإني أقضي لها مثل صدقة امرأة من نساءها... ولها الميراث وعليها العدة». ثم ذكر الحديث الذي أعلاه (المسند ٣٠٨/٧ ح ٤٢٧٦) وضح سنده محققوه.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٨٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن البصري.

(٥) نسبة السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية العوفي.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري عن الضحاك.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

(٨) أخرجه الطبري من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد.

قال مجاهد: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ﴾ قال: التناول لذلك^(١).

وقال الزهري: التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا.

وقال الحسن البصري: أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال تعاطوا الإيمان من مكان بعيد^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة^(٣)، وكذا قال محمد بن كعب القرظي رحمته الله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ يَبْعِدُ﴾.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بالظن^(٤)، قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] فتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: مجنون إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ويقولون: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

قال قتادة ومجاهد: يرحمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني: الإيمان^(٦).

وقال السدي: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهي التوبة^(٧)، وهذا اختيار ابن جرير رحمته الله.

وقال مجاهد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل^(٨)، وروى

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «الرد». وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «التناول».

(٢) أخرجه يحيى بن سلام عن عثمان بن عمرو عن الحسن، وسنده ضعيف لضعف عثمان وهو ابن سعد البصري الكاتب.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «كيف لهم بالرد».

(٤) سنده صحيح.

(٥) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٦) قول الحسن أخرجه ابن أبي شيبة عن معتمر بن سليمان، عن أبي الأشهب عنه (المصنف ٥٢٧/١٣ رقم ١٧١٥٣) وسنده صحيح وقول الضحاك أخرجه البستي والطبري بسند حسن من طريق عُبيد الصيد عنه.

(٧) أخرجه البيهقي بسند حسن من طريق إسباط عن السدي (شعب الإيمان رقم ٧١٩٩).

(٨) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وأخرجه البخاري تعليقاً عن مجاهد. (الصحيح، التفسير، سورة سبأ).

نحوه ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس رضي الله عنهم، وهو قول البخاري وجماعه. والصحيح أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا أثراً غريباً عجبياً جداً فنذكره بطوله، فإنه قال: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر الشامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشرقي بن قطامي، عن سعد بن طريف، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عَلَى: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَيَنْ مَّا يَشْتَهُونَ...﴾ إلى آخر الآية، قال: كان رجل من بني إسرائيل فاتحاً أي: فتح الله تعالى له مالا، فمات فورثه ابن له تافه؛ أي: فاسد، فكان يعمل في مال الله تعالى بمعاصي الله تعالى عز وجل، فلما رأى ذلك أخوات أبيه، أتوا الفتى فعذلوه ولاموه، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت^(١)، ثم رحل فأتى عيناً ثجاجة^(٢) فسرّح فيها ماله وابنتى قصرأ، فبينما هو ذات يوم جالس إذ حملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجأ؛ أي: ريحاً، فقالت: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل، قالت: فلك هذا القصر وهذا المال؟ فقال: نعم. قالت: فهل لك من زوجة؟ قال: لا. قالت: فكيف يهنيك العيش ولا زوجة لك؟ قال: قد كان ذاك، قال: فهل لك من بعل؟ قالت: لا، قال: فهل لك إلا أن أتزوجك؟ قالت: إني امرأة منك على مسيرة ميل^(٣)، فإذا كان الغد فتزود زاد يوم واثنتي، وإن رأيت في طريقك هولاً فلا يهولنك، فلما كان من الغد تزود زاد يوم وانطلق، فأنتهى إلى قصر فقرع رتاجه^(٤)، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجأ؛ أي: ريحاً، فقال: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا الإسرائيلي، قال: فما حاجتك؟ قال: دعنتي صاحبة القصر إلى نفسها، قال: صدقت، قال: فهل رأيت في الطريق هولاً؟ قال: نعم ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس علي لهالني الذي رأيت، قال: ما رأيت؟ قال: أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بكلبة فاتحة فاهها، ففزعت فوثبت فإذا أنا من ورائها، وإذا جراؤها^(٥) ينبحن من بطنها، فقال له الشاب: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويسرهم حديثه، قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بمائة عنز حُفَل^(٦)، وإذا فيها جدي يمصها، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة، فقال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان ملك يجمع صامت الناس كلهم حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة، قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر فأعجبني غصن من شجرة منها ناضرة، فأردت قطعه فنادتني شجرة أخرى: يا عبد الله منا فخذ حتى ناداني الشجر أجمع يا عبد الله مني فخذ، فقال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان يقل الرجال ويكثر النساء حتى أن الرجل ليخطب المرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن، قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل، فإذا أنا برجل قائم

(١) أي: الذهب والفضة.

(٢) الميل يساوي ١٨٤٨ متراً (المقادير في الفقه الإسلامي ص ٧٠).

(٤) أي: الباب الضخم.

(٥) أي: أولادها.

(٦) أي: كثيرة اللبن.

على عين يغرف لكل إنسان من الماء، فإذا تصدعوا^(١) عنه صَبَّ في جرتِه فلم تعلق جرتِه من الماء بشيء، قال: لست تدرك هذا، هذا يكون في آخر الزمان القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله تعالى، قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعز وإذا يقوم قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها، وإذا رجل قد أخذ بذنبها، وإذا راكب قد ركبها، وإذا رجل يحتلبها، فقال: أما العز فهي الدنيا، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها، وأما الذي أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً، وأما الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه، وأما الذي ركبها فقد تركها، وأما الذي يحلبها فبخ بخ^(٢) ذهب ذلك بها.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل يمتح على قلب كلما أخرج دلوه صبه في الحوض فانساب الماء راجعاً إلى القلب^(٣)، قال: هذا رجل ردَّ الله عليه صالح عمله فلم يقبله، قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل يبذر بذراً فيستحصد فإذا حنطة طيبة، قال: هذا رجل قبل الله صالح عمله وأزكا له.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل مستلق على قفاه، قال: يا عبد الله ادن مني فخذ بيدي وأقعدني، فوالله ما قعدت منذ خلقتني الله تعالى، فأخذت بيده، فقام يسعى حتى ما أراه، فقال له الفتى: هذا عمر الأبعد نفد، أنا ملك الموت، وأنا المرأة التي أتتك أمرني الله تعالى بقبض روح الأبعد في هذا المكان، ثم أصيره إلى نار جهنم، قال: ففيه نزلت هذه الآية ﴿وَجِلَّ يَلِيْنَهُمْ وَيَلِيْنٌ مَا يَشْتَهُونَ﴾ الآية^(٤)، هذا أثر غريب وفي صحته نظر، وتنزيل الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا، كما جرى لهذا المغرور المفتون، ذهب يطلب مراده فجاءه ملك الموت فجأة بغتة وحيل بينه وبين ما يشتهي.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسول لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) [غافر].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب، قال قتادة إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه. آخر تفسير سورة سبأ والله الحمد والمنة.

(٢) بخ بخ: كلمة تُقال عند المدح.

(١) أي: ذهبوا.

(٣) أي: البثر.

(٤) هذا الحديث موضوع من وضع سعد بن طريف وهو الإسكاف متهم بالوضع كما في التقريب.

سُوْرَةُ فَاطِمَةَ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَى وَتَلَتْ وَرُبِعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

قال سفيان الثوري: عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها؛ أي: بدأتها^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه أيضاً: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بديع السموات والأرض^(٢). وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض، فهو خالق السموات والأرض^(٣).

وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا﴾ أي: بينه وبين أنبيائه ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ﴾ أي: يطرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَّتَنَى وَتَلَتْ وَرُبِعَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب^(٤)، ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء^(٥). وقال الزهري وابن جريج في قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: حسن الصوت^(٦)، رواه عن الزهري البخاري في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره، وقرئ في الشاذ (يزيد في الحلق) بالحاء

(١) أخرجه البُستي من طريق سفيان الثوري به وكذا أبو عبيد القاسم بن سلام (فضائل القرآن ص ٢٠٦)، وحسنه الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف، سورة فاطر.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٤) تقدم تخريجه في مطلع تفسير سورة الإسراء.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه البيهقي من طريق صالح الناجي عن ابن جريج عن ابن شهاب الزهري. (شعب الإيمان ١/٣٥٥ رقم ١١٤) وفيه صالح الناجي ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح والتعديل ٤/٤٠٤)، وأخرجه البخاري من طريق صالح الناجي به. ثم قال: ذهبت أنا ومسلم إلى صالح فسألناه، فقال: لا أحفظ هذا عن ابن جريج، ولكن بلغني عن مقاتل بن حيان. (التاريخ الكبير ٢/٢٩٢).

المهملة^(١)، والله أعلم.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مغيرة، أخبرنا عامر، عن [وراد]^(٢) مولى المغيرة بن شعبة قال: إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة: اكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ، فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وسمعتة ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومنع وهات^(٣)، وأخرجاه من طرق عن [وراد]^(٤) به^(٥).

وثبت في صحيح مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٦). وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] ولها نظائر كثيرة.

وقال الإمام مالك رحمه الله عليه: كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول: مُطَرْنَا بِنُوءِ الْفَتْحِ، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٧)، ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب عنه^(٨).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَافٌ تُؤَفَّكُونَ﴾.

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في أفراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكَذَلِكَ فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا

(١) وهي قراءة على التفسير.

(٢) كذا في (حم) و(مح) والمسنَد، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «وارد».

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسنَد ٣٠/١٦٩ ح ١٨٢٣٢) وصححه محققوه.

(٤) كذا في (حم) و(مح) والصحيحين، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «وارد».

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٧.

(٦) صحيح مسلم، الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع (ح ٤٧٧).

(٧) أخرجه الإمام مالك بلاغاً عن أبي هريرة رضي الله عنه (الموطأ، الاستسقاء، باب الاستمطار بالنجوم ١/١٩٢ ح ٦٦). وسنده ضعيف لاقطاعه.

(٨) سنده ضعيف كسابقه.

قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُوَفَّكُونَ﴾ أي: فكيف توفكون بعد هذا البيان، ووضح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان.

﴿وَأَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾ (١) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَنَكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٢) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٣).

ويقول تبارك وتعالى: وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿وَأَن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾ أي: وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء. ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: المعاد كائن لا محالة ﴿فَلَا تَعْرَنَكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان قاله ابن عباس عليه السلام (١)؛ أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفك، وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان: ﴿فَلَا تَعْرَنَكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [٣٣].

وقال مالك: عن زيد بن أسلم هو الشيطان (٢). كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿يَنبَغِي سِوَرٌ لَّمْ يَأْتِ بِأُتَى فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِّن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (١٤) [الحديد]. ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إنما يقصد أن يضللكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان وأن يرزقنا اتباع كتاب الله، والاقتفاء بطريق رسله، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف]. [وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول: إنما عادت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه] (٣).

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِن لَّمْ يَضِلُّ مِّن يَّسَاءٍ وَيَهْدَىٰ مِّن يَّسَاءٍ فَلَا تَذَهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨).

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) سنده صحيح.

(٣) زيادة من (حم).

شديد، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب ﴿وَأَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير. ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة، لا حيلة لك فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بقدره كان ذلك ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أي: لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني أو ربيعة، عن عبد الله بن الدليمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وهو في حائط بالطائف يقال له: الوهط^(١)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ومن أخطأه منه ضلَّ، فلذلك أقول جفَّ العلم على ما علم الله ﷻ»^(٢).

ثم قال: حدثنا محمد بن عبدة القزويني، حدثنا حسان بن حسان البصري، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا يحيى بن معن، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شريحيل، عن زيد بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله الذي يهدي من الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب»^(٣). وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبَّثَ مَحَابِبًا فَسَفَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّتًى فَلَحِينًا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾^(١) من كان يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها

(١) وسميت منطقة الوهط نسبة لهذا الحائط وهو مزرعة كانت لعمر بن العاص رضي الله عنه، ولا تزال هذه المنطقة موجودة بين الطائف والشفاء.

(٢) أخرجه الترمذي من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمر الشيباني به وحسنه (السنن، الإيمان، باب ما جاء، في افتراق هذه الأمة ح ٢٦٤٢)، وأخرجه الحاكم من طريق الأوزاعي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/ ٣٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ١٠٧٦).

(٣) سنده ضعيف جداً لجهالة إبراهيم بن بشر وغير ذلك (الجرح والتعديل ٢/ ٩٠)، وأخرجه البخاري من طريق حسان بن حسان به ثم قال: وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ولا يعرف سماع بعضهم من بعض. ولا أصل له (التاريخ الصغير ١/ ٢٥٠) ولهذا استغربه الحافظ ابن كثير.

السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿أَهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهيج﴾ [الحج: ٥]، كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً [يعم] ^(١) الأرض جميعاً، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ولهذا جاء في الصحيح: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب» منه خلق ومنه يركب ^(٢) ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ وتقدم في الحج حديث أبي رزين قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال ﷺ: «يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً؟ قلت: بلى، قال ﷺ: «فكذلك يحيي الله الموتى» ^(٣).

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٦٥]، وقال: ﴿وَالِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

قال مجاهد: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان ^(٤) ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾.

وقال قتادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي: فليتعزز بطاعة الله ﷻ ^(٥)، وقيل: من كان يريد علم العزة لمن هي ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ وحكاها ابن جرير.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يعني: الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، أخبرني جعفر بن عون، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، عن عبد الله بن المخارق، عن أبيه المخارق بن سليم قال: قال لنا عبد الله هو ابن مسعود ﷺ: إذا حدثناكم بحديث أتييناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى، إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا واستغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الله ﷻ، ثم قرأ عبد الله ﷺ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ^(٦).

وحدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا سعيد الجريري، عن عبد الله بن شقيق

(١) كذا في (حم)، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «نعم». (٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة المؤمنون آية ١٤.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الحج آية ٦.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده عبد الله بن المخارق سكت عنه البخاري في التاريخ الكبير وكذا ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٢٥).

قال: قال كعب الأحبار: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر لدويًا حول العرش كدوي النحل يذكرن لصاحبهنَّ والعمل الصالح في الخزان^(١). وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار رحمة الله عليه، وقد روي مرفوعاً.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا موسى يعني ابن مسلم الطحان، عن عون بن عبد الله، عن أبيه أو عن أخيه، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرن من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميد وتهليله، يتعاطفن حول العرش لهنَّ دوي كدوي النحل، يذكرن بصاحبهنَّ، ألا يُحبُّ أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يُذكر به؟»^(٢) وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بشر خلف، عن يحيى بن سعيد القطان، عن موسى بن أبي عيسى الطحان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن أبيه أو عن أخيه، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه به^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: الكلم الطيب ذكر الله تعالى، يصعد به إلى الله ﷻ، والعمل الصالح أداء الفريضة، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله وذكر الله تعالى به إلى الله ﷻ، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رُدَّ كلامه على عمله، فكان أولى به^(٤)، وكذا قال مجاهد: العمل الصالح يرفعه الكلام الطيب^(٥)، وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعي والضحاك والسدي والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد^(٦).

وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام.

وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل^(٧).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوفَاتِ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب: هم المراءون بأعمالهم^(٨)؛ يعني: يمكرون بالناس يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بغضاء إلى الله ﷻ يراؤون بأعمالهم ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وصححه سننه الحافظ ابن كثير إلى كعب الأحبار، لكنه مرسل إلا أنه يتقوى بالشواهد التالية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٠/٣١٢ ح ١٨٣٦٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح. اهـ. وصححه الألباني كما يلي.

(٣) السنن، الأدب، باب فضل التسبيح (ح ٣٨٠٩) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٠٧١).

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٦) أخرجه البستي بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية، وأخرجه البستي من طريق ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب وليث فيه مقال ويتقوى بسابقه ولاحقه، وقول الضحاك أخرجه ابن المبارك بسند حسن من طريق أبي سنان عنه (الزهد رقم ٩٠).

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن الحسن وقتادة.

(٨) أخرجه البستي والبيهقي (شعب الإيمان رقم ٦٨٤٥) بسند حسن من طريق سعيد بن سنان عن مجاهد، وأخرجه البستي والطبري كلاهما من طريق ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب، وليث فيه مقال ويتقوى بسابقه، وقول سعيد بن جبير عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون^(١)، والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أباها الله تعالى على صفحات وجهه وفلمات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفلسون فلا يروج ذلك عليهم، بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ابتداء خلق أبيكم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ذكراً وأنثى، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها. وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا تَرْضَاؤُكُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُنْتَعَالِ ﴿٩﴾ [الرعد].

وقوله: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس.

قال ابن جرير: وهذا كقولهم عندي: ثوب ونصفه؛ أي: هو ونصف ثوب آخر^(٢). وروي من طريق العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقول: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالح العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذين كتبت له، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده^(٣)، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم^(٤).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه ﴿وَمَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد؟ فهذا هذا^(٥).

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) ذكره الطبري بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بما يليه.

(٤) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

وقال قتادة: والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة^(١).

وقال مجاهد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره. فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ^(٢)، وقال بعضهم: بل معناه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكتب من الأجل^(٣) ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه، نقله ابن جرير، عن أبي مالك^(٤)، وإليه ذهب السدي وعطاء الخراساني^(٥)، واختار ابن جرير الأول، وهو كما قال.

وقال النسائي عند تفسير هذا الآية الكريمة: حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان قال: سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه». وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الأيلي به^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الوليد بن الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح، حدثنا عثمان بن عطاء^(٧)، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربعي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد، فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر»^(٨).

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل للجميع، لا يخفى عليه منه شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَتَتَنَفَّوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٧).

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه لأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار وال عمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مُر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعافاً مرة، ولهذا قال:

(١) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم. (٢) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٣) نسبه السيوطي إلى عبد وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حصين عن أبي مالك.

(٥) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم. (٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٢٧.

(٧) كذا في النسخ الخطية والمطبوعة، وفي الضعفاء الكبير (١٣٤/٢) والكامل لابن عدي (١١٣٣/٣) ورد باسم سليمان بن عطاء فقد أخرجاه من طريق سليمان بن عطاء به، وقال العقيلي لا يتابع عليه بهذا اللفظ.

(٨) سنده ضعيف سواء كان عثمان بن عطاء أو سليمان بن عطاء فكلاهما ضعيف.

﴿وَهَذَا يُلْقِ أَحَبُّ﴾ أي: مُر. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما قال ﷺ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الذَّلُؤُ وَالْمَرْحَاتُ ۖ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿[الرحمن].﴾

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَنَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسمم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره.

وقال مجاهد: تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام.

وقوله جلّ وعلا: ﴿لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيرها لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تصرفون فيه كيف شئتم، تذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخير الليل بظلامه، والنهار بضياءه، وبأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الربّ العظيم الذي لا إله غيره ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من ترعون من الملائكة المقربين.

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس ؓ ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم: القطمير هو: اللفافة التي تكون على نواة التمرة^(١)؛ أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم، لأنها جماد لا أرواح فيها، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرّون على شيء مما يطلبون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وإذا حُشِرَ

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

النَّاسُ كَانُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْنُنْكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها.

قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى^(١)، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتَ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْشَاةٍ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿٩﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتَ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشعره.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٦﴾﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْشَاةٍ﴾ أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي: وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباهاً أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله.

قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْشَاةٍ﴾ الآية، قال: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا ربِّ سل هذا لم كان يغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يردّه إلى منزل دون منزله، وهو في النار، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول: يا بُني؛ أي والد كنت لك، فيشني خيراً، فيقول له: يا بُني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكنني أتخوف مثلما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، ثم يتعلق بزوجه فيقول: يا فلانة، أو يا هذه؛ أي: زوج كنت لك؟ فتشني خيراً، فتقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لي لعلني أنجو بها مما ترين، قال: فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكنني لا أطيق أن أعطيك شيئاً، إني أتخوف مثل الذي تتخوف. يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوْشَاةٍ﴾ الآية، ويقول تبارك وتعالى: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ [القمان: ٣٣]، ويقول

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾ [عبس] رواه ابن أبي حاتم رحمته الله، عن أبي عبد الله الطهراني، عن حفص بن عمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة به ^(١).

ثم قال: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهي، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٨﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٩﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٣٠﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٣١﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٣٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالنَّزِيرِ ﴿٣٤﴾ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي يَدُوهُ فِي النَّارِ كَمَن مَّتَلَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال رحمته الله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فالؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿وَوَيْلٌ لِّمَنِ يَحْضُرُ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والإنقياد لها. ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذي كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي

المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات ﴿وَالزُّبُرُ﴾ وهي الكتب ﴿وَالْكِتَابَ الْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم؛ أي: بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ﴾ أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفة ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَعَتْ مِنَ آغْطٍ وَزَرْعٍ وَنَجِدٌ صَوَانٌ وَغَيْرُ صَوَانٍ يُسْتَقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفِضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمرة، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة، مختلفة الألوان أيضاً قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجدد الطرائق^(١)، وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي ومنها ﴿وَعَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال عكرمة: الغرابيب الجبال الطوال السود، وكذا قال أبو مالك وعطاء الخراساني وقتادة^(٢).

وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غريب^(٣)، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وَعَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: سود غرابيب، وفيما قاله نظر.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب، وهو كل ما دب على القوائم، والأنعام، من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم^(٤) في غاية السواد وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ خِلَافُ أَسِنَّكُمْ وَأَوْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا عبد الله بن عمر بن

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٢) قول أبي مالك نسبة السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٣) ذكره الطبري بنحوه. (٤) أي: الأعاجم الذين لا يُفصحون.

أبان بن صالح، حدثنا زياد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصغ ربك؟ قال ﷺ: «نعم صبغاً لا ينقض أحمر وأصفر وأبيض»^(١). وروي مرسلًا وموقوفًا، والله أعلم. ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير^(٢).

وقال ابن لهيعة: عن ابن أبي عمرة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحلّ حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله^(٣).

وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله ﷻ^(٤).

وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ^(٥).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية^(٦).

وقال أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب، عن مالك قال: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب^(٧). قال أحمد بن صالح المصري: معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية، وإنما العلم الذي فرض الله ﷻ أن يتبع، فإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فهذا، لا يدرك إلا بالرواية، ويكون تأويل قوله: نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه.

وقال سفيان الثوري: عن أبي حيان التيمي، عن رجل قال: كان يقال العلماء ثلاثة: عالم بالله، عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله، ليس بعالم بالله، فالعالم

(١) أخرجه البزار بسنده ومثله ثم قال: لا نعلم أحداً أسنده عن ابن عباس إلا زياد بن عبد الله (المسند ح ٢٩٤٤) قال الهيثمي: فيه عطاء بن السائب وقد اختلط (مجمع الزوائد ١٢٨/٥)، وفيه أيضاً، زياد بن عبد الله وهو النمري: ضعيف (التقريب ص ٢٢٠).

(٢) أخرجه الطبري واللالكائي (السنة رقم ٩٤٥) كلاهما بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) في سننه ابن لهيعة فيه مقال. (٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وعبد بن حميد.

(٦) أخرجه ابن عدي (الكامل في الضعفاء ٣٨/١)، والطبراني (المعجم الكبير ح ٨٥٣٤) كلاهما من طريق عون عن ابن مسعود، وسنده منقطع لأن عوناً لم يسمع من ابن مسعود.

(٧) سننه صحيح.

بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس العالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله ﷻ^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٩).

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: يرجون ثواباً عند الله لا بدّ من حصوله، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿إِنَّهُمْ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم.

قال قتادة: كان مُطَرِّفٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء^(٢).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا سالم بن غيلان قال: إنه سمع دراجاً أبا السمع يحدث عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أثنى عليه بسبعة أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه بسبعة أضعاف من الشر لم يعمله»^(٣). غريب جداً.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣٩).

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة بصدقها كما شهدت له بالتنويه، وأنه منزل من ربّ العالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: هو خبير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ إِنَّ اللَّهَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٩).

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

(١) في سنده إبهام شيخ أبي حيان التيمي، وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق معتمر عن أبيه عن قتادة به.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٣٨) وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم.

لِنَفْسِهِ. وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات.
 ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات
 ويفعل بعض المكروهات.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات
 والمكروهات وبعض المباحات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
 عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم
 يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب^(١).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح وعبد الرحمن بن معاوية العتيبي
 قالوا: حدثنا أبو الطاهر بن السرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، حدثنا ابن جريج،
 عن عطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: «شفاعتي لأهل الكبائر من
 أمتي».

قال ابن عباس ﷺ: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة
 برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعه محمد ﷺ»^(٢). وكذا روي
 عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج
 وتقصير.

وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن
 عمرو، عن ابن عباس ﷺ فممنهم ظالم لنفسه قال: هو الكافر^(٣). وكذا روى عنه عكرمة، وبه
 قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير^(٤).

وقال ابن أبي نجیح: عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: هم أصحاب
 المشأمة^(٥).

وقال مالك، عن زيد بن أسلم، والحسن وقتادة: هو المنافق^(٦).

ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول

(١) أخرجه الطبري والبيهقي (البعث رقم ٧٣) كلاهما بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ١٨٩/١١ ح ١١٤٥٤) وسنده موضوع لأن موسى بن عبد الرحمن
 الصنعاني وضع على ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس كتاباً في التفسير. وهذا الحديث من ذلك (ينظر
 لسان الميزان ١٢٤/٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق والبخاري من طريق ابن عيينة به، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر حسين بن واقد عن يزيد عن عكرمة.

(٥) أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح به.

(٦) خبر مالك بسنده صحيح وخبر الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وخبر قتادة أخرجه
 الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

سورة الواقعة وآخرها^(١)، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر.

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الوليد بن العيزار أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدث، عن رجل من كنانة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة»^(٢) هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسم، وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شعبة به نحوه^(٣). ومعنى قوله: بمنزلة واحدة؛ أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة.

الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضمرة، عن موسى بن عقبة، عن علي بن عبد الله الأزدي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذي يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذي يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلاقاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ٢٥ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٢٥ ^(٤) [فاطر].

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن، ثم يدخل الجنة^(٥).

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء رضي الله عنه، فقال: اللهم آنس وحشتي، وارحم غربتي ويسر لي

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى بقول الحسن وقتادة فقد أخرجهما الطبري وعبد الرزاق بسند صحيح كما تقدم في الرواية السابقة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٨/٢٧١ ح ١١٧٤٥)، وضعف سنده محققوه لإبهام الرجل من ثقيف. اهـ. وأخرجه الترمذي من طريق محمد بن جعفر به (السنن، التفسير، باب ومن سورة الملائكة ح ٣٢٢٣).

(٣) أخرجه الطبري من طريق شعبة به وسنده كسابقه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٦/٥٨ ح ٢١٧٢٧) وضعف سنده محققوه لانقطاعه بين علي بن عبد الله وأبي الدرداء، وفي رواية البخاري في التاريخ الكبير ١٨/٩ بينهما أبو خالد البكري، ولم يتيبوا من هو.

(٥) سنده ضعيف لإبهام شيخ الأعمش، ويتقوى بما يليه.

جليساً صالحاً، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه وذكر هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(١).

الحديث الثالث: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا ابن مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة»^(٢).

الحديث الرابع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عزيز، حدثنا سلامة، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يحصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون: لا إله إلا الله وحده، يقول الله تعالى: صدقوا لا إله إلا أنا أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده، واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلْيَحْزَنْ أَقْضَاهُمْ وَأَقْضَالاً مَعَ أَقْضَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فجعلهم ثلاثة أنواع، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يحص ويكشف»^(٣) غريب جداً.

أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال ابن جرير: حدثني ابن حميد، حدثنا الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس، عن عبد الله بن عيسى، عن يزيد بن الحارث، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله ﷻ: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً، فيقول الرب ﷻ: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية^(٤).

(١) أخرجه الطبري من طريق سفيان الثوري به، وسقط من السند شيخ الأعمش وهو منذر الثوري فقد أخرجه البستي من طريق سفيان الثوري عن الأعمش عن منذر الثوري قال: ذكر أبو ثابت. وسنده صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ١٦٧/١ ح ٤١٠)، قال الهيثمي: وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ (مجمع الزوائد ٩٦/٧).

(٣) أخرجه الطبراني من طريق محمد بن عزيز به (المعجم الكبير ١٨/٨٠)، قال الهيثمي: فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقي رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٩٦/٧).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

أثر آخر: قال أبو داود الطيالسي: عن الصلت بن دينار بن الأشعث^(١)، عن عقبة بن صهبان الهنائي، قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية، فقالت لي: يا بني هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، قال: فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا، وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام^(٢).

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قال: هي لأهل بدونا ومقتصدنا أهل حضرنا، وسابقنا أهل الجهاد^(٣)، رواه ابن أبي حاتم.

وقال عوف الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: حدثنا كعب الأحبار رحمة الله عليه، قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قال: فهؤلاء أهل النار^(٤).

رواه ابن جرير من طرق عن عوف به ثم قال: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، أخبرنا حميد، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه قال: إن ابن عباس رضي الله عنه سأل كعباً عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿يُؤْذِنُ اللَّهُ﴾ قال: تماسّت مناكبهم وربّ كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم^(٥).

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية، قال أبو إسحاق: أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج^(٦). ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا الحكم، حدثنا عمرو، عن محمد ابن الحنفية رضي الله عنه قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله^(٧). ورواه الثوري، عن إسماعيل بن

(١) كذا في النسخ الخطية: ابن الأشعث، وفي مسند الطيالسي: أبو شعيب.

(٢) أخرجه الطيالسي بسنده ومثته (المسند ص ٢٠٩ رقم ١٤٨٩)، وسنده ضعيف جداً لأن الصلت بن دينار متروك، فقد أخرجه الطبراني من طريق الصلت بن دينار به (المعجم الأوسط ٦/١٦٧ ح ٦٠٩٤) وقال الهيثمي فيه الصلت بن دينار وهو متروك (مجمع الزوائد ٩٧/٧)، وأخرجه الحاكم من طريق الصلت به وصححه وتعقبه الذهبي بأن الصلت ليس بثقة (المستدرک ٢/٤٢٧).

(٣) أخرجه البستي من طريق ابن المبارك به، وسنده معضل.

(٤) أخرجه الطبري من طريق عوف به، وسنده مرسل.

(٥) أخرجه الطبري وسنده كسابقة.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته وفي سننه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده كسابقة.

سميع، عن رجل، عن محمد ابن الحنفية عليه السلام بنحوه^(١).

وقال أبو الجارود: سألت محمد بن علي - يعني الباقر - عن قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فقال: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام. وإذا تقرر هذا، فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد رحمته الله، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء عليه السلام وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال عليه السلام: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيها علماً، سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»^(٢). وأخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث كثير بن قيس^(٣)، ومنهم من يقول قيس بن كثير، عن أبي الدرداء عليه السلام، وقد ذكرنا طرقة واختلاف الرواة فيه في شرح كتاب العلم من صحيح البخاري، والله الحمد والمنة.

وقد تقدم في أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء: إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»^(٤).

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝۳۳ وَقَالُوا لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝۳۴ الَّذِي أَطْلَأَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝۳۵﴾.

يخبر تعالى أن ماوى هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأوهم جنات عدن؛ أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله صلى الله عليه وسلم: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن

(١) في سنده إبهام شيخ إسماعيل بن سميع.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٦/٣٦ ح ٢١٧١٥) قال محققوه: حسن لغيره. اهـ. وصححه الألباني كما يلي.

(٣) سنن أبي داود، العلم، باب فضل العلم (ح ٣٦٤١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (ح ٣٠٩٦)، وسنن الترمذي، العلم، باب ما جاء في فضل الفقه في طلب العلم (ح ٢٦٨٢)، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (ح ٢٢٣).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة طه آية ٢.

رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(١).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» وقال: «هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سواد السرحي، أخبرنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة ؓ قال: إن أبا أمامة ؓ حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم، وذكر حلي أهل الجنة فقال: «مُسَوَّرُونَ بالذهب والفضة مَكَلَّلَةٌ بالدرّ، وعليهم أكاليل من درّ وياقوت متواصلة، وعليهم تاج كتاج الملوك، شباب جرد مُرد مكحلون»^(٣) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: عن أبيه، عن ابن عمر ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»^(٤) رواه ابن أبي حاتم من حديثه.

وقال الطبراني: حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا موسى بن يحيى المروزي، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور»^(٥).

قال ابن عباس ؓ وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات^(٦) ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل»^(٧).

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء. والنصب

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الحج آية ٢٣. (٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الحج آية ٢٣.

(٣) سنده ضعيف لأن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ؓ.

(٤) سنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأخرجه ابن عدي من الطريق نفسه وأعله بعبد الرحمن بن زيد (الكامل ٢٧١/٤)، وقال المنذري: في متنه نكارة (الترغيب والترهيب ٤١٦/٢).

(٥) نسبه الهيثمي إلى الطبراني وقال: وفيه جماعة لم أعرفهم (مجمع الزوائد ٣٣٣/١٠).

(٦) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم بنحوه.

(٧) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ؓ (صحيح البخاري، المرضي، باب تمنى المريض الموت ح ٥٦٧٣، وصحيح مسلم، صفات المنافقين وأحكامهم ح ٢٨١٦).

واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم، أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يدبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَىٰ﴾ [الحاقة].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [٣٦] وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَّلَ نَعْمَرَكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [٣٧].

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون»^(١) وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ﴾ [٧٤] لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُّخْلِسونَ [٧٥] [الزخرف: ٧٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَرِيَكُمُ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٢٠]، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

وقوله جَلَّتْ عِظْمَتُهُ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها يجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الربُّ جلَّ جلاله أنه لو رُدَّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [١١] ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا [غافر: ١١، ١٢] أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتهم عنه، ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَّلَ نَعْمَرَكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة.

وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر قد نزلت هذه الآية ﴿أَوَّلَ نَعْمَرَكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ وإن فيهم لابن ثمانين عشرة سنة^(٢)، وكذا قال أبو غالب الشيباني.

(١) صحيح مسلم، الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (ح ١٨٥).

(٢) نسبة السيوطي إلى عبد بن حميد.

وقال عبد الله بن المبارك: عن معمر، عن رجل، عن وهب بن منبه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ قال: عشرين سنة^(١).

وقال هشيم، عن منصور: عن زاذان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ قال: أربعين سنة^(٢).

وقال هشيم أيضاً: عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق أنه كان يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله ﷻ^(٣)، وهذه رواية عن ابن عباس ﷺ فيما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس ﷺ يقول: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ أربعون سنة^(٤)، هكذا رواه من هذا الوجه عن ابن عباس ﷺ به، وهذا القول هو اختيار ابن جرير، ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن مجاهد، عن ابن عباس ﷺ قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ ستون سنة^(٥)، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ﷺ، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث كما سنورده، لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك، لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره^(٦).

وقد روى أصبغ بن نباتة، عن علي ﷺ أنه قال: العمر الذي غيرهم الله به في قوله: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ ستون سنة^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا دحيم، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن أبي حسين المكي، أنه حدثه عن عطاء هو ابن رباح، عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، قيل: أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله تعالى فيه ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾»^(٨). وكذا رواه ابن جرير عن علي بن شعيب، عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك به^(٩)، وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي فديك به^(١٠)، وهذا الحديث فيه نظر لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن رجل من بني غفار،

(١) سنده ضعيف لإبهام شيخ معمر. (٢) في سنده زاذان لين الحديث (التقريب ص ٦٨٤).

(٣) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وفي سنده مجالد فيه مقال.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح وقال الحافظ ابن كثير فهذه الرواية أصح.

(٦) ذكره الطبري بنحوه.

(٧) سنده ضعيف جداً لأن أصبغ بن نباتة متروك (التقريب ص ١١٣).

(٨) أعله الحافظ ابن كثير بإبراهيم بن الفضل، وضعفه الهيثمي (مجمع الزوائد ٩٧/٧).

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده كسابقه.

(١٠) أخرجه الطبراني من طريق إبراهيم بن الفضل به (المعجم الكبير ١٧٧/١١ ح ١١٤١٥) وسنده كسابقه.

عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياء حتى بلغ الستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه»^(١). وهكذا رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه: حدثنا عبد السلام بن مطهر، عن عمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله ﷻ إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة» ثم قال البخاري: تابعه أبو حازم وابن عجلان، عن سعيد المقبري^(٢).

فأما أبو حازم فقال ابن جرير: حدثنا أبو صالح الفزاري، حدثنا محمد بن سوار، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القادر، أي: الإسكندري، حدثنا أبو حازم، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عمّره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر»^(٣) وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعاً عن قتيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمن به^(٤).

ورواه البزار قال: حدثنا هشام بن يونس، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «العمر الذي أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم ستون سنة» يعني: «أَوَّلُ نَعْمَتِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ»^(٥).

وأما متابعة ابن عجلان فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قرعة بسامراء، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله ﷻ إليه في العمر»^(٦). وكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ به^(٧)، ورواه أحمد أيضاً، عن خلف، عن أبي معشر، عن أبي سعيد المقبري^(٨).

طريق أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال ابن جرير: حدثني أحمد بن الفرّج أبو عتبة الحمصي، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا المطرف بن مازن الكناني، حدثني معمر بن راشد قال: سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفاري يقول: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد أعذر الله ﷻ في العمر إلى صاحب الستين والسبعين»^(٩). فقد صحّ هذا الحديث من هذه

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢/٢٧٥) وسنده ضعيف لإبهام شيخ معمر، ويتقوى بما يليه.
(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله وتعليقه (الصحيح، الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر ح ٦٤١٩).

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وسنده صحيح.
(٤) المسند ٢/٤١٧، ورواية النسائي ذكرها المزي (تحفة الأشراف ٩/٤٧٢).

(٥) أخرجه البيهقي من طريق عبد العزيز بن أبي حازم به (السنن الكبرى ٣/٣٧٠) وفي سنده أبو حازم المدني مقبول كما في التقريب ولعله هو الذي زاد ذكر الآية ويشهد له ما سبق دون ذكر الآية.

(٦) يشهد له ما سبق في صحيح البخاري. (٧) (المسند ٢/٣٢٠).

(٨) (المسند ٢/٤٠٥).

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وسنده ضعيف لضعف المطرف بن مازن (الجرح والتعديل ٨/٣١٤)، وما سبق يشهد له إلا لفظ: «والسبعين».

الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت وقول ابن جرير: إن في رجاله بعض من يجب التثبت في أمره لا يلتفت إليه من تصحيح البخاري، والله أعلم. وذكر بعضهم أن العمر الطيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إذا بلغ الفتى ستين عاماً فقد ذهب المسرة والفتاء^(١)

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث.

قال الحسن بن عرفة رحمته الله: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك». وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد عن الحسن بن عرفة به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٢). وهذا عجيب من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى عن أبي هريرة حيث قال: حدثنا سليمان بن عمرو، عن محمد بن ربيعة، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك» وقد رواه الترمذي في كتاب الزهد أيضاً عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن محمد بن ربيعة به، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٣)، وقد روي من غير وجه هذا نصه بحروفه في الموضعين، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا ابن أبي فديك، حدثني إبراهيم بن الفضل مولى بني مخزوم، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «معتك المنايا ما بين الستين إلى السبعين»^(٤) وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقل أمتي أبناء سبعين»^(٥). إسناده ضعيف.

حديث آخر في معنى ذلك: قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا إبراهيم بن مهدي، عن عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن ربيعي، عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أنبئنا بأعمار أمتك، قال رسول الله ﷺ: «ما بين الخمسين إلى الستين» قالوا: يا رسول الله فأبناء السبعين؟ قال ﷺ: «قل من يبلغها من أمتي، رحم الله أبناء السبعين، ورحم الله أبناء الثمانين» ثم قال البزار: لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر

(١) أي: الشباب.

(٢) أخرجه الترمذي (السنن، أبواب الدعوات ح ٣٥٥٠)، وابن ماجه (السنن، الزهد، باب الأمل والأجل ح ٤٢٣٦)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ح ٣٤١٤).

(٣) سنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في أعمار هذه الأمة (ح ٢٣٣١).

(٤) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ١١/٤٢٢ ح ٦٥٤٣) وسنده ضعيف لضعف إبراهيم بن الفضل المخزومي.

(٥) المصدر السابق (ح ٦٥٤٤) وسنده كسابقه.

من أهل البصرة ليس بقوي^(١)، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة^(٢)، وقيل: ستين، وقيل: خمساً وستين، والمشهور الأول، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَآءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ روي عن ابن عباس ؓ وعكرمة وأبي جعفر الباقر ؓ وقتادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني الشيب^(٣).

وقال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به رسول الله ﷺ.

وقرأ ابن زيد ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ الْأَوَّلِ﴾^(٤) [النجم].

وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسول^(٥)، وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَنَادَا بِمَلِكٍ لِّقَضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّكِيدُونَ﴾ [الزخرف] أي: لقد بينا لكم الحق على السنة والرسول فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْنِي فِيهَا فَوَجَّ سَالَمٌ خَرْنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك] قالوا بل قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلالٍ كبيرٍ^(٦) [الملك] أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الضُّمُورِ﴾^(٧) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا^(٨).

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض، وإنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله، ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم. كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين.

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ج ٣٥٨٦)، وسنده ضعيف لضعف عثمان بن مطر (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٦).

(٢) ورجحه الحافظ في: الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ ص ١٩٧، والخبر في صحيح البخاري من حديث عائشة ؓ. (الصحيح، المناقب، باب وفاة النبي ﷺ ج ٣٥٣٦).

(٣) قول ابن عباس أخرجه البيهقي بسند ضعيف فيه مجهول يروي عن ابن عباس (السنن الكبرى ٣/ ٣٧٠) وقول عكرمة عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) قول السدي عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وقول عبد الرحمن بن زيد، أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٥) سنده صحيح وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انْمَسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قاطمير.

وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانهم التي يمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال ﷻ: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انْمَسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حلیم غفور؛ أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر، وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً بل منكراً، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثني إسحاق بن إبراهيم، حدثني هشام بن يوسف، عن [أمية بن شبل] (١)، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة ربه قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه الصلاة والسلام على المنبر قال: وقع في نفس موسى عليه الصلاة والسلام: هل ينাম الله ﷻ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان، قال: ضرب الله له مثلاً أن الله ﷻ لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض (٢)، والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع بل من الإسرائيليات المنكرة، فإن موسى عليه الصلاة والسلام أجل من أن يجوز على الله ﷻ النوم، وقد أخبر الله ﷻ في كتابه العزيز بأنه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ربه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجاب النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣).

(١) كذا في ترجمته (لسان الميزان ٤٦٧/١)، وفي (حم)، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «سنبِل» وفي (مح) صحف إلى: سهل.

(٢) تقدم تخريجه وإنه منكر في تفسير سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٥٥.

وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام، قال: من لقيت؟ قال: لقيت كعباً، قال: ما حدثك؟ قال: حدثني أن السموات تدور على منكب ملك، قال: أفصده أو كذبه؟ قال: ما صدقته ولا كذبه، قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها، كذب كعب إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ انبَسَخَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ^(١). وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود رضي الله عنه.

ثم رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: ذهب جندب البجلي إلى كعب بالشام فذكر نحوه ^(٢). وقد رأيت في مصنف للفقهاء يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلي سماه (سير الفقهاء) أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع، عن وكيع، عن الأعمش به ^(٣)، ثم قال: وأخبرنا زونان؛ يعني: عبد الملك بن الحسن، عن ابن وهب، عن مالك أنه قال: السماء لا تدور، واحتج بهذه الآية، وبحديث: «إن بالمغرب باباً للتوبة لا يزال مفتوحاً حتى تطلع الشمس منه» ^(٤) قلت: وهذا الحديث في الصحيح، والله أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا قُفُورًا ۚ﴾ (٤٢) ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلَّ إِلَّا سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلَّ إِلَّا سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٤٣).

يخبر تعالى عن قريش والعرب، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل، قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً مِّنْ أَظْلَمٍ مَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنَّا عِدْنَا دُكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٦٩) فَكْفَرُوا بِهِ ۖ سَوَفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) [الصفافات].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد صلی الله علیه وسلم بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا قُفُورًا﴾ أي: ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم، ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وصححه سننه الحافظ ابن كثير، وهو كما قال، وقول كعب الأحبار رده ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري وسنده منقطع لأن إبراهيم لم يسمع من جندب.

(٣) سننه صحيح.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٥٨.

قال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحسين، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن أبي زكريا الكوفي، عن رجل حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «إياك ومكر السيء، فإنه لا يحق المكر السيء إلا بأهله، ولهم من الله طالب»^(١).

وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلن لم ينج حتى ينزل به: من مكر أو بغى أو نكث، وتصديقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣] ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(٢) [الفتح: ١٠].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: وإذا أراد الله يقوّر سوءًا فلا مردّ له^(٣) [الرعد: ١١] ولا يكشف ذلك عنهم ويحوّله عنهم أحد.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَبَدَ اللَّهُ كَأَن بَعَادِهِ بَصِيرًا﴾^(٤).

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من نعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا﴾ أي: عليهم بجميع الكائنات قدير على مجموعها، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾^(٥).

وقال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب.

(١) سنده ضعيف لتعليقه وإيهام شيخ أبي زكريا.

(٢) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع عن الثوري به (المصنف ٨/١٦٤)، وسنده صحيح، وأخرجه الحاكم من طريق أبي إسحاق السبيعي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٢٨).

﴿وَلَا يَكُن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذٍ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَكُنُ اللَّهُ لَكُمْ بِعَبَادِهِ بِصِيرًا﴾.

آخر تفسير سورة فاطر والله الحمد والمنة، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

سورة يس [وهي^(١) مكية

قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسي، عن الحسن بن صالح، عن هارون أبي محمد، عن مقاتل بن حيان، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، وهارون أبو محمد شيخ مجهول. وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ولا يصح لضعف إسناده^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه: منظور فيه، أما حديث الصديق رضي الله عنه فرواه [الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول]^{(٣)(٤)} وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فقال أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن الفضل، حدثنا زيد هو ابن الحباب، حدثنا حميد هو: المكي مولى آل علقمة، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس» ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيد، عن حميد^(٥).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا حجاج بن محمد، عن هشام بن زياد، عن الحسن قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ ﴿حَمَّ﴾^(٦) التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفور له»^(٧). إسناده جيد. وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني، حدثنا أبي، حدثنا زياد بن خيثمة، حدثنا محمد بن جحادة، عن الحسن، عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له»^(٨).

(١) زيادى من (حم) و(مح).

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومثله وتعليقه (السنن، فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل يس ح ٢٨٨٧)، وسنده ضعيف، وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: حديث باطل لا أصل له (العلل ٥٦/٢).

(٣) زيادة من (مح). (٤) نوادر الأصول (ص ٣٣٥).

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٢٣٠٤)، وسنده ضعيف لضعف حميد المكي (الكامل في الضعفاء ٢٧٤/٢).

(٦) زيادة من (حم) و(مح).

(٧) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ٩٣/١١ ح ٦٢٢٤) وضعفه محققه لضعف هشام بن زياد.

(٨) أخرجه ابن حبان بسنده ومثله (الإحسان ٣١٢/٦ ح ٢٥٧٤)، وسنده ضعيف لعدم سماع الحسن من جندب رضي الله عنه (المراسيل لابن أبي حاتم ص ٤٢).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**» [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها - أو فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، وافرؤوها على موتاكم»^(١).

وكذا رواه النسائي في اليوم واللييلة عن محمد بن عبد الأعلى، عن معتمر بن سليمان به^(٢). ثم قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا ابن المبارك، حدثنا سليمان التيمي، عن أبي عثمان وليس بالنهدي، عن أبيه، عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افرؤوها على موتاكم»؛ يعني: يس. ورواه أبو داود والنسائي في اليوم واللييلة وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به، إلا أن في رواية النسائي عن أبي عثمان، عن معقل بن يسار رضي الله عنه^(٣)، ولهذا قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح، والله تعالى أعلم.

قال الإمام أحمد رحمته الله: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: إذا قرئت - يعني يس - عند الميت خفف الله عنه بها^(٤).

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» يعني: يس^(٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ يَسْ ﴿٢﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٣﴾ إِنَّكَ لَئِنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ ﴿٦﴾ الرَّحِيمِ ﴿٧﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٨﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة أن يس بمعنى: يا إنسان^(٦). وقال سعيد بن جبيرة: هو كذلك في لغة الحبشة^(٧).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٦/٥)، وسنده ضعيف لإبهام الرجل وأبيه، ولأوله شاهد تقدم في فضائل سورة البقرة.

(٢) عمل اليوم واللييلة (ح ١٠٧٥).

(٣) تقدم تخريجه في بداية فضائل سورة البقرة.

(٤) (المسند ١٠٥/٤).

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٢٣٠٥) وسنده ضعيف لضعف إبراهيم بن الحكم بن أبان (التقريب ص ٨٩).

(٦) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، ويتقوى بالآثار التالية: فقد أخرجه البستي بسند صحيح من طريق يزيد عن عكرمة، وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن وعكرمة والضحاك كما عزاه السيوطي في الدر المنثور.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى^(١).

﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ (١) أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣) أي: على منهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٤) أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿لَنُنَذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٦) يعني بهم العرب، فإنه ما أتاها من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ولا يصدقون رسوله.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَقِهِمْ مِغْلًا فَلَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢).

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع في كلامها: وأشرب فأقمح^(٢)؛ أي: أشرب فأروي، وأرفع رأسي تهنيئا وترويا، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر^(٣):

فما أدري إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي لا يأتليني^{(٤)؟} (٥)

فاكتفى بذكر الخير عن الشر، لما دلَّ الكلام والسياق عليه، وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين.

قال العوفي، عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَقِهِمْ مِغْلًا فَلَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ

(١) سنده صحيح، وأخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (الصحيح، فضائل الصحابة، باب ذكر حديث أم زرع ح ٢٤٤٨).

(٣) هو المثقب العبدى كما في ديوانه ص ٢١٢. (٤) أي: الذي لا يقصر في طلبه.

(٥) استشهد به الفراء (معاني القرآن ٢/ ٢٧٢) والطبري.

فَهُمْ مُقَمَّحُونَ ﴿٨﴾ قال: هو كقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ ^(١) [الإسراء: ٢٩] يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يسطوها بخير.

وقال مجاهد: ﴿فَهُمْ مُقَمَّحُونَ﴾ قال: رافعي رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم ^(٢)، فهم مغلولون عن كل خير.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق ^(٣).

﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق فهم يترددون ^(٤).

وقال قتادة: في الضلالات ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَأَعَشَيْنَهُمُ﴾ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه.

قال ابن جرير: وروي عن ابن عباس ؓ أنه كان يقرأ «فأعشيناهم» بالعين المهملة من العشاء، وهو داء في العين ^(٦).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٦٧﴾﴾ [يونس] ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع ^(٧).

وقال عكرمة: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ قال: وكانوا يقولون هذا محمد، فيقول: أين هو؟ أين هو؟ لا يبصره ^(٨)، رواه ابن جرير.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها. وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه، فجعل يذرهما على رؤوسهم ويقرأ ﴿يَسْ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنَ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩﴾﴾ وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته، وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري والبستي وابن أبي حاتم (كما في تعليق التعليق ١٩٠/٥) بإسنادين يقوي أحدهما الآخر.

(٤) أخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) ذكره الطبري تعليقا بنحوه، ووصله البستي بسند ضعيف جداً فيه خارجة بن مصعب عن رجل مجهول، وخارجة متروك يدلّس عن الكذابين (التقريب ص ١٨٦).

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

(٨) أخرجه الطبري من طريق عمارة بن أبي حفصة عن عكرمة، وهو مرسل.

الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً، قال: قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب. قال: وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال: «وأنا أقول ذلك إن لهم مني لذبحاً وإنه أحدهم»^(١).

وقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٠) أي: فقد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به، وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(١٢) [يونس] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم ﴿وَرَخِصَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: كثير واسع حسن جميل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١٣) [الملك].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١٤) [الحديد].

وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: من الأعمال، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قولان: (أحدهما) نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وأثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» رواه مسلم من رواية شعبة، عن عون بن أبي جحيفة، عن المنذر بن جرير، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه^(٢). وفيه قصة مجتأبي النمار^(٣) المضريين، ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن سليمان الجعفي، عن أبي المحياة يحيى بن يعلى، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرْتَهُمْ﴾ وقد رواه مسلم من رواية أبي عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن المنذر بن جرير، عن أبيه فذكره^(٤).

وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة

(١) ذكره ابن هشام (السيرة ٢/٩٥) ولبعضه شواهد في السيرة النبوية الشريفة.

(٢) أخرجه مسلم بسنده ومثله وأطول (الصحيح، الزكاة، باب الحث على الصدقة ح ١٠١٧/٦٩).

(٣) أي: لا بسببها خارقين أوساطها.

(٤) أخرجه مسلم بسنده ومثله (المصدر السابق ١٠١٧/٧٠).

جارية من بعده»^(١).

وقال سفيان الثوري: عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: سمعت مجاهداً يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة^(٢).

وقال ابن لهيعة: عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ يعني: ما أثروا، يقول: ما سنوا من سنة فعل بها قوم من بعد موتهم، فإن كانت خيراً فلهم مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمل به شيئاً، وإن كانت شراً فعليهم مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً^(٣)، ذكرهما ابن أبي حاتم، وهذا القول هو اختيار البغوي^(٤).

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية.

قال ابن أبي نجيح وغيره، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ أعمالهم ﴿وَآثَرَهُمْ﴾ قال: خطاهم بأرجلهم^(٥)، وكذا قال الحسن وقتادة: ﴿وَآثَرَهُمْ﴾ يعني: خطاهم^(٦).

وقال قتادة: لو كان الله تعالى مُغْفِلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار^(٧)، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل. وقد وردت في هذا المعنى أحاديث:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟» قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: «يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم»^(٨). وهكذا رواه مسلم من حديث سعيد الجريري وكهمس بن الحسن، كلاهما عن أبي نضرة واسمه المنذر بن مالك بن قطعة العبدي، عن جابر رضي الله عنه به^(٩).

الحديث الثاني: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي، حدثنا إسحاق الأزرق، عن سفيان الثوري، عن أبي سفيان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد، فنزلت ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ فقال لهم النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب» فلم ينتقلوا^(١٠)، تفرد بإخراجه

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٢٨. (٢) سنده ضعيف لضعف أبي سعيد وهو البقال.

(٣) سنده حسن. (٤) معالم التنزيل ٩/٧.

(٥) أخرجه البستي والطبري بإسنادين يقوي أحدهما الآخر عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن الحسن وقتادة.

(٧) أخرجه الطبري بالسند المتقدم.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٣٣٢) وسنده صحيح.

(٩) صحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطأ إلى المساجد (ح ٦٦٥).

(١٠) في سنده أبو سفيان وهو طريف بن شهاب السعدي وهو ضعيف. (التقريب ص ٢٨٢) ويشهد له ما سبق بدون ذكر نزول الآية.

الترمذي عند تفسيره هذه الآية الكريمة عن محمد بن الوزير به، ثم قال: حسن غريب من حديث الثوري، ورواه ابن جرير، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقي، عن ابن المبارك، عن سفيان الثوري، عن طريف - وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدي - عن أبي نضرة به^(١).

وقد روي من غير طريق الثوري فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن زياد الساجي، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا شعبة، عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: إن بني سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد، فنزلت ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ فأقاموا في مكانهم.

وحدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ بنحوه^(٢)، وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية، والسورة بكاملها مكية، فالله أعلم.

الحديث الثالث: قال ابن جرير: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ فقالوا: ثبت مكاننا^(٣)، هكذا رواه، وليس فيه شيء مرفوع. ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، عن محمد بن يوسف الفريابي، عن إسرائيل، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد، فنزلت ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ فثبتوا في منازلهم^(٤).

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حيي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: توفي رجل في المدينة فصلى عليه النبي ﷺ: وقال: «يا ليتته مات في غير مولده»، فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا توفي في غير مولده، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة»^(٥)، ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى، وابن ماجه عن حرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن حيي بن عبد الله به^(٦).

(١) السنن، التفسير، باب ومن سورة يس (٣٢٢٦) وسنده كسابقه.

(٢) يشهد له ما تقدم بدون ذكر نزول الآية.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده سماك بن حرب وفي روايته عن عكرمة اضطراب. وأخرجه ابن ماجه من طريق وكيع عن إسرائيل به (السنن، المساجد والجماعات، باب الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً ح ٧٨٥) وأعله البوصيري أيضاً بسماك.

(٤) أخرجه الطبراني بسنده ومثته (المعجم الكبير ٨/١٢ ح ١٢٣١٠) وسنده كسابقه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٣٦/١١ ح ٦٦٥٦) وضعف سنده محققوه لضعف حيي بن عبد الله المعافري.

(٦) سنن النسائي، الجنائز، باب الموت بغير مولده ٧/٤، ٨، وسنن ابن ماجه، الجنائز، باب ما جاء فيمن مات غرباً (ح ١٦١٤) وسنده ضعيف كسابقه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا أبو ثُميلة، حدثنا الحسين، عن ثابت قال: مشيت مع أنس رضي الله عنه فأسرعت المشي فأخذ بيدي فمشينا رويداً، فلما قضينا الصلاة قال أنس: مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي، فقال: يا أنس أما شعرت أن الآثار تُكتب^(١)؟

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتب، فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب، قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٢)، وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] أي: بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَهُ بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرِيدُونَ بِآلِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُكُوكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

﴿وَأَضْرَبَ لَهم مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ (٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَهم لِقَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي هُمْ يُكْفَرُونَ﴾ (٦) وَمَا عَلَّمْنَا لَهم لِقَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي هُمْ يُكْفَرُونَ﴾ (٧)

ويقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنه وكعب الأحبار ووهب بن منبه: إنها مدينة أنطاكية^(٣)، وكان بها ملك يقال له: أنطيوخس بن أنطيوخس وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم صادق وصدوق [وشلوم]^(٤) فكذبهم^(٥)، وهكذا روي عن بُريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري أنها: أنطاكية^(٦)، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، ويشهد له الحديث الأول.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

(٣) مدينة من الثغور الشامية (معجم ما استعجم ٢٠٠/١).

(٤) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «شكوم».

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق بلاغاً عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه. وسنده ضعيف. وقول ابن عباس نسبة السيوطي إلى الفريابي.

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن بُريدة، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

وقال مجاهد: بالشم^(١)، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: عقوبة شديدة فقالت لهم رسلهم: ﴿طَلَبْتُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُ اللَّهَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال قوم صالح: ﴿أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَلَبْتُمْ اللَّهَ﴾ [النمل: ٤٧].

وقال قتادة ووهب بن منبه: أي: أعمالكم معكم^(٢). وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا، بل أنتم قوم مسرفون. وقال قتادة: أي إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا بل أنتم قوم مسرفون^(٣).

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَهُونَ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥) ﴿أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٧) ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ (٢٨) ﴿إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٩) ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ (٣٠).

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنه وكعب الأحبار ووهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى؛ أي: لينصرهم من قومه، قالوا: وهو حبيب، وكان يعمل الجرير وهو الحبال، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة^(٤).

وقال ابن إسحاق، عن رجل سماه، عن الحكم، عن مقسم أو عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: اسم صاحب يس حبيب، وكان الجذام قد أسرع فيه^(٥).

وقال الثوري، عن عاصم الأحول، عن أبي مجلز: كان اسمه حبيب بن سري^(٦).

وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: اسم صاحب يس حبيب النجار، فقتله قومه^(٧).

وقال السدي: كان قصاراً^(٨).

وقال عمر بن الحكم: كان إسكافاً^(٩).

(١) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن إسحاق بلاغاً عن وهب بن منبه.

(٣) أخرجه الطبري بالسند المتقدم.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق بلاغاً به، وسنده منقطع.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٦) أخرجه الثوري في تفسيره كما في فتح الباري ٦/٤٦٧ سنده حسن.

(٧) سنده حسن.

(٨) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٩) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك^(١) ﴿قَالَ يَنْفَرُوا لِمُؤَسِّلِينَ﴾ يحضُّ قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿أَتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة وهم مهتدون فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿وَالَّذِي تُرْجِعُونَ﴾ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقرير ﴿إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لَا تَغْنَى عَنْكَ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿فَلَا كَاشِفُ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس] وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٤) أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنه وكعب وهب: يقول لقومه: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كفرتم به ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قولي^(٢). ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي أرسلكم ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاشهدوا لي بذلك عنده، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم^(٣)، وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنه وكعب وهب رضي الله عنه: فلما قال ذلك، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه^(٤). وقال قتادة: جعلوا يرمونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه^(٥)، وهو يقول كذلك، فقتلوه رضي الله عنه^(٦).

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿يَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿وَمَا أَزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (٢٩).

قال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه^(٧) من دبره^(٨)، وقال الله له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها.

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة بلاغاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن إسحاق بلاغاً.

(٣) ذكره الطبري.

(٤) أخرجه الطبري بالسند الضعيف المتقدم.

(٥) أي: قتله مكانه.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه لم يذكر اسم شيخه.

(٧) أي: أمعاءه.

(٨) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به وسنده ضعيف للانقطاع.

(۵) سندھ مرسل ویتقویٰ بما سبق.

وقتلوا وليه، ويذكر ﷺ أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك. قاله ابن مسعود فيما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٢٨) أي؛ ما كثرناهم بالجموع، الأمر كان أيسر علينا من ذلك ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴾ (٢٩) قال: فأهلك الله تعالى ذلك الملك الجبار، وأهلك أهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية^(١)، وقيل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم.

وقيل المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي: من رسالة أخرى إليهم، قاله مجاهد وقتادة^(٢).

قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ (٣) ﴾. قال ابن جرير: والأول أصح؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً^(٤).

قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، كما نصّ عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ﷻ، لا من جهة المسيح ﷺ كما قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ (٧) ﴿ إِلَى أَنْ قَالَ: رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٧) [يس]، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ﷺ. والله تعالى أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [يس: ١٥].

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسول المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصاري إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بئاركة، وهن: القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البئاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين، ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده^(٥)، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخدمتهم، والله أعلم.

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف بسبب الانقطاع.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) ذكره الطبري بنحوه. (٥) أي: بثته.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رحمته الله وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ﴾^(١) [القصص: ٤٣] فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا الحسين بن أبي السري العسقلاني، حدثنا حسين الأشقر، حدثنا ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السبق ثلاثة: فالسابق إلى موسى عليه الصلاة والسلام يوشع بن نون، والسابق إلى عيسى عليه الصلاة والسلام صاحب يس، والسابق إلى محمد صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه»^(٢) فإنه حديث منكر، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر، وهو شيعي متروك.

﴿يَحْزَنُوا عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ^(٤) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ^(٥).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَحْزَنُوا عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي: يا ويل العباد^(٣). وقال قتادة: ﴿يَحْزَنُوا عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي: يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله، وفي بعض القراءات: «يا حسرة العباد على أنفسهم»^(٤)، ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله؟ وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبونه ويستهزئون به ويحجدون ما أرسل به من الحق.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٥) أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل؟ كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة؟ ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا، كما كانوا فيها، فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٦).

(١) قول أبي سعيد الخدري رحمته الله تقدم عند هذه الآية نفسها في سورة القصص.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٩٣/١١ ح ١١١٥٢) وسنده ضعيف جداً لأن حسين الأشقر: متروك.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، والقراءة شاذة تفسيرية.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٢٣) أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جلّ وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرا وشرا، ومعنى هذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف، فمنهم من قرأ «وإن كل لَمَّا» بالتخفيف فعنده أن (إن) للإثبات، ومنهم من شدد «لَمَّا»^(١) وجعل إن نافية، ولَمَّا بمعنى إلا، تقديره: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد.

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي آخِزَتَهَا وَأَخْرَجَتْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٢٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الْأَرْضُ الَّتِي﴾ أي: إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿آخِزَتَهَا وَأَخْرَجَتْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٢٤) أي: جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره، لما امتنّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس وقتادة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، واختار ابن جرير بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالا: أن ﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى الذي تقديره لياكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم؛ أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾^(٢).

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي: من زروع وثمار ونبات ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكرا وأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤١) [الذاريات].

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٢٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾.

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة، خلق الليل والنهار هذا بظلامه

(١) القراءتان متواترتان.

(٢) كذا في الأصول الخطية، والذي في تفسير الطبري بلفظ: «ومما عملته».

وهذا بضياؤه، وجعلهما يتعاقبان يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ [الأعراف: ٥٤] ولهذا قال ههنا: ﴿وَعَايَةً لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نصرمه منه، فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم»^(١). هذا هو الظاهر من الآية، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾^(٢) [الحج: ٦١]، وقد ضعف ابن جرير قول قتادة ههنا، وقال: إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية^(٣)، وهذا الذي قاله ابن جرير حق.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحملها الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون إلى العرش، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع كما جاءت بذلك الأحاديث:

قال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: «يا أبا ذرٍّ أتدري أين تغرب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾»^(٤).

حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال ﷺ: «مستقرها تحت العرش»^(٥). هكذا أورده ههنا، وقد أخرجه في أماكن متعددة، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين غربت الشمس، فقال ﷺ: «يا أبا ذرٍّ أتدري أين تذهب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «فإنها تذهب حتى تسجد بين

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٨٧.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) ذكره الطبري بنحوه.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، سورة يس، باب ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾... [يس: ٣٨ ح ٤٨٠٢].

(٥) المصدر السابق (ح ٤٨٠٣).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٥٢/٥) وسنده صحيح.

يدي ربها ﷺ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها وذلك مستقرها، ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾.

وقال سفيان الثوري: عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد، فلا يقبل منها؟ وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾»^(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قال: إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بني آدم، حتى إذا غربت سلمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها، حتى إذا كانت يوم غربت فسلمت وسجدت واستأذنت فلا يؤذن لها، فتقول إن المسير بعيد، وإني إن لا يؤذن لي لا أبلغ فتحبس ما شاء الله أن تحبس، ثم يقال لها: اطلعي من حيث غربت، قال: فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً^(٢). وقيل: المراد بمستقرها هو انتهاء سيرها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض.

والقول الثاني: أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني.

قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه^(٣)، وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه^(٤).

وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿والشمس تجري لا مستقر لها﴾^(٥)؛ أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفترو ولا تقف، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿الْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك ووقته على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال ﷺ: ﴿فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ آيَاتَ سَكَنًا

(١) أخرجه البخاري من طريق الثوري به (الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر ح ٣١٩٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثته، وفي مثته بعض ما يخالف الرواية الصحيحة المتقدمة، ولعله من قبل وهب بن جابر فإنه مقبول (التقريب ص ٥٨٤).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في كتاب «العظمة» وهو كما قال فقد أخرجه أبو الشيخ برقم ٦٤٠.

(٥) وهي قراءة شاذة تفسيرية ونسب هذه القراءة السيوطي إلى أبي عبيد في فضائله وأحمد وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس، وقد نقل القرطبي رد ابن الأنباري على من نسب هذه القراءة إلى ابن عباس وابن مسعود (الجامع لأحكام القرآن ٢٨/١٥).

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد بمعناه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال: ذلك ليلة الهلال^(١).

وروى ابن أبي حاتم ههنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال: إن للريح جناحاً، وإن القمر يأوي إلى غلاف من الماء.

وقال الثوري: عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح: لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا^(٢).

وقال عكرمة في قوله ﷺ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يعني: أن لكل منهما سلطاناً! فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل.

وقال الضحاك: لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا، وأوماً بيده إلى المشرق^(٤).

وقال مجاهد: ﴿وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يطلبان حثيثين يسليخ أحدهما من الآخر^(٥)، والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني: الليل والنهار والشمس والقمر، كلهم يسبحون؛ أي: يدورون في فلك السماء، قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني^(٦).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في فلك بين السماء والأرض، ورواه ابن أبي حاتم، وهو غريب جداً بل منكر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد من السلف: في فلكة كفلكة المغزل^(٧).

وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرمح^(٨) أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به.

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثته، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه سفيان الثوري بسنده ومثته، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق عن معمر بلاغاً عن عكرمة.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق أبي الصهباء، وهو مضر بن عبد الله بن وهب، عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٧) أخرجه أبو الشيخ (العظمة رقم ٦٥٤) والطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٨) أخرجه البستي بسند صحيح عن ابن أبي عمر العدني عن سفيان.

﴿وَأَيُّكُمْ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَلِنْ نُنْفِزَهُمْ فَلَا صَرْيَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقْدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾.

يقول تبارك وتعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى تسخير البحر ليحمل السفن، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم. ولهذا قال: ﴿وَأَيُّكُمْ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ أي: في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المشحون الموقر^(١)، وكذا قال سعيد بن جبيرة والشعبي وقتادة والسدي^(٢).

وقال الضحاك وقتادة وابن زيد: وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام^(٣).

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢) قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: بذلك الإبل^(٤)، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها، وكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة في رواية، وعبد الله بن شداد وغيرهم.

وقال السدي في رواية: هي الأنعام.

وقال ابن جرير: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا محمد بن فضيل، عن عطاء، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أتدرون ما قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢) قلنا: لا، قال: هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها^(٥)، وكذا قال أبو مالك والضحاك وقتادة وأبو صالح والسدي أيضاً المراد بقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢) أي: السفن^(٦)، ويقوي هذا المذهب في المعنى

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «الممتلي».

(٢) قول سعيد أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي كدينة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بما يليه.

(٥) قول عكرمة أخرجه البخاري تعليقاً (الصحيح، التفسير، سورة يس)، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عثمان بن غياث عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول الحسن وقتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن، وقول عبد الله بن شداد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عنه.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عن أبي مالك عنه، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك، وأخرجه أيضاً البستي بسند صحيح من طريق منصور بن زاذان عن الحسن، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق إسماعيل، وهو ابن أبي خالد، عن أبي صالح.

قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا لَنَّا طَعَا أَلْمَاءَ حَمَلْنَكُمُ فِي الْبَارِيَةِ ۖ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [١٧] ﴿الْحَاقَّةُ﴾. وقوله: ﴿وَلَيْنَ شَأْنًا نُفَرِّقَهُمْ﴾ يعني: الذين في السفن ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ أي: لا مغيب لهم مما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُقْدُونَ﴾ أي: مما أصابهم ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر، ونسلمكم إلى أجل مسمى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت معلوم عند الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤٥] ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [٤٦] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٤٧].

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

قال مجاهد: من الذنوب ^(١)، وقال غيره بالعكس، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه، وتقدير الكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك بل يعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا يتفكرون بها.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: إذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء؛ أي: قالوا: لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمرهم به: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك.

قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المؤمنين وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ^(٢) وفي هذا نظر.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٨] ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [٤٩] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٥٠].

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] قال الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [٤٩] أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه والله أعلم نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويتشاجرون على عاداتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل، فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) ذكره الطبري بنحوه.

إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر^(١)، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥١) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٤).

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والنسلان هو المشي السريع كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءُ كُلُّهُمْ إِلَىٰ نَفْسٍ يَوْمُضُونَ﴾ (٤٣) [المعارج] ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا؟﴾ يعنون: قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. قال أبي بن كعب رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة: ينامون نومة قبل البعث^(٢).

قال قتادة: وذلك بين النفختين^(٣)، فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون، قاله غير واحد من السلف ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

وقال الحسن: إنما يجيئهم بذلك الملائكة، ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله تعالى أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار^(٤) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) نقله ابن جرير^(٥)، واختار الأول، وهو أصح، وذلك لقوله تبارك وتعالى في الصفات: ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٥) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفَسِّرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنْتُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥١) [الروم].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) [النازعات] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ

(١) سردها الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

(٢) أخرجه الطبري من طريق الحسن عن أبي بن كعب، والحسن لم يسمع من أبي، وقول الحسن عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بمعناه.

(٥) ذكره الطبري بلفظ المذكور عن عبد الرحمن بن زيد.

أَبْصَرَ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» [النحل: ٧٧] وقال: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٦﴾ [الإسراء] أي: إنما نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: من عملها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا فَكَّهُةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات، فنزلوا في روضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم. قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد: في شغل عما فيه أهل النار من العذاب^(١). وقال مجاهد: ﴿فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ أي: في نعيم معجبون^(٢)؛ أي: به، وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس رضي الله عنه: فاكهون؛ أي: فرحون^(٣).

قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وسعيد المسيب وعكرمة والحسن وقاتدة والأعمش وسليمان التيمي والأوزاعي في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قالوا: شغلهم افتضااض الأبقار^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنه في رواية عنه: ﴿فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ أي: بسماع الأوتار. وقال أبو حاتم: لعله غلط من المستمع، وإنما هو افتضااض الأبقار^(٥). وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم^(٦)، ﴿فِي ظِلِّ﴾ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقاتدة والسدي وخصيف: ﴿الْأَرَائِكِ﴾ هي: السرر تحت الحجال^{(٧)(٨)}.

- (١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه جوير عن أبي سهل عن الحسن، وجوير ضعيف، وأخرجه أيضاً بسند صحيح من طريق أبان بن تغلب عن إسماعيل بن أبي خالد.
- (٢) أخرجه البخاري تعليقاً، وذكر الحافظ ابن حجر أن الفريابي وصله (فتح الباري ٥٤٠/٨)، وأخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.
- (٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
- (٤) قول ابن مسعود أخرجه الطبري بسند وفيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً من طريق عكرمة عن ابن عباس، وقول عكرمة أخرجه البستي بسند صحيح من طريق أبي عمرو الكوفي عنه، وقول سعيد بن المسيب أخرجه الطبري من طريق وائل بن داود عنه.
- (٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ثم ذكر قول أبيه وهو أبو حاتم.
- (٦) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.
- (٧) قول ابن عباس ومجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حصين عن مجاهد عن ابن عباس، وحصين هو ابن عبد الرحمن السلمي يروي عن مجاهد وهو ثقة (تهذيب الكمال ٥١٩/٦ - ٥٢١)، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق محمد بن سيرين عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
- (٨) الحجال: جمع حجلة وهي الستر يضرب للعروس داخل البيت.

(قلت): نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين، والله ﷻ أعلم.
﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا فَكْهَةٌ﴾ أي: من جميع أنواعها ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا محمد بن مهاجر، عن الضحاك المعافري، عن سليمان بن موسى، حدثني كريب أنه سمع أسامة بن زيد رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر^(١) لها، هي ورب الكعبة نور كلها يتلأأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد ونهر مطرد^(٢)، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سلامة، وفاكهة خضرة وحبيرة^(٣) ونعمة في محلة عالية بهية» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال ﷺ: «قولوا: إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله^(٤)، وكذا رواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه من حديث الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر به^(٥).

وقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) قال ابن جريج: قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة^(٦)، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه، كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً، وفي إسناده نظر، فإنه قال: حدثنا موسى بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا أبو عاصم العباداني، حدثنا الفضل الرقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم»^(٧). ورواه ابن ماجه في كتاب السنة من سننه عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب به^(٨).

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، حدثنا حرملة، عن سليمان بن حميد قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: إذا فرغ الله تعالى من أهل الجنة والنار، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، قال: فيُسَلِّم على أهل الجنة، فيردُّون عليه السلام.

قال القرظي: وهذا في كتاب الله تعالى: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (٥٨) فيقول: سلوني،

(١) وهو النهر الجاري.

(٢) سنده ضعيف لأن سليمان بن موسى فيه لين.

(٣) سنن ابن ماجه، الزهد، باب صفة الجنة (ح ٤٣٣٢) وسنده كسابقه.

(٤) سنده ضعيف لأن ابن جريج لم يلق ابن عباس رضي الله عنه.

(٥) سنده ضعيف لأن الفضل الرقاشي منكر الحديث.

(٦) سنن ابن ماجه، السنة، باب فيما أنكرت الجهمية (ح ١٨٤) وسنده كسابقه.

(٨) لا خطر لها: أي لا عوض لها ولا مثل.

فيقولون: ماذا نسألك أي رب؟ قال: بلى سلوني، قالوا: نسألك أي رب رضاك، قال: رضائي أحلكم دار كرامتي، قالوا: يا رب فما الذي نسألك، فوعزتك وجلالك وارتفاع مكانك لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم لا ينقصنا ذلك شيئاً. قال تعالى: إن لديّ مزيداً، قال: فيفعل ذلك بهم في درجهم حتى يستوي في مجلسه، قال: ثم تأتيهم التحف من الله ﷻ، تحملهم إليهم الملائكة، ثم ذكر نحوه^(١). وهذا خبر غريب، أورده ابن جرير من طرق.

﴿وَأَمَّا يَوْمَ يَأْتِي الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِدُ يَنْفِرُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، ﴿يَوْمَ يُبْصِرُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صديقين فرقتين ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٣٣] من دون الله فَأَهْذَوْهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ ﴿٣٣﴾ [الصافات].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾ هذا تقرير من الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٦١﴾ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ يقال: يقال - بكسر الجيم وتشديد اللام -، ويقال: جُبْلًا - بضم الجيم والباء وتخفيف اللام -^(٢)، ومنهم من يسكن الباء، والمراد بذلك الخلق الكثير، قاله مجاهد وقتادة والسدي وسفيان بن عيينة^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعدولكم إلى اتباع الشيطان.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع، عن عمن حدثه، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، أمر الله تعالى جهنم، فيخرج منها عنق ساطع مظلم يقول: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده مرسل. (٢) القراءتان متواترتان.

(٣) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول سفيان بن عيينة، أخرجه البستي بسند صحيح من طريق ابن أبي عمر العدني عنه.

﴿١٦﴾ [يس] ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ فيتميز الناس ويبحثون، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية] (١).

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: هذه التي حذرتكم الرسل، فكذبتموها ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٦﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذَّبُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَفِصْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور].

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترحوه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شيبه إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبه، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي، حدثنا أبو عامر الأزدي، حدثنا سفيان، عن عبيد المكتب، عن الفضيل بن عمرو، عن الشعبي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجز علي إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، والكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتتطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فعنك كنت أناضل» (٢). وقد رواه مسلم والنسائي، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر، عن أبي النضر، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن سفيان هو الثوري به. ثم قال النسائي: [لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي] (٣)، وهو حديث غريب، والله تعالى أعلم، كذا قال: وقد تقدم من رواية أبي عامر عبد الملك بن عمرو الأسدي وهو: العقدي، عن سفيان (٤).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال:

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإيهام شيخ إسماعيل بن رافع.

(٢) سنده حسن، وأخرجه مسلم كما سيأتي.

(٣) صحيح مسلم، الزهد والرقائق (ح ٢٩٦٩)، والسنن الكبرى، التفسير (ح ١١٦٥٣).

(٤) أي: تقدم في رواية ابن أبي حاتم، وهذا استدراك جيد.

«إنكم تدعون مقدماً على أفواهكم بالفدام^(١)، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذ وكثفه»، رواه النسائي^(٢)، عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به^(٣)، وقال سفيان بن عيينة: عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل، قال فيه: «ثم يلقي الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك، وصمت وصليت وتصدقت، ويشني بخير ما استطاع، قال: فيقال له: ألا نبعث عليك شاهداً؟ قال: فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه ويقال لفخذه: انطقي، قال: فتنتطق فخذ ولحمه وعظامه بما كان يعمل وذلك المناق، وذلك ليُعذر من نفسه، وذلك الذي سخط الله تعالى عليه» ورواه مسلم وأبو داود من حديث سفيان بن عيينة به بطوله^(٤).

ثم قال ابن أبي حاتم رحمته الله: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن عتبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه، فخذ من الرجل اليسرى»^(٥) وروى ابن جرير، عن محمد بن عوف، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن عياش به مثله^(٦). وقد جَوَّدَ إسناده الإمام أحمد رحمته الله، فقال: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد الحضرمي، عَمَّنْ حدثه، عن عتبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذ من الرجل الشمال»^(٧).

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، حدثنا يونس بن عبيد، عن حميد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى هو الأشعري رضي الله عنه: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم أي رب عملت عملت، قال: فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها، قال: فما على الأرض خليفة ترى من تلك الذنوب شيئاً وتبدو حسناته، فود أن الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول: أي رب وعزتك لقد كتبت علي هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك ختم الله على فيه، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى، ثم تلا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ

(١) الفدام: ما يشد على فم الأبريق لتصفية الشراب الذي فيه.

(٢) زيادة من (حم) و(مح).

(٣) السنن الكبرى، التفسير، (ح ١١٤٦٩) وسنده حسن.

(٤) صحيح مسلم، الزهد والرقائق (ح ٢٩٦٨)، وسنن أبي داود، السنة، باب في الرؤية (ح ٤٧٣٠).

(٥) في سنده ضمضم بن زرعة صدوق يهيم، ومدار الحديث متوقف عليه، وفيه مخالفة لرواية الثقات التالية من قول ابن موسى الأشعري إذ ورد فيه أن الفخذ الأيمن هو الذي يشهد.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وحكمه كسابقه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٦٠٢/٢٨ ح ١٧٣٧٤)، وقال محققوه: حسن لغيره. اهـ. ولعله بالشواهد وإلا فيه ضمضم، وكذلك إبهام شيخ شريح بن عبيد، ويشهد لأغلبه الرواية التالية.

يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴿١﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: يقول ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ ^(٢) وقال مرة: أعميناهم.

وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عمياً يترددون ^(٣).
وقال السدي: يقول ولو نشاء أعمينا أبصارهم.

وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي: فاستبقوا الصراط؛ يعني: الطريق ^(٤).

وقال ابن زيد: يعني بالصرط ههنا الحق ^(٥)، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم.

وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ لا يبصرون الحق ^(٦).

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتِبِهِمْ﴾ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أهلكتناهم ^(٧).
وقال السدي: يعني لغيرنا خلقهم.

وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة.

وقال الحسن البصري وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم ^(٨)، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا﴾ أي: إلى أمام ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى وراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون.

﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾.

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، رُدَّ إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، كما قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿٦٨﴾ [الروم] وقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، ورجاله ثقات وسنده صحيح، ويونس بن عبيد هو ابن دينار العبدي يروي عن حميد بن هلال (تهذيب التهذيب ٤٤٢/١١) وهذه الرواية لها حكم الرفع لأنه من الغيب.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح عن أبي رجاء عن الحسن.

(٤) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي وهب عن ابن زيد.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويشهد له سابقه.

(٧) أخرجه الطبري كسابقه.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عن الحسن، وأخرجه الطبري أيضاً بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة مختصراً.

واستقرار، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة، ثم إلى الشيخوخة ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم بل إن أنشده [زخفه] ^(١) أو لم يتمه.

وقال أبو زرعة الرازي: حَدَّثْتُ عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي أنه قال: ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ ^(٢)، ذكره ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب الذي أكله الأسد بالزرقاء ^(٣).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن هو البصري قال: إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:
كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً
فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما أشهد أنك رسول الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ^(٤). وهكذا روى البيهقي في الدلائل أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه: «أنت القائل»:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة

فقال: إنما هو عيينة والأقرع، فقال ﷺ: «الكل سواء» ^(٥)؛ يعني: في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد ذكر السهيلي في الروض الأنف لهذا التقديم والتأخير الذي وقع في كلامه ﷺ في هذا البيت مناسبة أغرب فيها، حاصلها شرف الأقرع بن حابس على عيينة بن بدر الفزاري لأنه ارتد أيام الصديق رضي الله عنه بخلاف ذاك ^(٦)، والله أعلم، وهكذا روى الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول: «نفلق هاماً» فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت:

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلم

وهذا لبعض الشعراء العرب في قصيدة له وهي في الحماسة ^(٧).

(١) كذا في (مح) و(حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «مزحمة»، والزحاف من مصطلحات علم العروض في الشعر، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر.

(٢) سنده ضعيف لإبهام شيخ أبي زرعة الرازي، وكذلك فيه مجالد فيه مقال.

(٣) مدينة بالقرب من عمان في الأردن.

(٤) سنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان، وفيه أيضاً إرسال الحسن البصري.

(٥) أخرجه البيهقي عن موسى بن عقبة مرسلاً أيضاً. (دلائل النبوة ١٨١/٥).

(٦) الروض الأنف ٣٠٩/٢. (٧) الحماسة لأبي تمام ١٠٧/١ - ١٠٨.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم: حدثنا مغيرة، عن الشعبي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه بيت طرفة: ويأتيك بالأخبار من لم تزود^(١)، وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة من طريق إبراهيم بن مهاجر، عن الشعبي عنها^(٢). ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدم بن شريح بن هانئ، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها كذلك، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(٣)، وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أسامة، عن زائدة، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ثم قال: ورواه غير زائدة، عن سماك، عن عطية، عن عائشة رضي الله عنها^(٤)، هذا في شعر طرفة بن العبد في معلقته المشهورة، وهذا المذكور منها أوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
ثياباً ولم تضرب له وقت موعد^(٥)

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم وكيل المتقي ببغداد، حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضرير، حدثنا علي بن عمرو الأنصاري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً.

تفاءل بما تهوى يكن فلقماً
يقال لشيء كان إلا تحقفاً^(٦)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي عن هذا الحديث فقال: هو منكر، ولم يعرف شيخ الحاكم ولا الضرير.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: قيل لعائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت رضي الله عنها: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه ﷺ كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس هذا هكذا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إني والله ما أنا بشاعر وما ينبغي لي»^(٧) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذا لفظه.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (٢٤/٤٠ ح ٢٤٠٢٣) قال محققوه: حسن لغيره.

(٢) السنن الكبرى عمل اليوم والليلة (ح ١٠٨٣٤) وسنده كسابقه.

(٣) سنن الترمذي، الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر (ح ٢٨٤٨) والسنن الكبرى، عمل اليوم والليلة ١٠٨٣٥.

(٤) أخرجه البزار (المسند رقم ٢١٠٦) وابن سعد من طريق سماك به (الطبقات الكبرى ١/٣٨٣)، وفي سندهما سماك وفي روايته عن عكرمة اضطراب ويشهد له سابقه.

(٥) ديوان طرفه ٦٦.

(٦) أخرجه البيهقي بسنده ومثله ثم قال: لم أكتبه إلا بهذا الإسناد وفيهم من يجهل حاله (السنن الكبرى ٧/٤٣)، والمجهول حاله هو: أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم كما قرر الحافظ المزي.

(٧) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة به، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من عائشة رضي الله عنها.

وقال معمر، عن قتادة: بلغني أن عائشة رضي الله عنها سألت: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت رضي الله عنها: لا. إلا بيت طرفه:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
فجعل ﷺ يقول: «من لم تزود بالأخبار» فقال أبو بكر: ليس هذا هكذا، فقال ﷺ: «إني لست بشاعر ولا ينبغي لي»^(١).

وثبت في الصحيحين أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لا هُم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا
ويرفع ﷺ صوته بقوله أبينا ويمدها^(٢)، وقد روى هذا بزحاف^(٣) في الصحيحين أيضاً، وكذا ثبت أنه ﷺ قال: يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(٤)
لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه، وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار، فنكبت أصبعه، فقال ﷺ:

هل أنت إلا أصبع دُميت وفي سبيل الله ما لقيت
وسياأتي عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ [النجم: ٣٢] إنشاد:
إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك ما ألما^(٥)

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً وما ينبغي له، فإن الله تعالى إنما علّمه القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت] وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال، وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً، كما رواه أبو داود قال: حدثنا عبيد الله بن عمر، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا شريحيل بن يزيد المعافري، عن عبد الرحمن بن رافع التنوخي قال: سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أبالي ما أوتيت

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر به، وسنده كسابقه.

(٢) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الخندق (ح ٤١٠٤)، وصحيح مسلم، الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق (ح ١٨٠٣).

(٣) تقدم معناها ص ٣٥٣. (٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة التوبة آية ٢٥.

(٥) صحيح البخاري، الجهاد، باب من يُنكب في سبيل الله (ح ٢٨٠٢)، وصحيح مسلم، الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (ح ١٧٩٦).

إن أنا شربت ترياقاً، أو تعلقت تيممة، أو قلت الشعر من قبل نفسي»^(١) تفرد به أبو داود. وقال الإمام أحمد رحمته الله: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن الأسود بن شيبان، عن أبي نوفل قال: سألت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسائغ عنده الشعر؟ فقالت: قد كان أبغض الحديث إليه. وقال عن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك^(٢).

وقال أبو داود: حدثنا أبو الوليد الطيالسي: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً»^(٣) انفرد به من هذا الوجه، وإسناده على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا قزعة بن سويد الباهلي، عن عاصم بن مخلد، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح)، وحدثنا الأشيب، فقال عن أبي عاصم، عن أبي الأشعث، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة، لم تقبل له صلاة تلك الليلة»^(٤). وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة، والمراد بذلك نظمه لا إنشاده، والله أعلم، على أن الشعر ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت رضي الله عنه، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آمن شعره، وكفر قلبه»^(٥).

وقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم مائة بيت يقول عقب كل بيت «هيه»^(٦) يعني: يستطعمه، فيزيده من ذلك، وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً»^(٧). ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ﴾ يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم ما علمه الله الشعر ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُ﴾ أي: وما يصلح له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾

(١) أخرجه أبو داود بسنده ومثنه، السنن، الطب، باب في الترياق (ح ٣٨٦٩)، وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن رافع التنوخي كما في التقريب.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٧٦/٤١ ح ٢٥١٥٠)، وصححه سننه محققوه.

(٣) أخرجه أبو داود بسنده ومثته (السنن، الأدب، ما جاء في الشعر ح ٥٠٠٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤١٨٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٢٥/٤)، وسنده ضعيف لجهالة عاصم بن مخلد وضعف قزعة بن سويد وقد ضعفه العقيلي (الضعفاء الكبير ٣/٣٣٩) وجعل ابن الجوزي هذا الحديث في عداد الموضوعات (١/٢٦١).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الشعراء آية ٢٢٤.

(٦) أخرجه مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله عنه (الصحيح، كتاب الشعر ح ٢٢٥٥).

(٧) أخرجه أبو داود (السنن، الأدب، باب ما جاء في الشعر ح ٥٠١٠) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤١٨٩).

أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لَا تُنذِرُكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب حي البصر^(١).

وقال الضحاك: يعني عاقلاً: ﴿وَيَحَقِّقُ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: هو رحمة [للمؤمنين وحجة على الكافرين]^(٢).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ قال قتادة: مطيقون؛ أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لसार الجميع بسير الصغير.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شأوا ونحروا واجتزروا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿وَمَسَارِبٌ﴾ أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يعلُنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها بل هي أضعف من ذلك وأقل وأحق وأدحر، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال مجاهد: يعني: عند الحساب^(٣). يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم.

وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ والمشركون يغضبون

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل: «للمؤمن وحجة على الكافر».

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً، إنما هي أصنام^(١)، وهكذا قال الحسن البصري^(٢)، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْتُرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم فيه، وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ (٨٠).

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يُفْتَتِه ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أنزع مني الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميئك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات من آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إلى آخرهن^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا عثمان بن سعيد الزيات، عن هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ؓ قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أحيي الله هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم يميئك الله، ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم» قال: ونزلت الآيات من آخر يس^(٥)، ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير فذكره ولم يذكر ابن عباس ؓ^(٦).

وروي من طريق العوفي، عن ابن عباس ؓ قال: جاء عبد الله بن أبي بعظم ففتته، وذكر نحو ما تقدم^(٧)، وهذا منكر؛ لأن السورة مكية وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة، وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ للجنس يعلم كل منكر للبعث ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم. (٣) روجه الطبري.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد وهو مرسل ويتقوى بالمرسل الآخر الذي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) سنده حسن وأخرجه الحاكم من طريق هشيم به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٢٩/٢).

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتمنه، وهو مرسل ويتقوى بما سبق وقد جمع الحافظ ابن كثير بين هذه الرواية والمراسيل السابقة.

(٧) أخرجه الطبري من طريق العوفي به، وسنده ضعيف وهو مخالف لما سبق.

على الإعادة، فإن الله ابتداءً خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۖ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ إِلَٰكٌ قَدِيرٌ مَقْلُوبٍ ﴿٢١﴾﴾ [المرسلات] وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢] أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته.

كما قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا جرير، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، عن جبير بن نفير، عن بسر بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ: بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك ولأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة؟»^(١). ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، عن جرير بن عثمان به^(٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ أي: استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض والأجسام والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحد، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربيعي قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضى الله عنه: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذ [أكلت]^(٣) لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت، فخذوها فدفقوها فذروها في اليم، ففعلوا، فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله ﷻ له» فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشاً^(٤). وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بالفاظ كثيرة منها أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر في يوم رائع؛ أي: كثير الهواء، ففعلوا ذلك، فأمر الله تعالى البحر، فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن، فإذا هو رجل قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك وأنت أعلم، فما تلافاه أن غفر له^(٥).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: الذي

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٩/٣٨٥ ح ١٧٨٤٢)، وحسنه محققوه، وغيرهم كما سيأتي.

(٢) سنن ابن ماجه، الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت (ح ٢٧٠٧) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٢١٨٨)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة.

(٣) في الأصل بياض واستدرك من (حم) و(مح) والمسند.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥/٣٩٥) وسنده صحيح.

(٥) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (ح ٣٤٥٢) وصحيح مسلم، التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى (ح ٢٧٥٧/٢٧).

بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء.

قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (٨١) يقول الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه^(١)، وقيل: المراد بذلك سرح^(٢) المَرخ والعفار^(٣) ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفي المثل: لكل شجر نار واستمجد المَرخ والعفار^(٤).

وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا العناب.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾.

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع، وما فيه من جبال ورمال وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِمَّنْ خَلَقَ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال ههنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم، قاله ابن جرير: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَنِينَ﴾ [الاحقاف: ٣٣] وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ أي: إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار أو تأكيد:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن نمير، حدثنا موسى بن المسيب، عن شهر، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي كلکم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلکم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد أفعّل ما أشاء، عطائي كلام وعذابي كلام، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) أي: تنزيهه وتقديسه

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) السرح: شجر مفردھا سرحة وهي من ضخام الشجر.

(٣) نوع من الشجر شديد الاشتعال.

(٤) مجمع الأمثال للميداني ٧٤/٢ رقم ٢٧٥٢.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وأطول (المسند ٤٢٩/٣٥ ح ٢١٥٤٠)، وصححه محققوه بالشواهد والمتابعات.

وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل. ومعنى قوله: ﴿فَسَبِّحْنَا الَّذِي يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [كقوله ﷺ]: ﴿قُلْ مَنْ يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) [المؤمنون: ٨٨] كقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدِيهِ الْمَلَكُ﴾ [الملك: ١] فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد، والملكوت هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا حماد، عن عبد الملك بن عمير، حدثني ابن عمّ لحذيفة، عن حذيفة وهو: ابن اليمان رضي الله عنه، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال: «الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاي^(٢).

وقد روى أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي حمزة مولى الأنصار، عن رجل من بني عبس، عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل، وكان يقول: «الله أكبر - ثلاثاً - ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحواً من ركوعه [وكان يقول في قيامه: «لربي الحمد» ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه]^(٣) وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده، وكان يقول: «رب اغفر لي، رب اغفر لي» فصلّى أربع ركعات فقرأ فيهن البقرة، وآل عمران، والنساء والمائدة أو الأنعام - شكّ شعبة - هذا لفظ أبي داود^(٤). وقال النسائي: أبو حمزة عندنا: طلحة بن يزيد، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة^(٥)، كذا قال، والأشبه أن يكون ابن عمّ حذيفة، كما تقدم في رواية الإمام أحمد، والله أعلم. وأما رواية صلة بن زفر، عن حذيفة رضي الله عنه، فإنها في صحيح مسلم، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة^(٦).

(١) زيادة من (مح).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٨/٣٣٢ ح ٢٣٣٠٠) وضعف سنده محققوه لجهالة ابن عم حذيفة. ويتقوى بالروايات التالية.

(٣) زيادة من (حم) و(مح) وسنن أبي داود.

(٤) سنن أبي داود، الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (ح ٨٧٤)، والشمائل للترمذي (ح ٢٧٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٧٧٧)، وفي سنده رجل مجهول من بني عبس، ولعله صححه بالشاهد الذي سيأتي في سنن أبي داود، وصحيح مسلم التالي لكن ليس فيه ذكر ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة كما سيأتي.

(٥) سنن النسائي، الافتتاح، باب ما يقول في قيامه ١٩٩/٢.

(٦) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (ح ٧٧٢).

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثني معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس، عن عاصم بن حميد، عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قلت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة^(١)، ورواه الترمذي في الشمائل والنسائي من حديث معاوية بن صالح به^(٢).

آخر تفسير سورة يس، والحمد لله، وصلواته وسلامه على محمد خير خلقه.

(١) سنن أبي داود، الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (ح ٨٧٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٧٧٦).

(٢) الشمائل رقم ٣١٣ وسنن النسائي، الافتتاح، باب نوع آخر من الذكر في الركوع ١٩١/٢ وحكمه كسابقه.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

[وهي^(١) مكية

قال النسائي: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد - يعني ابن الحارث - عن ابن أبي ذئب قال: أخبرنا الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويأمرنا بالصافات^(٢)، تفرد به النسائي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّجَرِجِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝﴾.

قال سفيان الثوري: عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝﴾ وهي: الملائكة ﴿فَالزَّجَرِجِ زَجْرًا ۝﴾ هي: الملائكة ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝﴾ هي: الملائكة^(٣)، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنه ومسروق وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد والسدي وقتادة والربيع بن أنس^(٤).
قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء^(٥).

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربعي، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء»^(٦) وقد روى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش، عن المسيب بن رافع،

(١) زيادة من (حم) و(مح).

(٢) أخرجه النسائي بسنده ومثله (السنن، الإمامة، باب الرخصة للإمام في التطويل ٩٥/٢، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ح ٧٩٦).

(٣) سنده صحيح وأخرجه عبد الرزاق والحاكم كلاهما من طريق الأعمش به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٢٩/٢).

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن ابن عباس بسند ضعيف (العظمة رقم ٥١٣) ويشهد له سابقه ولاحقه، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي الضحى عن مسروق، وأخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس، وقول قتادة سيأتي كما يليه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) صحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة (ح ٥٢٢).

عن [تميم]^(١) بن طرفة، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يَتَمَوْنَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ»^(٢).

وقال السدي وغيره: معنى قوله تعالى: ﴿فَالزَّيْحَرَتِ زَحْرًا﴾ ﴿١﴾ أنها تزجر السحاب^(٣).

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالزَّيْحَرَتِ زَحْرًا﴾ ﴿١﴾ ما زجر الله تعالى عنه في القرآن^(٤)، وكذا روى مالك عن زيد بن أسلم^(٥).

﴿فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا﴾ ﴿٢﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا﴾ ﴿٥﴾ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿١﴾ [المرسلات].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ﴿١﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿هَذَا هُوَ الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالاتها عليه وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿٤﴾ [المعارج]، وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿٧﴾ [الرحمن]، يعني: في الشتاء والصيف للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ﴿١﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٧﴾.

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، قرئ بالإضافة وبالبديل وكلاهما بمعنى واحد فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ﴿٥﴾ [الملك]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ﴿١١﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّعْيَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿٨﴾ [الحجر]، فقوله جلَّ وعلا ههنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره وحفظناها حفظاً ﴿مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ولهذا قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي: لئلا يصلوا إلى الملاء الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدرته كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تبارك

(١) زياد من (حم) و(مح) وصحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم، الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة (ح ٤٣٠)، وسنن أبي داود، الصلاة، باب تسوية الصفوف (ح ٦٦١)، وسنن النسائي، الصلاة، باب حث الإمام علي رضي الله عنه الصفوف ٩٢/٢ وسنن ابن ماجه كتاب الصلاة والسنة فيها، باب إقامة الصفوف (ح ٩٩٢).

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط بن نصر عن السدي.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) سنده صحيح.

وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقْدِرُونَ﴾ أي: يرمون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُخُولًا﴾ أي: رجماً يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرجمون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْخَلْفَةَ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقها إلى الذي تحته ويلقيها الآخر إلى الذي تحته وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن كما تقدم في الحديث ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْخَلْفَةَ فَأَتَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مستنير.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان للشياطين مقاعد في السماء قال: فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري وكانت الشياطين لا ترمى، قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعاً، قال: فلما بعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قصد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه قال فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال ما هو إلا من أمر حدث قال: فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة، قال: وكيع يعني بطن نخلة قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال هذا الذي حدث^(١)، وستأتي إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدُ لَوَّ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) [الجن].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَايَا وَعَظَمْنَا لَنَا لَبَعُوثُونَ (١٦) أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩).

يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه (أم من عددنا) فإنهم يقولون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكروا البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) [غافر]، ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض^(٢).

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، بلفظ: لازم، وقول =

وقال ابن عباس رضي الله عنه وعكرمة: هو اللزج الجيد^(١).

وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد^(٢).

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٢) أي: بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث وأنت مؤمن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم ويسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد صلى الله عليه وسلم، وسخر ضلال بني آدم^(٣) ﴿وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً﴾ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾.

قال مجاهد وقاتة: يستهزون^(٤) ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَمَّا لَتَبْعُوُنَّ﴾ (١٦) أو آتَانَا الْأَوَّلُونَ ﴿يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ وَيَكْذِبُونَ بِهِ﴾ (١٧) قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون تراباً وعظاماً وأنتم داخرون؛ أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفِهِ ذَخِيرٍ﴾ [النمل: ٨٧]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٨) أي: فإنما هو أمر واحد من الله تعالى، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا يَوَدُّونَا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُوكُمْ ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢١) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿وَقَفُّهُمْ لَهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٢) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿بَلْ هُمْ آلُيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (٢٣).

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا يَوَدُّونَا هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٢٠) فتقول الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُوكُمْ﴾ (٢١) وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.

= سعيد بن جبيرة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مسلم البطين عنه عن ابن عباس، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(١) قول ابن عباس تقدم في الرواية السابقة، وقول عكرمة أخرجه أبو الشيخ (العظمة رقم ١٠١٧)، والطبري كلاهما بسند حسن من طريق سماك بن حرب عنه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري أيضاً بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

قال النعمان بن بشير رضي الله عنه: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم^(١)، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد والسدي وأبو صالح وأبو العالية وزيد بن أسلم^(٢).

وقال سفيان الثوري: عن سماك، عن النعمان بن بشير، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه **﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾** قال إخوانهم^(٣).

وقال شريك: عن سماك عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: **﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾** قال: أشباههم. قال يحيى أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر^(٤).

وقال خُصيف: عن مقسم، عن ابن عباس رضي الله عنه أزواجهم نساؤهم^(٥). وهذا غريب والمعروف عنه الأول كما رواه مجاهد وسعيد بن جبيرة عنه: **﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾** قرناؤهم وما كانوا يعبدون من دون الله؛ أي: من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم^(٦).

وقوله تعالى: **﴿فَأَهْلُدْهُمُ إِلَىٰ مِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾** أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم وهذا كقوله تعالى: **﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَيُكَا وَصًّا مَّا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾** [الإسراء: ٩٧].

وقوله تعالى: **﴿وَقَفُّوهُمْ إِنِّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾** (٢٤) أي: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس يعني احبسوهم إنهم محاسبون^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا النفيلي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثاً يحدث عن بشر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ مَوْقُوفًا مَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَغَادِرُهُ وَلَا يَفَارِقُهُ وَإِنْ دَعَا رَجُلًا رَجُلًا» ثم قرأ: **﴿وَقَفُّوهُمْ إِنِّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾** (٢٤)، ورواه الترمذي من حديث ليث بن أبي سليم، ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً^(٨).

(١) أخرجه البستي بسند حسن من طريق سماك بن حرب عن النعمان بن بشير، وأخرجه الطبري والحاكم من طريق سماك عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤٣٠).

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وأخرجه البستي من طريق المسيب بن رافع عن ابن عباس وهو لم يسمع من ابن عباس ويتقوى بسابقه ولا حقه، وقول سعيد بن جبيرة وعكرمة عزاها السيوطي إلى عبد بن حميد، وقول أبي العالية أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) أخرجه البستي والطبري بسند حسن من طريق الثوري به.

(٤) سنده فيه شريك، وفيه مقال في حفظه ويتقوى بما سبق.

(٥) سنده ضعيف لمخالفة خُصيف من هو أوثق منه كما سبق وخُصيف سيء الحفظ.

(٦) تقدم نحوه في الروايات قبل السابقة. (٧) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٨) في سنده ليث بن أبي سليم فيه مقال، وقد اضطرب فيه فتارة يرويه عن بشر عن أنس كما في رواية ابن أبي =

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ (١٥) ﴿أَي: كما زعمتم أنكم جمع منتصر﴾ ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ﴾ (١٦) ﴿أَي: ينقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحدون عنه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٧) ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ (١٨) ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ (٢٠) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ (٢١) ﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ (٢٢) ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمَجْرِمِينَ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيتَا لِشَاعِرٍ نَّجْوَىٰ﴾ (٢٦) ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٧).

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار: ﴿فَيَقُولُ الضَّعِيفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ﴾ (٢٨) ﴿عَنَّا نَصِيبُ مِنَ النَّارِ﴾ (٢٩) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (٣٠) ﴿[غافر]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شٰغِرِينَ﴾ (٣٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمَلَ لَهُمْ ائْدَادًا وَأَسْرُوا ائْدَامَةً لَّمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِيَ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣) ﴿[سبا]، وهكذا قالوا لهم ههنا ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهرونا بالقدرة منكم علينا لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء (٢).

وقال مجاهد: يعني عن الحق والكفار تقوله للشياطين (٣).

وقال قتادة: قالت الإنس للجن إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قال من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا عنه (٤).

وقال السدي: تأتوننا من قبل الحق وتزنيون لنا الباطل وتصدونا عن الحق (٥).

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ إي والله يأتيه عند كل خير يريده فيصده (٦) عنه.

= حاتم والترمذي (السنن، التفسير، باب ومن سورة الصافات ح ٣٢٢٨) وقال: غريب، وأما رواية الطبري فرواه ليث عن رجل مجهول، وفي رواية ابن ماجه رواه ليث عن بشر بن نهيك (السنن، المقدمة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ح ٢٠٨) وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة.

(١) سنده صحيح. (٢) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال ابن زيد: معناه: تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به^(١).

وقال يزيد الرشك: من قبل لا إله إلا الله.

وقال خُصيف يعنون: من قبل ميامنهم.

وقال عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من حيث نأمنكم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق فهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به فخالفتموهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ يقول الكبراء للمستضعفين: حَقَّتْ علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾ أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: الجميع في النار كل بحسبه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا الليث، عن ابن مسافر يعني: عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ﷻ» وأنزل الله تعالى في كتابه العزيز وذكر قوماً استكبروا فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: أيضاً حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد عن سعيد الجريري، عن أبي العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله وعزيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: لا إله إلا الله فيستكبرون، ثم يقال لهم: لا إله إلا الله فيستكبرون، ثم يقال لهم: لا إله إلا الله، فيستكبرون، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

(٢) أخرجه البستي بسند صحيح من طريق الحسين بن واقد عن عكرمة.

(٣) أخرجه الطبري وابن حبان من طريق الزهري به (الإحسان ٤٥١/١) وصححه سنده محققه. وأصله في الصحيح ولكن بدون ذكر نزول الآية، ولعل هذه الزيادة أدرجها عبيد الله بن أخي بن وهب لأنه قد تكلم فيه.

الطير. قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله تعالى فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: نعلم أنه لا عدل له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجي الله المؤمنين^(١).

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَينَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (٣٦) أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟ يعنون: رسول الله ﷺ. قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٨) وَمَا تَجُزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَكَّاهُمْ مَّا كُرُمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَايُنٍ مِّنْ مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَدُوٍّ لِلشَّيْبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُوتٌ (٤٩).

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٨) وَمَا تَجُزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين كما قال تعالى: ﴿وَالْقَصْرِ﴾ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [العصر: ١-٣]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [التين: ٤-٦] وقال: ﴿وَلَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ ءَاتَقُوا وَنَذَرُ الْظَّالِمِينَ فِيهَا جِئْنَا [مريم]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢٨) إِلَّا أَحْصَى إِلَيْنَ [المدرثر]، ولهذا قال ههنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠) أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون في الحساب بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما شاء الله تعالى من التضعيف.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤١) قال قتادة والسدي: يعني: الجنة^(٢)، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَكَّاهُمْ﴾ أي: متنوعة ﴿وَهُمْ مَّكْرُمُونَ﴾ أي: يخدمون ويرفهن وينعمون ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشر، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شريحيل، عن زيد بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٤) ينظر بعضهم إلى بعض^(٣).

(١) سنده مرسل.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) سنده ضعيف، قال البخاري: هذا إسناد مجهول، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض (التاريخ الكبير ٣/ ٣٨٦ والصغير ١/ ٢٥٠).

حديث غريب.

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۖ بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ۚ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ ۚ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۖ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۚ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزَّفُونَ ۚ﴾ [الواقعة]، فنزه الله ﷻ خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن وهو الغول وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى ههنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۖ﴾ أي: بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء^(١)؛ أي: لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: طعمها طيب كلونها وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيها غولاً - وهو وجع البطن قاله مجاهد وقتادة وابن زيد^(٢) - كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه لكثرة مائيتها.

وقيل: المراد بالغول ههنا صداع الرأس وروي هكذا عن ابن عباس^(٣).

وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن^(٤).

وعنه وعن السدي: لا تغتال عقولهم^(٥). كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول^(٦)

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى^(٧)، والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم^(٨)، وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب والحسن وعطاء بن أبي مسلم الخراساني والسدي وغيرهم^(٩).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول

(١) سنده صحيح.

(٢) قول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) تقدم بالسند المتقدم.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) استشهد به معمر بن المثنى (مجاز القرآن ١٦٩/٢) والطبري.

(٧) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٨) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٩) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

فذكر الله خمر الجنة فترها عن هذه الخصال^(١)، كما ذكر في سورة الصافات.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾ أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن كذا قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وزيد بن أسلم وقتادة والسدي وغيرهم^(٢).

وقوله: ﴿عَيْنٌ﴾ أي: حسان الأعين وقيل: ضخام الأعين وهو يرجع إلى الأول وهي النجلاء العيناء فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف عليه الصلاة والسلام حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرته وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره قالت: ﴿فَلَيْكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّنِي عَنْ نَفْسِي. فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، وهكذا الحور العين: ﴿خَيْرَتٌ حَسَنٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ عَيْنٌ﴾.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ وصفهن بترافق الأبدان بأحسن الألوان.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون، ويشد ههنا بيت [أبي ذهبل]^(٣) الشاعر في قصيدة له:

هي زهراء مثل لؤلؤ الغواص ميزت من جوهر مكنون^(٤)

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني محصون لم تمسه الأيدي^(٥).

وقال السدي: البيض في عشه مكنون^(٦).

وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني بطن البيض^(٧).

وقال عطاء الخراساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة^(٨).

وقال السدي: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين نزع قشرته^(٩). واختاره ابن

جرير لقوله مكنون قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتناولها الأيدي بخلاف داخلها^(١٠) والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرغ الصدفي

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن مرويه، وسنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) كذا في تفسير الطبري وديوان أبي ذهبل الجمحي، في الأصل: (حم) صُحف إلى: «أبي ذهبل».

(٤) ديوان أبي ذهبل الجمحي ص ٦٩ وتفسير الطبري.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن عطاء الخراساني.

(٩) تقدم قبل روايتين. (١٠) ذكره الطبري بنحوه.

الديماطي، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبي كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ: [وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾] قال: «العين: الضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﷻ ﴿١﴾: «كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾» قال: رقتهن «كرقة الجلد التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشر وهي الغرقى» ^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان النهدي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ﷻ ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون» ^(٣).

﴿فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِنْ الْمَصْدِقَيْنِ ﴿٥٧﴾ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا إِذَا لِمَدِينُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ هَلْ أَنشُرَ مُظْلِمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَطْلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٦٠﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزْدِينَ ﴿٦١﴾ وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٦٢﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبَيتَيْنِ ﴿٦٣﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّيْنِ ﴿٦٤﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْرُ الْعَظِيمِ ﴿٦٥﴾ لِيُنْثِلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون؛ أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرايبهم واجتماعهم في تنادهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مأكّل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾﴾ قال مجاهد: يعني: شيطاناً ^(٤).

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا ^(٥)، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان وكلاهما يتعاونان قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وكل منهما يوسوس كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي

(١) زيادة من (مح).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه الطبراني من طريق عمرو بن هاشم به (المعجم الكبير ٢٣/٣٦٧ رقم ٨٧٠) وسنده ضعيف لضعف سليمان بن أبي كريمة ضعفه العقيلي (الضعفاء الكبير ٢/١٣٨) ثم ابن عدي (الكامل ٣/١١١١).

(٣) أخرجه الترمذي من طريق عبد السلام بن حرب به بدون الفقرة الأخيرة (السنن، المناقب، باب فضل النبي ﷺ ح ٣٦١٠) وسنده ضعيف لضعف ليث وهو ابن أبي سليم.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

يُوسُوفُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥٤﴾ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٥٥﴾ [الناس]، ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَئِنْ الْمَصْدِقَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟ يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد.

﴿إِذًا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا إِيَّاكَ لَمِيدُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون^(١).

وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا^(٢). وكلاهما صحيح قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أُشْرَئُ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: مشرفون يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة: ﴿قَاتِلْهُمْ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٦٠﴾﴾.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وخُليل العَصْرِي وقَتَادَةُ والسدي وعطاء الخراساني: يعني: في وسط الجحيم^(٣).

وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم^(٤) كأنه شهاب يتقد.

وقال قتادة: ذُكر لنا: أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي، وذُكر لنا أن كعب الأحبار قال في الجنة كوى^(٥) إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع^(٦) فيها فازداد شكراً ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأُزِينَ ﴿٦١﴾﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أعطتك ﴿وَلَوْلَا رِزْقُكَ لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: ولولا فضل الله عليّ لكنتُ مثلك في سواء الجحيم حيث أنت محضر معك في العذاب ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٦٤﴾ إِلَّا مَوَلَّتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٦٥﴾﴾ هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه لما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٦﴾﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: [في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾﴾] [الطور]، قال ابن عباس عليه السلام: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أي: لا

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه أيضاً بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي شيبه وابن المنذر عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول خُليل العَصْرِي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن خُليل، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول عطاء الخراساني أخرجه البُستي بسند حسن من طريق معمر عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عباد بن راشد عن الحسن.

(٥) أي: فتحه.

(٦) أخرجه البُستي من طريق قتادة عن كعب الأحبار، وسنده منقطع بين قتادة وكعب.

(٧) زيادة من (حم) و(مع).

يموتون فيها فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾^(١).

[وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾]^(٢) قيل: لا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾﴾.

وقوله: ﴿لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ قال قتادة هذا من كلام أهل الجنة^(٣).

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصبروا إليه في الآخرة^(٤)، وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خُصيف، عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله: ﴿إِنِّي كَأَن لِّي فَرَيْنِ﴾ قال: إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة ما أراني إلا مفارقتك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت لملك مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها، فلما خرج قال: اللهم إن صاحبي هذا ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإنني أسألك داراً من دور الجنة فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعاماً فلما أتاه قال: إنني تزوجت هذه المرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا فلما انصرف قال: يا رب إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإنني أسألك امرأة من الحور العين فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله تعالى أن يمكث ثم اشترى بستانين بألفي دينار ثم دعاه فأراه، فقال: إنني ابتعت هذين البستانين بألفي دينار، قال: ما أحسن هذا، فلما خرج قال: يا رب إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة فتصدق بألفي دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله داراً تعجبه وإذا بامرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسناتها ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة، قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أئتتك لمن المصدقين، قيل له: فإنه في الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم فقال عند ذلك: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾﴾ الآيات^(٥).

قال ابن جرير: وهذا يقوي قراءة من قرأ «أئتتك لمن المصدقين» بالتشديد^(٦).

(١) سنده ضعيف لضعف حفص بن عمر العدني كما في التقريب.

(٢) زيادة من (حم) و(مع).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) ذكره الطبري بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، والرواية من الإسرائيليات كما صرح السدي في الرواية الآتية.

وأخرجه البُستي بسند حسن من طريق معمر عن عطاء الخراساني وفيه سبب نزول الآية، فهو مرسل.

(٦) وهي قراءة شاذة تفسيرية، وقد ذكر الطبري تفسيرها بمعنى: لمن المتصدقين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمرو بن عبد الرحمن الأبار، أخبرنا أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ (٥١) يَقُولُ إِنَّكَ لَئِنْ الْمَصْدَقَ (٥٢) قال: فقال لي: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفاً فأحببت أن أسألك عنه فقال: أما فاحفظ، كان شريكاً في بني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ثم افترقا فمكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت^(١) به شيئاً أتجرت في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضاً ونخلًا وثماراً وأنهاراً بألف دينار، قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال: اللهم إن فلاناً - يعني: شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلًا وثماراً وأنهاراً بألف دينار ثم يموت غداً ويتركها اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلًا وثماراً وأنهاراً في الجنة، قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين، قال: ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكثا ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا. قال: فما صنعت أنت؟ قال: كانت ضيعتي قد اشتد علي مؤنتها فاشتريت رقيقاً بألف دينار يقومون لي فيها ويعملون لي فيها، فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال اللهم إن فلاناً - يعني: شريكه الكافر - اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار يموت غداً فيتركهم أو يموتون فيتركونه، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف الدينار رقيقاً في الجنة، قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين، قال: ثم مكث ما شاء الله تعالى أن يمكثا ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: كان أمري كله قد تمَّ إلا شيئاً واحداً فلانة قد مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار فجاءني بها ومثلها معها فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية فوضعها بين يديه وقال: اللهم إن فلاناً - يعني: شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار فيموت غداً فيتركها أو تموت غداً فتركها اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عيناء في الجنة، قال: ثم أصبح فقسمها بين المساكين، قال: فبقي المؤمن ليس عنده شيء. قال: فلبس قميصاً من قطن وكساء من صوف ثم أخذ مراً^(٢) فجعله على رقبته يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته.

قال: فجاء رجل فقال له: يا عبد الله أتؤاجرني نفسك مشاهرة شهراً بشهر تقوم على دواب لي تعلفها وتكنس سرقينها؟ قال: أفعل. قال: فواجره نفسه مشاهرة شهراً بشهر يقوم على دوابه، قال: وكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه ثم يقول له: سرقت شعير هذه البارحة. قال: فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتين شريكي الكافر فلاعملن في أرضه فليطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم ويكسوني هذين الثوبين إذا

بليا، قال: فانطلق يريدته فانتهى إلى بابه وهو ممس بإذا قصر مشيد في السماء، وإذا حوله البوابون فقال لهم: استأذنوا لي على صاحب هذا القصر فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له انطلق إن كنت صادقاً فم في ناحية فإذا أصبحت فتعرض له.

قال: فانطلق المؤمن فألقى نصف كسائه تحته ونصفه فوقه ثم نام، فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف وسلم عليه وصافحه ثم قال له: ألم تأخذ المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى. قال: وهذه حالي، وهذه حالك؟ قال: بلى. قال: أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: لا تسألني عنه، قال فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل في أرضك هذه فتطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم وتكسوني هذين الثوبين إذا بليا، قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا ولكن لا ترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك قال: أقرضته. قال: من؟ قال: المليء الوفي. قال: من؟ قال: الله ربي. قال: وهو مصافحه فانتزع يده من يده ثم قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ٥٦﴾ لَوْذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا أَوْثًا لَمَدِينُونَ ﴿٥٧﴾.

قال السدي: محاسبون، قال: فانطلق الكافر وتركه، قال: فلما رآه المؤمن وليس يلوي عليه رجع وتركه، يعيش المؤمن في شدة من الزمان ويعيش الكافر في رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله تعالى المؤمن الجنة يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار فيقول لمن هذا؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثنى بمثل هذا؟ قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصي عدتهم فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك، فيقول: يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثنى بمثل هذا؟ قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عياف فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك، فيقول: يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثنى بمثل هذا؟ قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ ٥٨﴾ يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٩﴾ لَوْذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا أَوْثًا لَمَدِينُونَ ﴿٦٠﴾.

قال: فالجنة عالية والنار هابية. قال: فيريه الله تعالى شريكه في وسط الجحيم من بين أهل النار فإذا رآه المؤمن عرفه فيقول: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ٥١﴾ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٥٢﴾ أَمَّا نَحْنُ يَمِينَتَيْنِ ﴿٥٣﴾ إِلَّا مَوَلَّتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿٥٥﴾ لِيُمِثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٥٦﴾ بمثل ما قد من عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في [الدنيا من الشدة] ^(١) فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت ^(٢).

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّوْقِ ٦١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُرُّوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٤﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَفَوْرٌ أَوَّاهٌ مُرْصَلِينَ ﴿٦٨﴾ فَهُمْ عَلَى عَذَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٩﴾.

يقول الله تعالى: [أهذا] ^(٣) - الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مأكّل ومشارب ومناحك

(١) في الأصل بياض واستدرك من (حم) و(مح).

(٢) الخبر من الإسرائيليات كما صرح السدي في مطلقه.

(٣) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «هذا».

وغير ذلك من الملاذ - خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ أي: التي في جهنم وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة كما قال بعضهم: إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له: الزقوم كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغَ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون]؛ يعني: الزيتون ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَ الْأَصْلَوْنَ الْمَكْذُوبُونَ﴾ [الواقعة].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [١٧].

قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة والنار تاكل الشجر فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [١٤] غُذيت من النار ومنها خلقت^(١).

وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [١٧] قال أبو جهل - لعنه الله -: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه^(٢). قلت: ومعنى الآية إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نخبر به الناس من يصدق منهم ممن يكذب كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّمَرِ أَلَىٰ أَرَبِّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [١٤] أي: أصل منبتها في قرار النار ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [١٥] تشيع لها وتكرهه لذكرها.

قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء، وإنما شبهها «برؤوس الشياطين» وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة المنظر، وقيل: جنس من النبات طلعه في غاية الفحاشة، وفي هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير^(٣) والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ مِنْهَا أَلْبَطُونَ﴾ [١٦]. ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [٦] لَا يُسَمُّ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ [٧] [الغاشية].

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال: «اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف بمن يكون طعامه؟»

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل، وشطره الأول له شاهد تقدم في تفسير سورة الإسراء آية ٦٠.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري كلاهما بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، ولكنه مرسل، وله شاهد كسابقه.

(٣) ذكرهما الطبري بنحوه دون نسبة إلى أحد المفسرين.

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة وقال الترمذي: حسن صحيح^(١).
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم^(٢)، وقال في رواية عنه شوباً من حميم: مزجاً من حميم^(٣)، وقال: غيره يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حيوة بن شريح الحضرمي، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عمرو وأخبرني عبيد الله بن بسر، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «يقرب - يعني: إلى أهل النار - ماء فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فيه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره»^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عنترة، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مرّ بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ثم يضرّبون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله يدعو بالثبور^(٦).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل إلى نار تتأجج وجحيم تنوقد وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن]، هكذا تلا فتادة هذه الآية^(٧). وهو تفسير حسن قوي.

وقال السدي في قراءة عبد الله رضي الله عنه: «ثم إن مقيلمهم إلى الجحيم» وكان عبد الله رضي الله عنه يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٨) [الفرقان]. وروى الثوري عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله رضي الله عنه قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء قال سفيان: أراه ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٩) ثم إن مقيلمهم إلى الجحيم.

قلت: على هذا التفسير تكون ثم عاطفة لخبر على خبر.

- (١) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير سورة آل عمران آية ١٠٢.
- (٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس.
- (٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
- (٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.
- (٥) في سنده بَقِيَّةُ بن الوليد وهو من المدلسين الذين لا تقبل روايتهم إلا إذا صرحوا بالسماع، ولم يصرح بالسماع في هذا الخبر، وفيه أيضاً عبيد الله بن بسر وهو مجهول.
- (٦) سنده مرسل.
- (٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
- (٨) أخرجه الطبري من طريق السدي به، وسنده ضعيف لأن السدي لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه. والقراءة شاذة تفسيرية.
- (٩) أخرجه الحاكم من طريق الثوري به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٠٢/٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا عِبَادَةَ مَرْصَالَيْنِ﴾ (٧١) أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ عَاتِرِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ (٧٠) قال مجاهد: شبيهة بالهرولة^(١).

وقال سعيد بن جبير: يسفهنون.

﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٢) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٣﴾.

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين يندرون بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ولهذا قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٢) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾.

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (١٠) [القمر]، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) أي: فلنعم المجيبون له ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) وهو التكذيب والأذى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ (٧٧).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام^(٢).

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ (٧٧) قال الناس: كلهم من ذرية نوح عليه السلام^(٣).

وقد روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمره رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ﴾ (٧٧) قال: سام وحام ويافث^(٤).

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري كلاهما بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة به.

(٤) أخرجه الطبري والترمذي من طريق سعيد بن بشير به (السنن، التفسير، ومن سورة الصافات ح ٣٢٣٠) وسنده ضعيف لضعف سعيد بن بشير كما في التقريب، وعننة الحسن وقد توبع سعيد بن بشير كما سيأتي ويبقى الانقطاع بين الحسن وسمره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم»^(١). ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع، عن سعيد وهو ابن أبي عروبة، عن قتادة به^(٢).

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر، وقد روي عن [عمران]^(٣) بن حصين رضي الله عنه، عن النبي ﷺ مثله^(٤).

والمراد بالروم ههنا هم الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام ثم روي من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام ويافث وحام، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة فولد سام: العرب وفارس والروم، وولد يافث: الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام: القبط والسودان والبربر^(٥)، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) قال ابن عباس: يذكر بخير^(٦).

وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم^(٧).

وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين^(٨).

وقال الضحاك: السلام والثناء الحسن^(٩).

وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) مفسر لما أبقي عليه الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى ونجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١) أي: المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ثُمَّ أَفْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ (٨٢) أي: أهلكتناهم فلم يبق منهم عين تطرف ولا ذكر ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القيصة.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٩٢/٣٣ ح ٢٠٠٩٩) وضعف سنده محققوه.

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومثته (السنن، المناقب، باب مناقب في فضل العرب ح ٣٩٣١) وسنده ضعيف لعنة الحسن البصري.

(٣) كذا في (حم)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «عمر».

(٤) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١٨/١٤٣)، والحاكم (المستدرک ٢/٥٤٦)، كلاهما من طريق الحسن عن عمران بن الحصين مرفوعاً وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله موثقون (مجمع الزوائد ٩٨١/١). ولكن فيه أيضاً نعتة الحسن.

(٥) ذكر الطبري في التفسير من غير سند، وأسنده في (التاريخ ١/١٩٨) من طريق إسماعيل بن عياش به، وإسماعيل فيه مقال، وقد توبع كما في رواية ابن سعد (الطبقات الكبرى ١/٣٦) وفي رواية الحاكم (المستدرک ٤/٤٦٣) فالإسناد ثابت عن سعيد بن المسيب.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٧) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٩) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥) ﴿أَيْفَاكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) .

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) يقول من أهل دينه^(١).

وقال مجاهد: علي منهاجه وسنته^(٢) ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٤) .

قال ابن عباس: يعني: شهادة أن لا إله إلا الله^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عوف قلت لمحمد بن سيرين ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور^(٤). وقال الحسن: سليم من الشرك^(٥).

وقال عروة: لا يكون لعناً.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (٨٥) أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال: ﴿أَيْفَاكَ ءَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) .

قال قتادة: يعني: ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْرِبِينَ﴾ (٩٠) ﴿فَرَاغَ إِلَى ءَالِهِمْ فَقَالَ﴾ (٩١) ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ (٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَبْرًا يَأْتِينَ﴾ (٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَوْنَ﴾ (٩٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْغَيِّهِ﴾ (٩٨) ﴿فَإَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ (٩٩) ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ (١٠٠) .

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أَرَفَ خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بالهتهم ليكسرهما، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فَنَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْرِبِينَ﴾ (٩٠) .

قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم^(٦). يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يليهم به فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف، فأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا، حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، حدثني هشام، عن محمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى^(٧). وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله في سارة:

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) ذكره الطبري بمعناه دون نسبة إلى أحد. (٤) سنده صحيح.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنبياء آية رقم ٦٢ - ٦٣.

هي أختي» فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلاً ولماً، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث: «إن في المعارض لمدوحة عن الكذب»^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم عليه الصلاة والسلام الثلاث التي قال ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى: «فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ» وقال: «بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا» [الأنبياء: ٦٣] وقال للملك: حين أراد امرأته هي أختي»^(٢).

قال سفيان في قوله: «إِنِّي سَقِيمٌ» يعني: طعين وكانوا يفرون من المطعون فأراد أن يخلو بالهتهم^(٣)، وكذا قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه: في قوله تعالى: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ» (٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٩) فقالوا له: وهو في بيت الهتهم: أخرج فقال إني مطعون فتركوه مخافة الطاعون^(٤).

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: «إِنِّي سَقِيمٌ» كاید نبي الله عن دينه «فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ» (٩)^(٥).

وقال آخرون: «فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ» (٩) بالنسبة إلى ما يستقبل يعني مرض الموت^(٦)، وقيل: أراد «إِنِّي سَقِيمٌ» أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى.

وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال: «إِنِّي سَقِيمٌ» وجعل ينظر في السماء فلما خرجوا أقبل إلى الهتهم فكسرها^(٧). ورواه ابن أبي حاتم، ولهذا قال تعالى: «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» (١٠) أي: إلى عيدهم، (فراغ إلى الهتهم) أي: ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء «فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟» وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبارك لهم فيه.

وقال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة فإذا هم في بهو عظيم وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد باركت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: «أَلَا تَأْكُلُونَ» (١١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ (١٢)^(٨).

(١) ذكره البخاري في صحيحه في كتاب الأدب موباً بعنوان: باب المعارض مندوحة عن الكذب، وقد صح موقوفاً على عمران بن الحصين (ينظر السنن الكبرى للبيهقي ١٩٩/١٠ وفتح الباري ٥٩٤/١٠).

(٢) أخرجه البستي عن ابن أبي عمر العدني به، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

(٣) أخرجه البستي عن ابن أبي عمر عن سفيان، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه مجهولان عن سعيد بن جبير بنحوه.

(٧) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه الطبري بنحوه مختصراً بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٢) قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين^(١). وقال قتادة والجوهري فأقبل عليهم^(٢) ضرباً باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى ولهذا تركهم جزاءً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك^(٣).

وقوله تعالى ههنا: ﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوعٌ﴾ (٩٤) قال مجاهد: وغير واحد؛ أي: يسرعون^(٤)، وهذه القصة ههنا مختصرة وفي سورة الأنبياء مبسطة فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي فعل ذلك. فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبتهم فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) يحتمل أن تكون ما مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى: الذي، تقديره والله خلقكم والذي تعملونه وكلا القولين متلازم، والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن علي بن المديني، عن مروان بن معاوية، عن أبي مالك، عن ربعي بن حراش، عن خذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعتة» وقرأ بعضهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ^(٥). فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُبَشِّرُونَ بِقُوَّةٍ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونجاة الله من النار وأظهره عليهم وأعلى حجته ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَارْأَوْا بَهِيمَ كَيْدًا فَعَلَّاتُهُمُ الْآسَفِينَ﴾ (٩٧).

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِلَيَّ أَرَى فِي الْمَنَاءِ آيَةً أَدَّبُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَوُا قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَيِّدِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّكِئْهُمَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَنَدَيْنَاهُ بِذِي عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَزَكَّاهُ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خليفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ

(١) معاني القرآن ٢/٣٨٨.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) في الآيات ٥١ - ٦٢.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «والوزيف: النسلان».

(٥) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٧٣ وسنده صحيح، وصححه الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار ٢/١٥٣ (ح ١٦٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (الصحيح، الوضوء، باب التخفيف في الوضوء ح ١٣٨).

رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء في المنام وحي»^(١). ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّغِيرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مریم]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا وَلَّيْنَا لِلْجِبِينِ ﴿١٢٣﴾﴾ أي: فلما شهدا وذكرنا الله تعالى: إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت، وقيل: أسلما يعني استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى وإسماعيل طاعة لله ولأبيه قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن إسحاق وغيرهم^(٢)، ومعنى ﴿وَلَمَّا وَلَّيْنَا لِلْجِبِينِ﴾ أي: صرعه على وجهه ليدبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه. قال ابن عباس ؓ ومجاهد وسعيد بن جبیر والضحاك وقتادة ﴿وَلَمَّا وَلَّيْنَا لِلْجِبِينِ﴾ أكبه على وجهه^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج ويونس قالوا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي عاصم الغنوي، عن أبي الطفيل، عن ابن عباس ؓ أنه قال: لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات ثم ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، ثم تلّه للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض فقال: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفني فيه غيره فاخلعه حتى تكفني فيه، فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه: ﴿أَنْ يَتَابَرَهُمَا ﴿١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش، وذكر تمام الحديث في المناسك بطوله^(٤). ثم رواه أحمد بطوله من يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس ؓ فذكره إلا أنه قال: إسحاق^(٥). فعن ابن عباس في تسمية

(١) في سنده سماك وفي روايته عن عكرمة اضطراب فتارة رفعه كما هنا وتارة رواه موقوفاً على ابن عباس وهكذا رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٣١/٢) وعليه فالرفع ضعيف. والوقف صحيح.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه الطبري بسند ضعيف عن عكرمة وابن إسحاق.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه ويتقوى بالآثار التالية فقد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتمنه وأطول (المسند ٤٣٨/٤ ح ٢٧٠٧)، قال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي عاصم الغنوي فقد روى له أبو داود، وقال أبو حاتم: لا أعرف اسمه ولا أعرفه.. ولمعظم هذا الحديث طرق وشواهد يتقوى بها.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتمنه (المسند ١٢/٥ ح ٢٧٩٤) وضعف سنده محققوه.

الذبيح روايتان والأظهر عنه إسماعيل لما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وقال محمد بن إسحاق: عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدَّيْنَتْهُ يَذْبَحُ عَظِيمًا﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى فرماه بسبع حصيات ثم أفلته عندها فجاء إلى الجمرة الوسطى فأخرجه عندها فرماه بسبع حصيات ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها ثم أخذه فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وأن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة حتى وحش يعني: ييس ^(١).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب فجعل أبو هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم فجعل كعب يحدث عن الكتب فقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لكل نبي دعوة مستجابة وإنني قد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم. قال: فذاك أبي وأمي - أو فداه أبي وأمي - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟ إنه لما أري ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً، فخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه ليذبحه فذهب الشيطان فدخل على سارة فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: فإنه لم يغد به لحاجة إنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه، فذهب الشيطان في أثرهما، فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال: فإنه لا يذهب بك لحاجة ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحني؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله تعالى أمره بذلك ليفعلن. قال: فيئس منه، فتركه ولحق بإبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة وإنما غدوت به لتذبحه قال: ولم أذبحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك؟ قال: فوالله لئن كان الله تعالى أمرني بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويئس أن يطاع ^(٢)، وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن يونس، عن ابن يزيد، عن ابن شهاب قال: إن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي أخبره أن كعباً قال لأبي هريرة: فذكره بطوله، وقال في آخره: وأوحى الله تعالى إلى إسحاق: إني أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم إني أدعوك أن تستجيب لي أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة ^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم،

(١) أخرجه الطبري عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لعدم تصريح ابن إسحاق بالسمع، وضعف ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في (التفسير والمصنف رقم ٢٠٨٦٤) وسنده صحيح وما ذكره كعب الأحبار هو من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، والخبر أيضاً من الإسرائيليات.

حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي وبين أن يجيب شفاعتي فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكون أعم لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي، إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له: يا إسحاق سل تعط؟ فقال: أما والذي نفسي بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً فاعف له وأدخله الجنة»^(١) هذا حديث غريب منكر وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مدرجة وهي قوله: إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن إسماعيل وإنما حرّفوه بإسحاق حسداً منهم كما تقدم وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة حيث كان إسماعيل لا إسحاق فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْتَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ^(١٤) قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا﴾ أي: قد حصل المقصود من رؤياك واضجاعك ولدك للذبح.

وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً بل حال بينهما وبينه صفحة من نحاس، ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا^(٣)﴾ [الطلاق].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً: إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ^(٤)﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى^(٥)﴾ [النجم].

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ^(٦)﴾ قال سفيان الثوري: عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي بن أبي طالب عليه السلام: ﴿وَلَدَيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ^(٧)﴾ قال بكبش: أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل: وجدوه مربوطاً بسمرة في ثبير^(٨).

وقال الثوري أيضاً: عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) سنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي مطولاً والخبر من الإسرائيليات.

(٣) أي: شجرة على جبل اسمه: ثبير، وهو من جبال مكة.

(٤) أخرجه الطبري من طريق الثوري به، وسنده ضعيف لضعف جابر الجعفي.

قال: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العطار، عن ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزوناً حتى فدي به إسحاق^(٢)، وروي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة حتى فُدي به إسحاق^(٣)، وروي أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن^(٤) أحمر^(٥).

وعن الحسن البصري أنه قال: كان اسم كبش إبراهيم: جرير^(٦).

وقال ابن جريج: قال عُبيد بن عُمر: ذبحه بالمقام.

وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر^(٧).

وقال هشيم: عن سيار، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ﴾^(٨).
والصحيح الذي عليه الأكثر أن فُدي بكبش^(٩).

وقال الثوري: عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ﴾ قال: وعمل^(٩).

وقال محمد بن إسحاق: عن عمرو بن عُبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير^(١٠).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثني منصور، عن خاله مسافع، عن صفية بنت شيبة، قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه، وقالت مرة: أنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخرهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي» قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا^(١١). وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فإن قريشاً توارثوا

(١) سنده حسن، والخبر من الإسرائيليات.

(٢) سنده حسن، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وهو قول غريب.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن جريج عن عُبيد بن عمير، ومن طريق ابن جريج عن مجاهد لكنه لم يسمع من مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده جيد.

(٧) أخرجه الطبري من طريق محمد بن إسحاق به، وسنده ضعيف لأن ابن إسحاق لم يصرح بالسمع.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٩٦/٢٧ ح ١٦٦٣٧) وصححه سنده محققه.

(٩) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده جيد.

(١٠) أخرجه الطبري من طريق محمد بن إسحاق به، وسنده ضعيف لأن ابن إسحاق لم يصرح بالسمع.

قرني الكبش الذي قُدي به إبراهيم خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو؟

ذكر من قال: هو إسحاق عليه الصلاة والسلام:

قال حمزة الزيات: عن أبي ميسرة رضي الله عنه قال: قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه: ترغب أن تأكل معي وأنا والله: يوسف بن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله^(١).

وقال الثوري، عن أبي سنان، عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك: كذلك أيضاً^(٢)، وقال سفيان الثوري: عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: قال موسى عليه الصلاة والسلام: يا ربّ يقولون بلّله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك؟ قال: «إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جادّ لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن^(٣)».

وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أنا فلان بن فلان بن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله^(٤). وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه إسحاق^(٥)، وعن أبيه العباس وعن علي بن أبي طالب مثل ذلك، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير، وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق، وهكذا روى ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن الزهري، عن أبي سفيان ابن العلاء بن حارثة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن كعب الأحبار أنه قال: هو إسحاق.

وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق، عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة ومقاتل والزهري والسدي قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس^(٦).

وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده.

(٢) سنده مرسل وهو من الإسرائيليات.

(١) سنده مرسل وهو من الإسرائيليات.

(٣) سنده مرسل وهو من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه الحاكم من طريق سنيّد عن حجاج بن محمد عن شعبة به وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: سنيّد لم يكن بذلك (المستدرک ٥٥٩/٢).

(٥) أخرجه الحاكم من طريق عكرمة به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٥٨٨/٢).

(٦) معالم التنزيل ٤٦/٧.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب عليه السلام، عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال: هو إسحاق^(١). ففي إسناده ضعيفان وهما: الحسن بن دينار البصري متروك، وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث. وقد رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعاً^(٢)، ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس عليه السلام وهذا أشبه وأصح.

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به:

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس عليه السلام أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام، وقال سعيد بن جبيرة وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد، عن ابن عباس عليه السلام هو: إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود^(٣). وقال إسرائيل: عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر عليهما السلام قال: الذبيح إسماعيل^(٤).

وقال ابن أبي نجيع: عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام^(٥)، وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبي: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكيش في الكعبة.

وقال محمد بن إسحاق: عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام^(٦).

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧١﴾ ويقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] يقول بابن وابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل^(٧).

قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً.

(١) سنده ضعيف جداً لأن الحسن بن دينار متروك كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٢) سنده كسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتمنه، وسنده صحيح، وأخرجه مسلم من طريق ابن وهب به مختصراً على ذكر الشفاعة (الصحيح، الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته ح ٣٣٧).

(٤) سنده صحيح.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن جريج عن ابن أبي نجيع به.

(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق وسنده ضعيف لأن الحسن بن دينار متروك (لسان الميزان ٢/٢٠٣) وعمرو بن عبيد فيه مقال.

(٧) أخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق به وسكت عنه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٥٥٥) وسنده حسن وقد صرح ابن إسحاق بالسماع.

وقال ابن إسحاق: عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإنني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: أي: ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لكون إسحاق أباهم والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله تعالى.^(١)

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله: سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام، قال: وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرة والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنه أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس، وحكاها أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء^(٢).

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي، حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان، عن أبيه، حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال: علي الخبير سقطتم: كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ فقليل له: يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر الله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنتك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل^(٣). وهذا حديث غريب جداً وقد رواه الأموي في مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان، حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به.

(٢) معالم التنزيل ٤٧/٧.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف فقد أخرجه الحاكم من طريق إسماعيل بن عبيد به وسكت عنه وقال الذهبي: إسناده واهٍ (المستدرک ٥٥٤/٢) وضعفه السيوطي في الدر المنثور.

فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق وذكره^(١)، كذا كتبه من نسخة [مغلوطه]^(٢)، وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٥٦﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي؛ أي: العمل، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلتا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جداً والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيٍّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر^(٣).

وقوله تعالى: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة؛ أي: سيصير منه نبي صالح.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علي، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما الذبيح إسحاق قال: وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيٍّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قال بشر بن نبوته قال، وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَنْ يَرْتَمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿٥٣﴾ [مريم]، قال: كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته^(٤).

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيٍّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قال: إنما بشر به نبياً حين فداه الله من الذبح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيٍّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قال: بشر به حين ولد وحين نُبئ^(٦).

وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيٍّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قال: بعد ما كان أمره لما جاد الله تعالى بنفسه. وقال الله: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾^(٧).

وقوله: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ﴿٥٨﴾ كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَنْحُ أَمِيطْ يَسْلَمِ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِ وَمَنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَنَا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ ﴿٥٩﴾ [هود].

(١) سنده ضعيف لإبهايم شيخ الأموي.

(٢) كذا في نسخة (مح) وفي (حم) بلفظ: «كذا»، ولم تذكر هذه الكلمة في الأصل.

(٣) في الآية ٧١ من سورة هود، وفي الآية ٥٣ من سورة الحجر.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن. (٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن.

(٦) سنده حسن.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَخَيَّرْنَاهُمَا مِمَّا آمَنَ بِهِمَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمَا فِي الْفِيلِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قوم فرعون وقومه وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوراة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال ههنا: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: في الأقوال والأفعال ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً وثناً حسناً ثم فسره بقوله تعالى: ﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ائِدْعُونَنِي بِعَلَا وَتَدْرُوتُ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُّخْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قال قتادة ومحمد بن إسحاق: يقال: إلياس هو: إدريس^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيدة بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس: هو إدريس^(٢). وكذا قال الضحاك.

وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن تسبي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليه السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له: بعل^(٣)، فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتدّ واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوهم أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبت ما كانوا عليه من الكفر فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه اليسع بن

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) سنده حسن وأخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن أبي نعيم به (ينظر: تغليق التعليق ٢٩٤/٤) وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٦/٣٧٣).

(٣) أخرجه الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، وفيه عنونة ابن إسحاق.

أخطوب عليهما الصلاة والسلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا فمهما جاء^(١) فليركبه ولا يهبه فجاءته فرس من نار فركب وألبسه الله تعالى النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكاً إنسياً سماوياً أرضياً^(٢). هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب والله أعلم بصحته.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١١٢) أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ (١٢٥) قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: بعلاً يعني: رباً^(٣). قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن^(٤)، وفي رواية عن قتادة قال: وهي لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: بعل^(٥). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: عن أبيه، هو اسم صنم كان يعبداه أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق^(٦).

وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه^(٧).

وقوله تعالى: ﴿أَدْعُونَ بَعْلًا﴾؟ أي: أتعبدون صنماً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ﴾ (١٢٥) الله رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ كَمَطَرٌ مَحْضَرُونَ﴾ (١٢٧) أي: للعذاب يوم الحساب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٢٨) أي: الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع من مثبت.

وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٢٩) أي: ثناء جميلاً ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكَ يَا سَيِّدَ﴾ (١٣٠) كما يقال في إسماعيل: إسماعيل وهو لغة بني أسد، وأنشد بعض بني تميم في ضب صاده:

يقول رب السوق لما جينا هذا ورب البيت [إسرائيلينا]^{(٨)(٩)}

ويقال ميكال وميكائيل وإبراهيم وإبراهيم وإسرائيل وإسرائيل وطور سيناء وطور سينين، وهو موضع واحد وكل هذا سائغ وقرأ آخرون «سلام على إدراسين» وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه^(١٠)،

(١) كذا في الأصل، وفي تفسير الطبري بلفظ: «فماذا جاءك من شيء».

(٢) أخرجه الطبري بالسند المتقدم عن ابن إسحاق، وليس فيه عن وهب بن منبه.

(٣) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم (ينظر تغليق التعليق ٢٩٤/٤)، والطبري بإسنادين يقوي أحدهما الآخر، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري من طريق عمارة عنه، ولم أعرف من هو عمارة، وقول قتادة سيأتي في الرواية التالية، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لإبهايم شيخ ابن إسحاق.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

(٧) أخرجه البُستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٨) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل: ضُحِفَ إلى: «أنس بينا».

(٩) استشهد به الفراء (معاني القرآن ٣٩١/٢)، والطبري دون نسبة.

(١٠) ذكرها الطبري عن ابن مسعود من غير سند، وهي قراءة شاذة.

وقرأ آخرون «سلام على آل ياسين»^(١) يعني: آل محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٦) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ قد تقدم تفسيره.

﴿وَلَوْ لَوُطَا لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا حُجُورًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَنَكُورُنَّ عَنْهُمْ مُصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِأَيِّلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾.

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فذكبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرين ليلاً ونهاراً ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنَكُورُنَّ عَنْهُمْ مُصِيبِينَ﴾ (١٣٧) وَبِأَيِّلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿وَإِنْ يُؤْخَسْ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٦) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٧﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣٨﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٠﴾ لَلِيتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤١﴾ فَبَدَّنَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٢﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٣﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٤﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٥﴾.

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء^(٢)، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»^(٣) ونسبه إلى أمه وفي رواية إلى أبيه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٣٧) قال ابن عباس: هو الموقر؛ أي: المملوء بالأمّعة^(٤).

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام فلا يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي فقام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: يا ربّ اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل: ثلاثة أيام

(٢) آية ٨٧ - ٨٨.

(١) وهي قراءة متواترة.

(٣) صحيح البخاري، الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُؤْخَسْ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات] (ح ٣٣٩٥) وصحيح مسلم، الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (ح ٢٣٧٧).

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

قاله قتادة^(١).

وقيل: سبعة قاله جعفر الصادق عليه السلام^(٢).

وقيل: أربعين يوماً قاله أبو مالك^(٣).

وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك، وفي شعر أمية بن أبي الصلت:

وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات في أضعاف حوت لياليا^(٤)

وقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ (١٣٩) لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب بن منبه و قتادة^(٥) وغير واحد، واختاره ابن جرير، وقد ورد في الحديث الذي سنورده إن شاء الله تعالى ما يدل على ذلك إن صحَّ الخبر، وفي حديث ابن عباس: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»^(٦).

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن و قتادة: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ (١٣٩) يعني: المصلين^(٧)، وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك، وقال بعضهم: كان من المسيحيين في جوف أبيه، وقيل: المراد ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَتْ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ (١٣٩) هو قوله: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْفَرِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) [الأنبياء]، قاله سعيد بن جبير^(٨) وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي بن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو صخر، أن يزيد الرقاشي حدثه أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه، ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: «إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فأقبلت الدعوة تحفُّ بالعرش، قالت الملائكة: يا ربُّ هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة، فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا ربُّ ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي

(١) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنبياء آية ٨٧، ٨٨، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق السدي عن أبي مالك.

(٤) استشهد به ابن هشام (السيرة النبوية ٢٢٨/١).

(٥) قول الضحاك بن قيس أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٣٧٥/١٣)، والطبري كلاهما من طريق جعفر عن ميمون بن مهران عنه، وجعفر لم يتبين لي من هو، وقول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بلفظه وأطول (المسند ١٩/٥ ح ٢٨٠٣)، وصححه سننه محققوه. وهو حسن الإسناد.

(٧) قول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق والبستي والطبري بسند حسن من طريق أبي رزين عنه، وقول سعيد بن جبير، أخرجه الطبري من طريق أبي الهيثم عنه ويشهد له سابقه ولاحقه، وقول السدي، أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول الحسن، أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عمران القطان عنه.

(٨) ينظر تفسير سورة الأنبياء آية ٨٧، ٨٨.

لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة. قالوا: يا ربّ أولاً ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء، قال: بلى فأمر الحوت فطرحة بالعراء^(١) ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب به، زاد ابن أبي حاتم قال أبو صخر حميد بن زياد: فأخبرني ابن قُسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة رضي الله عنه: وهياً الله له أروية وحشية تأكل من حشائش الأرض، قال فتفتش عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى [نبت]^(٢) وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره وهو:

فأنبت يقطيناً عليه برحمة من الله لولا الله ألقى ضاحياً^(٣)

وقد تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسنداً مرفوعاً في تفسير سورة الأنبياء^(٤)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: وهو الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء^(٥). قيل: على جانب دجلة^(٦) وقيل: بأرض اليمن فالله أعلم ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش^(٧).

وقال السدي: كهيئة الصبي^(٨) حين يولد وهو المنفوس، وقاله ابن عباس وابن زيد أيضاً^(٩).

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع^(١٠).

وقال هشيم، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: وكل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين^(١١)، وفي رواية عنه كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين^(١٢).

(١) تقدم تخريجه في تفسير الأنبياء آية ٨٧، ٨٨.

(٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحف إلى: «نبت».

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن وهب عن أبي صخر به، وأخرجه عبد الرزاق عن أبي صخر به، وسنده حسن.

(٤) تقدم في سورة الأنبياء آية ٨٧، ٨٨، ولكن بدون ذكر الشعر ولفظ آخر.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «القيناه بالساحل»، وأما اللفظ المذكور أعلاه أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر عن سعيد بن جبير.

(٧) أخرجه البستي بسند صحيح من طريق عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.

(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق فيه ابن إسحاق معنعنا، وأخرجه أيضاً الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١١) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده صحيح.

(١٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق الأصمغ بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير.

وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته وتظليل ورقه لكبره ونعومته وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ويتبعه من نواحي الصحفة^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (٤٧) روى شهر بن حوشب، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعد ما نبذه الحوت، رواه ابن جرير، حدثني الحارث، حدثنا أبو هلال عن شهر به^(٢).

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت^(٣).

(قلت): ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به.

وحكى البغوي: أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون^(٤). وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس في رواية عنه: بل يزيدون وكانوا مائة وثلاثين ألفاً^(٥)، وعنه مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً^(٦) وعنه مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً^(٧) والله أعلم. وقال سعيد بن جبیر: يزيدون سبعين ألفاً^(٨).

وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيراً يحدث عن سمع أبا العالية يقول: حدثني أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (٤٧) قال: يزيدون عشرين ألفاً^(٩). ورواه الترمذي، عن علي بن حجر، عن الوليد بن مسلم، عن زهير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب به وقال غريب^(١٠). ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير به^(١١).

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك معناه: إلى المائة الألف أو كانوا يزيدون عندكم، يقول كذلك كانوا عندكم^(١٢). ولهذا سلك ابن جرير ههنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا فُرِقَ مِنْهُمْ يُخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (الصحيح، الأطعمة، باب من ناول، أو قدم إلى صاحبه، على المائدة شيئاً ح ٥٤٣٩).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده فيه شهر بن حوشب فيه مقال.

(٣) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح به.

(٤) معالم التنزيل ٢٣/٤ ط. المعرفة.

(٥) أخرجه الطبري من طريق الحكم بن عبد الله الأزور عن ابن عباس، ولم أقف على ترجمة الحكم.

(٦) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم. (٧) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٨) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومثته وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي العالية.

(١٠) السنن، التفسير، باب ومن سورة الصافات (ح ٣٢٢٩) وسنده ضعيف كسابقه.

(١١) سنده ضعيف كسابقه.

(١٢) ذكره الطبري بلفظه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم]، المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد وقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس].

﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ بَرِّئْتَ أَلْبَنَاتٍ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ [١٤٩] أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلَانَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ إِن كُنتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾.

يقول تعالى منكرًا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم ما يشتهون أي: من الذكور؛ أي: يودون لأنفسهم الجيد ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل] أي: يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول تعالى فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ﴾ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿بَرِّئْتَ أَلْبَنَاتٍ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ كقوله: ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ [١٦٠] تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿١٦١﴾ [النجم].

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شٰهِدُونَ﴾ [١٥٠] أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَخَتْكَبٌ شٰهَدَتُهُمْ وَيُشْكِرُونَ﴾ [الزخرف] أي: يسألون عن ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [١٥١] وَلَدَ اللَّهُ ﴿١٥٢﴾ أي: صدر منه الولد ﴿وَلَانَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم بنات الله فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [١٥٣] أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين كقوله: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِجْلُكُم بِالْبَنِينَ وَالنَّجَدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّا نَعْلَمُ إِنَّكُمْ لَخٰثِرُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء] ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [١٥٤] أي: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [١٥٥] أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ أي: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِن كُنتُمْ صٰدِقِينَ﴾ [١٥٧] أي: هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل بل لا يجوزه العقل بالكلية.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر عليه السلام فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن^(١)، وكذا قال قتادة وابن

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأما قول أبي بكر عليه السلام فالإسناد منقطع لأن مجاهداً لم يسمع منه.

زيد^(١)، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْخِنَّةَ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا: ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافتراءهم وقولهم الباطل بلا علم.

وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْخِنَّةِ نَبْأً﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان^(٢) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، حكاه ابن جرير. وقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عائد إلى الناس جميعهم ثم استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وفي هذا الذي قاله نظر.

﴿فَإِنَّكَ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنَةٍ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْحَجِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠).

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَإِنَّكَ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنَةٍ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْحَجِيمِ (١٦٣) أي: إنما ينقاد لمقاتلكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرى للنار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَافٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لِنِى قَوْلٍ تُخَالِفُ﴾ (١٦٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (١٦٩) [الذاريات] أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٦٤) أي: له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه.

وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمد بن خالد بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه وكان بايع يوم الفتح أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطت السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راکع أو ساجد» ثم قرأ ﷻ ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ^(٣).

(١) قول قتادة أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه عمرو بن سعيد الأبيح وهو ضعيف، ويتقوى بسابقه ولاحقه، فقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) أسنده الحافظ ابن كثير في تفسير سورة المدثر آية رقم ٣١ من رواية المروزي، وهي في كتاب (تعظيم قدر الصلاة رقم ٢٥٥) وسنده ضعيف جداً لأن محمد بن خالد وهو الدمشقي كذبه أبو حاتم الرازي (ينظر لسان =

وقال الضحاك في تفسيره ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) قال: كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) (١).

وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن مسروق، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه ثم قرأ عبد الله ﷺ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) (٢). وكذا قال سعيد بن جبير:

وقال قتادة: كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) فتقدم الرجال وتأخر النساء (٣).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) أي: نقف صفوفاً في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصَّالِتِينَ صَفًا﴾ (١) [الصافات].

قال ابن جريج، عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزل ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) فصفوا (٤).

وقال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال: أقيموا صفوفكم استووا قياماً يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) تأخر يا فلان تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر. رواه ابن أبي حاتم وابن جبير (٥).

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً...» الحديث (٦).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٦) أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه ونزهره عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه.

وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٦) الملائكة تسبح الله ﷻ (٧).

وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٦) يعني: المصلون يشبتون بمكانهم (٨) من العبادة كما قال

= الميزان ١٥٣/٥، وقد ورد بإسناد صحيح من غير ذكر الآية كما يلي.

(١) أخرجه المروزي من طريق عبيد بن سليمان الباهلي عن الضحاك بن مزاحم به (تعظيم قدر الصلاة رقم ٢٥٣)، وكذا أخرجه أبو الشيخ (العظمة ٩٨٤/٣) وحسنه الألباني بالشواهد (السلسلة الصحيحة ح ١٠٥٩)، ولكن الشواهد بدون قراءة الآية.

(٢) سنده صحيح وأورده الألباني من طريق مسلم بن صبيح أبي الضحى عن مسروق به وصححه. (المصدر السابق) وكذا أخرجه عبد الرزاق والبستي والطبري من طريق أبي الضحى به.

(٣) سنده مرسل. (٤) سنده مرسل.

(٥) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن إياس الجريدي عن أبي نضرة به وسنده منقطع لأن أبا نضرة وهو المنذر بن مالك لم يسمع من عمر رضي الله عنه.

(٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٤٣ في آخر تفسيرها.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى برواية مجاهد فقد أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ بَلِّ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٧١﴾ لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٧٣﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴿١٧٢﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٣﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْأُمِّيِّ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٧٢﴾﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأنعام]، ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿فَكْفُرُوا بِهِمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم ﷻ وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْأُمِّيِّ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْأُمِّيِّ ﴿١٧١﴾﴾ أي: تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأِبْرَاهِيمَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٧١﴾﴾ [المجادلة]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿١٧٢﴾﴾ [غافر]، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْأُمِّيِّ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [أي: تكون لهم العاقبة]. وقوله جل وعلا^(١): ﴿فَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، ولهذا قال بعضهم: غيى ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضاً في معناها.

وقوله: ﴿وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: أنظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ ثم قال: ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم.

وقال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني: بدارهم ﴿فَمَاءٌ صَبَاحٌ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي: فبئس ما يصبحون^(١)؛ أي: بئس الصباح صباحهم. ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث إسماعيل بن عليه، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خير، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم^(٢) ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خير إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٣). ورواه البخاري من حديث مالك، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: لما صبح رسول الله ﷺ خير وقد أخذوا مساحيهم وغدوا إلى حروثهم وأرضهم، فلما رأوا النبي ﷺ نكصوا مدبرين، فقال نبي الله ﷺ: «الله أكبر الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٥). لم يخرجوه من هذه الوجه وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۖ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدها ويرئها عما يقول الظالمون المكدبون المعتدون تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي: ذي العزة التي لا تُرام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۖ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا عليّ المرسلين فأنا رسول المرسلين»^(٦). هكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سعيد عنه كذلك.

وقد أسنده ابن أبي حاتم رحمته الله فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد، حدثنا أبو بكر الأعين

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) المساحي جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد (النهاية ٤/٣٢٨).

(٣) أخرجه البخاري عن يعقوب بن إبراهيم عن إسماعيل بن عليه به مطولاً (الصلاة، باب ما يُذكر في الفخذ ح ٣٧١)، وأخرجه مسلم عن زهير بن حرب عن إسماعيل بن عليه به (الصحيح، الجهاد، باب غزوة خيبر ح ١٣٦٥/١٢٠).

(٤) أخرجه البخاري عن عبد الله بن يوسف عن مالك به (الصحيح، المغازي، باب غزوة خيبر ح ٤١٩٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/٢٨) وسنده صحيح.

(٦) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة به، ورجاله ثقات لكنه مرسل ويتقوى بما يليه.

ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالوا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، قال: حدثنا أنس بن مالك، عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا عليّ المرسلين»^(١).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يسلم قال: «سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» ثم يسلم^(٢)، إسناده ضعيف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطي، حدثنا شبابة، عن يونس بن أبي إسحاق، عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾». وروي من وجه آخر متصل موقوف على علي رضي الله عنه^(٤).

قال أبو محمد البغوي في تفسيره: أخبرنا أبو سعيد أحمد بن [إبراهيم الشريحي]^(٥)، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني ابن فنجويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهلويه، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، عن ثابت بن أبي صفية، عن الأصبع بن نباتة، عن علي رضي الله عنه قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾^(٦).

وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر بن الأنسي، عن عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «من قال دُبُرَ كل صلاة: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾ ثلاث مرات فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر»^(٧).

وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وقد أفردت لها جزءاً على حدة، فليكتب ههنا إن شاء الله تعالى^(٨).

آخر تفسير الصافات. والحمد لله وحده وصلوته وسلامه على محمد خير خلقه.

(١) سنده صحيح.

(٢) أخرجه أبو يعلى من طريق أبي هارون به (المسند ٣٦٣/٢ ح ١١١٨) وسنده ضعيف جداً لأن أبا هارون وهو عمارة بن جوين متروك كما في التقريب، وأخرجه البستي من طريق أبي هارون به.

(٣) سنده ضعيف لإرسال الشعبي. (٤) وهو ضعيف أيضاً كما يأتي.

(٥) كذا في (مح) وتفسير البغوي، وفي الأصل باسم: شريح. دون نسبة وفي (حم) صحف إلى: «الزنجي».

(٦) أخرجه البغوي بسنده ومثته. وسنده ضعيف جداً لأن الأصبع بن نباتة متروك كما في التقريب.

(٧) أخرجه الطبراني من طريق عبد المنعم بن بشير عن عبد الله الأنسي (المعجم الكبير ٢١١/٥ ح ٥١٢٤)، وسنده ضعيف جداً قال الهيثمي فيه عبد المنعم بن بشير وهو ضعيف جداً (مجمع الزوائد ١٠/١٠٣).

(٨) كذا قال ولم يذكر تلك الروايات وقد سردها الشيخ الفاضل: سامي بن محمد السلامة في تحقيقه لتفسير ابن كثير ٤٧/٧ - ٥٠.

سورة ضحى

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ❶ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ❷ ❸ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ
فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرٍ ❹ ❺

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا.
وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في
المعاش والمعاد قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
كُتُبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ ❶ [الأنبياء: ١٠] أي: تذكيركم وكذا قال قتادة ❷ واختاره ابن جرير.
وقال ابن عباس ❸ وسعيد بن جبيرة وإسماعيل بن أبي خالد وابن عيينة وأبو حصين وأبو
صالح والسدي: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي الشرف ❹؛ أي: ذي الشأن والمكانة، ولا منافاة بين القولين
فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار.
واختلفوا في جواب هذا القسم فقال بعضهم هو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
عِقَابِ﴾ ❺ [ص].

وقيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ❻ [ص]، حكاهما ابن جرير [وهذا الثاني
فيه بُعد كبير وضعفه ابن جرير] ❷.

وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾ ❸ ❹ واختاره ابن جرير ثم حكى ابن
جرير عن بعض أهل العربية أنه قال جوابه ﴿صَّ﴾ بمعنى صدق حق ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ وقيل:
جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها والله أعلم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾ ❸ ❹ أي: إن في هذا القرآن لذكراً لمن
يتذكر وعبرة لمن يعتبر وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزِّهِمْ﴾ أي: استكبار عنه وحمية

(١) أخرجه الطبري بسند فيه إبهام شيخه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق
مسعر عن أبي حصين، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل عن أبي صالح، وأخرجه الطبري
بسند حسن من طريق إسباط عن السدي.

(٤) زيادة من (حم) و(مع).

(٥) أخرجه الطبري بالإسناد الصحيح المتقدم بلفظ: «ههنا وقع القسم».

﴿وَشَقَاقٍ﴾ أي: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلّة من السماء، فقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذبة ﴿فَنَادَوْا﴾ أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: يهربون ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَنَبَّهُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن التميمي قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادَوْا وَلَآتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال: ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار ^(١). وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث ^(٢).

وقال شبيب بن بشر: عن عكرمة، عن ابن عباس نادوا النداء حين لا ينفعهم وأنشد: تذكر ليلى لات حين تذكر ^(٣).

وقال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا وَلَآتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يقول نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستنصو للتوبة حين تولت الدنيا عنهم ^(٤).

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء ^(٥).

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوْا وَلَآتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة ^(٦). وقد روي نحو هذا عن عكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك والضحاك وزيد بن أسلم والحسن وقاتدة ^(٧).

وعن مالك، عن زيد بن أسلم ﴿وَلَآتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ولا نداء في غير حين النداء ^(٨)، وهذه الكلمة وهي: لات، هي لا التي للنفي زيدت معها التاء كما تزداد في ثم فيقولون: (ثمت) و(رب) فيقولون ربّت وهي مفصولة والوقف عليها، ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين ولا تحين مناص والمشهور الأول ثم قرأ الجمهور بنصب حين تقديره: وليس الحين حين مناص، ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تذكر حب ليلى لات حيناً وأضحى الشيب قد قطع القرينا ^(٩)

ومنهم من جوز الجر بها وأنشد:

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن ليس حين بقاء ^(١٠)

(١) أخرجه الحاكم من طريق أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٣٢).

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) سنده حسن، ونسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن عكرمة به.

(٤) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن كعب بنحوه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد بلفظ: «ليس بحين فرار»، وأخرجه البستي من طريق ابن جريج عن مجاهد كاملاً لكن ابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق أيوب السخيتاني عن عكرمة، وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد عن سعيد بن جبير والحسن البصري، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٨) سنده صحيح.

(٩) و(١٠) استشهد بها الطبري.

وأنشد بعضهم أيضاً:

ولات ساعة منندم^(١)

بخفض الساعة وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاسٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۖ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۖ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۖ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْأَخِيرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِلَاقٌ ۖ ﴿٧﴾ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَنَّا ۖ ﴿٨﴾ أَمِ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ ۖ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْهُمَا فِي الْآسْبَابِ ۖ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۖ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ ﴿١﴾﴾ [يونس] وقال ههنا: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم وقال الكافرون: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۖ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي: أزعـم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۖ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبارؤهم قائلين ﴿امْشُوا﴾ أي: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه^(٢).

ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات.

قال السدي: إن ناساً من قريش اجتمعوا فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكتف عن شتم آلِهتنا وندعه وإلهه الذي يعبد، فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب يقولون: تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه فبعثوا رجلاً منهم يقال له: المطلب فاستأذن لهم علي أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم، فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكتف عن شتم آلِهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلِهتهم ويدعوك وإلهك قال ﷺ: «يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم» قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب

ويملكون بها العجم» فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرًا أمثالها قال ﷺ: «تقولون: لا إله إلا الله» فنفروا وقالوا: سلنا غيرها قال ﷺ: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» فقاموا من عنده غضابًا وقالوا: والله لنشتمك وإلهك الذي أمرك بهذا ﴿وَأَنطَلَقَ اللَّأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قوله: لا إله إلا الله، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] (١).

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهم ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل. قال: فخشي أبو جهل - لعنه الله - إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي: ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهم ويقولون ويقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» ففرعوا لكلمته ولقوله فقال القوم: كلمة واحدة نعم وأبيك عشرًا فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: «لا إله إلا الله» فقاموا: فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿بَلْ لَمَّا يَبْلُغُوا عَذَابِ﴾ لفظ أبي كريب (٢).

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي من حديث محمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن أبي أسامة، عن الأعمش، عن عباد غير منسوب به نحوه، ورواه الترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن يحيى بن عمار الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما... فذكر نحوه. وقال الترمذي: حسن (٣).

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَمَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الأمّة الآخرة.

قال مجاهد وقتادة وابن زيد: يعنون دين قريش (٤)، وقال غيرهم: يعنون النصرانية قاله

(١) أخرجه الطبري وسنده مرسل ولبعظه شاهد، أخرجه ابن حبان (موارد الظمآن، كتاب التفسير، سورة صّ رقم ١٧٥٧)، والحاكم كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٣٢)، وأخرجه الإمام أحمد، وصححه سننه أحمد شاكر (المسند رقم ٢٠٠٨).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتمنه، وسنده ضعيف لجهالة عباد بن جعفر ويشهد لبعظه ما تقدم في روايته الإمام أحمد والحاكم.

(٣) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة صّ (ح ٣٢٣٢)، والسنن الكبرى، التفسير رقم ٤٥٦، وتفسير الطبري ورواية الإمام تقدم ذكرها في الرواية السابقة.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

محمد بن كعب والسدي^(١).

وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة؛ يعني: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى^(٢). ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَقُ﴾.

قال مجاهد وقتادة: كذب^(٣).

وقال ابن عباس: تخرص^(٤).

وقولهم: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال الله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته سيعلمون غيب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعاءً.

ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ويختتم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير.

ولهذا قال تعالى منكرأ عليهم: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أي: العزيز الذي لا يُرام جنباه الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ تَحْسِبُونَ أَنَّ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] فَمَنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٣] وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشر ﷺ وكما أخبر تعالى عن قوم صالح ﷺ حين قالوا: ﴿أَتَأْتِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٥] سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ [القمر: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب.

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوى برواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس التي أخرجها الطبري بسند ثابت.

(٣) أخرجه الطبري وآدم بالسند الصحيح المتقدم عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. بلفظ: «تخريص».

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: يعني: طرق السماء^(١).
وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة^(٢).

ثم قال: ﴿جُنُذٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١) أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كُتِبَ الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ (٤٤) ﴿سَيَهْرِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) كان ذلك يوم بدر ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ (٤٦) [القمر].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْبَادِ﴾ (١٧) ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (١٨) ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ (١٩) ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (٢٠) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَّنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢١).

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسطة في أماكن متعددة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ (١١) أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ﴾ (١٩) فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (٢٠) قال مالك، عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثوية^(٣)؛ أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها؛ أي: فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي: نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَّنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢١) هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القبط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن غير واحد: سألوا تعجيل العذاب^(٤)، زاد قتادة كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتُونَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٥) [الأنفال: ٣٢].

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة^(٦) إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا، وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب.

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٣) سنده صحيح، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الثوري عن أشعث عن الحسن.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ثابت الحداد عن سعيد بن جبير.

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا^(١). وهذا الذي قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد والله أعلم. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر:

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٧ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۝٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّانَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ۝١٠﴾.

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد، والأيد القوة في العلم والعمل.

قال ابن عباس والسدي وابن زيد: الأيد: القوة. وقرأ ابن زيد ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا يَأْتِيهِمْ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ۝٧^(٢) [الذاريات]. وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة^(٣).

وقال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر^(٤).

وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وأنه كان أواباً»^(٥) وهو الرجاء إلى الله ﷻ في جميع أموره وشؤونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ۝٨ أي: أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار كما قال تعالى: ﴿يَجِئُكَ أَوَّيُّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠]، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيئه إذا مرَّ الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيئه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له. قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا محمد بن بشر، عن مسعر،

(١) ذكره الطبري بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بما يليه من الآثار، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، والشطر الثاني منه يشهد له الحديث الصحيح التالي.

(٥) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمرو ؓ (صحيح البخاري، التهجد، باب من نام عند السحر ح ١١٣١)، وصحيح مسلم، الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (ح ١١٥٩/١٨٦ و ١١٥٩).

عن عبد الكريم، عن موسى بن أبي كثير، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه بلغه أن أم هانئ رضي الله عنها ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمان ركعات، فقال ابن عباس رضي الله عنه: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة يقول تعالى: ﴿يُسَبِّحَنَّ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(١).

ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن أبي المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن موله عبد الله بن الحارث بن نوفل، أن ابن عباس رضي الله عنه كان لا يصلي الضحى فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها فقلت: أخبرني هذا ما أخبرني به. فقالت: دخل علي رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صب في قصعة ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه فاغتسل، ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى قيامهم وركوعهم وسجودهم وجلوسهم سواء قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس رضي الله عنه وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿يُسَبِّحَنَّ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وكنت أقول: أين صلاة الإشراق؟ وكان بعد يقول: صلاة الإشراق^(٢)، ولهذا قال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: محبوسة في الهواء ﴿كُلُّ لَهْءٍ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعاً له.

وقال سعيد بن جبيرة وقتادة ومالك، عن زيد بن أسلم وابن زيد رضي الله عنه ﴿كُلُّ لَهْءٍ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبي نجیح: عن مجاهد كان أشد أهل الدنيا سلطاناً^(٤).

وقال السدي: كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف^(٥).

وقال بعض السلف: بلغني أنه كان يحرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل^(٦).

وقال غيره: أربعون ألفاً مشتملون بالسلاح.

وقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم من رواية علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس أن نفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود عليه الصلاة والسلام أنه اغتصبه بقرأ فأنكر الآخر ولم يكن للمدعي بيته، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثنه، وسنده ضعيف لأن موسى بن أبي كثير لم يسمع أحداً من الصحابة، ويتقوى بما يليه.

(٢) أخرجه الطبري بسنده نحوه أخرجه البستي من طريق سعيد به، وأخرجه الحاكم من طريق سعيد بن أبي عروبة وسكت عنه ووافقه الذهبي (المستدرک ٥٣/٤)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بنحوه وصححه محققوه بالشواهد والمتابعات (المسند ٤٤/٤٧٣ ح ٢٦٩٠١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

وخبر مالك عن زيد بن أسلم بسنده صحيح.

(٤) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه الطبري والحاكم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي (المستدرک ٥٨٦/٢).

(٦) هذا الخبر فيه مبالغة، وهو من الإسرائيليات.

في المنام بقتل المدعي، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعي، فقال: يا نبي الله علام تقتلني وقد اغتصبني هذا بقري؟ فقال له: إن الله تعالى أمرني بقتلك فأنا قاتلك لا محالة، فقال: والله إن الله لم يأمر بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه وإني لصادق فيما ادعيت، ولكني كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود عليه السلام فقتل، قال ابن عباس: فاشتدت هيئته في بني إسرائيل وهو الذي يقول الله ﷻ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾^(١).

وقوله: ﴿وَأَيِّنُّهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعني الفهم والعقل والفتنة، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب^(٢).

وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

فقال السدي: ﴿الْحِكْمَةُ﴾ النبوة^(٣) وقوله: ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾.

قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان^(٤).

وقال قتادة: شاهدان على المدعي أو يمين المدعي عليه هو فصل الخطاب^(٥) الذي فصل به الأنبياء والرسل، أو قال المؤمنون والصالحون: وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي^(٦).

وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك^(٧).

وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم، وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شعبة النميري، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني عبد العزيز بن أبي ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى عليه السلام قال: أول من قال: أما بعد داود عليه السلام وهو فصل الخطاب^(٨)، وكذا قال الشعبي فصل الخطاب: أما بعد^(٩).

(١) أخرجه الطبري من طريق علباء بن أحمر به، والخبر من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور عن أبي عوانة عن أبي بشر عن مجاهد (ينظر فتح الباري ٤٥٦/٦).

(٣) أخرجه الطبري والحاكم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي (المستدرک ٥٨٦/٢).

(٤) قول شريح أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٢٣٢/٧)، والطبري والبيهقي (السنن الكبرى ١٨١/١٠)، بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول الشعبي: أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود، وهو ابن أبي هند، عنه.

(٥) أخرجه الطبري والبيهقي (السنن الكبرى ٢٥٣/١٠)، بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه الثوري والطبري والبيهقي (السنن الكبرى ١٨١/١٠) من طريق أبي حصين عن أبي عبد الرحمن السلمي.

(٧) أخرجه الطبري من طريق ليث عن مجاهد، وليث هو ابن أبي سليم فيه مقال، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع، عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن زياد بن عياض الأشعري (المصنف ٣٥٥/٥) وسنده صحيح.

(٩) أخرجه الطبري بسند فيه جابر بن نوح وهو ضعيف كما في التقريب ويشهد له سابقه.

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا الْمِحْرَابَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَنِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسْغُ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْفُلَاطَةِ يُبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿١٥﴾ .

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم حديثاً لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ^(١)، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله تعالى، فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب؛ أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما وقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني يقال: عز يعز إذا قهر وغلب.

وقوله تعالى: ﴿وَوَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي اختبرناه ^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَوَخَّرَ رَاكِعًا﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة رضي الله عنهم في سجدة ﴿صَّ﴾ هل هي من عزائم السجود؟ على قولين: الجديد من مذهب الشافعي رحمته الله أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسماعيل هو: ابن عليه، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: السجدة في ﴿صَّ﴾ ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها ^(٣). ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي في تفسيره من حديث أيوب به وقال الترمذي حسن صحيح ^(٤).

وقال النسائي أيضاً: عند تفسير هذه الآية أخبرني إبراهيم بن الحسن هو المقسمي، حدثنا

(١) هذه القصة سردها السيوطي في الدر المنثور وهي من الإسرائيليات الغربية، وأخرجه الطبري من طريق الرقاشي عن أنس وساق القصة. وسنده ضعيف لضعف الرقاشي.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الإمام أحمد سنده ومثله (المسند ١/٣٦٠) وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، سجود القرآن، باب سجدة ﴿صَّ﴾ (ح ١٠٦٩)، وسنن أبي داود، سجود القرآن، باب السجود في ﴿صَّ﴾ (ح ١٤٠٩)، وسنن الترمذي، الصلاة، باب ما جاء في السجدة في ﴿صَّ﴾ (ح ٥٧٧)، والسنن الكبرى للنسائي كما في تحفة الأشراف رقم ٥٩٨٨.

حجاج بن محمد، عن عمرو بن ذرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ سجد في ﴿صَّ﴾ وقال: «سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ونسجدها شكراً»^(١) تفرد بروايته النسائي ورجال إسناده كلهم ثقات.

وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا أبو إسحاق [الدرجي]^(٢)، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثقفي، حدثنا زاهر بن أبي طاهر [الشحامي]^(٣)، أخبرنا أبو سعيد الكنجرودي، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج، يا حسن حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع بها عني وزراً، وأقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود.

قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول: وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة^(٤)، رواه الترمذي عن قتيبة وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه، وقال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٥).

وقال البخاري عند تفسيرها أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي، عن العوام، قال سألت مجاهداً عن سجدة ﴿صَّ﴾ فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت فقال: أو ما تقرأ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدُ﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حميد، حدثنا بكر هو ابن عبد الله المزني أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه رأى رؤيا أنه يكتب ﴿صَّ﴾ فلما بلغ إلى الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً قال: فقصّها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد^(٧)، تفرد به أحمد.

(١) أخرجه النسائي، السنن، الافتتاح، (باب سجود القرآن ١٥٩/٢) وسنده صحيح.

(٢) كذا في (مع)، وتهذيب الكمال للمزي، وفي الأصل (وحم)، صحف إلى: «المدرجي».

(٣) كذا في (مع) و(حم)، وتهذيب الكمال للمزي، وفي الأصل صحف إلى: «السجستاني».

(٤) أخرجه المزي بسنده ومثته (تهذيب الكمال ٣١٤/٦)، وأخرجه الحاكم من طريق محمد بن يزيد بن خنيس به وصححه ووافقه الذهبي بقوله: صحيح ما في رواه مجروح (المستدرک ٢١٩/١ - ٢٢٠) ولكن محمد بن يزيد بن خنيس مقبول (التقريب ص ٥١٣)، وقال الذهبي: غير حجة (الكاشف ٢٢٦/١).

(٥) سنن الترمذي، الصلاة، باب ما يقوله في سجود القرآن (ح ٥٧٩)، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب سجود القرآن (ح ١٠٥٣)، وفيه مسندهما أيضاً محمد بن يزيد بن خنيس.

(٦) أخرجه البخاري بسنده ومثته (الصحيح) التفسير، باب سورة ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص ح ٤٨٠٧].

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٦٨/١٨ ح ١١٧٤١)، وضعف سنده محققوه لأن بكر المزني لم يسمع =

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ص﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود فقال ﷺ: «إنما هي توبة نبي، ولكنني رأيتمكم [تشزّنتم]» ^(١) فنزل وسجد ^(٢). وتفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَازْلَفًا وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا» ^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَإِنْ أَبْغَضَ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ» ^(٤). ورواه الترمذي من حديث فضيل وهو ابن مرزوق الأغر، عن عطية به، وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ^(٥). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، سمعت مالك بن دينار في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَازْلَفًا وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول: يا داود مجدي اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدي به في الدنيا، فيقول وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أردته عليك اليوم، قال: فيرفع داود عليه الصلاة والسلام بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان ^(٦).

﴿يَذْكُرُ إِذَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ^(٧).

هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعّد تبارك وتعالى من ضلّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثني إبراهيم أبو زرعة: وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب

= من أبي سعيد الخدري، وأخرجه الحاكم من طريق حميد به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٣٢).

(١) كذا في (حم) وسنن أبي داود، وفي الأصل و(مح): «نشرتم».

(٢) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الصلاة، تفريع أبواب السجود، باب السجود في ﴿ص﴾ ح ١٤١٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٢٥٣).

(٣) سياطي تخريجه في تفسير سورة الحجرات آية ١٠.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٢٢)، وسنده ضعيف لضعف عطية وهو العوفي.

(٥) السنن، الأحكام، باب ما جاء في الإمام العادل (ح ١٣٢٩)، وسنده كسابقه.

(٦) سنده ضعيف بسبب إرسال مالك بن دينار.

الخليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقّهت. فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل: في أمان الله، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم تَوَعَّدَه في كتابه فقال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) الآية.

وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ إِلَىٰ الْحِسَابِ﴾ هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا^(٢).

وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا^(٣) أن يعملوا ليوم الحساب، وهذا القول أمشى على ظاهر الآية. فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٨﴾ كَذَّبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّبَوا عَنْتَهُ وَيَلْتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده ثم [يجمعهم]^(٤) يوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٨﴾﴾ أي: لا نفعل ذلك ولا يستون عند الله وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر.

وهذا الإرشاد يدل على العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعيّن أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة.

ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَّبَوا عَنْتَهُ وَيَلْتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ أي: ذوو العقول وهي الأبواب جمع لب وهو العقل.

قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول:

(١) سؤال الوليد غريب وجواب إبراهيم شديد.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق العوام عن عكرمة.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «جمعهم».

قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل، رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٢٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٣﴾ .

يقول تعالى: مخبراً أنه وهب لداود سليمان؛ أي: نبياً كما قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة وإلا فقد كان له بنون غيره فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا ابن جابر، حدثنا مكحول، قال لما وهب الله تعالى لداود سليمان قال له: يا بني ما أحسن؟ قال: سكينه الله والإيمان؟ قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلي؟ قال: روح الله بين عباده قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود ﷺ: فأنت نبي^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ﴾ (٢٠) أي: إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة^(٢) والعجاء السراع، وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبيه: سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي في قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ﴾ (٢٠) قال: كانت عشرين فرساً ذات أجنحة^(٣). كذا رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها^(٤). وهذا أشبه، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثنا عمارة بن غزية، أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة ؓ قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة ؓ لعب فقال ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتي،

(١) سنده مرسل.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن، والخبر من الإسرائيليات.

(٤) الخبر من الإسرائيليات.

ورأى بينهما فرساً له جناحان من رفاع، فقال ﷺ: «ما هذا الذي أرى وسطهن» قالت: فرس، قال رسول الله ﷺ: «ما هذا الذي عليه؟» قالت ﷺ: جناحان قال رسول الله ﷺ: «فرس له جناحان؟» قالت ﷺ: أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة؟ قالت ﷺ: فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه^(١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه من ذلك عن جابر ﷺ قال: جاء عمر ﷺ يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها» فقال: فقمنا إلى بُطْحَانَ فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب^(٢).

ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايقة والمضايقة حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة ﷺ في فتح تَسْتَر، وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما. والأول أقرب لأنه قال بعده: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قال الحسن البصري: قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعُقرت^(٣)، وكذا قال قتادة^(٤).

وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف^(٥).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حُباً لها^(٦). وهذا القول اختاره ابن جرير قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ويهلك ماله من جريحه إلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها، وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله تعالى بما هو

(١) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الأدب، باب في اللعب بالبنات ح ٤٩٣٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤١٢٣).

(٢) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، باب من صلى بالناس جماعة بعد ذهاب الوقت (ح ٥٩٦)، وصحيح مسلم، المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (ح ٦٣١).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن.

(٤) هو تمة الأثر السابق، وهو من أخبار أهل الكتاب والراجح ما سيأتي عن ابن عباس ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

خير منها، وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل^(١).

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله تعالى وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله ﷻ خيراً منه»^(٢).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغَى لِي أَحَدٌ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاسٍ ﴿٢٧﴾ وَأَخْرَيْنَ مُفْرَرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَازْفَافاً وَحَسَنَ مَنَاقِبَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال ابن عباس ؓ ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم يعني: شيطانا^(٣) ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته.

قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرأ، قاله ابن عباس وقتادة^(٤).
وقيل: آصف، قاله مجاهد^(٥).

وقيل: آصر، قاله مجاهد أيضاً^(٦).

وقيل: حقيق، قاله السدي^(٧)، وقد ذكروا هذه القصة مبسطة ومختصرة.

وقد قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: أمر سليمان عليه الصلاة والسلام ببناء بيت المقدس فقبل له: ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد، قال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه، فقيل: إن شيطانا في البحر يقال له: صخر شبه المارد. قال: فطلبه وكانت في البحر عين يردّها في كل سبعة أيام مرة فنزع ماءها وجعل فيها خمراً فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمير. فقال: إنك لشراب

(١) ولكن ما قاله الطبري هو الصحيح الذي استند على رواية الصحابي الجليل بن عباس ؓ، وأما القول الآخر فمشهور في كتب أهل الكتاب.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٤٢/٣٤ ح ٢٠٧٣٨)، وصححه سننه محققوه، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/٢٩٦).

(٣) قول ابن عباس: أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى برواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «صخر الجنّي» أخرجه الطبري أيضاً، وأخرجه الطبري أيضاً بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري أيضاً بسند صحيح من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير، وأخرجه الطبري أيضاً بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بالسندين المتقدمين عنهما. (٥) أخرجه الطبري بالسند المتقدم.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي في خبر طويل في آخره.

طيب، إلا أنك تُصبين^(١) الحليم وتزيدين الجاهل جهلاً، قال: ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً ثم أتاها فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلاً، قال: ثم شربها حتى غلب على عقله قال: فأري الخاتم أو ختم به بين كتفيه فذل، قال: وكان ملكه في خاتمه فأتى به سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: إننا قد أمرنا ببناء هذا البيت.

وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد، فجعل عليه زجاجة فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه فذهب فجاء بالماس فوضعه عليها فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه فأخذ الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة، وكان سليمان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخل بالخاتم فانطلق يوماً إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه وذلك عند مقارفة قارف فيها بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه في البحر فالتقمته سمكة ونزع ملك سليمان منه، وألقي على الشيطان شبه سليمان قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريه وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه فجعل يقضي بينهم وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا: فتن نبي الله، وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في القوة فقال: والله لأجربنه قال: فقال: يا نبي الله وهو لا يرى إلا أنه نبي الله أهدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس أترى عليه بأساً؟ قال: لا فبينما هو كذلك أربعين ليلة إذ وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة فأقبل فجعل لا يستقبله جني ولا طير إلا سجد له حتى انتهى إليهم **﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾** قال: هو الشيطان صخر^(٢).

وقال السدي: **﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾** أي: ابتلينا سليمان **﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾** قال: شيطاناً جلس على كرسيه أربعين يوماً قال: كان لسليمان عليه الصلاة والسلام مائة امرأة وكانت امرأة منهم يقال لها جرادة وهي أثر نسائه وآمنهن عنده وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأمن عليه أحداً من الناس غيرها فأعطاها يوماً خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان في صورته فقال: هاتي الخاتم فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا وخرج وكأنه تائه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً قال فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلمائهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا لهن: إنا قد أنكرنا هذا فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك. قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوه فأحذقوا به ثم نشروا يقرءون التوراة. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيتان البحر.

وقال: وأقبل سليمان عليه الصلاة والسلام في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع وقد اشتد جوعه فسألهم من صيدهم، وقال: إني أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصى فشجه فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم

(١) أي: تجعلينه يفعل فعل أهل اللهو.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة به. وهو من الإسرائيليات.

الذي ضربه فقالوا: بئس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه زعم أنه سليمان، قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم ولم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شاطئ البحر فشقَّ بطونهما فجعل يغسل فوجد خاتمه في بطن إحداهما فأخذه فلبسه فردَّ الله عليه بهاءه وملكه فجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان عليه الصلاة والسلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا فقال: ما أحمدكم على عذرکم ولا ألوكم على ما كان منكم كان هذا الأمر لا بدَّ منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه وأرسل إلى الشيطان فجاء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه ثم أمر به فألقي في البحر فهو فيه حتى تقوم الساعة، وكان اسمه: حقيق^(١). قال: وسخر الله له الريح ولم تكن سخرت له قبل ذلك وهو قوله: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَلْبِغُنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

وقال ابن أبي نجیح: عن مجاهد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال شيطاناً يقال: له آصف، فقال له سليمان عليه الصلاة والسلام: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر فساح سليمان عليه الصلاة والسلام وذهب ملكه وقعد آصف على كرسيه ومنعه الله تبارك وتعالى من نساء سليمان فلم يقربهنَّ ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان عليه الصلاة والسلام يستطعم فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني أنا سليمان، فيكذّبونه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً ففتح بطنه فوجد خاتمه في بطنه فرجع إليه ملكه وفرَّ آصف فدخل البحر^(٢).

وأرى هذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قاله ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ قال: أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه، وكانت الجرادة امرأته وكانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال: لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء. قال لها: هاتي خاتمي. قالت: أعطيته سليمان [قال: أنا سليمان. قالت: كذبت]^(٣) لست بسليمان فجعل لا يأتي أحداً يقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة فلما رأى ذلك سليمان عرف أنه من أمر الله تعالى.

قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرده على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهنَّ: أتكرنَّ من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض وما كان يأتينا قبل ذلك، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسي سليمان ثم

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وهو من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح به، وهو من الإسرائيليات.

(٣) زيادة من (حم) و(مح).

أثاروها وقرءوها على الناس، وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم فأكفر الناس سليمان عليه الصلاة والسلام فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذه، وكان سليمان عليه السلام يحمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فدعا سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: تحمل لي هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال: بسمكة من هذا السمك.

قال: فحمل سليمان عليه الصلاة والسلام السمك ثم انطلق إلى منزله فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فأخذها سليمان عليه الصلاة والسلام فشق بطنها فإذا بالخاتم في جوفها فأخذه فلبسه، قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر فأرسل سليمان عليه الصلاة والسلام في طلبه وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوماً نائماً فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا أنماط معه من الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان عليه الصلاة والسلام، فأمر به فنقر له تحت من رخام ثم أدخل في جوفه ثم سد بالنحاس، ثم أمر به، فطرح في البحر فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٢١) يعني: الشيطان الذي كان سلط عليه^(١). إسناده إلى ابن عباس قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس عليه السلام إن صح عنه من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات من أشدها ذكر النساء فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله منه تشريفاً وتكريماً لنبه عليه ﷺ.

وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

قال يحيى بن أبي عروبة الشيباني: وجد سليمان خاتمه بعسقلان فمشى في خرقة إلى بيت المقدس تواضعاً لله ﷻ، رواه ابن أبي حاتم^(٢).

وقد روى ابن أبي حاتم، عن كعب الأحبار في صفة كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام خبراً عجيباً فقال: حدثنا أبي رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرني أبو إسحاق المصري، عن كعب الأحبار أنه لما فرغ من حديث إرم ذات العماد قال له معاوية: يا أبا إسحاق أخبرني عن كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام وما كان عليه ومن أي شيء هو، فقال: كان كرسي سليمان من أنياب الفيلة مرصعاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وقد جعل له درجة منها مفصصاً بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسي فحفّ من جانبيه بالنخل: نخل من ذهب شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ، وجعل على رؤوس النخل التي على يمين الكرسي طواويس من ذهب ثم

(١) قوى سنده الحافظ ابن كثير وجزم أن هذا الخبر من الإسرائيليات التي تخالف مقام الأنبياء.

(٢) وهذا الخبر أيضاً من الإسرائيليات.

جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسي نسوراً من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتي صنوبر من ذهب وعلى يسارها أسدان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبي الكرسي كرم من ذهب قد أظلتا الكرسي وجعل عناقيدهما درأً وياقوتاً أحمر، ثم جعل فوق درج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكاً وعنبراً، فإذا أراد سليمان ﷺ أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة ثم يقعان فينضحان ما في أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان عليه الصلاة والسلام ثم يوضع منبران من ذهب واحد لخليفته والآخر لرئيس أخبار بني إسرائيل ذلك الزمان، ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبراً من ذهب يقعد عليها سبعون قاضياً من بني إسرائيل وعلمائهم وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبراً من ذهب ليس عليها أحد فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر ثم يصعد سليمان عليه الصلاة والسلام على الدرجة الثانية فيبسط الأسد يده اليسرى وينشر النسر جناحه الأيمن فإذا استوى سليمان عليه الصلاة والسلام على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان عليه الصلاة والسلام فوضعه على رأسه فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحي المسرعة.

[فقال معاوية^(١): وما الذي يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجني فإذا أحست بدورانه دارت تلك الأسود والنسور والطواويس التي في أسفل الكرسي دُرْنَ إلى أعلاه فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان عليه الصلاة والسلام وهو جالس ثم ينضحن جميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر التوراة فتجعلها في يده فيقرؤها سليمان عليه الصلاة والسلام على الناس^(٢). وذكر تمام الخبر وهو غريب جداً.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْفِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٢٥﴾ قال بعضهم: لا ينبغي لأحد من بعدي؛ أي: لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه لا أنه يحجر على من بعده من الناس، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي

(١) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل حُرِفَ إلى: «إسحاق».

(٢) الخبر من الإسرائيليات أيضاً.

سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ قال روح: فردّه خاسئاً^(١).

وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المرادي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية بن صالح، حدثني ربيعة بن زيد، عن أبي إدريس الخولاني^(٢)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك - ثم قال: - ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك قال ﷺ: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمعه في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يتأخر ثلاث مرات ثم أردت أن أخذه والله لولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا [مسرة]^(٤) بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي فذهبت أمرٌ بين يديه فردّني ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»^(٥). وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل» عن أحمد بن أبي سريح، عن أبي أحمد الزبيري به^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وهو في حائط له بالطائف يقال له: الوهط^(٧) وهو مُخاصر، فتى من قريش يُزَنُّ^(٨) بشرب الخمر، فقلت بلغني: عنك حديث أنه «من شرب شربة من الخمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحاً، وإن

(١) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾... [ص: ٣٥ ح ٤٨٠٨].

(٢) صحيح مسلم، المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة (ح ٥٤١)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (١١٤٤٠).

(٣) أخرجه مسلم بسنده ومثله (المصدر السابق ح ٥٤٢).

(٤) مسرة كذا في (حم)، والمسند وترجمته، وفي الأصل صحف إلى: «ميسرة»، وفي (مح) صحف إلى: «مرة».

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٠٢/١٨ ح ١١٧٨٠) وحسن سنده محققوه.

(٦) سنن أبي داود، الصلاة، باب ما يؤمر المصلي أن يدرأ عن الممر بين يديه (ح ٦٩٩)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ح ٦٤٧).

(٧) الوهط يقع في قرية بين الطائف وجبل الشفا. (٨) أي: يتهم.

الشقي من شقي في بطن أمه، وإنه من أتى البيت المقدس لا ينهزُهُ^(١) إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه» فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إني لا أحلُّ لأحد أن يقول عليّ ما لم أفل سمعت رسول الله يقول: «من شرب الخمر شربة لا تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من ردة^(٢) الخبال يوم القيامة» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﷻ خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ فلذلك أقول جفَّ القلم على علم الله ﷻ».

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان عليه السلام سأل الله ثلاثاً فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة، سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله ﷻ قد أعطانا إياها»^(٣) وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه عن عبد الله بن فيروز الديلمي، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بني بيت المقدس سأل ربه ﷻ خلافاً ثلاثاً» وذكره^(٤).

وقد روي من حديث رافع بن عمير رضي الله عنه بإسناد وسياق غريبين. فقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني، حدثنا محمد بن أيوب بن سويد، حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي الزاهرية، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله يقول: «قال الله ﷻ لداود عليه الصلاة والسلام ابن لي بيتاً في الأرض، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتي قال: يا رب هكذا قضيت من ملك استأثر ثم أخذ في بناء المسجد، فلما تمَّ السور سقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله ﷻ. فقال: يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً، قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يدك من الدماء، قال: يا رب أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك؟ قال: بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم، فشقَّ ذلك عليه فأوحى الله إليه: لا تحزن فإنني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان.

فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه ولما تمَّ قَرَبَ القرايين وذبح الذبائح وجمع بني إسرائيل، فأوحى الله إليه قد أرى سرورك ببنيان بيتي فسلني أعطك قال: أسألك ثلاث خصال حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه - قال رسول الله ﷺ - أما الثنتان فقد أعطيهما وأنا أرجو أن يكون قد أعطي الثالثة»^(٥).

(١) أي: لا يخرج. (٢) أي: عصارة أهل النار.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده وفي آخره: قد أعطانا إياه. (المسند ١١/٢٢٠ ح ٦٦٤٤)، وصححه سننه محققوه.

(٤) سنن النسائي، الأشربة، باب توبة شارب الخمر ٣١٧/٨، وسنن ابن ماجه، الأشربة، باب من شرب الخمر لم تقبل له صلاة (ح ٣٣٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٢٧٢٢).

(٥) أخرجه الطبراني بسنده ومثته (المعجم الكبير ٥/٢٤ ح ٤٤٧٧)، وسنده ضعيف جداً لأن محمد بن أيوب بن =

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن راشد اليمامي، حدثنا إياس بن سلمة الأكوخ، عن أبيه عليه السلام قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا إلا استفتح به «سبحان الله ربي العلي الأعلى الوهاب»^(١).

وقد قال أبو عبيد: حدثنا علي بن ثابت، عن جعفر بن برقان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبي الله داود عليه السلام أوحى الله تبارك وتعالى إلى ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام: أن سلني حاجتك قال: أسألك أن تجعل لي قلباً يخشاك كما كان قلب أبي، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي، فقال الله: أرسلت إلى عبدي وسألته حاجته فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني وأن أجعل قلبه يحبني، لأهبن له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَّاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٢) والتي بعدها قال فأعطاه ما أعطاه، وفي الآخرة لا حساب عليه هكذا أورده أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه الصلاة والسلام في تاريخه^(٣).

وروي عن بعض السلف أنه قال: بلغني عن داود عليه الصلاة والسلام أنه قال: إلهي كن لسليمان كما كنت لي، فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان أن يكون لي كما كنت لي أكن له كما كنت لك^(٣).

وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُفَّاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٢) قال الحسن البصري رحمته الله: لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله ﷻ عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر^(٤).

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد من البلاد.

وقوله: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾^(٥) أي: منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٦) أي: موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٧) أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألنا فأعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك؛ أي: مهما فعلت فهو جائز لك احكم بما شئت فهو صواب وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خُير بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار

= سويد الرملي منهم بالوضع (مجمع الزوائد ٨/٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥٤/٢)، وسنده ضعيف لضعف عمر بن راشد اليمامي (التقريب ص ٤١٢).

(٢) الخبر من الإسرائيليات. (٣) الخبر كسابقه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر بن الحسن، والخبر من الإسرائيليات كما تقدم من أن العقر مرجوع والصواب إنه مسح يديه على عراقيها.

المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة، ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَظُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ۖ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ﴾ ﴿٤١﴾ أَرْكَضَ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۚ﴾ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۚ﴾ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ۖ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۚ﴾ ﴿٤٤﴾

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق في جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا، فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة^(١) هذه المدة بكمالها ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته عليها السلام فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريباً، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ﴾ ﴿٤١﴾ قيل: بنصب في بدني وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله، ففعل فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿أَرْكَضَ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۚ﴾ ﴿٤٢﴾.

قال ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقال، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعا

(١) هذا الكلام لا يليق بمقام نبي الله تعالى داود ﷺ، وهو من الإسرائيليات.

فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿٤٢﴾ فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو.

قال: وكان له أندران^(١): أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض^(٢)، هذا لفظ ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركتك»^(٣). انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرزاق به^(٤)، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٤٣﴾.

قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم^(٥).

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه استكانته ﴿وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة. وقوله: ﴿وَعَزَّ بِرِجْلِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْثَنْ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب فلما شفاه الله وعافاه كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضِعْفًا وهو: الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برَّت يمينه وخرج من حنثه ووفَّى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاء منيب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿١﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الأيمان وغيرها. وقد أخذوها بمقتضاها [ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة في شرع

(١) الأندر: هو المخزن الكبير للطعام.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته وهذا الخبر من الإسرائيليات ولبعضه شاهد صحيح كما سيأتي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢/٣١٤)، وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة (ح ٢٧٨).

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة والحسن.

أيوب عليه السلام، فلذلك رخص له في ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة^(١).

﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِزْهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ (٤٥) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٧) ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٨) ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَتَابٍ﴾ (٤٩).

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِزْهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ (٤٥) يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة.

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس عليه السلام ﴿أُولَى الْأَيْدَى﴾ يقول أولي القوة والعبادة ﴿وَالْأَبْصَرِ﴾ يقول الفقه في الدين^(٢).

وقال مجاهد: ﴿أُولَى الْأَيْدَى﴾ يعني: القوة في طاعة الله تعالى والأبصار يعني: البصر في الحق^(٣).

وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ (٤٦) قال مجاهد: أي: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم غيرها^(٥) وكذا قال السدي: ذكرهم للآخرة وعملهم لها^(٦).

وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، وكذا قال عطاء الخراساني.

وقال سعيد بن جبير يعني بالدار: الجنة يقول أخلصناها لهم بذكرهم لها.

وقال في رواية أخرى: ذكرى الدار عقبى الدار^(٧).

وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها^(٨).

وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة^(٩).

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٧) أي: لمن المختارين المجتبيين الأخيار فهم أخيار مختارون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٨) قد تقدم الكلام على

(١) زياد من (حم).

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج عن مجاهد وهو لم يسمع منه.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٧) أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٨) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، قال السدي: يعني القرآن^(١).

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَّهُمُ الْبُابُ ٥١﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَتَرَابٍ ٥٢ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ أَرْابٌ ٥٣﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ٥٤ ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ٥٥﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مأب وهو المرجع والمنقلب ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب والألف واللام ههنا بمعنى الإضافة كأنه يقول: مفتحة لهم أبوابها؛ أي: إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد [بن ثواب]^(٢) الهباري، حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الله بن مسلم يعني: ابن هرمز، عن ابن سابط، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصراً يقال له: عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب عند كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله - أو لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل»^(٣). وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: ﴿مُتَكِينِينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا ﴿وَتَرَابٍ﴾ أي: من أي أنواعه شأوا أتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ٥٨﴾ [الواقعة].

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الطَّرْفِ﴾ أي: عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَرْابٌ﴾ أي: متساويات في السن والعمر هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدي^(٤).

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ٥٦﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدنا لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ٥٥﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨] وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع وكقوله: ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا تَنْقُصُ﴾ [الرعد: ٣٥]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) زيادة من (حم) و(مح).

(٣) سنده ضعيف لضعف عبد الله بن مسلم بن هرمز (التقريب ص ٣٢٣).

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد بلفظ: «الأمثال»، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

﴿ هَذَا وَارِثُ الطَّغْيَانِ لَشَرِّ مَثَابٍ ۖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَسُوا إِلَهَهُمْ ۖ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ۖ ﴿٥٦﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۖ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ صَلَّوْا النَّارَ ۖ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَنَسُوا الْفِرَارَ ۖ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۖ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۖ ﴿٦٢﴾ أَخَذْتَهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ۖ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ۖ ﴿٦٤﴾ ۝

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال: ﴿ هَذَا وَارِثُ الطَّغْيَانِ ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله المخالفون لرسول الله ﷺ ﴿ لَشَرِّ مَثَابٍ ﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله جل وعلا: ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا ﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فَنَسُوا إِلَهَهُمْ ۖ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما العساق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم.

ولهذا قال: ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دلوأ من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»^(١) ورواه الترمذي عن سويد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج به ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث رشدين^(٢)، كذا قال وقد تقدم في غير حديثه، ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث به^(٣).

وقال كعب الأحبار: غساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبه ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه^(٤)، رواه ابن أبي حاتم.

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾: ألوان من العذاب^(٥)، وقال غيره كالزهرير^(٦) والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ صَلَّوْا النَّارَ ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنْتُ أَخْبَاطُهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨] يعني: بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٨/٣) وسنده ضعيف، لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم.

(٢) سنن الترمذي، صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (ح ٢٥٨٤)، وسنده كسابقه.

(٣) أخرجه الطبري عن يونس به، وسنده كسابقه. (٤) سنده ضعيف لإرسال كعب.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة عن إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن (المصنف ١٦٧/١٣ رقم ٦٠١٤) وسنده صحيح.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عن مرة عن ابن مسعود.

أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أي: داخل ﴿مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ يَكُورُ﴾ أي: فيقول لهم الداخلون ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ يَكُورُ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّعْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَبُئْسَ الْفِرَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿١٦﴾ كما [قال]: ﴿قَالَتْ أُنثَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ ^(١) قال: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي لكل منكم عذاب بحسبه ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿١٧﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿١٨﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟

قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً ^(٢) وفلاناً وفلاناً، وهذا ضرب مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿١٧﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرًا﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ؟﴾ يُسَلُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَحَالِ يَقُولُونَ أَوْ لَعَلَّهُمْ معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِذْ نُودُوا بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿١٧﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿١٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿١٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْصِمُونَ ﴿١٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٠﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله إنما أنا منذر لست كما تزعمون ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي: غفار مع عظمته وعزته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ أي: خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: غافلون، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ يعني: القرآن ^(٣).

(١) زيادة من (حم) و(مع).

(٢) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات بنحوه لكنه مرسل.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق =

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦٩) أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملاء الأعلى؟ يعني: في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بني هشام، حدثنا جهمضم اليمامي، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن أبي سلام، عن أبي سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترأى قرن الشمس فخرج ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة فصلّى وتجاوز في صلاته، فلما سلّم قال ﷺ: «كما أنتم» ثم أقبل إلينا فقال: «إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي في أحسن صورة فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملاء الأعلى، قلت: لا أدري يا ربّ - أعادها ثلاثاً - فرأيتُه وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري فتجلّى لي كل شيء وعرفت فقال: يا محمد فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام في الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة والناس نيام، قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك. وقال رسول الله ﷺ: إنها حق [فادرسوها] (١) وتعلموها» (٢). فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط وهو في السنن من طرق، وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهمضم بن عبد الله اليمامي به، وقال حسن صحيح (٣)، وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن فإن هذا قد فسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا وهو في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاهْرَجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ بَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وفي أول سورة الأعراف وفي سورة الحجر

= محمد بن سيرين عن شريح القاضي، وأخرجه أيضاً الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١) كذا في (حم) و(مع) والمسنَد، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «فارسوها».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسنَد ٤٢٢/٥ - ٤٢٣ ح ٢٢١٠٩)، وضعفه محققوه لاضطرابه ومداره على عبد الرحمن بن عائش، ولكن لبعضه شواهد.

(٣) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة ﴿صَ﴾ (ح ٣٢٣٥).

وسبحان والكهف وههنا وهي أن الله ﷻ أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامثالاً لأمر الله ﷻ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه ﷻ فيه وادّعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله وأرغم أنفه وطرده من باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماء إبليس إعلماً له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى.

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ﴾ (٨٨) كما قال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُفِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْنِيَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٨٩) ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٠) قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأول وفسره مجاهد بأن معناه أنا الحق والحق أقول^(١)، وفي رواية عنه: الحق مني وأقول الحق^(٢)، وقرأ آخرون بنصبهما^(٣). قال السدي: هو قسم أقسم الله به^(٤).

(قلت): وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وكقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٩١) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٢) وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُكُمْ بَعْدَ حِينٍ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيهِ من عرض الحياة الدنيا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة.

قال سفيان الثوري: عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن

(١) أخرجه الطبري بثلاثة أسانيد يقوي بعضها بعضاً عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، ويتقوى بما سبق.

(٣) وقراءة فالحق بالرفع وبالنصب: فالحق كلناهما متواترتان.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

مسعود عليه السلام فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله قال لنبيكم عليه السلام: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٨٦) أخرجاه من حديث الأعمش به ^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين به من الإنس والجن، قاله ابن عباس ^(٢).

وروى ابن أبي عن حاتم أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس ^(٣).

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَخْرَابِ فَأَلْثَمَ ذَمُّهُ﴾ [هود: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: عن قريب قال قتادة: بعد الموت ^(٤).

وقال عكرمة: يعني يوم القيامة ^(٥)، ولا منافاة بين القولين فإن مات فقد دخل في حكم القيامة.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٨): قال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين ^(٦).

والله الحمد المنة.

(١) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ [ص] (ح ٤٨٠٩)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين (ح ٢٧٩٨).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير مطلع سورة الفاتحة.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير مطلع سورة الفاتحة.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أيوب السخيتاني عن عكرمة بمعناه وأطول.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن الحسن.

سُورَةُ الزُّمَرِ

وهي مكية

قال النسائي: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبي لبابة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤).

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال تعالى: ﴿وَلَنُفِثَنَّ لِنَزِيلِ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ﴾ (٢٦) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٧٢) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٩٤) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٩٥) [الشعراء]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَنُفِثَنَّ لِنَزِيلِ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ﴾ (٢٦) ﴿وَلَنُفِثَنَّ لِنَزِيلِ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ﴾ (٢٦) [فصلت]، وقال هاهنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجنباء ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) أي: فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له.

وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله^(٢).

ثم أخبر تعالى عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم

(١) تقدم تخريجه في مطلع تفسير سورة الإسراء.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة والسدي ومالك، عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة^(١)، ولهذا كانوا يقولون في تلييتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل بعمله ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْوَلَاءَ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ] ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ﴾ [الزخرف]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت وذلت وخضعت [تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً]^(٢).

(١) قول قتادة الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول السدي الطبري بسند صحيح من طريق أسباط عنه، وقول مالك عن زيد بسنده صحيح، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٢) زيادة من (مح).

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ۝ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلب ليله ونهاره ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: سخرهما بجريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً كقوله: ﴿يُعْثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، هذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم^(١).

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم ينقضي يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه وهو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: خلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهي المذكورة في سورة الأنعام ﴿ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَمَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقوله: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي^(٢): يذراكم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يكون أحدهم أولاً نطفة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروفاً وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعني: في ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو مالك والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد^(٣).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) زيادة من (حم) و(مع).

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويتقوى بما يليه: وأخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه البُستي والطبري بسند حسن من طريق سماك عن عكرمة، وأخرجه البُستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

آباءكم هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فيكون تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمۥ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْۥ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وفي صحيح مسلم: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منك ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(١).

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فُجِّرُوا إِلَىٰ إِلَهِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء]، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَابًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله ويجعل له أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه تمتع بكفرك قليلاً وهو تهديد شديد ووعد أكيد كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ ءَانَاءَ أَلْيَلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: أَمَّنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستوتون عند الله كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال ههنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ ءَانَاءَ أَلْيَلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي: في حال سجوده وفي حال

قيامه ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة وليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون.

وقال الثوري، عن فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: القانت المطيع لله ولرسوله ﷺ ^(١).

وقال ابن عباس والحسن والسدي وابن زيد: آناء الليل جوف الليل ^(٢).

وقال الثوري، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء ^(٣).

وقال الحسن وقتادة: آناء الليل أوله وأوسطه وآخره ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج ولا بد في العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه كما قال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه [الله] ^(٥) الذي يرجو وأمنه الذي يخافه» ^(٦). رواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث سيار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان ^(٧) به وقال الترمذي غريب، وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن النبي ﷺ مرسلًا ^(٨).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة، عن عبيدة النميري، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى الخراز، حدثنا يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر رضي الله عنه يقرأ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ عَائِلَةِ آلِ يَسَّاءَ﴾ ^(٩).

وإنما قال ابن عمر رضي الله عنه ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة كما روى ذلك أبو عبيدة عنه رضي الله تعالى عنه ^(١٠)، وقال الشاعر:

(١) سنده حسن.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي في تفسير سورة آل عمران آية ١١٣.

(٣) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق عن الثوري به في تفسير سورة آل عمران آية ١١٣، وسنده بلاغاً لا يعرف مفسره.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) كذا في (حم) و(مح)، وسقط لفظ الجلالة من الأصل.

(٦) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومثله (المنتخب رقم ١٣٧٠)، وسنده حسن.

(٧) سنن الترمذي، الجنائز، باب ١١ (ح ٩٨٣) وعمل اليوم والليلة (ح ١٠٦٢)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (ح ٤٢٦١) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٧٨٥).

(٨) كذا في (حم) و(مح) وسنن الترمذي، وفي الأصل: عن ثابت عن أنس، ولا يستقيم لأن لفظ عن أنس مقحم.

(٩) سنده ضعيف لضعف أبي خلف عبد الله بن عيسى. (التقريب ص ٣١٧).

(١٠) في هذه الرواية مبالغة.

ضحوا بأشمت عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرأنا^(١)

وقال الإمام أحمد: كتب إلي الربيع بن نافع، حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة»^(٢). وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع كلاهما عن الهيثم بن حميد به^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أنداداً ليضل عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِذَا الْأَنْبِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين.

يقول تعالى آمراً عباده بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان.

وقال شريك: عن منصور عن عطاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾^(٤) [النساء: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الأوزاعي ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يغرف لهم غرفاً^(٥).

وقال [ابن جريج]^(٦): بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزدون على ذلك^(٧).

وقال السدي: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: في الجنة^(٨).

وقوله: ﴿قُلْ إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ﴿وَأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾.

قال السدي: يعني من أمته ﷺ.

(١) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه كما في ديوانه ص ٢٤٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٠٣/٤) وفي سننه سليمان بن موسى صدوق في حديثه بعض لين وخولط قبل موته (التقريب ص ٢٥٥). ويتقوى بما أخرجه الدارمي بسند حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً (السنن، فضائل القرآن، باب من قرأ بمائة آية ٤٦٤/٢).

(٣) السنن الكبرى رقم ١٠٥٥٣. (٤) سننه حسن.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح عن قتادة بنحوه.

(٦) كذا في (حم) و(مح) والدر المنثور، وفي الأصل صحف إلى: «ابن جريج».

(٧) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر عن ابن جريج.

(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٣ ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لِّمِ دِينِي﴾ ١٤ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ١٥ ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ يَجْعَلُونَ﴾ ١٦ .

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة وهذا شرط معناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لِّمِ دِينِي﴾ ١٤ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبر منكم ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسيران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً وسواء ذهب أهلولهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كما قال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] وقال: ﴿يَوْمَ يَشْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم. وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ قَائِلُونَ﴾ أي: اخشوا بأسى وسطوتي وعذابي ونقمتي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَمِشَرَّ عِبَادِ﴾ ١٧ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ١٨ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذرٍّ، وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم^(١).

والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهو لاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال: ﴿فَمِشَرَّ عِبَادِ﴾ ١٧ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام حين أتاه التوراة ﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ١٩ ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ ٢٠ .

يقول تعالى: أفمن كتب [الله]^(٢) أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي:

(١) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، بدون عن أبيه، وفي الحالتين سنده ضعيف.

(٢) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل غير واضحة.

لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضل له .
ثم أخبر عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور؛ أي: الشاهقة ﴿مِنْ فَوْقَهَا عُرفُ مَبْنِيَّةٍ﴾ طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عالياً .

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي، حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها وظهورها من بطونها» فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام»^(١). ورواه الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق وقال حسن غريب: وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبل حفظه^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن ابن معانق أو أبي معانق، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى والناس نيام»^(٣) تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن معانق الأشعري، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه به .

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء» قال: فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال: سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: «كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقي أو الغربي»^(٤). أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي حازم^(٥)، وأخرجاه أيضاً في الصحيحين من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا فزارة، أخبرني فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع في تفاضل أهل الدرجات»، فقالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ فقال ﷺ: «بلى والذي نفسي بيده أقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل»^(٧). ورواه الترمذي

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند بسنده ومثله (المسند ٢/٤٤٩ ح ١٣٣٨) وقال محققوه: حسن لغيره .

(٢) السنن، البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف (ح ١٩٨٤) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ١٦١٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٧/٥٣٩ ح ٢٢٩٠٥)، وقال محققوه: إسناده حسن إن كان ابن معانق سمعه من أبي مالك . اهـ . ويشهد له سابقه .

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥/٣٤٠) وسنده صحيح .

(٥) صحيح البخاري، الرقاق، باب صفة الجنة والنار (ح ٦٥٥٥) وصحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها (ح ٢٨٣٠) .

(٦) المصدران السابقان (ح ٦٥٥٦ وح ٢٨٣١) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٤/١٧٨ ح ٨٤٧١) . وصححه سننه محققوه .

عن سويد، عن ابن المبارك، عن فليح به وقال حسن صحيح^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائي، حدثنا أبو المدله مولى أم المؤمنين عليها السلام أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قلنا يا رسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة فإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد قال عليه السلام: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال عليه السلام: «لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك الأذفر وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب تبارك وتعالى: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»^(٢) وروى الترمذي وابن ماجه بعضه من حديث سعد بن أبي مجاهد الطائي وكان ثقة عن أبي المدله وكان ثقة به^(٣).

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تسلك الأنهار من خلال ذلك كما يشاؤون وأين أرادوا ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أي: هذا الذي ذكرنا وعده الله عباده المؤمنين ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفُتَنَاءِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى أن أصل الماء من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو قتيبة عتبة بن [اليقظان]^(٤)، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده^(٥)، وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء^(٦).

(١) السنن، صفة الجنة، باب ما جاء في ترائي أهل الجنة في الغرف (ح ٢٢٥٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٣/ ٤١٠ ح ٨٠٤٣) وقال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده.

(٣) سنن الترمذي، الدعوات، باب في العفو والعافية (ح ٣٥٩٨)، وسنن ابن ماجه، الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته (ح ١٧٥٢).

(٤) كذا في (حم) و(مح) وترجمته، وفي الأصل صحف إلى: «يعصان».

(٥) سنده ضعيف لضعف عتبة بن يقظان.

(٦) أخرجه أبو الشيخ (العظمة رقم ٧٣٨)، والطبري كلاهما من طريق جابر عن الشعبي بنحوه، وجابر هو الجعفي وهو ضعيف.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج يعني: أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه؛ أي: أشكاله وطعومه وروائحهم ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ بِهِ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلَاءً﴾ أي: ثم يعود يابساً يتحطم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذي يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء والشباب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زرعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاماً كما قال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْفُتْسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۝٣٣﴾.

هذا مدح من الله ﷻ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِي﴾.

قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني^(١).

وقال قتادة: الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف^(٢).

وقال الضحاك: مثاني ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى.

وقال عكرمة والحسن: ثنى الله فيه القضاء زاد الحسن تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها^(٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مثاني مُرَدَّدٌ رُدَّدَ موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة^(٤).

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما: مثاني قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض ^(١).

وقال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تعالى: ﴿مُتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ﴾ أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابه وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار ^(٢) وما أشبه هذا فهذا من المثاني كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ^(٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ^(٤) [الانفطار]، وكقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ ^(٥) إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ^(٦) [المطففين]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَّابٍ﴾ ^(٧) إلى أن قال: ﴿هَذَا وَرَكَّ لِلطَّغْيَيْنِ لَشَرَّ مَكَّابٍ﴾ ^(٨) [ص]، ونحو هذا من السياقات.

فهذا كله من المثاني؛ أي: في معنيين اثنين وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ تُنَكِّتُ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] ذاك معنى آخر. وقوله: ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرحون ويؤمنون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ^(٩) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ^(١٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ^(١١) [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ^(١٢) [الفرقان]، أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغيين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلماذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، قال: تلا قتادة رضي الله عنه: ﴿نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

(١) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وأخرجه الطبري عن سعيد بن جبير بدون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) عزاه الماوردي إلى سفيان بدون سند (النكت والعيون ٥/١٢٣)، وأخرجه البستي بمعناه بسند صحيح عن ابن أبي عمر العدني عن سفيان.

تَلِيْنُ جُلُوْدَهُمْ وَقُلُوْبُهُمْ اِلَى ذِكْرِ اللّٰهِ ﴿١﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذلك الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان^(١).

وقال السدي: ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُوْدَهُمْ وَقُلُوْبُهُمْ اِلَى ذِكْرِ اللّٰهِ﴾ أي: إلى وعد الله. وقوله: ﴿ذٰلِكَ هُدًى لِّلّٰهِ يَهْدِيْ بِهِ مَن يَّشَآءُ﴾ أي: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله: ﴿وَمَن يَّضِلِلِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ فَاَذَاقَهُمُ اللّٰهُ الْغُرْزَ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَْعَذَابُ الْآخِرَةِ اَكْبَرُ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ويُفزع فيُقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَسْتَقِيمُ ﴿١٧﴾﴾ [الملك]، وقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوْهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿١٨﴾﴾ [القمر]، وقال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَبِيرٌ أَمْ مَن يَأْتِيْ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر. كقول الشاعر:

فما أدري إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يليني؟
يعني: الخير أو الشر.

وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسول أهلكتهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، وقوله: ﴿فَاَذَاقَهُمُ اللّٰهُ الْغُرْزَ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ والذي أعده الله جلّ جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ولهذا قال: ﴿وَلَْعَذَابُ الْآخِرَةِ اَكْبَرُ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيْهِ شُرَكَاءُ مُتَشٰكِسُونَ وَرَجُلًا هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ مِثُّ وِلَدِيْهِمْ مِّثْرُونَ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال ﷺ: ﴿وَلَئِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [العنكبوت].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد.

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي: سالماً ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لا يملكه أحد غيره ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا. كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له؟ فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص^(١).

ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق ﷺ عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران]، ومعنى هذه الآية أنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن أبي حاطب - يعني: يحيى بن عبد الرحمن -، عن [ابن] (٢) الزبير [رضي الله عنه] (٣) قال: لما نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ﴾ ﴿٣١﴾ قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة؟ قال ﷺ: «نعم» قال ﷺ: إن الأمر إذاً لشديد: وكذا رواه الإمام أحمد، عن سفيان وعنده زيادة، ولما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ [التكاثر] قال الزبير رضي الله عنه: أي: رسول الله؟ أي نعيم نسأل عنه؟ وإنما نعيمنا الأسودان: التمر والماء، قال ﷺ: «أما إن ذلك سيكون»^(٤). وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجه من حديث سفيان به وقال الترمذي: حسن^(٥).

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بما أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) زياد من (حم) و(مح).

(٣) زيادة من (مح).

(٤) سنده حسن وسيأتي ما يؤيد ذلك.

(٥) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة التكاثر (ح ٣٣٥٦) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٦٧٢).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد - يعني: ابن عمرو -، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمِيتُونَ ۖ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ ۝٣١﴾ قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال ﷺ: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد^(١). ورواه الترمذي من حديث محمد بن عمرو به وقال: حسن صحيح^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي عشانة، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران»^(٣). تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا»^(٤) تفرد به أحمد ﷺ.

وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان فقال: «أتدري فيم تنتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال ﷺ: «ولكن الله يدري وسيحكم بينهما»^(٥).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن محمد، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبي، حدثنا ثابت، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلجون»^(٦) عليه فيقال له: سد ركناً من أركان جهنم»^(٧) ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ ۝٣١﴾** يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر^(٨).

وقد روى ابن منده في كتاب (الروح)، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت وأنت سولت، فيبعث الله ملكاً يفصل بينهما فيقول لهما: إن مثلكما كمثلهما رجل مقعد بصير والآخر ضرير دخلا بستاناً، فقال المقعد للضرير: إني أرى ههنا ثماراً ولكن لا أصل إليها، فقال له الضرير: اركبني، فتناولها فركبه فتناولها فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما، فيقول لهما

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١/١٦٧) وسنده حسن.

(٢) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الزمر (ح ٣٢٣٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/١٥١) وحسن سنده الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/٣٤٩) وحسنه أيضاً السيوطي في الدر المنثور.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٢٩) وسنده ضعيف وله شواهد تقويه منها في صحيح مسلم، البر، باب تحريم الظلم (ح ٢٥٨٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٣٥/٣٤٥ ح ٢١٤٣٨) وحسن سنده محققوه بالطرق والشواهد.

(٦) أي: يظهروا عليه الحجة.

(٧) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ١٦٤٤)، وسنده ضعيف لضعف أغلب بن تميم (لسان الميزان ١/٤٦٤).

(٨) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما؛ يعني: أن الجسد للروح كالمطية وهي راكبة^(١).
وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عوسجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا منصور بن سلمة، حدثنا القمي يعني: يعقوب بن عبد الله، عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّصُونَ﴾ (٣٢) قال: قلنا من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة فقال ابن عمر: هذا الذي وعدنا ربنا ﷻ نخخصم فيه^(٢)، ورواه النسائي، عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة به^(٣).
وقال أبو العالية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّصُونَ﴾ (٣٢) قال: يعني أهل القبلة^(٤).
وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر، وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم^(٥).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَمَّا مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥).

يقول تعالى مخاطباً المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله وجعلوا لله ولداً تعالى عن قولهم علواً كبيراً، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفي الباطل: كذب على الله وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ^(٦).

وقال السدي: هو جبريل عليه السلام ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ^(٧).

- (١) كتاب «الروح» لابن مندة من الكتب التي لم أعثر عليها وقد أفاد منه العلامة: ابن قيم الجوزية في كتابه «الروح».
- (٢) أخرجه الحاكم من طريق القاسم بن عوف الشيباني عن ابن عمر نحوه، وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٥٧٢/٤) ونسبه الهيثمي إلى الطبراني وقال: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠٠/٧).
- (٣) السنن الكبرى رقم ١١٤٤٧.
- (٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إيهام شيخ الطبري.
- (٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.
- (٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر بن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه أيضاً الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب بن عبد الرحمن بن زيد.
- (٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: رسول الله ﷺ^(١).

وقرأ الربيع بن أنس «والذين جاءوا بالصدق»^(٢) يعني: الأنبياء ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: الأتباع. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة فيقولون: هذا ما أعطيتونا فعملنا فيه بما أمرتمونا^(٣). وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال المسلمون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٤).

قال ابن عباس: اتقوا الشرك^(٥). ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦) كما قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(٧) [الأحقاف].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٨) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْفِقَارٍ﴾^(٩) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(١٠) قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١١) مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾^(١٢).

يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقرأ بعضهم «عباده»^(٦)؛ يعني: أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه.

وقال ابن أبي حاتم ههنا: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو هانئ، عن أبي علي عمرو بن مالك الجنبی، عن فضالة بن عبيد الأنصاري ربه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»^(٧) [ورواه

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) وهي قراءة شاذة تفسيرية، ونسبها الطبري إلى ابن مسعود.

(٣) أخرجه عبد الرزاق وسفيان بن عيينة في تفسير (كما في تغليق التعليق ٢٩٨/٤) والبستاني كلهم بسند صحيح من طريق منصور عن مجاهد.

(٤) تقدم تخريجه قبل أربع حواشي.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) وهي قراءة متواترة.

(٧) أخرجه الترمذي من طريق أبي هانئ الخولاني به وصححه (السنن، الزهد باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه ح ١٣٤٩) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ح ١٩١٥.

وأخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن وهب عن أبي هانئ به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١٢٢/٤).

الترمذي والنسائي من حديث حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني به وقال الترمذي: صحيح^(١).

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْهَ عَنْهُ؟ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَمُضِلْ؟﴾ أي: منييع الجناب لا يضام من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ يعني: المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتِي؟﴾ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر.

وذكر ابن أبي حاتم ههنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف ورفعت الأقلام واعمل لله بالشكر في اليقين. واعلم أن في الصوم على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً»^(٢).

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] كما قال هود عليه الصلاة والسلام حين قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَازَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿هُود﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبي المقدام مولى آل عثمان، عن محمد بن كعب القرظي، حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليقل الله»^(٣).

وقوله: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتهن وهذا تهديد ووعد ﴿إِنِّي عَمَلٌ﴾

(١) زياد من (حم) و(مح).

(٢) أخرجه الإمام أحمد من طريق قيس بن الحجاج به (المسند ٤/٤٠٩ - ٤١٠ ح ٢٦٦٩) وقال محققوه: إسناده قوي. اهـ. وكذا أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (السنن صفة القيامة - ح ٢٥١٦).

(٣) سنده ضعيف لضعف أبي المقدام، وأخرجه العقيلي ثم قال: وليس لهذا الحديث طريق يثبت (الضعفاء الكبير ٤/٣٤١).

أي: على طريقتي ومنهجي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا محيد عنه، وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٤١) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢).

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿فَمَنِ اهْتَكَيْتَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) ﴿وَهُوَ الْغَايُ قَوْعَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٤٢) [الأنعام]، فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه دلالة على أنه تجتمع في الملائكة الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره.

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث عبيد الله بن عمر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذه بداخله إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمهما، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(١).

وقال بعض السلف: تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى^(٢).

قال السدي: إلى بقية أجلها^(٣).

- (١) صحيح البخاري، الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند المنام (ح ٦٣٢٠)، وصحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم (ح ٢٧١٤).
- (٢) أخرجه الطبري وأبو الشيخ (العظمة رقم ٤٣١) وبقي ابن مغل (كما في التمهيد ٢٤١/٥ لابن عبد البر)، عن سعيد بن جبير، وسنده مرسل.
- (٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي مطولاً.

وقال ابن عباس: يمسك أنفـس الأموات ويرسل أنفـس الأحياء ولا يغلط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَّلُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّمْ يَكُنْ لَكُمُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى ذاماً للمشرـكين في اتخاذهـم شفـعاء من دون الله وهـم الأصنام والأنداد التي اتخـذوها من تلقاء أنفـسهم بلا دليل ولا برهان حـداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير.

ثم قال: قل؛ أي. يا محمد، لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخـذوه من شفـعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلاً بعمله، ثم قال تعالى ذاماً للمشرـكين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل لا إله إلا الله وحده ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: انقبضت^(٢).

وقال السدي: نفرت^(٣).

وقال قتادة: كفرت واستكبرت^(٤).

وقال مالك: عن زيد بن أسلم استكبرت^(٥)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصفـات] أي: عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، لهذا قال: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد.

قال مجاهد: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون.

(١) أخرجه الطبراني من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (المعجم الأوسط ١/ ١١٧ ح ١٢٢) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ١٠٠) وكذا أخرجه الضياء المقدسي (المختار ١٠/ ١٢٢).

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) سنده صحيح.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ .

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبههم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها؛ أي: جعلها على غير مثال سبق ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: السر والعلانية ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم.

قال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللَّهُمَّ رَبَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا يختلفون، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا سهيل، عن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خثيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من قال اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا الله أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيهِ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال ﷻ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إليَّ عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة» قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا فقال: ما فينا جارية إلا وهي تقول هذا في خدرها^(٢). انفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله، أن أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قرطاساً وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء وإله كل شيء أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك من أن أقترف على نفسي إثماً أو أجره إلى مسلم. قال أبو عبد الرحمن رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن يقول ذلك

(١) أخرجه مسلم بسنده ومثله (الصحيح، صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ح ٧٧٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١/٤١٢) وسنده منقطع لأن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن

مسعود رضي الله عنه (ينظر مجمع الزوائد ١٠/١٧٤).

حين يريد أن ينام^(١). تفرد به أحمد أيضاً.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن محمد بن زياد الألهاني، عن أبي راشد الحبراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه فقلت له حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه أو أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم»^(٢). ورواه الترمذي، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش به وقال حسن غريب من هذا الوجه^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي من الليل: اللهم فاطر السموات والأرض إلخ^(٤).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٩١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله ﷻ وينيب إليه ويدعوه وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله تعالى من استحقاقه له ولولا أنني عند الله خصيص لما خولني هذا.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١١/١٧١ ح ٦٥٩٧) وصححه لغيره محققوه بالشواهد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ١١/٤٣٨ ح ٦٨٥١) وحسن سنده محققوه.

(٣) سنن الترمذي، الدعوات، باب ٩٥ (ح ٣٥٢٩)، وأخرجه البخاري من طريق إسماعيل بن عياش به (الأدب المفرد ح ١٢٠٤) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح ٩١٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١/١٤) وسنده ضعيف لأن مجاهداً لم يسمع من أبي بكر رضي الله عنه وقد توبع كما في الرواية السابقة فيرتقي إلى الحسن لغيره.

قال قتادة: على علم عندي على خير عندي^(١). قال الله ﷻ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي مع علمنا المتقدم بذلك فهي فتنة؛ أي: اختبار ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿فَدَّ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فما صحَّ قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: كما أصاب أولئك ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ قال إنما أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ أُولَئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [سبا]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعبراً وحججاً.

﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾.

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، أن ابن جريج أخبرهم قال يعلى إن سعيد بن جبيرة أخبره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]^(٢) ونزل ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] ح ٤٨١٠).

اللَّهُ ﷻ وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به^(١).

والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبد الرحمن المزني يقول: سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية فقال رجل يا رسول الله فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات^(٢). تفرد به الإمام أحمد.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا [سريج]^(٣) بن النعمان، حدثنا نوح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحداني، عن مكحول، عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له فقال: يا رسول الله لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي؟ فقال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى وأشهد أنك رسول الله فقال ﷺ: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك»^(٤). تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]^(٥) وسمعت يقول ﷺ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي^(٦) ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٧) ورواه أبو داود والترمذي من حديث ثابت به^(٨).

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة ولا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت فإن باب الرحمة والتوبة واسع قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكُونُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١]، وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا [النساء: ١٥]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا

- (١) صحيح مسلم، الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله (ح ١٢٢)، وسنن أبي داود، الفتن، باب في تعظيم قتل المؤمن ح ٤٢٧٤، وسنن النسائي، تحريم الدم، باب تعظيم الدم ٨٦/٧.
- (٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٥/٣٧ ح ٢٢٣٦٢) وضعف سنده محققوه.
- (٣) كذا في المسند، وفي الأصل: (وحم) و(مح) صحف إلى: «سريج».
- (٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٧١/٣٢ ح ١٩٤٣٢) وصححه محققوه بشواهد.
- (٥) وهي قراءة متواترة في سورة هود آية ٤٦. (٦) وهي قراءة شاذة تفسيرية.
- (٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥٤٩/٤٥ ح ٢٧٥٦٩)، وضعف سنده محققوه وذكروا أن الشطر الأول محتمل للتحسين بشاهده.
- (٨) سنن أبي داود، الحروف والقراءات (ح ٣٩٨١)، وسنن الترمذي، القراءات، باب ومن سورة هود (ح ٢٩٣١).

يَقُولُونَ لِمَسَّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ [المائدة] ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري رحمة الله عليه: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة والآيات في هذا كثيرة جداً.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة، فقال: لا فقتله وأكمل به مائة ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة فقال ومن يحل بينك وبين التوبة. ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها فأتاه الموت في أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى ب صدره عند الموت وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب وأمر تلك البلدة أن تتباعد^(١)، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ إلى آخر الآية. قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلوله، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة] ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قال ابن عباس: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه^(٢).

وروى الطبراني من طريق الشعبي عن [شُتير]^(٣) بن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول إن أعظم آية في كتاب الله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الزمر ﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴿١﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فقال له مسروق صدقت^(٤).

(١) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب رقم ٥٤ ح ٣٤٧٠، وصحيح مسلم، التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (ح ٢٧٦٦).

(٢) عزاه بطوله السيوطي إلى الطبري وابن المنذر. ولم أجده في تفسير الطبري.

(٣) كذا في (حم) والطبري، وفي الأصل صُحف إلى: «سند».

(٤) أخرجه الطبراني من طريق منصور عن الشعبي به (المعجم الكبير ح ٨٦٥٩ و ٨٦٦٠)، وأخرجه البستي من طريق منصور عن الشعبي عن مسروق وشُتير به، وسنده صحيح، وأخرجه الطبري من طريق منصور به.

وقال الأعمش: عن أبي سعيد، عن أبي الكنود قال: مرَّ عبد الله - يعني: ابن مسعود رضي الله عنه - على قاص وهو يذكر الناس فقال: يا مذكر لم تقنط الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾^(١). رواه ابن أبي حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفي القنوط.

قال الإمام أحمد: حدثنا [سريح]^(٢) بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله، حدثني أخشن السدوسي قال: دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم»^(٣). تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني الليث، حدثني محمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز، عن أبي صرمة، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبن لخلق الله ﷻ قوماً يذنبن فيغفر لهم»^(٤) هكذا رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي جميعاً عن قتيبة، عن الليث بن سعد به^(٥). ورواه مسلم من وجه آخر به عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي صرمة وهو الأنصاري صحابي، عن أبي أيوب رضي الله عنه به^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النكري، قال: سمعت أبي يحدث، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة» وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبا لجاء الله تعالى بقوم يذنبن فيغفر لهم»^(٧). تفرد به أحمد.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني عبد الأعلى بن حماد القرشي، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة بن عبد الله الرازي، عن أبي عمرو البجلي، عن عبد الملك بن سفيان الثقفي، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يحب العبد المُفْتَنَ التَّوَّابَ»^(٨). ولم يخرجوه من هذا الوجه.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي معاوية ويعلی بن عبيد عن الأعمش به (المصنف ٨/١٠٧) وسنده حسن.

(٢) كذا في المسند، وفي الأصل و(حم) و(مح) صحف إلى: «شريح».

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢١/١٤٦ ح ١٣٤٩٣)، وصححه محققوه بالشواهد.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٥/٤١٤) وسنده صحيح.

(٥) صحيح مسلم، التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار (ح ٢٧٤٨/٩)، وسنن الترمذي، الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار (ح ٣٥٣٩).

(٦) المصدر السابق (ح ٢٧٤٨/١٠).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/٣٧٩ ح ٢٦٢٣)، وقال محققوه: حسن لغيره.

(٨) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند بسنده ومثله (المسند ٢/٤٢ ح ٦٠٥) وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً شبه موضوع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا ثابت وحמיד، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس لعنه الله تعالى قال: يا ربّ إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم وإني لا أستطيعه إلا بسلطانك قال: فأنت مسلط، قال: يا ربّ زدني، قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله، قال: يا ربّ زدني، قال: أجعل صدورهم مساكن لكم وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يا ربّ زدني قال: أجلب عليهم بخیلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، فقال آدم عليه الصلاة والسلام: يا ربّ قد سلطته عليّ وإني لا أمتنع إلا بك. قال تبارك وتعالى: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء، قال: يا ربّ زدني قال: الحسنه عشر أو أزيد والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يا ربّ زدني. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يا ربّ زدني. قال: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمر، عن عمر رضي الله عنه في حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم.

قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٥٣) وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ^(٥٤) وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَتَأْتُرَ لَا تَشْعُرُونَ^(٥٥).

قال عمر رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص رضي الله عنه قال: فقال هشام: لما أتتني جعلت [أقروها]^(٢) بذى طوى أصدع بها فيه وأصوت ولا أفهمها حتى قلت: اللهم أفهمنيها، فألقى الله في قلبي أنها إنما نزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة^(٣)، ثم استحث تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة فقال: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿مَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَتَأْتُرَ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا قَرَرْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمَن السَّخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ^(٥٨) أي: تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل.

(١) سنده مرسل لأن عبيد بن عمير تابعي. (٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «بياض».

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لأن ابن إسحاق لم يسمع من نافع.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أخبر الله ﷺ ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنْتَهِكَ مِثْلَ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ (١).

فأخبر الله تعالى أن لورّدوا ما قدروا على الهدى وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني. قال: فيكون له الشكر» (٢). ورواه النسائي من حديث أبي بكر بن عياش به (٣).

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله وقال الله ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَذُّبُكَ أَتَيْتَ فَكُذِّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٨) أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٥٩) وَيَسْمَعُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِلِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ أَلْسُنُهُمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٠).

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة قال تعالى ههنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ؟﴾ أي: أليست جهنم كافية لهم سجنًا ومثلاً لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا عيسى بن أبي عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً من النار في واد يقال له: بولس من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال» (٤).

- (١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
- (٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٨٢/١٦ ح ١٠٦٥٢) وصححه سننه محققوه.
- (٣) السنن الكبرى، التفسير رقم ١١٤٥٤.
- (٤) سننه ضعيف جداً لأن عيسى بن أبي عيسى الحنات: متروك (التقريب ٤٤٠)، ولشطره الأول شاهد، أخرجه الترمذي من طريق عمرو بن شعيب به وقال: حسن صحيح (السنن، صفة القيامة ح ٢٤٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وأخرجه الإمام أحمد من طريق عمرو بن شعيب به وحسنه محققوه (المسند ١١/٢٤٠ ح ٦٦٥٩).

وقوله: ﴿وَسَجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَسُئُهُمُ السُّوءُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع، مزحزون عن كل شر نائلون كل خير.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَغْوَيْنِيَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكما والمتصرف فيها وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته، وقوله: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية^(١)، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة^(٢).

وقال السدي: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خزائن السموات والأرض^(٣)، والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ﴾ أي: حججه وبراهينه ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً وفي صحته نظر ولكن نحن نذكره كما ذكره فإنه قال: حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مخلد بن هذيل العبدى، عن عبد الرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ، عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال: «ما سألتني عنها أحد قبلك يا عثمان» قال ﷺ: «تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطي خصالاً ستاً: أما أولاهن فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية فيعطى قنطاراً من الأجر، وأما الثالثة فترفع له درجة في الجنة، وأما الرابعة فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة فيحضره اثنا عشر ملكاً، وأما السادسة فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وله مع هذا يا عثمان من الأجر، كمن حج وتقبلت حجته واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع عليه بطابع الشهداء»^(٤). ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد به مثله وهو غريب وفيه نكارة شديدة والله أعلم^(٥). وقوله: ﴿قُلْ أَغْوَيْنِيَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٩﴾﴾؟ ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد (في تفسير سورة الشورى آية ١٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) سنده ضعيف جداً لأن الأغلب بن تميم متفق على ضعفه (ميزان الاعتدال ٢٧٣/١) وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/١٤٤)، وقال ابن عرّاق عن ابن حجر: إنه منكر من جميع طرقه (تنزيه الشريعة ١/١٩٢).

(٥) عزاه الهيثمي إلى أبي يعلى في المسند الكبير (مجمع الزوائد ١٠/١١٥).

حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوكَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (١٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٥) ﴿١﴾. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٦) أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَنَّا عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧)

يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه القادر على كل شيء المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت في قریش (٢).

وقال السدي: ما عظموه حق عظمتهم (٣).

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم. فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره (٤).

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف.

قال البخاري: قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد الله ﻻ يجعل السموات على أصبع والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية (٥). ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه، والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما كلهم من حديث

(١) أخرجه الطبري في تفسير سورة الكافرون وابن أبي حاتم كلاهما من طريق أبي خلف عبد الله بن عيسى عن داود عن عكرمة عن ابن عباس، وأبو خلف ضعيف (ينظر: فتح الباري ٨/٧٣٣).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٩١.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ح ٤٨١١).

سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه^(١).
وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على أصبع والسّموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه قال: وأنزل الله ﻋَﻠَيْهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ إلى آخر الآية^(٢)، وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبي الضحى، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: مرّ يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله ﻋَﻠَيْهِ السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بأصابعه؟ قال: فأنزل الله ﻋَﻠَيْهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية^(٤). وكذا رواه الترمذي في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن محمد بن الصلت أبي جعفر، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به وقال حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٥).

ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض»^(٦). تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر^(٧).

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع وتكون السّموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك»^(٨).

تفرد به أيضاً من هذا السياق وأطول فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ

(١) المصدر السابق (ح ٧٤١٤)، والمسند ٤٢٩/١، وصحيح مسلم، صفات المنافقين (ح ٢٧٨٦)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الزمر (ح ٣٢٣٨)، والسنن الكبرى، التفسير (ح ١١٤٥١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٧٨/١)، وسنده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] (ح ٧٤٥١)، وصحيح مسلم، صفة القيامة (ح ٢٧٨٦/٢١)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح ١١٤٥٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٢٦/٤ ح ٢٢٦٧)، وقال محققوه: حسن لغیره.

(٥) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الزمر (ح ٣٢٤٠).

(٦) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] ح ٤٨١٢).

(٧) صحيح مسلم، صفة القيامة (ح ٢٧٨٧).

(٨) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ح ٧٤١٢).

قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ (٧) ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها: يُقبل بها ويُدبر «يمجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم» فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن به^(١). وقد رواه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم زاد مسلم ويعقوب بن عبد الرحمن كلاهما عن أبي حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر رضي الله عنهما به نحوه. ولفظ مسلم عن عبيد الله بن مقسم في هذا الحديث أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي النبي ﷺ قال: يأخذ الله تبارك وتعالى سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك ويقبض أصابعه ويسطها أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ^(٢)؟

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف، حدثنا أبو علي الحنفي، حدثنا عباد المنقري، حدثني محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ فقال المنبر هكذا فجاء وذهب ثلاث مرات^(٣). والله أعلم، ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال صحيح.

وقال الطبراني في المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العتبي، حدثنا حيان بن نافع، عن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن [خنيس]^(٤)، عن أبي شيبه، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه رضي الله عنهم: «إني قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر فمن بكى منكم وجبت له الجنة» فقرأها رضي الله عنه من عند: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبكي، فقال الذين لم يبكيوا: يا رسول الله لقد جهدنا أن نبكي فلم نبكي فقال رضي الله عنه: «إني سأقرأها عليكم فمن لم يبكي فليتبأك»^(٥). هذا حديث غريب جداً، وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضاً: حدثنا هاشم بن زيد، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي لو رآهن رجل ما عمل بسوء أبداً: لو كشفت غطائي فرآني حتى استيقن، ويعلم كيف أفعل بخلقني إذا أتيتهم؟ وقبضت السموات بيدي ثم قبضت الأرضين، ثم قلت: أنا الملك من ذا الذي له الملك دوني فأرهبهم الجنة وما أعددت لهم

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٧٢/٢) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، صفة القيامة (ح ٢٧٨٨)، والسنن الكبرى للنسائي (ح ٧٦٨٩)، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (ح ١٩٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٤٤٩).

(٣) سنده ضعيف لأن عباد بن ميسرة المنقري لين الحديث (التقريب ص ٢٩١).

(٤) كذا في (حم) و(مح)، والمعجم الكبير للطبراني، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «حييس».

(٥) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٢٩٨/٢ ح ٢٤٥٩)، وسنده ضعيف جداً لأن بكر بن خنيس متروك (مجمع الزوائد ١٠٤/٧).

فيها من كل خير، فيستيقنوها وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمداً غيّبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون وقد بينته لهم^(١). وهذا إسناد متقارب وهي نسخة تروى بها أحاديث جمة والله أعلم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا بِأَلْسِنَتِهِم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخر بالديمومة والبقاء ويقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ بالصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٢١﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٢٢﴾﴾ [النازعات]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلاً قال لعبد الله بن عمرو ﷺ إنك تقول الساعة تقوم إلى كذا وكذا قال: لقد هممت أن لا أحدثكم شيئاً إنما قلت سترون بعد قليل أمراً عظيماً، ثم قال عبد الله بن عمرو ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة، فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً» قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، فيعبدونها وهم في

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٢٩٤/٣) وسنده ضعيف لأن محمد بن إسماعيل بن عياش لم يسمع من أبيه.

ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له وأول من يسمعه رجل يلو ط حوضه فيصعق ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله أو ينزل الله مطراً كأنه الظل - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ فَسُورُونَ﴾ [الصافات] قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيومئذ تبعث الولدان شبيهاً ويومئذ يكشف عن ساق^(١). انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه^(٢).

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال البخاري: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث عن النبي ﷺ وقال: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال رضي الله تعالى عنه: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق^(٣).

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سألت جبريل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الذين لم يشأ الله تعالى أن يصعقهم؟ قال: «هم الشهداء يتقلدون أسياهم حول عرشه تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير مد خطاها مد أبصار الرجال يسرون في الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا لننظر كيف يقضي بين خلقه؟ يضحك إليهم إلهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه^(٤). رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش فإنه غير معروف والله ﷻ أعلم. وقوله: ﴿وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق تبارك وتعالى للخلائق لفصل القضاء. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا رسالات الله إليهم ﴿وَالشَّهَدَاءُ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [٤٠].

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٦٦/٢) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال (ح ٢٩٤٠).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] ح ٤٨١٤).

(٤) أخرجه الحاكم من طريق أبي أسامة عن عمر بن محمد به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٢٥٣) وفيه متابعة إسماعيل بن عياش وشيخه.

[النساء] ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار وإنما يساقون سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور] أي: يدفعون إليها دفعاً، وهذا وهم عطاش ظماء كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [سورة التَّوْبَةِ] ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم]، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي منهم من يمشي على وجهه ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَيَكُمُّا وَصُفًّا مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم. ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل كما قال تعالى مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا أُلِّفَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك] أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَاعْرِضْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك] أي: بعداً لهم وخساراً.

وقوله ههنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ما كُثِّينَ فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال وبئس المآل.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حيث يساقون على النجائب وفدًا إلى الجنة زمراً؛ أي:

جماعة بعد جماعة: المقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء والصدّيقون مع أشكالهم والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم وكل صنف مع صنف كل زمرة يناسب بعضها بعضاً ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺ وعليهم أجمعين كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله ﷻ أن يأتي لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة»^(١) وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، قال: فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»^(٣). ورواه مسلم عن عمرو بن محمد الناقد وزهير بن حرب كلاهما، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان وهو ابن المغيرة القيسي، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه به^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها، أنبتهم وأمشطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشيا»^(٥). ورواه البخاري عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك^(٦). ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق كلاهما عن معمر بإسناده نحوه^(٧)، وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ^(٨).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر

(١) صحيح مسلم، الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» (ح ١٩٦/٣٣٠).

(٢) المصدر السابق (ح ١٩٦/٣٣١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٣٦/٣) وسنده صحيح.

(٤) صحيح مسلم - الباب السابق - (ح ١٩٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣١٦/٢)، وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (ح ٣٢٤٥).

(٧) صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤).

(٨) صحيح البخاري، الباب السابق، (ح ٣٢٤٦).

ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب والفضة، ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء^(١). وأخرجاه أيضاً من حديث جرير^(٢).

وقال الزهري: عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر» فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «اللهم اجعله منهم» ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة» أخرجاه^(٣) وقد روى هذا الحديث - في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري ومسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن مسعود ورفاعة بن عرابة الجهني وأم قيس بنت محصن رضي الله عنهما، ولهما عن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمئة ألفٍ أخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»^(٤).

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة الباهلي رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعندي ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات ربي ﷻ»^(٥). وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن [سليم]^(٦) بن عامر، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله بن لحي، عن أبي أمامة^(٧). ورواه الطبراني عن عتبة بن عبد السلمي: «ثم مع كل ألف سبعين ألفاً»^(٨). ويروى مثله عن ثوبان وأبي سعيد الأنماري وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهَا وَقَفَّتْ قُرُونُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّئَتْ قَوَافِلُهَا وَخَلَّدِينَ﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ٤٧٠/١٠ ح ٦٠٨٤)، وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (ح ٣٣٢٧)، وصحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها (ح ١٧/٢٨٣٥).

(٣) صحيح البخاري، اللباس، باب البرود والخبر والشملة (ح ٥٨١١)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (ح ٣٦٩/٢١٦).

(٤) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (ح ٣٢٤٧)، وصحيح مسلم، الإيمان، الباب السابق (ح ٢١٩).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة بسنده ومثله (المصنف ٤٧١/١١ ح ٤٧١)، وأخرجه ابن ماجه من طريق إسماعيل بن عياش به (السنن، الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ ح ٤٢٨٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٤٥٩).

(٦) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «حكيم».

(٧) المعجم الكبير (٨/١٨٧).

(٨) المعجم الكبير (١٧/١٢٦).

وتعظيماً وتلفتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالشراب والتأنيب، فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، ومن زعم أن الواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق في النزاع^(١)، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دُعي من أبواب الجنة وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان» فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله ما على أحد من ضرورة دُعي من أيها دُعي فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم وأرجو أن تكون منهم»^(٢). رواه البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه^(٣).

وفيهما من حديث أبي حازم سلمة بن دينار، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون»^(٤).

وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(٥).

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»^(٦).

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها - :

وفي الصحيحين من حديث أبي زرعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله تعالى: يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر»^(٧) - أو هجر ومكة - وفي رواية مكة وبُصرى^(٨) ^(٩).

(١) واستبعد هذا القول العلامة ابن قيم الجوزية (بدائع الفوائد ٣/٥٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢/٢٦٨)، وسنده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، الصوم، باب الريان للصائمين (ح ١٨٩٧)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (ح ١٠٢٧).

(٤) صحيح البخاري، الباب السابق (ح ١٨٩٦)، وصحيح مسلم، الصيام (ح ١١٥٢).

(٥) صحيح مسلم، الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (ح ٢٣٤).

(٦) أخرجه الإمام أحمد من طريق إسماعيل بن عياش، وضعفه محققوه لانتقطاع بين شهر ومعاذ رضي الله عنه (المسند ٤١٨/٣٦ ح ٢٢١٠٢).

(٧) هي قرية في البحرين. (٨) هي مدينة في سوريا.

(٩) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٧٩ في آخرها.

وفي صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام^(١).

وفي المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ مثله^(٢).

وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة»^(٣).

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادي بين المسلمين في بعض الغزوات «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»^(٤) - وفي رواية - مؤمنة.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي: ماكثين فيها أبداً لا يبعثون عنها حولاً ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: يقول المؤمنون إذا عابنوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعتاء والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الذي كان وعدنا على السنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الأنعام: ٢٤]، ﴿الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٢٥].

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾. قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد؛ أي: أرض الجنة^(٥). فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرتنا على عملنا.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنازات اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»^(٦).

وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد، عن تربة الجنة، فقال:

(١) صحيح مسلم، الزهد (ح ٢٩٦٧).

(٢) (المسند ٣/٥) وسنده حسن.

(٣) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومثته (المنتخب رقم ٩٢٤) وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم.

(٤) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (صحيح البخاري، الرقاق، باب الحشر ح ٦٥٢٨، وصحيح مسلم، الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ح ٣٧٧/٢٢١).

(٥) قول أبي العالية أخرجه هناد بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه (الزهد رقم ١٥٩)، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٦) تقدم تخريجه في بداية تفسير سورة الإسراء.

دَرَمَكَةَ^(١) بيضاء مسك خالص، فقال رسول الله ﷺ: «صدق»^(٢). وكذا رواه مسلم من حديث أبي سلمة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه به، ورواه مسلم أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة، عن الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال: «در مكة بيضاء مسك خالص»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبي غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عINAN، فعمدوا إلى إحداها فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغير أبقارهم بعدها أبداً ولم تُشَعث أشعارهم أبداً بعدها، كأنما دهنوا بالدهان ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقته الملائكة على أبواب الجنة ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، وقد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا.

قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول: هذا فلان باسمه في الدنيا. فيقلن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم. فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة ووزابي مبقوثة، قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل^(٤) اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ومن كل لون، ثم يرفع طرفه إلى سقفه فلولاً أن الله تعالى قدره له لألم أن يذهب ببصره إنه لمثل البرق ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ثم يتكئ على أريكة من أرائكه ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٥) [الأعراف: ٤٣].

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي، حدثنا سلمة بن جعفر البجلي قال: سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن علياً رضي الله عنه كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو يؤتون - بنوق لها أجنحة وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلأل كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عINAN فيشربون من إحداها فتغسل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبقارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون - أو فيأتون - باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفيحة فيسمع لها

(١) أي: المسك الخالص والدرمك الدقيق الأبيض خالص البياض.

(٢) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومثله (المنتخب رقم ٨٧٦)، وسنده صحيح، وأخرجه مسلم من طريق الجريري به (الصحيح الفتن، باب ذكر ابن صياد ح ٢٩٢٨).

(٣) المصدر السابق ٩٢/٢٩٢٨ و ٩٣. (٤) أي: القبة.

(٥) أخرجه عبد الرزاق عن معمر، وابن أبي شيبة (المصنف ٧٤/٨)، كلاهما من طريق إسرائيل به، وسنده حسن.

طنين بأعلى، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعث قيّمها، فيفتح لها فإذا رآه خرّ له - قال مسلمة أراه قال ساجداً - فيقول: ارفع رأسك فإنما أنا قيّمك وكُلْتُ بأمرك فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر الياقوت حتى تعتنقه ثم تقول: أنت حبي وأنا حبك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن، فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع بناؤه على جندل اللؤلؤ: طرائق أصفر وأخضر وأحمر ليس فيها طريقة تشاكل صاحبها، في البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقها من باطن الحلل يقضي جماعها في مقدار ليلة من ليايكم هذه، الأنهار من تحتهم تترد «أنهار من ماء غير آسن»، قال: صافٍ لا كدر فيه، «وأنهار من لبن لم يتغير طعمه»، قال: لم يخرج من ضرع الماشية: «وأنهار من خمرة لذة للشاربين» قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم، «وأنهار من عسل مصفى»، قال: لم يخرج من بطون النحل، يستجني الثمار فإن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء متكئاً، ثم تلا ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نِزِيلًا﴾ [الإنسان] فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض - قال: وربما قال: أخضر - قال: فترفع أجنتها فيأكل من جنوبها؛ أي: الألوان شاء ثم يطير فيذهب فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت في الأرض لأضاءت الشمس معها سواداً في نور^(١). هذا حديث غريب وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥).

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والعجور، وقد فصل القضية وقضي الأمر وحكم بالعدل ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾. ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه الله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) سنده ضعيف لضعف أبي معاذ البصري وهو سليمان بن أرقم. كما في التقريب.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وسنده صحيح، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

سُورَةُ غَافِلٍ

وهي مكية

قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال: الحواميم، وإنما يقال: آل حم^(١).
قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: آل حم ديباج^(٢) القرآن^(٣).
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن لكل شيء لباباً ولباب القرآن آل حم أو قال: الحواميم^(٤).
وقال مسعر بن كدام: كان يُقال لهنّ: العرائس^(٥)، وروى ذلك كله الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى في كتاب (فضائل القرآن).
وقال حميد بن زنجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله رضي الله عنه قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمرّ بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات^(٦) فقال: عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب وأعجب، فقليل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن. أوردته البغوي^(٧).
وقال ابن لهيعة: عن يزيد بن أبي حبيب، أن الجراح بن أبي الجراح حدثه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم^(٨).
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات أتائق فيهن^(٩).
وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعي، حدثنا مسعر هو ابن كدام، عن حميد بن عبد الله، أن رجلاً رأى أبا

- (١) أخرجه أبو عبيد بسند صحيح عن محمد بن سيرين (فضائل القرآن ص ١٨٧).
- (٢) الديباج نوع من الثياب يصنع من الإبريسم (ينظر النهاية ٩٧/٢).
- (٣) أخرجه مسلم بن خالد الزنجي في تفسيره (ص ٦١)، وأبو عبيد (المصدر السابق)، وابن أبي شيبة (المصنف ٢٠٣/٧)، والحاكم (المستدرک ٤٣٧/٢) كلهم من طريق مجاهد، عن ابن مسعود، وسكت عنه الحاكم والذهبي، إلا أن مجاهداً لم يسمع من ابن مسعود.
- (٤) أخرجه أبو عبيد والبغوي بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن ابن عباس (التفسير ٩٠/٤).
- (٥) أخرجه الدارمي من طريق مسعر عن سعد بن إبراهيم (السنن، فضائل القرآن، باب في فضل حم والدخان والحواميم ٤٥٨/٢). وسنده صحيح إلى سعد لكنه مقطوع.
- (٦) أي: لينات التربة.
- (٧) أخرجه البغوي من طريق حميد بن زنجويه به (التفسير ٩٠/٤) وسنده حسن.
- (٨) سنده ضعيف تقدم في حاشية رقم (٤).
- (٩) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق معن بن عبد الرحمن عن ابن مسعود (المصنف ٢٠٣/٧)، وسنده ضعيف لأن معناً لم يسمع من ابن مسعود.

الدرداء رضي الله عنه يبني مسجداً فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل آل حم^(١)، وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق، وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وضع له فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إن يئتم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون - وفي رواية: لا تنصرون»^(٢).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظبيان بن خلف المازني ومحمد بن الليث الهمداني قالا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، عن زُرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن عصم ذلك اليوم من كل سوء» ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذي من حديث المليكي وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا، وقد قيل: إن ﴿حَمَّ﴾ اسم من أسماء الله ﷻ^(٤)، وأنشدوا في ذلك بيتاً:

يذكرني حمَّ والرمح شاجر فهلا تلا حمَّ قبل التقدم^(٥)

وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي من حديث الثوري، عن أبي إسحاق، عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن يئتم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون»^(٦). وهذا إسناد صحيح، واختار أبو عبيد أن يروى فقولوا: حم لا ينصروا؛ أي: إن قلمت ذلك لا ينصروا جعله جزاء لقوله: فقولوا.

وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنبه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابُه.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٢٠٣/٧) وأبو عبيد (فضائل القرآن ص ١٨٧) كلاهما من طريق رجل مبهم عن أبي الدرداء، وسنده ضعيف بسبب الإبهام.

(٢) سيأتي تخريجه في تفسير الآية الأولى.

(٣) أخرجه الترمذي من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي به (السنن، فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي ح ٢٨٧٩). وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن (التقريب ص ٣٣٧).

(٤) أخرجه البستي والطبري بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٥) استشهد به أبو عبيدة (مجاز القرآن ١٩٣/٢)، والطبري ونسبه إلى شريح بن أوفى العبسي.

(٦) سنن أبي داود، الجهاد، باب في الرجل ينادي بالشعار (ح ٢٥٩٧)، وسنن الترمذي، الجهاد، باب ما جاء في الشعار (ح ٢٦٨٢) وصححه سننه الحافظ ابن كثير والألباني (صحيح سنن أبي داود ح ٢٢٦٢)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١٠٧/٢).

وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه.

وقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا وعنا عن أوامر الله تعالى وبغى وهذه كقوله: ﴿فَتَىٰ عِبَادِيَ أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤١) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٥﴾ [الحجر]، يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله تعالى: ﴿ذِي الطَّلَوِّ﴾ قال ابن عباس: يعني السعة والغنى^(١)، وهكذا قال مجاهد وقتادة^(٢).

وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّلَوِّ﴾ يعني: الخير الكثير.

وقال عكرمة: ﴿ذِي الطَّلَوِّ﴾ ذي المن^(٣).

وقال قتادة: ذي النعم^(٤) والفواضل، والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من المنة والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿وَلَا تَقْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره فلا إله ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَهُوَ سَكِرَتُ الْأَنْفُسِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر رضي الله عنه: ﴿حَمِّ﴾ (١) تَزِيلُ الْكَتِبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ وقال: اعمل ولا تيأس^(٥). رواه ابن أبي حاتم: واللفظ له وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن مروان الرقي، حدثنا عمر - يعني ابن أيوب -، حدثنا جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان، فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيج عن مجاهد.

(٣) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٤٠٠/٦)، والطبري كلاهما من طريق أبي بكر بن عياش به، وسنده ضعيف لأن أبا إسحاق السبيعي لم يسمع من عمر رضي الله عنه.

نعيم من حديث جعفر بن برقان وزاد: فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخوا لكم زلَّ زلَّةً فسدوده ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شيبه، حدثنا حماد بن واقد، حدثنا أبو عمر الصفار، حدثنا ثابت البناني قال: كنت مع مصعب بن الزبير رضي الله عنه في سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلي ركعتين فافتتحت: ﴿حَمِّمٌ﴾ المؤمن حتى بلغت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾، فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية، فقال: إذا قلتُ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي، وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ فقل: يا قابل التوب اقبل توبتي، وإذا قلت: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني، قال: فالتفت فلم أر أحداً فخرجت إلى الباب، فقلت: مرَّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية، قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يرون أنه إلياس^(٢)، ثم رواه من طريق أخرى عن ثابت بنحوه، وليس فيه ذكر إلياس.

﴿مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ ١ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ٢ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ٣.

يقول تعالى ما يدفع ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان: ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها كما قال: ﴿لَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ ١ ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ٢ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ٣ [لقمان]، ثم قال تعالى: مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذبهم أمهم وخالفهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من كل أمة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقد قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا معتمر بن سليمان، قال سمعت أبي يحدث عن [حنش]^(٣)، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ»^(٤).

(١) أخرجه أبو نعيم في ترجمة يزيد الأصم بسنده ومثته (حلية الأولياء ٩٧/٤ - ٩٨) وذكره ابن كثير من طريق أبي نعيم به ثم قال: إسناده جيد وفيه انقطاع (مسند الفاروق ٥١٧/٢).

(٢) سنده ضعيف لضعف حماد بن واقد (التقريب ص ١٧٩) وفي مثته غرابة.

(٣) كذا في (حم) و(مح) والمعجم الكبير، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «حنش».

(٤) أخرجه الطبراني بسنده ومثته (المعجم الكبير ٢١٥/١١ ح ١١٥٣٩)، وأخرجه الحاكم من طريق علي بن =

وقوله: ﴿فَاخَذْنَاهُمْ﴾ أي: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة: كان شديداً والله^(١).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكروبيين بأنهم يسبحون بحمد ربهم؛ أي: يقرنون بين التسييح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب كما ثبت في صحيح مسلم «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب، قال الملك: آمين ولك بمثله»^(٢).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد وهو ابن أبي شيبة، حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره» فقال:

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد
فقال رسول الله ﷺ: «صدق» فقال:

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها [يتورد]^(٣)
تأبى فما تطلع لنا في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد
فقال رسول الله ﷺ: «صدق»^(٤). وهذا إسناد جيد، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة:

= عبد العزيز به وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بأن حنش الرحي ضعیف (المستدرک ٤/ ١٠٠).

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه (الصحيح، الذكر، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ح ٢٧٣٢).

(٣) كذا في (حم) و(مع) والمسنَد، وفي الأصل صحف إلى: «يتردد».

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسنَد ٤/ ١٥٨ - ١٥٩ ح ٢٣١٤) وضعف سنده محققوه بسبب عنعنة ابن إسحاق. اهـ. وكذلك في لفظه غرابة.

[١٧]، وهنا سؤال وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا محمد بن الصباح البزار، حدثنا الوليد بن أبي ثور، عن سماك، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب، قال: «والمزن» قالوا: والمزن قال: «والعنان» قالوا: والعنان، قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً، قال: «هل تدرون بعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندري، قال: «بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ثم السماء فوقها كذلك حتى عدَّ سبع سموات، ثم فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين السماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك» ^(١). ثم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث سماك بن حرب به وقال الترمذي: حسن غريب ^(٢)، وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية كما قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية: أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة، يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ^(٣)، ولهذا يقولون: إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿وَفِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: أجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاوزة كما قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي: ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فساوينا به بكثير العمل تفضلاً ومنة.

وقال سعيد بن جبیر: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل، فيقول: إني إنما عملت لي ولهم، فيلحقون به في الدرجة ثم تلا سعيد بن جبیر هذه الآية ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

(١) سنن أبي داود، السنة، باب الجهمية (ح ٤٧٢٣)، وسنده ضعيف لضعف الوليد بن أبي ثور (التقريب ص ٥٨٢) وفي متنه غرابة في ذكره للأوعال! وفيه أيضاً عبد الله بن عميرة قال البخاري: لا يعلم له سماع من الأحنف (التاريخ الكبير ٤٩٤/٥).

(٢) المصدر السابق (ح ٤٧٢٥)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الحاقة (ح ٣٣٢٠)، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (ح ١٩٣)، وفي رواية أبي داود والترمذي متابعة للوليد ولكن يبقى علة عدم سماع عبد الله بن عميرة من الأحنف.

(٣) سنده ضعيف لإرسال شهر بن حوشب.

وَأَرْوَجَهُمْ وَذَرَبْتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾^(١). قال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ الآية وأغش عباده للمؤمنين الشياطين^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فعلها أو وبالها ممن وقعت منه ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَجَعْتُمْ﴾ أي: لطفت به ونجيت من العقوبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مَّا بَيْنَ يَدَيْهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٢﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار إنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظنون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عابوا عذاب الله يوم القيامة^(٣)، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذر بن عبيد الله الهمداني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير^(٤) الطبري رحمة الله عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَيْنِ﴾ قال الثوري: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمُوتًا فَأَخْيَكُمُ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٨﴾^(٥) [البقرة]. وكذا قال ابن عباس

(١) أخرجه الطبري من طريق شريك عن سعيد بنحوه وسنده مرسل.

(٢) أخرجه البستي والطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن مُطَرِّف مع تقديم وتأخير.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) قول الحسن عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأخرجه البستي بسند حسن عن الحسن، هو وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٥) أخرجه الطبري من طريق الثوري به وسنده صحيح، وأخرجه الحاكم من طريق أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٣٧/٢).

والضحاك وقتادة وأبو مالك^(١). وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.
وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فخطبوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم
القيامة^(٢).

وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ﷺ ثم خلقهم في الأرحام ثم
أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة^(٣).
وهذان القولان من السدي وابن زيد ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات
وإماتات، والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما.

والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ﷻ في عرصات
القيامة كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ
صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة]، فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها ونظروا
إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون قال الله
تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْعَلُ عَلَى النَّارِ فَعَالُوا يَلَيِّنُوا نَرْدُ وَلَا تُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧٧] بَلْ بَدَأَ لَهُمْ
مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام] فإذا دخلوا النار وذاقوا
مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ
فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [١٧] قَالَ اخْشَوْا
فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون] وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي
كلامهم مقدمة وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا أَتَيْنِي وَآحْيَيْتَنَا أَتَلَّتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد
ما كنا أمواتا ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين
لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى
الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا
ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن
سجايكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تجحده وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ
اللَّهُ وَحَدِّثُكَ فَكَّرْتَهُ وَإِنْ يَشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنَا﴾ أي: أنتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما
قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي
من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقها بما يشاهدونه في خلقه العلوي
والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيَذَرُكُمْ لِكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى بسابقه ولاحقه، وقول الضحاك
أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من
طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول أبي مالك أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

رِزْقًا ﴿ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحہ وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام يعني ابن عروة بن الزبير، عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، قال: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهنّ دبر كل صلاة^(١)، ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثتهم عن أبي الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وذكر تمامه^(٢).

وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا [الربيع، حدثنا الخصب بن ناصع]^(٤)، حدثنا صالح يعني المري، عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»^(٥).

﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمتہ وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته

- (١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/٤) وسنده صحيح.
- (٢) صحيح مسلم، المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة (ح ٥٩٤)، وسنن أبي داود، أبواب الوتر، باب ما يقول الرجل إذا سلم (ح ١٥٠٧) وسنن النسائي، الصلاة، باب عدد التهليل والذكر بعد التسليم ٧٠/٣.
- (٣) ينظر تخريج الرواية السابقة في صحيح مسلم.
- (٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحف إلى: الربيع بن الحصيب ثنا ناصح.
- (٥) سنده ضعيف جداً لضعف صالح بن بشير المري، وهو يروي أحياناً الموضوعات كما قال ابن حبان (المجروحين ٣٧٢/١)، وابن عدي (الكامل ٤/١٣٨٠).

كالسقف لها كما قال تعالى: ﴿مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (١) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٢﴾ [المعارج]، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله.

وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوته حمراء^(١) اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة، وقد تقدم في حديث الأوعال^(٢) ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مَنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٣) [النحل]، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنَا الرُّوحَ الْبَارِئَ﴾ (٤) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٥﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦﴾ [الشعراء]، ولهذا قال: ﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده^(٣).

وقال ابن جريج: قال ابن عباس عليه السلام: يلتقي فيه آدم وآخر ولده^(٤).

وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد^(٥).

وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق^(٦).

وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم، وقد يقال: إن يوم التلاق يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون^(٧).

وقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكتهم ولا يظلمهم ولا يسترهم ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء. وقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر عليهما السلام أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده ثم يقول أنا الملك أنا الجبار أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون^(٨)؟

وفي حديث الصور أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه.

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة يونس آية ٣.

(٢) تقدم تخريجه وضعفه في تفسير هذه السورة الكريمة آية ٧.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) سنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وقول سفيان بن عيينة أخرجه البستي بسند صحيح عن ابن أبي عمر عنه.

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣. (٨) سنده صحيح وله حكم الرفع لأنه من الغيب.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نصر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات قال: وينزل الله إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسنة واحدة قال تبارك وتعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال: - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر].

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿٧٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٨٠﴾.

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقتربها كما قال تعالى: ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٧٨﴾ [النجم]، وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر]، وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ فَلَا سَتَعْلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ [الملك].

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى كاظمين؛ أي: ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ].

وقال ابن جريج: ﴿كَظِيمِينَ﴾ أي: باكين^(٢). وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شافع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها

ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١): هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسنة أو تمرُّ به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غصَّ بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غص، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ودَّ أن لو اطلع على فرجها^(١). رواه ابن أبي حاتم.

وقال الضحاك: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ هو: الغمز وقول الرجل: رأيت ولم ير، أو: لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا^(٢)؟ وكذا قال مجاهد وقتادة^(٣).

وقال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟^(٤).

وقال السدي: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي: من الوسوسة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل.

قال الأعمش: عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٥). وهذا الذي فسر به ابن عباس ﴿يَقْضِي﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ﴾ (٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧).

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حلَّ بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أثروا في

(١) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن أبي شيبه، وأخرجه ابن أبي شيبه من طريق منصور عن ابن عباس (المصنف ٤١٠/٣) وسنده ضعيف لأن منصوراً لم يسمع من ابن عباس ويتقوى بما يليه.

(٢) أخرجه البستي والطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) الخبر تمة لقبل سابقه. (٥) الخبر تمة لسابقه.

الأرض من البنيات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أي: مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسولهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ تعالى أي: أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿إِنَّهُمْ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَفَرُّوْنَ فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنَ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبية محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات. والدلائل الواضحات. ولهذا قال تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَارُونَ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿وَفَرُّوْنَ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً مموهاً كذاباً في أن الله أرسله وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثانٍ من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية وإلهاة هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ولهذا قالوا: ﴿أَوَإِذَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَا وَنَبْعَدَ مَا جِئْنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر^(١)، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى إلى قتل

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

موسى عليه الصلاة والسلام؛ أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي لا أبالي به، وهذا في غاية الجحد والتهجم والعناد، وقوله قبحه الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني: موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً؛ يعني: واعظاً يشفق على الناس من موسى ﷺ. وقرأ الأكثرون: ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ آخرون ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(١) وقرأ بعضهم ﴿يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ بالضم^(٢). وقال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال موسى ﷺ: استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عن الحق مجرم ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ وَنَدْرَأُ بِكَ فِي نَحْوِهِمْ»^(٣).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٩).

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون قال السدي: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام^(٤)، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعّل لكلامه واستمعه وكفّ عن قتل موسى ﷺ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم.

وقال ابن جريج، عن عباس ﷺ لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [القصص: ٢٠]، رواه ابن أبي حاتم^(٥).

وقد كان هذا الرجل يكتُم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فأخذت الرجل غضبة الله ﷻ وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه حيث قال: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ. قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة

(١) القراءتان متواترتان. (٢) وهي قراءة متواترة أيضاً.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وحسنه محققوه (المسند ٣٢/٤٩٣ ح ١٩٧١٩).

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يلق ابن عباس.

إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر ﷺ عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١). انفرد به البخاري من حديث الأوزاعي، قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه به^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عبدة، عن هشام؛ يعني: ابن عروة، عن أبيه، عن عمرو بن العاص ﷺ أنه سئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال مرَّ ﷺ بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا؟ فقال: «أنا ذاك»، فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر ﷺ محتضنه من ورائه وهو يصيح بأعلى صوته وإن عينيه لتسيلان وهو يقول: يا قوم ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها^(٣). وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة فجعله من مسند عمرو بن العاص ﷺ^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ربي الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَلَعَلَّهِ كَذِبٌ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله ﷻ سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يكن صادقاً وقد أذيتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائر عندكم أن يكون صادقاً فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه. وهكذا أخبر الله عن موسى ﷺ أنه طلب من فرعون وقومه المواجهة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّكَ لَكُرْ رَسُولٌ آمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَقُلُوا عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يَأْتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّوْا لِي﴾ [الدخان]، وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله، ثم قال المؤمن: محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله

(١) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، سورة المؤمن ح ٤٨١٥).

(٢) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة (ح ٣٨٥٦).

(٣) سنده صحيح.

(٤) السنن الكبرى، التفسير (ح ١١٤٦٢).

بهم: ﴿يَقَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتُم رسوله ﴿فَمَنْ يَصُحِّرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء.

قال فرعون لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى ﷺ فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسَافَةً أَنْفُسِهِمْ ظُلُمًا وظُلُومًا﴾ [النمل: ١٤]، فقلوه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنَ قَوْمٌ وَمَا هَؤُلَاءِ﴾ [طه]، وفي الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٣٥) ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣٦) وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ (٣٧) يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٨) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بَغْيًا يُغَيِّرُ سُلْطَانَهُمْ أَنْتَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٤٠).

هذا إخبار من الله ﷻ عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حلَّ بهم بأس الله وما ردَّ عنهم راد ولا صدَّ عنهم صاد.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره ثم قال: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ (٣٧) يعني: يوم القيامة وسمي بذلك، قال بعضهم: لما جاء في حديث الصور أن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتجت، فظفر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً^(٢).

(١) أخرجه الشيخان من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صحيح البخاري، الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح ح ٧١٥٠)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ح ٢٢٧).

(٢) تقدم تخريج حديث الصور في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

وقال آخرون منهم الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم ذهب الناس هرباً منهم فقتلناهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهِمْ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَمْعَشَرُ لَيْلٍ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٠) [الرحمن].

وقد روي عن ابن عباس والحسن والضحاك أنهم قرأوا: «يوم التناذ» بتشديد الدال (٢) من نذ البعير إذا شرد وذهب، وقيل: لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفَّ عمله نادى: ألا قد شقي فلان بن فلان.

وقال قتادة: يُنادي كل قوم بأعمالهم، يُنادي أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار (٣)، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف، واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك، وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُؤْثَرُونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: ذاهبين هاربين ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَفِرُ (١٢) [القيامة]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: أهل مصر، وقد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى عليه الصلاة والسلام وهو: يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله تعالى أمته القبط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: يثستم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يضلله الله لإسرافه في أفعاله وارتباب قلبه.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: الذي يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإن الله ﷻ يمقت على ذلك أشد المقت ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر لإسرافه في أفعاله وارتباب قلبه.

(١) أخرجه الطبري من طريق أجليح عن الضحاك، وسنده حسن إلى الضحاك لكنه معضل لأن الضحاك تابع تابعي.

(٢) وهي قراءة شاذة تفسير وهي منسوبة إلى ابن عباس والضحاك كما في المحتسب ٢/٢٤٣، ومختصر الشواذ (ص ١٣٣)، ونسبها الطبري إلى الحسن البصري من غير سند.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

منكراً ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾ وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة وحكي عن الشعبي أنهما قالاً: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين.

وقال أبو عمران الجوني وقتادة: آية الجبابة القتل بغير حق.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنُ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٨﴾ أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَاطْلَعُ إِلَى اللَّهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا﴾ [القصاص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر وأن يجعلوه في قبورهم رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٨﴾ أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السموات^(١)، وقيل: طرق السموات^(٢). ﴿فَاطْلَعُ إِلَى اللَّهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله ﷻ أرسله إليه قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار^(٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَتَقَوَّمُوا أَمْرَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٤٠﴾ يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٤١﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٢﴾﴾

يقول المؤمن لقومه ممن ترمد وطغى وأثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم: ﴿يَتَقَوَّمُوا أَمْرَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ثم زهدهم في الدنيا التي قد أثروا على الأخرى وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس. وأخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

تذهب وتضمحل ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُوفٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿وَنَقُومَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (٤١) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٢) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَؤُصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٣) فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٤) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٥).

يقول لهم المؤمن ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي: عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الله الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أي: على جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول حقاً؟

قال السدي وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً^(١).

وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا كذب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يقول: بلى إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: الوثن ليس له شيء^(٢).

وقال قتادة: يعني: الوثن لا ينفع ولا يضر^(٣).

وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة^(٤)، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) [الأحقاف]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصحتكم

(١) هذا القول الذي قال به الطبري.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

ووضحت لكم وتذكرونه وتندمون حيث لا ينفع الندم ﴿وَأَقْرَضَ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأبعدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ.

وقوله تعالى: ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هنا سؤال وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم هو: ابن القاسم أبو النضر، حدثنا إسحاق بن سعيد هو: ابن عمرو بن سعيد بن العاص، حدثنا سعيد يعني: أباه، عن عائشة رضي الله عنها أن اليهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقال الله عذاب القبر. قالت رضي الله عنها: فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت: يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال ﷺ: «لا، من زعم ذلك؟» قالت: هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقال الله عذاب القبر. قال ﷺ: «كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة» ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه محمرة عيناه وهو ينادي بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكيتكم كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فإن عذاب القبر حق»^(١). وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتها امرأة يهودية فأعطتها فقالت لها: وقال الله من عذاب القبر، فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، فلما رأت النبي ﷺ قالت: له فقال ﷺ: «لا» قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قال لنا رسول الله بعد ذلك: «وإنه أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم»^(٢). وهذا أيضاً على شرطهما.

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها دلالة على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلّت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشيّاً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها. وقد يقال: إن هذه

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٤١/٦٦، ٦٧ ح ٢٤٥٢٠)، وصححه سننه محققوه، وسبقهم الحافظ ابن كثير في تصحيحه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٣/١٤٢ ح ٢٦٠٠٨)، وصححه سننه محققوه، وسبقهم الحافظ ابن كثير.

الآية إنما دلّت على عذاب الكفار في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب.

ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم، فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود» قالت عائشة رضي الله عنها: فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم تفتنون في القبور» وقالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد يستعيز من عذاب القبر^(١)، وهكذا رواه مسلم عن هارون بن سعيد وحرمله كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري به^(٢).

وقد يقال إن هذه الآية دلّت على عذاب الأرواح في البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أوحى إلى النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه، والله ﷻ أعلم.

وقد روى البخاري من حديث شعبة، عن أشعث بن أبي الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر^(٣). فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرّر عليه، وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي فلعلهما قضيتان والله سبحانه أعلم وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿عَذْوًا وَعَشِيًّا﴾: صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توييخاً ونقمة وصغاراً لهم^(٤).

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هذيل، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها^(٥)، وقد رواه الثوري، عن أبي قيس، عن الهذيل بن شرحبيل من كلامه في أرواح آل فرعون^(٦)، وكذلك قال السدي^(٧).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٣/٢١٠ ح ٢٦١٠٥) وصححه سنداه محققوه.

(٢) صحيح مسلم، المساجد، باب استحباب التعوذ من فتنة القبر (ح ٥٨٤).

(٣) صحيح البخاري، الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (ح ١٣٧٢).

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه عبد الرزاق من طريق الثوري عن عبد الرحمن بن ثروان به بدون ذكر ابن مسعود، والشرط الأول له شاهد في صحيح مسلم تقدم في تفسير سورة آل عمران آية ١٦٩، وأما الشرط الثاني الذي يذكر آل فرعون فإنه غريب وتارة يرويه هذيل عن ابن مسعود وتارة من كلامه كما سيأتي في رواية الثوري.

(٦) تقدم تخريجه عن عبد الرزاق في الرواية السابقة.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي لكنه من الأمور الغيبية التي لا تؤخذ إلا من الوحي.

وفي حديث الإسراء من رواية أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا زيد بن أكرم، حدثنا عامر بن مدرك الحارثي، حدثنا عتبة - يعني: ابن يقظان -، عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن شهاب، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى» قال: قلنا: يا رسول الله ما إثابة الله الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشبه ذلك» قلنا فما إثابته في الآخرة؟ قال ﷺ: «عذاباً دون العذاب» وقرأ ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٢).

ورواه البزار في مسنده عن زيد بن أكرم ثم قال: لا نعلم له إسناداً غير هذا^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزاري البلخي قال: سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال: رحمك الله رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضاً فوجاً فوجاً لا يعلم عددها إلا الله ﷻ، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم، قال: إن ذلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت أرياشها وصارت سوداً فينبت عليها من الليل ريش أبيض ويتناثر الأسود ثم تغدو على النار غدواً وعشيا ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبهم في الدنيا فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ قال: وكانوا يقولون إنهم ستمائة ألف مقاتل^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، حدثنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ إليه يوم القيامة»^(٥). أخرجه في الصحيحين من حديث مالك به^(٦).

(١) تقدم تخريجه وضعفه في مطلع تفسير سورة الإسراء.

(٢) سنده ضعيف لضعف عتبة بن يقظان (ميزان الاعتدال ٣/ ٣٠).

(٣) أخرجه البزار كما في مختصر زوائد مسند البزار (١/ ٣٩٢ ح ٦٤٦)، وقال الحافظ ابن حجر: والمتن شاذ بمره. وذلك بعد أن نقل كلام الهيثمي في عتبة بن يقظان إذ قال: فيه كلام.

(٤) أخرجه الطبري بسند ومثته، وسنده ضعيف لأنه مقطوع وحماد بن محمد الفزاري ضعيف (لسان الميزان ٢/ ٣٥٣)، ومثته فيه غرابة.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١١٣/ ٢) وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (ح ١٣٧٩)، وصحيح مسلم، الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (ح ٢٨٦٦).

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الضعفاء - وهم الأتباع - للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتهمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: قسطاً تتحملونه عنا ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ لما علموا أن الله لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم ﴿أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ونحن منكم براء ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إلا في ذهاب ولا يتقبل ولا يستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُم مِّنَ السَّكَعِ الْبَصِيرِ ﴿٥٦﴾﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

(أحدهما): أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض قال: وهذا سائغ في اللغة.

(الثاني): أن يكون المراد بالنصر والانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبهم أو بعد موتهم كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم

وسفك دماءهم^(١)، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح ﷺ من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم، فأهانوهم وأذلّوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقرّ أعينهم ممن آذاهم، ففي صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب»^(٢).

وفي الحديث الآخر: «إني لأثار لأوليائي كما يثار الليث بالحرب» ولهذا أهلك الله تعالى قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً^(٣).

قال السدي لم يبعث الله رسولاً قط إلى قوم فيقتلونهم أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال، فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها^(٤). وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم له وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرّت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنفذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله ودعوا عباد الله تعالى إلى الله، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل.

قال مجاهد: الأشهاد الملائكة^(٥).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقرأ آخرون

(١) ذكره الطبري بمعناه مختصراً.

(٢) في متنه غرابة.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي مختصراً.

(٤) أخرجه الثوري بسند صحيح عن الأعمش عن مجاهد، وأخرجه الطبري من طريق الثوري به.

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٩٨.

يوم بالرفع^(١) كأنه فسر به ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المشركون ﴿مَعَذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الإبعاد والطرده من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي النار قاله السدي، بشئ المنزل والمقيل.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: سوء العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى﴾ وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور ﴿وَأَوْثَرْنَا بِتَىٰ إِسْرَءِيلَ أَكْتَبَ﴾ أي: جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة. وقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ هذا تهيج للأمة على الاستغفار ﴿وَسَيَجْجِدُ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ﴾ أي: في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ وهي أول النهار وأواخر الليل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ﴾ أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: من حال مثل هؤلاء ﴿إِنَّكُمْ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: في صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله تعالى لنبيه ﷺ أمراً له أن يستعيز من فتنة الدجال ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّكِينُ الْبَصِيرُ﴾^(٢) وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧)
وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ
السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩).

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بداية وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر

(١) وهي قراءة شاذة على التفسير.

(٢) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وقال بسند صحيح عن أبي العالية. لكنه مرسل. وقول كعب عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

على ما دونه بطريق الأولى والأخرى كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُنَّ بَدِيلًا يَنْتَقِرُ عَلَى أَنْ يُخَيَّرَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [الأحقاف] وقال ههنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ فلماذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ﴾ أي: لكائنة وواقعة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن شيخ قديم من أهل اليمن قدم من ثم قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس واشتد حرُّ الشمس^(١).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝﴾

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول: يا مَنْ أَحَبَّ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مِنْ سَأَلِهِ فَأَكْثَرَ سَوَالِهِ، ويا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مِنْ لَمْ يَسْأَلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرِكَ يَا رَبِّ. رواه ابن أبي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله وُئِيَّ آدَمَ حِينَ يَسْأَلُ يَغْضَبُ

وقال قتادة: قال كعب الأحبار أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلها ولا نبي: كان إذا أرسل الله نبياً قال له: أنت شاهد على أمتك وجعلتكم شهداء على الناس، وكان يُقال له: ليس عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكان يُقال له: ادعني أستجب لك وقال لهذه الأمة ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢) رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترمذاني، حدثنا صالح [المري] ^(٣) قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ قال: «أربع خصال واحدة منهن لي وواحدة لك وواحدة بيني

(١) رجاله ثقات لكن الإمام مالك لم يصرح باسم شيخه، وعلى كل حال هو مقطوع.

(٢) سنده مرسل ومعناه صحيح وله شواهد تقويه.

(٣) كذا في (مح) ومسنده أبي يعلى، وفي الأصل: (حم) صُحِفَ إِلَى: «المزي».

وبينك وواحدة فيما بينك وبين عبادي، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك علي فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بيني وبينك فمك الدعاء وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي فأرض لهم ما ترضى لنفسك»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن ذرٍّ، عن يُسيع الكندي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢). وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير كلهم من حديث الأعمش به. وقال الترمذي: حسن صحيح، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير أيضاً من حديث شعبة، عن المنصور والأعمش كلاهما عن ذرٍّ به، وكذا رواه ابن يونس، عن أسيد بن عاصم بن مهران، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا سفيان الثوري، عن منصور، عن ذرٍّ به، ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحهما وقال الحاكم صحيح الإسناد^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع أبو مليح المدني شيخ من أهل المدينة سمعه عن أبي صالح وقال: مرة سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله ﷻ غضب عليه». تفرد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا مروان الفزاري، حدثنا صبيح أبو المليح، سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه»^(٤). قال ابن معين أبو المليح هذا اسمه: صبيح كذا قيده بالضم عبد الغني بن سعيد، وأما أبو صالح هذا فهو: الخوزي سكن شعب الخوز، قاله البزار في مسنده، وكذا وقع في روايته أبو المليح الفارسي عن أبي صالح الخوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(٥).

وقال أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي: حدثنا همام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نجيع، حدثني عائذ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات، فتعرضوا له لعل دعوة أن توافق

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ٥/١٤٣ ح ٢٧٥٧) وسنده ضعيف لضعف صالح المري (مجمع الزوائد ٥١/١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٠/٣٣٦ ح ١٨٣٨٦)، وصححه سننه محققوه.

(٣) سنن أبي داود، الوتر، باب الدعاء (ح ١٤٧٩)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة المؤمن (ح ٣٢٤٧)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح ١١٤٦٤)، وسنن ابن ماجه، الدعاء، باب فضل الدعاء (ح ٣٨٢٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٠٨٦)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/٤٩١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٦/١٤٦ ح ١٠١٧٨) وضعفه سننه محققوه لضعف أبي صالح الخوزي.

(٥) سننه ضعيف كسابقه.

رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً^(١). وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي سيدخلون جهنم داخرين؛ أي: صاغرين حقيرين كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر^(٢) في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم يقال له: بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس قال: سمعت أبي يحدث عن وهيب بن الورد، حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم فسمعت هاتفاً من فوق رأس الجبل وهو يقول: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك! يا رب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك! قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى. قال: ثم عاد الثانية فقال: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يرضي غيرك! قال: وهيب وهذه الطامة الكبرى، قال: فناديته: أجنبي أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي اشغل نفسك بما يعينك عما لا يعينك^(٤).

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآلَيْ تُوَفَّكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيْنَتِ اللَّهُ بِمَحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْغَنِيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه يستريحون من حركات ترددهم في المعاش بالنهار وجعل النهار مبصراً؛ أي: مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿فَآلَيْ تُوَفَّكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون من الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة؟

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيْنَتِ اللَّهُ بِمَحَدُونَ﴾ أي: كما ضل بعبادة غير الله

(١) أخرجه الرامهرمزي بسنده ومثله (المحدث الفاصل ص ٤٩٧)، وسنده ضعيف لضعف نائل بن نجيع (التقريب ص ٥٥٩).

(٢) أي: النمل الصغير.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١١/ ٢٦٠ ح ١٦٧٧) وحسن سنده محققوه.

(٤) في سنده إبهام شيخ وهيب بن الورد.

كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها لكم مستقراً بساطاً مهاداً تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي: سقفاً للعالم محفوظاً ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المأكول والمشارب في الدنيا فذكر أنه خالق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة]. وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلاً وأبداً لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل ﴿فَاَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين له مقربين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين.

قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرن من قال: لا إله إلا الله أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين عملاً بهذه الآية^(١). ثم روي عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى: ﴿فَاَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن سعيد بن جبيرة قال: إذا قرأت ﴿فَاَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فقل: لا إله إلا الله، وقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين ثم اقرأ: ﴿فَاَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

[قال الإمام أحمد: حدثنا ابن نمير، حدثنا هشام؛ يعني: ابن عروة بن الزبير، عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يُسَلِّم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

قال: وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة^(٤). ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من

(١) ذكره الطبري بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه الحاكم من طريق محمد بن علي بن الحسن بن شقيق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٣٨).

(٣) أخرجه الطبري من عدة طرق يقوي بعضها بعضاً عن إسماعيل بن أبي خالد به.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٤/٤)، وسنده صحيح.

طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثتهم، عن أبي الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له...» وذكر تمامه [١] (٢).

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوْنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَوْا أَمرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوْنُوا شُيُوخًا﴾ أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له وعن أمره وتديره وتقديره يكون ذلك ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطاً ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة كقوله: ﴿لَنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال ههنا: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابن جريج تتذكرون البعث ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿فَإِذَا قَضَوْا أَمرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان [لا محالة] (٣).

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَصْرَفُونَ﴾ (٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْطُلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَنْتَ كُنتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي: من الهدى والبيان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات].

وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْطُلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على

(١) زيادة من (حم) و(مح).

(٢) صحيح مسلم، المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة (ح ٥٩٤)، وسنن أبي داود، الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم (ح ١٥٠٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٣٣٣).

(٣) زيادة من (حم) و(مح).

وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ^(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ^(٧٢)﴾ كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْجَحِيمُونَ^(٧٣) يَطُوفُونَ فِيهَا فِي حَمِيمٍ عَارِنٍ^(٧٤)﴾ [الرحمن]، وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ^(٧٥)﴾ [الصفات]، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ^(٧٦) فِي سُمُورٍ وَحْمِيرٍ^(٧٧) وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمُورٍ^(٧٨) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ^(٧٩)﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّالُونَ الْمُكَذِّبُونَ^(٨٠) لَا كُفْرَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ^(٨١) فَأَلْتُونَهَا الْأَبْطُونَ^(٨٢) فَشَرِبُوا مِنْهُ مِن لَّعِيمٍ^(٨٣) فَشَرِبُوا شَرَبَ أَلِيمٍ^(٨٤) هَذَا نَزَمْتُ يَوْمَ الْاَلِينَ^(٨٥)﴾ [الواقعة] وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ^(٨٦) طَعَامُ الْأَثِيمِ^(٨٧) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ^(٨٨) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ^(٨٩) خُذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ^(٩٠) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ^(٩١) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(٩٢) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ^(٩٣)﴾ [الدخان] أي: يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير بن طلحة الخزاعي، عن خالد بن دريك، عن يعلى بن منبه رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: ينشئ الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار؛ أي: شيء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل بارد الشراب فتمطرهم أغلالاً تزيد في أغلالهم وسلاسل تزيد في سلاسلهم وجرماً يلهب النار عليهم^(١). هذا حديث غريب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتَآ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ^(٧٦) مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَلْ لَّوْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: جحدوا عبادتهم كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ فَكَّنْهُمْ لَآتَيْنَهُمْ﴾ [الأنعام] ﴿وَلَهُذَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ^(٧٥)﴾ أي: تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَءَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ^(٧٦)﴾ أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُكُمْ أَوْ نَتُوفِينَاكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ^(٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَخِصْ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ^(٧٨)﴾.

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُكُمْ﴾ أي: في الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أبيدوا في يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ.

(١) سنده ضعيف لأن خالد بن دريك لم يسمع من يعلى كما قرر أبو حاتم (المراسيل ص ٥٢).

وقوله: ﴿أَوْ نَوَفِّتُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة، ثم قال مسلياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ كما قال في سورة النساء سواء؛ أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِهِمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والשיاب والأمتعة كما فصل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام^(١) وسورة النحل^(٢) وغير ذلك، ولذا قال ههنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِهِمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

وقوله: ﴿وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا^(٣).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَتَ اللَّهُ آلِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما آثروه في الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا ردَّ عنهم ذرة

(٢) آية ٥ - ٨.

(١) آية ١٤١ - ١٤٤.

(٣) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «يعاندوا ويكابروا».

من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب^(١).

وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم^(٢)، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَأَمَّنْتُ أَنَّمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَّنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تعالى: ﴿ءَالْكَفَرُ وَفَدَّ عَصِيَّتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [يونس: ٩١]، فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبية موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وهكذا قال تعالى ههنا: ﴿فَلَمَّا يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٣) أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاین الملك فلا توبة حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر سورة المؤمن ولله الحمد والمنة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ١٧.

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ (١)

وهي مكية

باسم الرحمن الرحيم

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْتُ فَصَّلَاتٍ ءَايَاتُهُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ۝ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ۝﴾

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقوله: ﴿وَلَهُ لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿كَتَبْتُ فَصَّلَاتٍ ءَايَاتُهُمْ﴾ أي: بينت معانيه وأحكامه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: في حال كونه لفظاً عربياً بلياً واضحاً، فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشككة كقوله: ﴿كَتَبْتُ أَعْمَكْتُ ءَايَاتُهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فصلت].

وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: في غلف مغطاة ﴿مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صمم عما جئنا به ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقوله ﴿فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقك ونحن على طريقنا لا نتابعك.

قال الإمام العالم (٢) عبد بن حميد في مسنده: حدثني ابن أبي شيبه، حدثنا علي بن مسهر، عن الأجلح، عن الذيال بن حرملة الأسدي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشئت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ماذا يردّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد فاتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ. فقال: أنت خير أم عبد المطلب، فسكت رسول الله ﷺ فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير

(١) كذا في (مح)، وفي الأصل: «حم السجدة، وهو أيضاً من أسمائها».

(٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «العلم».

منك، فقد عبدوا الآلهة التي عِبتَ وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة^(١) قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشئت أمرنا، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً، وإن كان بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ﴿حَمْدٌ تَزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ [فصلت] فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا» فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال: لا والذي نصبها بنية^(٢) ما فهمت شيئاً مما قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك [يكلمك]^(٣) الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة^(٤). وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي بكر بن أبي شيبه بإسناده مثله سواء^(٥)، وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل، عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي وقد ضعف بعض الشيء عن الذيال بن حرملة، عن جابر بن عبد الله ﷺ فذكر الحديث إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ ﴿فَأَمْسَكَ عَتَبَةً عَلَى فِيهِ وَنَاشَدَهُ بِالرَّحْمِ وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قَرِيشٍ وَاحْتَبَسَ عَنْهُمْ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ وَاللَّهِ مَا نَرَى عَتَبَةً إِلَّا قَدْ صَبَأَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَعْجَبَهُ طَعَامُهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ حَاجَةِ أَصَابَتِهِ، فَاَنْطَلَقُوا بِنَا إِلَيْهِ فَاَنْطَلَقُوا إِلَيْهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا عَتَبَةُ مَا حَبَسَكَ عَنَّا إِلَّا أَنْكَ صَبَأْتَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَعْجَبَكَ طَعَامُهُ، فَإِنْ كَانَتْ بِكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يَغْنِيكَ عَنْ طَعَامِ مُحَمَّدٍ، فَغَضِبَ عَتَبَةُ وَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَكَلِّمَ مُحَمَّدًا أَبَدًا وَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ قَرِيشٍ مَا لَأَ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُهُ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ وَاللَّهِ مَا هُوَ بِشَعْرٍ وَلَا كِهَانَةٍ وَلَا سِحَرٍ وَقَرَأَ السُّورَةَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ ﴿فَأَمْسَكَتْ بِفِيهِ وَنَاشَدَتْهُ بِالرَّحْمِ أَنْ يَكْفَ وَقد عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ، فَخَشِيتُ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ﴾^(٦)، وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى والله تعالى أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط فقال: حدثني [يزيد]^(٧) بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان

(١) أي: ولد الشاة من المعز والضأن.

(٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحف إلى: «فكلمك».

(٣) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومثله (المنتخب من مسند عبد بن حميد ح ١١٢١) وسنده فيه الأجلح الكندي وفيه مقال (ينظر تهذيب التهذيب ١/ ١٨٩)، وأخرجه الحاكم من الأجلح به مختصراً على آخره وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٢٥٣).

(٤) مسند أبي يعلى ٣/ ٣٤٩ (ح ١٨١٨)، وسنده كسابقه.

(٥) معالم التنزيل ٤/ ١١٠، وسنده كسابقه.

(٦) زيادة من (حم) و(مح).

سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، وكيف عنا؟

وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام إليه عُتْبَةُ حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطنة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضاً. قال: فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع» قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبثك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عُتْبَةُ ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال نعم. قال: «فاستمع مني» قال: أفعَل. قال: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّحْلَيْنِ الرَّحِيمَيْنِ﴾ ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿كَتَبْتُ فُصِّلْتُ ءَايَاتُنَّ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا وَهُوَ يَقْرُؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعَ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مَعْتَمِداً عَلَيْهِمَا يَسْتَمِعُ مِنْهُ حَتَّى انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ: «قَدْ سَمِعْتُ يَا أبا الوليد مَا سَمِعْتُ فَأَنْتَ وَذَاكَ» فقام عُتْبَةُ إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزمكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم^(١). وهذا السياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَرَبُّ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٣٠٥/١) وسنده ضعيف لإبهام شيخ محمد بن كعب.

أي: لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله^(١)، وكذا قال عكرمة^(٢) وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿الشمس﴾ وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ﴿[الأعلى] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات].

والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات.

وقال السدي: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: يؤدون الزكاة^(٣).

وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة.

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم^(٤).

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير، وفيه نظر لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة وكان مأموراً به في ابتداء البعثة كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْأَمَتَا هَاجِرَتَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤١] فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعاً بين القولين كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً والله أعلم. ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٨﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا محبوب^(٥) كقوله تعالى: ﴿مَنْكِحِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ ﴿[الكهف] وكقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال السدي: غير ممنون عليهم^(٦)، وقد ردَّ عليه هذا التفسير بعض الأئمة فإن المنة لله على أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَّكُمْ لِلَّيْتَنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُورِ﴾ [الطور] وقال رسول الله ﷺ: «إلا إن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»^(٧).

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه الطبري بسند فيه حفص بن عمر وهو العدني: ضعيف ويتقوى بساقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق إسباط عن السدي بلفظ: «لو زكَّوا وهم مشركون لم ينفعهم».

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد بلفظ: «محبوب».

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٧) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ؓ (صحيح البخاري، المرضي باب تمنى المريض الموت

ح ٥٦٧٣) وصحيح مسلم، صفات المنافقين باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (ح ٢٨١٦).

﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَنَى فِيهَا قَدْرًا فِيهَا أَفْوَاجًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٤﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٥﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء المقدر على كل شيء فقال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالا تعبدونها معه ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسما فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩] فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (١٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (١٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (١٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٢٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٢١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٢٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٢٣) [النازعات] ففي هذه الآية أن دحي الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحي هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٢١) وكان هذا بعد خلق السماء فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنه فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه قال: وقال المنهال، عن سعيد بن جبیر قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنه: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: ﴿فَلَا أَسْبَابَ يَتَنَهَّمُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٧) [الصافات] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] ﴿وَاللَّهُ رِيتًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كتبت في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (١٧) إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٢٠) [النازعات] فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] ﴿سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] فكانه كان ثم مضى، فقال ابن عباس: ﴿فَلَا أَسْبَابَ يَتَنَهَّمُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ في النفخة الأولى، ثم نفخ في الصور ﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] ﴿فَلَا أَسْبَابَ يَتَنَهَّمُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٧) وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ رِيتًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم فتتطرق أيديهم فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتُم حديثاً، وعنده ﴿يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢]، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحي الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والأكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى دحاها وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من

شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٩] سمي نفسه بذلك وذلك قوله؛ أي: لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلفن عليك القرآن فإن كلا من عند الله ﷻ.

قال البخاري: حدثني يوسف بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال^(١) هو: ابن عمرو بالحديث.

وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني: يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها وهو ما تحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه وقال عكرمة ومجاهد في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب^(٢) باليمن، والسابوري بسابور^(٣)، والطيايسة^(٤) بالري^(٥).

وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك^(٦).

وقال ابن زيد: معناه وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين؛ أي: على وفق مراده من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج^(٧) إليه، وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين.

قال الثوري: عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تبارك وتعالى للسموات: أطلعي شمسي وقمري والنجوم، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٨) واختاره ابن جرير رحمه الله ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك، حكاه ابن جرير، عن بعض أهل العربية قال:

(١) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب سورة حم السجدة قبل حديث ٤٨١٦).

(٢) هو نوع من الملابس اليمنية يدرج غزله ثم يحاك (ينظر تاج العروس باب ع ص ب).

(٣) هو نوع من الثياب يقال لها: السابرية (ينظر المصدر السابق س ب ر).

(٤) هو القماش الذي يوضع فوق العمامة.

(٥) أخرجه الطبري والبستي بسند صحيح من طريق حصين السلمي عن عكرمة، وأخرجه الطبري أيضاً بسند ضعيف من طريق خفيف عن مجاهد، ويتقوى بسابقه.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، بنحوه، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحوه.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد بنحوه.

(٨) أخرجه الطبري من طريق الثوري به، وأخرجه الحاكم من طريق طاوس عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/ ٢٧).

وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما، وقيل: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم.

وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره عليه لعذبهما عذاباً يجدان ألمه رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين؛ أي: آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: ورتب مقررأ في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَرَزَيْنَا الْأَسْمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿وَحَفِظْنَا﴾ أي: حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه، وقهره العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال هناد: قرأت سائر الحديث، أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض فقال ﷺ: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران فهذه أربعة ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ ﴿٢﴾ لمن سألته قال: وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية: ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة: آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة» ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً فنزل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ [ق: ٣٨، ٣٩]. هذا الحديث فيه غرابة، فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هريرة ؓ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» فقد رواه مسلم والنسائي في كتابيهما من حديث ابن جريج به وهو من غرائب الصحيح وقد علّله البخاري في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة ؓ عن كعب الأحبار وهو الأصح^(٢).

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف أبي سعيد ويقال: أبي سعد البقال، وأخرجه الحاكم من طريق أبي بكر بن عياش به وصححه واستدرك عليه الذهبي بقوله: أبو سعيد البقال قال ابن معين: لا يكتب حديثه. (المستدرك ٢/٥٤٣).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ٥٤.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۚ﴾ (١٣) إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ﴾ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ۚ﴾ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۚ﴾ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ﴾ (١٧) وَبَعَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ۚ﴾ (١٨)

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جنتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جنتكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُحُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحلَّ الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ أي: منوا بشدة تركيبتهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطشه شديد كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته وعصوا رسله فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال: بعضهم وهي شديدة الهبوب، وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت والحق أنها متصفة بجميع ذلك فإنها كانت ريحاً شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة [البرد جداً كقوله تعالى: ﴿بَرِيحٌ صَرْصَرٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الحاقة: ٦] أي: باردة] (١) شديدة وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق: صرصر ل قوة صوت جريه.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أي: متتابعات ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] وكقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مُتَمَرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أي: ابتدأوا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس سبع ليل وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ﴾ أي: أشد خزيًا لهم ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: في الآخرة كما لم ينصروا في الدنيا وما كان لهم من الله من وافي يقيهم العذاب ويدراً عنهم النكال، وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ قال ابن عباس وأبو العالية

وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد: بَيَّنَّا لَهُمْ^(١).

وقال الثوري: دعوناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا أَلَمِّي عَلَى أَلَمْدِي﴾ أي: بصرناهم وبيننا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً أَلْعَابَ أَلْمُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكلاً ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من التكذيب والجحود ﴿وَيَجْنِي أَلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله ﷻ.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ١٩ ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا أَنَّا نَطَقْنَا أَنَّهُ أَلَّذِي أُنْطِقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٢١ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٢ ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَبَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٢٣ ﴿فَإِنْ يَصِيرُوا أَلَلَّارَ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ ٢٤.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ١٩ أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار يوزعون؛ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَذُكَّا﴾ ٨١ [مريم] أي: عطاشا. وقوله: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: وقفوا عليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ يَمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يُكْتَم منه حرف ﴿وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿قَالُوا أَنَطَقْنَا أَنَّهُ أَلَّذِي أُنْطِقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا علي بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المكتب، عن الشعبي، عن أنس بن مالك ؓ قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وابتسم فقال ﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول: أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى. فيقول: فإني لا أقبل علي شاهداً إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: أوليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين، قال: فيردد هذا الكلام مراراً، قال: فيختم على فيه وتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً، عنكَّ كنت أجادل»^(٢). ثم

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٢) سنده حسن، وسيأتي تخريجه من صحيح مسلم، وأخرجه الحاكم من طريق محمد بن عبد الرحيم به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٦٠١/٤).

رواه هو وابن أبي حاتم من حديث أبي عامر الأسدي، عن الثوري، عن عُبَيْدِ المَكْتَبِ، عن فضيل بن عمرو، عن الشعبي^(١)، ثم قال: لا نعلم رواه عن أنس رضي الله عنه غير الشعبي، وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي، عن الثوري^(٢) به. ثم قال النسائي: لا أعلم أحداً رواه عن الثوري غير الأشجعي. وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُليّة، عن يونس بن عبيد، عن حميد بن هلال قال: قال أبو بردة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه ﷻ عمله، فيجحد ويقول: أي رب وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل. فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك؛ أي رب ما عملته قال: فإذا فعل ذلك خُتِمَ على فيه، قال الأشعري رضي الله عنه: فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذة اليمنى^(٣).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا حسن، عن ابن لهيعة، قال دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقول: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم الله تعالى وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار»^(٤). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث قال: سمعت أبي يقول: حدثنا علي بن زيد، عن مسلم بن صُبَيْح أبي الضحى، عن ابن عباس أنه قال لابن الأزرق^(٥) إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله تعالى، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم جلودهم وأبصارهم وأيديهم ويختتم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح فتقول: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِإِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فتقر الألسنة بعد الجحود^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير الحضرمي، عن رافع أبي الحسن [قال]^(٧) وصف رجلاً جحد - قال: فيشير الله تعالى إلى لسانه فيربو في فمه حتى يملأه فلا يستطيع أن ينطق بكلمة ثم يقول لأرأبه كلها: تكلمي واشهدي عليه، فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده وفرجه ويده

(١) سنده صحيح. (٢) صحيح مسلم، الزهد والرفائق (ح ٢٩٦٩).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة يس آية ٦٥.

(٤) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ٥٢٧/٢ ح ١٣٩٢) وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم، ويتقوى بشواهد السابقة واللاحقة.

(٥) هو نافع بن الأزرق من زعماء الخوارج.

(٦) في سنده علي بن زيد وهو ابن جدعان وهو ضعيف، ويتقوى بالشواهد السابقة واللاحقة.

(٧) زيادة من (حم) و(مح).

ورجلاه صنعنا عملنا فعلنا^(١).

وقد تقدم أحاديث كثيرة وآثار عند قوله تعالى في سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس] بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سليم الطائفي، عن ابن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس إذ مرّت علينا عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صدقت صدقت كيف يقدر الله قوماً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم»^(٢). هذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الأهوال)^(٣): حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن سليم به.

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتُمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ولهذا قالوا لكنكم: ﴿ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١٧ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي: هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون هو الذي أطفكم وأرداكم عند ربكم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت مستترأ بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقيان - أو ثقيي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمع، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه. فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله، قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﻋَلَيْكَ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤). وهكذا رواه الترمذي عن هناد، عن أبي معاوية بإسناده نحوه^(٥)، وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن وهب بن ربيعة، عن عبد الله بن مسعود بنحوه^(٦)، ورواه البخاري ومسلم أيضاً من حديث السفيانيين كلاهما عن

(١) سنده حسن ويشهد له ما سبق.

(٢) أخرجه ابن ماجه من طريق سويد بن سعيد به (السنن ج ٤٠١) واستغربه الحافظ ابن كثير.

(٣) الأهوال ٢٤٣.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٠٨/٦، ١٠٩ ح ٢٦١٤) وصححه سنده محققوه.

(٥) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة حم (ح ٣٢٤٩).

(٦) (المسند ٤٠٨/١) وصححه مسلم، صفات المنافقين (ح بعد ٢٧٧٥).

منصور، عن مجاهد، عن أبي معمر عبد الله بن سخبرة، عن ابن مسعود رضي الله عنه به ^(١).

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تدعون يوم القيامة مفدماً على أفواهكم بالفدام فأول شيء يبين عن أحدكم فخذ وكفه» قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَكُمْ أَوْ تَنبَظُكُمْ أَوْ يَمْشِيَكُمْ أَوْ بِالنُّجُومِ﴾ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أنا مع عبدي عند ظنه بي وأنا معه إذا دعاني» ثم افتر الحسن ينظر في هذا فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل ثم قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَكُمْ أَوْ تَنبَظُكُمْ أَوْ يَمْشِيَكُمْ أَوْ بِالنُّجُومِ﴾ ^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص وهو أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي ليلي، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَصْبَحَكُمْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾» ^(٣).

وقوله: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ ^(٢٤) أي: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارهم فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ^(٢٥) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ^(٢٦) قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ^(٢٧) ^(٢٨) [المؤمنون].

وَقَضَيْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرِيقًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ^(٢٩) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ^(٣٠) فَالَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنْ يُجِزِيَهمُ اللَّهُ شَيْئًا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٣١) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ^(٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا سَفَلًا لَنَا لِيَكُونَ مِنَ الْأَسْفَلِينَ ^(٣٣).

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿فَرِيقًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

(١) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ...﴾ [فصلت: ٢٣] (ح ٤٨١٧)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين (ح ٢٧٧٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثته، والشرط الأول بسنده حسن، والشرط الثاني رجاله ثقات لكن سنده مرسل.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٧٣/٢٣ ح ١٥١٩٧)، وقال محققوه: حديث صحيح دون قوله: «فإن قوماً قد أرداهم...».

(٤) ذكره الطبري بمعناه وأطول.

أي: حسنوا لهم أعمالهم في الماضي وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي: استووا هم وإياهم في الخسار والدمار.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: تواصلوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينفقوا لأوامره ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أي: إذا تلي لا تسمعوا له كما قال مجاهد: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله^(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ عيبوه^(٢).

وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه وعادوه^(٣).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذا حال هؤلاء الجهالة من الكفار ومن سلك مسلكهم عن سماع القرآن، وقد أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف].

ثم قال تعالى منتصراً للقرآن ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفران ﴿فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بشر أعمالهم وسيء أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ آتَوْهُمُ فِيهَا دَارُ الْمُغَلَدِ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنَّا مِنِ الْإِنِّ وَالْإِنِّ جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مالك بن الحصين الفزاري، عن أبيه، عن علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَّا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه^(٤). وهكذا روى حبة [العرني]^(٥)، عن علي عليه السلام مثل ذلك^(٦).

وقال السدي، عن علي عليه السلام: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة^(٧)، فإبليس الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»^(٨).

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وهو مرسل ويتقوى بمرسل صحيح عن قتادة كما يليه.

(٢) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري من طريق سفيان به، وكذا الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤٤٠).

(٥) كذا في (حم) و(مح) وتفسير البستي، وفي الأصل صحف إلى: «العدني».

(٦) أخرجه البستي بسند حسن من طريق حبة العرني به.

(٧) أخرجه الطبري من طريق السدي به، وسنده ضعيف لأن السدي لم يلق علياً عليه السلام.

(٨) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٣٠.

وقوله: ﴿يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَامِنَا﴾ أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار كما تقدم في الأعراف في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: أنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ تَحْنُ أُولَآئِكَمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣١﴾ تَزَلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ ﴿٣٢﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الجراح، حدثنا سلم بن قتيبة أبو قتيبة الشعيري، حدثنا سهيل بن أبي حزم، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها^(١)، وكذا رواه النسائي في تفسيره والبخاري وابن جرير، عن عمرو بن علي الفلاس، عن سلم بن قتيبة به^(٢). وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الفلاس به^(٣).

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد، عن سعيد بن نمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً^(٤)، ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما تقولون في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ من ذنب فقال: لقد حملتموه على غير المحمل قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره^(٥). وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد^(٦).

(١) مسند أبي يعلى (٦/٢١٣ ح ٣٤٩٥) وسنده ضعيف لضعف سهيل بن أبي حزم (التقريب ص ٢٥٩).

(٢) السنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح ١١٤٧٠) وتفسير الطبري، وسنده كسابقه.

(٣) سنده ضعيف كسابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لأن سعيد بن نمران مجهول (لسان الميزان ٣/٤٦) ولكنه توبع بالأسود بن هلال كما في الرواية التالية، فيرتقي إلى الحسن لغيره.

(٥) أخرجه الطبري من طريق الأسود بن هلال به، وأخرجه الحاكم من الأسود به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٤٠).

(٦) أخرجه الطبري من طريق منصور عن مجاهد وهو مرسل ويتقوى بسابقه، وأخرجه الطبري من طريق أسباط عن السدي وهو مرسل ويتقوى بسابقه، وأخرجه الطبري بسند فيه حفص بن عمر وهو ضعيف عن عكرمة ويتقوى بسابقه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، أخبرنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس رضي الله عنه؛ أي: آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص؟ قال: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْنَمُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله^(١).

وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ثم قال: استقاموا والله بطاعته، ولم يروغوا وروغان الثعالب^(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْنَمُوا﴾ على أداء فرائضه^(٣)، وكذا قال قتادة: قال: وكان الحسن يقول اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة^(٤).

وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَقْنَمُوا﴾ أخلصوا له الدين والعمل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفي، عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله مُرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال ﷺ: «قل: آمنت بالله ثم استقم» قلت: فما أتقي؟ فأوماً إلى لسانه^(٥). ورواه النسائي من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء^(٦) به.

ثم قال أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثني ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز العامري، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله مُرني بأمر أعصم به. قال ﷺ: «قل: ربي الله ثم استقم» قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله بطرف لسان نفسه ثم قال: «هذا»^(٧). وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه من حديث الزهري به وقال الترمذي: حسن صحيح^(٨). وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال ﷺ: «قل: آمنت بالله ثم استقم» وذكر تمام الحديث^(٩).

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت^(١٠) قائلين: ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾. قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم؛ أي: مما تقدمون عليه

(١) سنده ضعيف لضعف حفص بن عمر، ويتقوى برواية أنس السابقة.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق يونس بن يزيد عن الزهري.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٥) أخرجه الإمام أحمد من طريق شعبة عن يعلى بن عطاء به بلفظ: «فأشار بيده إلى لسانه» (المسند ١٤٢/٢٤ ح ١٥٤١٧) وصححه سنده محققوه.

(٦) السنن الكبرى، التفسير (ح ١١٤٨٩)، وسنده كسابقه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد من طريق معمر عن ابن شهاب الزهري به (المسند ١٤٥/٢٤ ح ١٥٤١٩) وصححه سنده محققوه.

(٨) سنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان (ح ٢٤١٠)، وسنن ابن ماجه، الفتن، باب كفت اللسان في الفتنة (ح ٣٩٧٢).

(٩) صحيح مسلم، الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (ح ٣٨).

(١٠) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

من أمر الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين فإننا نخلفكم فيه ^(١) ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيشرونهم بذهاب الشر [وحصول الخير ^(٢)]، وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان».

وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم حكاة ابن جرير، عن ابن عباس والسدي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان قال: سمعت ثابتاً [قرأ] ^(٣) السجدة حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فوقف، فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان لا تخف ولا تحزن ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قال: فيؤمن بالله تعالى وخوفه ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ولما كان يعمل في الدنيا ^(٤).

وقال زيد بن أسلم: يشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار ﴿نَحْنُ كُنَّا أَوْلِيَائَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث والنشور ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس وتقر به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [أي: مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿تَزُلَّ وَنَ عَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ ^(٥) أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم رحيم بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ^(٥) ﴿تَزُلَّ وَنَ عَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين أبي سعيد، حدثنا الأوزاعي، حدثني حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم أخبرني رسول الله أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها ونزلوا بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون الله تعالى، ويبرز لهم عرشه ويتبدل لهم في روضة من رياض الجنة

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل: بياض.

(٣) زيادة من (حم) و(مع).

(٤) زيادة من (حم) و(مع).

(٥) سنده مرسل لأن ثابتاً رواه بلاغاً.

ويوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيء على كئبان المسك والكافور ما يرون أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله وهل نرى ربنا؟ قال ﷺ: «نعم، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا، قال ﷺ: «فكذلك لا تمارون في رؤية ربكم تعالى ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ يذكره غدراته في الدنيا فيقول: أي: رب أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه، قال: فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط، قال: ثم يقول ربنا ﷻ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة وخذوا ما اشتهيتم، قال: فنأتي سوقاً قد حُفَّتْ به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب، قال: فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيه شيء ولا يشتري، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً، قال: فيقبل الرجل ذو المنزل الرفيعة فيلقى من هو دونه. وما فيهم دنيء فيروعه ما يرى عليه من اللباس فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه، وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ثم ننصرف إلى منازلنا فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحباً وأهلاً بحبيبتنا لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى وبِحَقِّنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا به»^(١). وقد رواه الترمذي في صفة الجنة من جامعه عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار به نحوه، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت قال ﷺ: «ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حُضِرَ جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه، قال: وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حُضِرَ جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقي من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه»^(٣). وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه^(٤).

(١) في سننه حبيب بن عبد الحميد بن أبي العشرين صدوق ربما وهم كما في التقريب. وهذا من أوهامه فإن الثقات روه عن الأوزاعي قال نبث عن سعيد بن المسيب، والحديث منقطع السند بين الأوزاعي وسعيد بن المسيب. (ينظر: الضعفاء للعقيلي ٤١/٣، والعلل للدارقطني ٢٦٧/٧).

(٢) سنن الترمذي، صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنة (ح ٢٥٤٩)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب صفة الجنة (ح ٤٣٣٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٠٧/٣) وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الشيخان من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. (صحيح البخاري، الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ح ٦٥٠٧، وصحيح مسلم، الذكر، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ح ٢٦٨٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه بل ياتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى الخير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك كما قال محمد بن سيرين والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(١).

وقيل: المراد بها المؤذنون^(٢) الصلحاء كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(٣) وفي السنن مرفوعاً: «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين»^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن الهروي، حدثنا غسان قاضي هراة، وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه» قال: وقال ابن مسعود ﷺ: لو كنت مؤذناً ما باليت أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد قال: وقال عمر بن الخطاب ﷺ: لو كنت مؤذناً لكمل أمري وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثاً، قال: فقلت: يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف قال ﷺ: «كلأ يا عمر إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعافهم وتلك لحوم حرمها الله على النار لحوم المؤذنين» قال: وقالت عائشة ولهم هذه الآية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قالت: فهو المؤذن إذا قال: حيّ على الصلاة فقد دعا إلى الله^(٥). وهكذا قال ابن عمر وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين^(٦).

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن، وقول محمد بن سيرين عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أخرجه البستي بسند صحيح عن سفيان.

(٣) صحيح مسلم، الصلاة، باب فضل الأذان (ح ٣٨٧).

(٤) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن، اللهم ارشد الأئمة واغفر للمؤذنين» (السنن، الصلاة، باب ما يجب على المؤذن من تعايد الوقت ح ٥١٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٨٦).

(٥) سنده ضعيف لأن مطراً وهو الوراق صدوق كثير الخطأ كما في التقريب، والحسن البصري لم يسمع من الصحابة المذكورين.

(٦) أخرجه البغوي عن عكرمة تعليقاً (معالم التنزيل ٤/ ١١٤).

وقد ذكر البغوي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال في قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يعني: صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة^(١). ثم أورد البغوي حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين: صلاة، ثم قال في الثالثة: لمن شاء» - وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من حديث عبد الله بن بُريدة^(٢) عنه - وحديث الثوري عن زيد العمي، عن أبي إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال الثوري: لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي ﷺ: «الدعاء لا يُردُّ بين الأذان والإقامة»^(٣). ورواه أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة كلهم من حديث الثوري به وقال الترمذي: هذا حديث حسن^(٤)، ورواه النسائي أيضاً من حديث سليمان التيمي عن قتادة، عن أنس به^(٥).

والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية؛ لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه فقصه على رسول الله ﷺ فأمره أن يلقيه على بلال رضي الله عنه فإنه أندى صوتاً كما هو مقرر في موضعه، فالصحيح إذن أنها عامة كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين هذا خليفة الله^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ﴾ أي: فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿أَدْفَعْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله ﷻ: ﴿الَّذِي يَلِيكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم؛ أي: قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه البغوي عن أبي أمامة تعليقاً (المصدر السابق).

(٢) صحيح البخاري، الأذان، باب كم بين الأذان والإقامة... (ح ٦٢٤)، وصحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب بين كل أذانين صلاة (ح ٨٣٨).

(٣) أخرجه البغوي من طريق سفيان الثوري به، (معالم التنزيل ٤/ ١١٤، ١١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (السنن، الصلاة، باب ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة ح ٥٢١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٨٩)، وأخرجه الترمذي (السنن، الصلاة، باب ما جاء أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة ح ٢١٢) والنسائي في السنن الكبرى، عمل اليوم والليلة، باب الترغيب في الدعاء بين الأذان والإقامة (ح ٩٨٩٦).

(٥) المصدر السابق (ح ٩٨٩٩).

(٦) سننه صحيح.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفّه عنك وردّ كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»^(٢)، وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٩٩) ﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٠) وفي سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةُ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩١) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّتِي أَحْيَاها لَمُتِيَ الْمَوْتُ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾.

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته وأنه الذي لا نظير له على ما يشاء قادر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه وهما متعاقبان لا يفترقان، والشمس نورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجُمع والشهور والأعوام، ويتبين حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبادان من عبده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يشرك به ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ كقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان - يعني ابن وكيع -، حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم وعذاباً لقوم»^(٣).

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به. (٢) تقدم تخريجه في تفسير الاستعاذة.

(٣) (مسند أبي يعلى ١٣٩/٤ ح ٢١٩٤) وسنده ضعيف لضعف سفيان بن وكيع، وابن أبي ليلى هو محمد بن =

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: هامة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها لَمَجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكِنْتُ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه^(١).

وقال قتادة: هو الكفر والعناد^(٢).

وقوله: ﴿لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد ووعد أكيد؛ أي: إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال [لَكَ] تهديداً للكفرة: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد؛ أي: من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم^(٣) ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم قال جلَّ جلاله^(٤): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك والسدي وقاتادة: وهو القرآن^(٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَكِنْتُ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع الجنب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس للبطلان إليه سبيل لأنه منزل من رب العالمين ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود؛ أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك^(٦)، فكما كُذِّبَتْ كذبوا وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير ولم يحك هو ولا ابن أبي حاتم غيره.

= عبد الرحمن وهو صدوق سيء الحفظ، وقال الهيثمي: إسناده ضعيف. (مجمع الزوائد ٨/ ٧١)، وأخرجه الطبراني بسند فيه سعيد بن بشير وهو ضعيف (المعجم الأوسط ح ٢٧٩٥).

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) أخرجه التستبي والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) زيادة من (حم) و(مع).

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لمن استمر على كفره وطفغانه وعناده وشقاقه ومخالفته.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد»^(١).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ﴾^(٤٤)
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۖ﴾^(٤٥).

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ﴾^(٤٦) فقرأ عليهم ما كانوا يبه مؤمنين^(٤٧) [الشعراء] وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب لأنكروا ذلك فقالوا: أعجمي وعربي؛ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟ هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم^(٢).

وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي؟ هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله: «أعجمي»^(٣) وهو رواية عن سعيد بن جبير^(٤)، وهو في التعنت والعناد أبلغ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال ﷺ: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٥) [الإسراء] ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم^(٥).

(١) سنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان، وإرسال سعيد بن المسيب.

(٢) قول ابن عباس عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر، وهو جعفر بن إياس عنه. قول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٣) وهي قراءة متواترة.

(٤) قول الحسن أخرجه التستبي بسند صحيح من طريق داود بن أبي هند عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند جيد من طريق جعفر بن أبي المغيرة عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند منقطع من طريق رجل مبهم عن مجاهد.

قال ابن جرير: معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول^(١).
وقلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عَمِيَ فَهُمْ لَا يَهْتَمُّونَ﴾ [البقرة] وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم^(٢).
وقال السدي: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جالسا عند رجل من المسلمين يقضي إذ قال: يا لبيكاه فقال له عمر رضي الله عنه: لم تلبني، هل رأيت أحداً أو دعاك أحداً؟ فقال: دعاني داع من وراء البحر، فقال عمر رضي الله عنه: أولئك ينادون من مكان بعيد^(٣). رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: كُذِّبَ وَأُوذِيَ ﴿فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَبِيٍّ شَكٍّ مِنْهُ مُّزِيٍّ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه^(٤)، هكذا وجهه ابن جرير وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿إِلَيْهِ يُرْجَىٰ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ قَالُوا ءَآذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَىٰ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد ﷺ - وهو سيد البشر - لجبريل عليه الصلاة والسلام - وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(٥) وكما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا﴾ [النازعات] وقال: ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْقَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

قوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

(١) ذكره الطبري بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أجلع عن الضحاك.

(٣) سنده ضعيف لأن السدي لم يلق عمر رضي الله عنه. (٤) ذكره الطبري بمعناه.

(٥) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة مطولاً (الصحيح، الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان... ح ٥٠).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿قَالُوا ءَاذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَطَلَّوْا مَا لَهُم مِّن نَّجِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُم مِّن نَّجِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وَرَمَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٣﴾ [الكهف].

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ﴿٥٤﴾ وَلَئِن أَدْفَنَهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا أُنْفِثْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٦﴾.

يقول تعالى: لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك وإنه مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. ﴿وَلَئِن أَدْفَنَهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: يكفر بقيام الساعة؛ أي: لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْبَٰعٍ﴾ ﴿٧﴾ [العلق].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعدم اليقين قال الله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْفِثْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ﴾ أي: أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿فَقُولُوا بِرَبِّهِ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسًّا﴾ [يونس: ١٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَن أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٧﴾ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٨﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٥٩﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَن أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد

من الهدى ثم قال: ﴿سَتَرِيهِنَّ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان.

قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم قالوا: وقعة بدر وفتح مكة^(١) ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح، وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعدها كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكر والاعتبار» عن شيخه أبي جعفر القرشي [رحمة الله عليه]^(٢):

وإذا نظرت تريد معتبراً	فانظر إليك ففيك مُعتبر
أنت الذي تُمسي وتُصبح	في الدنيا وكل أموره عِبرُ
أنت المصرفُ كان في صغرٍ	ثم استقلَّ بشخصك الكبرُ
أنت الذي تنعاه خلقتَه	ينعاه منه الشَّعْرُ والبشرُ
أنت الذي تعطي وتسلب	لا ينجيه من أن يُسَلَبَ الحذرُ
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بماله القدرُ

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من قيام الساعة ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعباؤون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه.

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سعيد الأنصاري قال: إن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحق والمكذب به هالك، ثم نزل.

ومعنى قوله ﷺ: إن المصدق به أحق، أي: لأنه لا يعمل له عمل مثله ولا يحذر منه ولا يخالف من هوله وهو ذلك مصدق به موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادي في لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه فهو أحق بهذا الاعتبار، والأحق في اللغة: ضعيف العقل، وقوله والمكذب به هالك هذا واضح، والله أعلم.

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند ضعيف عن معمر عن رجل مبهم عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وقول مجاهد نسبة السيوطي إلى ابن المنذر، وقول الحسن نسبة البغوي إليه.

(٢) زياد من (مح).

ثم قال تعالى مقررأ أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سُورَةُ الشُّورَى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٣﴾ تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٥﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً منكرأ فقال: أخبرنا أحمد بن زهير، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له وعنده حذيفة بن اليمان: أخبرني عن تفسير قول الله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝﴾ قال: فأتى ثم أعرض عنه ثم كرر مقالته، فأعرض عنه فلم يجبه بشيء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُجِرْ إليه شيئاً^(١) فقال له حذيفة: أنا أنبئك بها قد عرفت لم كررها ونزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله أو عبد الله ينزل على نهر من أنهار المشرق تبني عليه مدينتان يشق النهر بينهما شقاً، فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم بعث الله على إحداها ناراً ليلاً فتصبح سوداء مظلمة وقد احترقت كأنها لم تكن مكانها وتصبح صاحبها متعجبة كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ثم يخسف الله بها وهم جميعاً فذلك قوله: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝﴾ يعني: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُوم: ﴿حَمْدٌ﴾، «عين» يعني: عدلاً منه. «سين» يعني: سيكون. «ق» يعني: واقع بهاتين المدينتين^(٢).

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مسند ابن عباس عن أبي ذر عن النبي ﷺ في ذلك ولكن إسناده ضعيف جداً ومنقطع فإنه قال: حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الله الحسن بن يحيى الخشني الدمشقي، عن أبي معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المنبر فقال: أيها الناس هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝﴾ فوثب ابن عباس فقال: أنا، قال: ﴿حَمْدٌ﴾ اسم من أسماء الله

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي صحيح الطبري بلفظ: «فلم يجبه شيئاً».

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه مع الفرق المذكور، وسنده ضعيف لأن أرطاة لم يلق ابن عباس بل لم يلق أحداً من الصحابة رضي الله عنهم.

[تعالى، قال: فعين؟ قال: عاين المولون عذاب يوم بدر، قال: فسين؟ قال: سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذرٍّ ففسر كما قال ابن عباس رضي الله عنه وقال: قاف قارعة من السماء تغشى الناس] ^{(١)(٢)}.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ^(٣) أي: كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك.
وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك رضي الله عنه: عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً ^(٤). أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري ^(٥).

وقد رواه الطبراني عن عبد الله بن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها عن الحارث بن هشام أنه سأل رسول الله ﷺ كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال ﷺ: «في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وقال: وهو أشده عليّ قال: وأحياناً يأتيني الملك، فيتمثل لي فيكلمني فأعي ما يقول» ^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تحسُّ بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصلاً ثم [أسكت] ^(٦) عند ذلك فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض» ^(٧) تفرد به أحمد.

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ كقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْكَرِيِّ﴾ [سبا: ٢٣] والآيات في هذا كثيرة.

- (١) زيادة من (حم) و(مح).
- (٢) سنده ضعيف لأن الحسن بن يحيى الخشني صدوق كثير الخطأ. (التقريب ص ١٦٤)، وأبو معاوية لم يلق عمر ولا أبا ذرٍّ رضي الله عنه.
- (٣) أخرجه الإمام مالك (الموطأ، جامع القراءة ح ٢٧٠) وسنده صحيح.
- (٤) صحيح البخاري، بدء الوحي، باب ٢ (ح ٢)، وصحيح مسلم الفضائل، باب طيب عرق النبي ﷺ (ح ٢٢٣٣).
- (٥) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٣/ ٢٥٩ ح ٣٣٤٣)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق عامر بن صالح به، وصححه سنده محققوه (المسند ٤٢/ ١٤٧ ح ٢٥٢٥٣).
- (٦) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «أسكن».
- (٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١١/ ٦٤٢ ح ٧٠٧١) وضعفه سنده محققوه.

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِحٍ﴾ وقال ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحبار: أي: فرقا من العظمة^(١).

﴿وَاللَّيْلُ كُفً يُسَيِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: المشركين ﴿اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عدداً، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْغُلَامُونَ مَا كُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٌ﴾ ﴿٨﴾.

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحا جلياً بيناً ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسُميت مكة: أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: إن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» هكذا رواية الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث الزهري به وقال الترمذي: حسن صحيح^(٢).

وقوله: ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد وقوله: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة.

وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ الْقَنَابِ﴾ [التغابن: ٩] أي: يغبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ ﴿١٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥﴾ [هود: ١٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، حدثني أبو قبيل المعافري، عن شفي الأصبحي، عن عبد الله بن عمرو ؓ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أندرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال ﷺ للذي في يمينه: «هذا

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، ويتقوى بالآثار التالية: وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٩٧.

كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال ﷺ للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء نعمل إن كان هذا الأمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سدّدوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل» ثم قال ﷺ بيده فقبطها ثم قال: «فرغ ربكم ﷻ من العباد، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة - ونبذ باليسرى وقال: - فريق في السعير»^(١). وهكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن قتيبة، عن الليث بن سعد ويكر بن مضر كلاهما عن أبي قبيل، عن شفي بن مانع الأصبحي، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه به، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب^(٢). وساقه البغوي في تفسيره من طريق بشر بن بكر، عن سعيد بن عثمان، عن أبي الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فذكره بنحوه وعنده زيادات منها: «ثم قال: فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله ﷻ»^(٣)، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح كاتب الليث، عن الليث بن جبر، عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي قبيل، عن شفي، عن رجل من الصحابة رضي الله عنه فذكره^(٤).

ثم روي عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث وحيوة بن شريح، عن يحيى بن أبي أسيد أن أبا فراس حدثه أنه سمع عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: إن الله تعالى يقول: إن الله تعالى لما خلق آدم نفذه نفص المزود وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النغف^(٥) فقبطهم قبضتين ثم قال: شقي وسعيد ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير^(٦)، وهذا الموقف أشبه بالصواب، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد يعني: ابن سلمة أخبرنا الحريري، عن أبي نضرة قال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني: يزورونه فوجدوه يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: خذ من شاربك ثم أقرّه حتى تلقاني؟ قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالي» فلا أدري في أي القبضتين أنا^(٧).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٢١/١١ - ١٢٣ ح ٦٥٦٣) وضعف سنده محققوه بسبب ما قيل في أبي قبيل.

(٢) سنن الترمذي، القدر، باب ما جاء إن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (ح ٢١٤١)، والسنن الكبرى، التفسير (ح ١١٤٧٣)، وفي سنده أيضاً أبو قبيل.

(٣) معالم التنزيل ١٢٠/٤.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وفي سنده أيضاً أبو قبيل.

(٥) أي: الدود.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثله. في سنده يحيى بن أبي أسيد ذكره البخاري وسكت عنه (التاريخ الكبير ٨/ ٢٦١) وكذا ابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ١٢٩/٩).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٣٤/٢٩ ح ١٧٥٩٣) وصح سنده محققوه.

وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً منها حديث علي وابن مسعود وعائشة وجماعة جمة.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه وله الحكمة والحجة البالغة ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي سويد، أنه حدثه عن ابن حُجيرة أنه بلغه أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا ربّ خلّك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار لو ما أدخلتهم كلهم الجنة، فقال: يا موسى ارفع درعك، فرفع. قال: قد رفعت. قال: ارفع فرجع، فلم يترك شيئاً. قال: يا ربّ قد رفعت. قال: ارفع. قال: قد رفعت إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه^(١).

﴿أَبَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٦٠ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ٦١ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٦٢﴾.

يقول تعالى منكرأ على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبرأ أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ كقوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الحاكم في كل شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور.

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله: ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه؛ أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال [يذرؤكم]^(٢) فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق وجيلاً بعد جيل ونسلأ بعد نسل من الناس والأنعام.

وقال البغوي: يذرؤكم فيه؛ أي: في الرحم، وقيل: في البطن، وقيل: في هذا الوجه من الخلقة.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لأن أبا حُجيرة رواه بلاغاً، والمثني فيه أمارات الإسرائيليات.

(٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل بياض.

قال مجاهد: نسلًا من الناس والأنعام، وقيل في بمعنى الباء أي: يذروكم به^(١).
 ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر^(٢)، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُ يَكُلِّ شَيْءٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [٧] وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفَقَطُوا بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٥﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]، والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١].

وفي الحديث: "نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد"^(٣)؛ أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: وصى الله ﷻ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة. ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [البجائية: ١٧] أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب

(١) هذه الأقوال الخمسة سردها البغوي في معالم التنزيل ١٢١/٤، وقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه.

(٢) في الآية رقم ٦٣. (٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٥٩.

لِلْحَقِّ ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مرِيب وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه.

وقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ﴾ أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: المشركين فيما اختلفوا فيه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله، وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختياراً وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً واختياراً.

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ رِبِّيُّونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا رِبِّيُّوهُم مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة^(١).

قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا متجه لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة. وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿١٧﴾﴾ [سبا].

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يُجَاجِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٩﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ إِنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً الذي يصدون عن سبيل الله من آمن به: ﴿وَالَّذِينَ يُجَاجِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

أَسْتَجِيبَ لَهُمْ ﴿١٦﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿مُجْتَنِّهِمْ دَارِجَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى وطمعوا أن تعود الجاهلية^(١).

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى قالوا: ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله منكم^(٢)، وقد كذبوا في ذلك.

ثم قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد وقتادة^(٣)، وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله: ﴿وَالسَّامَةَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿أَلَّا تَقِفُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ [الرحمن].

وقوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد في الدنيا.

وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: ٢٩] وإنما يقولون ذلك تكديباً واستبعاداً وكفراً وعناداً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت»^(٤)، فقله في الحديث «المرء مع من أحب» هذا متواتراً لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى بقول مجاهد الذي أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٨٧.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود] ولهذا نظائر كثيرة.

وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع على من يشاء ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: لا يعجزه شيء ثم قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: عمل الآخرة ﴿نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي: نقويه ونعينه على ما هو بصده ونكثر نماءه ونجزه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية حرمة الله الآخرة والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا مقيدة بالآية التي في سبحان وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّدْ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَظَائِكَ وَنَمَكِّنْ لَهُمْ ثُبُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ [الإسراء].

وقال الثوري: عن مغيرة، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسوء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»^(١).

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار»^(٢) لأنه أول من سيب السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ١٠٣.

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة النور آية ٥٥.

كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُيَ بَيْنَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَي: لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي: شديد موجه في جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أَي: في عرصات القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أَي: الذين يخافون منه واقع بهم لا محالة هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فأين هذا من هذا؟ أَي: أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات؟ فيما يشاء من مأكّل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمرو بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي طيبة قال: إن الشَّرْبَ^(١) من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول ما أمطركم؟ قال: فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أتراباً. ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة^(٢) به، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أَي: الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُ مَن يَشَاءُ عِلْمُهُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله تعالى لهم به. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أَي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونه وإنما أطلب منكم أن تكفؤا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوساً يحدث عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبیر: قربي آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتُ إِنْ النُّبِيَّ ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة. فقال: إلا أن لا تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة^(٣)، انفرد به البخاري، ورواه الإمام أحمد بن يحيى القطان، عن شعبة به^(٤)، وهكذا روى عامر الشعبي والضحاك وعلي بن أبي طلحة والعوفي ويوسف بن مهراون وغير واحد عن ابن عباس مثله، وبه قال مجاهد

(١) الشَّرْب: الجماعة من القوم يجتمعون على الشراب.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته في تفسير سورة الزخرف آية ٧١ / ج ٢٠ ص ٦٤٦، وسنده مرسل.

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومثته (الصحيح، التفسير، باب ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] ح ٤٨١٨).

(٤) (المسند ٢٢٩/١) وسنده صحيح.

وعكرمة وقتادة والسدي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم^(١).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن القاسم بن زيد الطبراني وجعفر القلانسي قالا: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شريك، عن خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرايتي منكم وتحفظوا القربة التي بيني وبينكم»^(٢).

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى، حدثنا قَزَعَة يعني ابن سويد، وابن أبي حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعَة بن سويد، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله وأن تقربوا إليه بطاعته»^(٣) وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري مثله^(٤)، وهذا كأنه تفسير بقول ثانٍ كأنه يقول: «إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى» أي: إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى.

وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير ما معناه أنه قال معنى ذلك: أن تودوني في قرايتي أي: تحسنوا إليهم وتبروهم^(٥).

وقال السدي، عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة، فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن: قال: نعم، قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت «قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى» قال: وإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم^(٦)، وقال أبو إسحاق السبيعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تبارك وتعالى: «قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى» فقال: قري النبي ﷺ رواهما ابن جرير.

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثني يزيد بن أبي زياد، عن مقسم، عن ابن عباس، قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا وكأنهم فخرُوا،

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس، ويتقوى طريق العمري بطريق ابن أبي طلحة، وأخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وأخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر عن عكرمة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٤٣٥/١١ ح ١٢٢٣٣) وفي سنده شريك وخصيف وكلاهما سيئ الحفظ. ولشطره الثاني شاهد تقدم من رواية البخاري.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن حسن بن موسى به (المسند ٢٣٨/٤ ح ٢٤١٥)، وضعف سنده محققوه لضعف قَزَعَة بن سويد.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة عن الحسن، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) تقدم قول سعيد بن جبير في رواية البخاري السابقة قبل أربع روايات.

(٦) أخرجه الطبري من طريق السدي به، وسنده ضعيف لأن السدي فيه تشيع.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق السبيعي به.

فقال ابن عباس أو العباس - شك عبد السلام -: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أفلا تجيبوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون ألم يخرجك قومك فأويناك أولم يكذبوك فصدقناك أولم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال ﷺ يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا في أيدينا لله ولرسوله، قال: فنزلت ﴿ثَلَّ لَا أَشْكُرَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين، عن عبد المؤمن بن علي، عن عبد السلام، عن يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف بإسناده مثله أو قريباً منه.

وفي الصحيحين في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية^(٢)، وذكر نزولها في المدينة فيه نظر لأن السورة مكية وليس يظهر بين هذه الآية وهذا السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ثَلَّ لَا أَشْكُرَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها ﷺ»^(٣). وهذا إسناده ضعيف فيه مبهم لا يعرف عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المحل، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة ﷺ أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي ﷺ إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة، والحق تفسير هذه الآية بما فسرهما به خبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس كما رواه عنه البخاري ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنوه وعلي وأهل ذريته رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت في [الصحيح]^(٤) أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض»^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله إن قريشاً

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف زياد بن أبي زياد (التقريب ص ٦٠٠).

(٢) صحيح البخاري، المغازي والسير، باب غزوة الطائف (ح ٤٣٣٠)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب إعطاء المؤلف قلوبهم (ح ١٠٦١).

(٣) سنده ضعيف لإيهام الراوي عن حسين الأشقر، وما قيل في الأشقر.

(٤) كذا في (حم) و(مح) وهو الصواب لأنه في صحيح مسلم، وفي الأصل: «الصحيحين».

(٥) أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم ﷺ بنحوه ومطولاً وليس فيه: وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض (الصحيح، فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ ح ٢٤٠٨).

إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله»^(١).

ثم قال أحمد: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب بن ربيعة، قال: دخل العباس ﷺ على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث، فإذا رأونا سكتوا، فغضب رسول الله ﷺ ودرّ عرق بين عينيه ثم قال ﷺ: «والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحبكم الله ولقرايتي»^(٢).

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعت أبي يحدث عن ابن عمر ﷺ عن أبي بكر - هو الصديق - ﷺ قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته^(٣).

وفي الصحيح أن الصديق ﷺ قال لعلي ﷺ: والله لقراءة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرايتي^(٤)، وقال عمر بن الخطاب للعباس ﷺ: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب^(٥).

فحال الشيخين ﷺ هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ﷺ وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد ﷺ: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبي حيان التيمي، حدثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ﷺ، فلما جلسنا إليه قال حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه، لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي لقد كبر سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه وما لا فلا تكلفوني، ثم قال ﷺ: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فبما يدعى خمأً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكّر ووعد، ثم قال ﷺ: «أما بعد، أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه وقال ﷺ: «وأهل بيتي أذكركم في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه لسن من أهل بيته ولكن أهل بيته من

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٢٩٤، ٢٩٥ ح ١٧٧٢) وضعف سنده محققوه لضعف زياد بن أبي زياد.

(٢) (المسند ٣/٢٩٥ ح ١٧٧٣) وسنده كسابقه.

(٣) صحيح البخاري، المناقب، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ (ح ٣٧١٣).

(٤) المصدر السابق (ح ٣٧١٢).

(٥) أخرجه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس (تاريخ دمشق ٨/٩١٤) وسنده ضعيف لضعف إبراهيم بن مهاجر (التقريب ص ٩٤) وفي مثله رائحة التشيع.

حرم عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس عليهم السلام. قال: أكل هؤلاء حرم عليه الصدقة؟ قال: نعم^(١)، وهكذا رواه مسلم والنسائي من طرق يزيد بن حبان به^(٢).

وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا علي بن المنذر الكوفي، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد. والأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عتره أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» تفرد بروايته ثم قال: هذا حديث حسن غريب^(٣).

وقال الترمذي أيضاً: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر بن محمد بن الحسن، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعتة يقول: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي» تفرد به الترمذي أيضاً. وقال: حسن غريب، وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد رضي الله عنه^(٤).

ثم قال الترمذي أيضاً: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلي، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي» ثم قال: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه^(٥).

وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] بما أغنى عن إعادتها ههنا، والله الحمد والمنة.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مفضل بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن حنش، قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنا أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح عليه

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٦٦/٤) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ح ٢٤٠٨)، والسنن الكبرى (٨١٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي بسنده ومثله وتعليقه (السنن، المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ ح ٣٧٨٨)، وصححه الألباني بطرقه (صحيح سنن الترمذي ح ٢٩٨٠ والسلسلة الصحيحة ٣٥٦/٤).

(٤) أخرجه الترمذي بسنده ومثله وتعليقه (المصدر السابق ح ٣٧٨٦)، وصححه الألباني بطرقه (صحيح سنن الترمذي ح ٢٩٧٨)، والسلسلة الصحيحة ٣٦١/٤.

(٥) أخرجه الترمذي بسنده ومثله (المصدر السابق ح ٣٧٨٩). وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ح ٧٩٢).

الصلاة والسلام من دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك^(١). هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً زِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: ومن يعمل حسنة ن زد له فيها حسناً أي أجراً وثواباً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

وقال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة] أي: لآخذنا منه باليمين ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [٢٤] ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ [٢٥] [الحاقة] أي: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ اللَّهُ الْأَبْطَلُ﴾ ليس معطوفاً على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوماً بل هو مرفوع على الابتداء. قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ﴾ [العلق] وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء]. وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْحَيَّ بِكَلِمَةٍ﴾ معطوف على ﴿وَمِمَّنْ اللَّهُ الْأَبْطَلُ وَيُحْيِي الْحَيَّ﴾ أي: يحققه ويثبت ويبينه ويوضحه بكلماته؛ أي: بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الضُّمَامِ﴾ أي: بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا فَعَلُوا﴾ [٢٥] ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [٢٦] ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [٢٧] ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِمَا عَمِلُوا لَخَبِيرٌ﴾ [٢٨] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَكِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [٢٩].

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه أنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر، وكقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء].

وقد ثبت في صحيح مسلم رحمة الله عليه، حيث قال: حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالا: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك، وهو عمه رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى

(١) أخرجه ابن عدي من طريق أبي يعلى به (الكامل ٢٤٠٦/٦) وسنده ضعيف كما قرر الحافظ ابن كثير، وهو كما قال فإن سويد بن سعيد فيه مقال (التقريب ص ٢٦٠) وكذلك مفصل قال عنه الذهبي: واه (تلخيص مستدرک الحاكم ١٥١/٣).

شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللّهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح^(١). وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحوه^(٢).

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان يخاف أن يقتله فيه العطش»^(٣).

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شريح القاضي، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعي، عن همام فذكره^(٤).

وقوله: ﴿وَتَقُولُوا عَنِ النَّبِيِّاتِ﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقتلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَتَجِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم، وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، وحكاه عن بعض النحاة^(٥)، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ثم روى هو وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سيرة قال: خطبنا معاذ رضي الله عنه بالشام، فقال: أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة، والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني: أحدهم عملاً قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ ﴿وَسَتَجِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾^(٦).

وحكى ابن جرير، عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: ﴿وَسَتَجِبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كقوله: [٧] ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه^(٨) كقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك. ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندي، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾

(١) أخرجه مسلم بسنده ومته (الصحيح، التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح منها ح ٢٧٤٧).

(٢) المصدر السابق (ح ٢٧٤٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومته، وأخرجه مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه. (المصدر السابق ح ٢/٢٦٧٥).

(٤) أخرجه الطبري من طريق إسحاق بن يوسف عن شريك القاضي به، وسنده ضعيف لضعف إبراهيم بن مهاجر. (التقريب ص ٩٤).

(٥) ذكره الطبري بنحوه بصيغة وقيل.

(٦) أخرجه الحاكم من طريق الأعمش به وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٢/٤٤٤).

(٧) الزيادة من تفسير الطبري. (٨) ذكره الطبري بمعناه عن بعض نحويي البصرة.

فَضْلِهِ ﴿١﴾ قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا»^(١).

وقال قتادة: عن إبراهيم النخعي اللخمي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم^(٢).

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً.

وقال قتادة: كان يُقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك، وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا» وسؤال السائل: أيأتي الخير بالشر؟ الحديث^(٣). وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر كما جاء في الحديث المروي: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه»^(٤).

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه كقوله: ﴿وَلَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِكِينَ﴾ [الروم].

وقوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية.

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس. فقال عمر رضي الله عنه: مُطَرِّمٌ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾.

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله^(٥).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^(٦) وَمَا أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ^(٧) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٨).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ﴾ خَلْقَ السَّمَكَاتِ

(١) سنده ضعيف، فيه إسماعيل بن عبد الله الكندي في رواية بقية عنه مقال قال الحافظ ابن حجر: وعنه بقية بخبر عجيب منكر. (لسان الميزان ٤١٧/١).

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وسعيد ضعيف كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف لأن الشق الأول لم يصرح باسم شيخه، والشق الثاني رواه مرسلاً.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٣٠.

(٥) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به ورجاله ثقات لكن قتادة لم يصرح باسم شيخه، فسنده ضعيف.

وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا ۖ أَي: ذرأ فيهما في السموات والأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياها حتى الشوكة يشاكها»^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، حدثنا أيوب قال: قرأت في كتاب أبي قلابة قال: نزلت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ (٨) [الزلزلة] وأبو بكر رضي الله عنه يأكل فأمسك وقال: يا رسول الله إني أرى ما عملت من خير وشر، فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذر الشر وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» وقال: قال أبو إدريس: فإني أرى مصداقها في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۖ﴾ (٣١)^(٢). ثم رواه من وجه آخر عن أبي قلابة، عن أنس رضي الله عنه^(٣). قال: والأول أصح^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخضر بن القواس [البجلي، عن أبي سخيخة]^(٥)، عن علي رضي الله عنه قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله سبحانه، وحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير، وسأفسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يثني عليه العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه»^(٦). وكذا رواه الإمام أحمد عن مروان بن معاوية وعبد، عن أبي سخيخة قال: قال علي رضي الله عنه فذكر نحوه مرفوعاً^(٧).

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ١٢٣.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لأن أبا قلابة كثير الإرسال ولم يسمع من أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق الهيثم بن الربيع عن أيوب عن أبي قلابة به، وسنده ضعيف لأنه معلق ولأن الهيثم ضعيف كما في التقريب.

(٤) وفي النسخة المحققة من تفسير الطبري: والصواب عن أبي إدريس.

(٥) كذا في (حم) و(مح) وترجمتهما، وفي الأصل صحفاً إلى: «البجلي عن ابن أبي سخيخة».

(٦) سنده ضعيف لضعف أزهر بن راشد الكاهلي كما في التقريب وتهذيب التهذيب.

(٧) (المسند ٨٥/١) وسنده كسابقه.

ثم روى ابن أبي حاتم نحوه من وجه آخر موقوفاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسألناه فتلا هذه الآية ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلم من أن يثني عليه بالعقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود عفوه يوم القيامة^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة يعني: ابن يحيى، عن أبي بردة، عن معاوية هو ابن أبي سفيان عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤديه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته»^(٢).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن هو البصري قال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر»^(٤).

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا هشيم، عن منصور، عن الحسن، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده فقال له بعضهم إنا لنبأس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس بما ترى فإن ما ترى بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٥).

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن الحميد الحماني، حدثنا جرير، عن أبي البلاد، قال: قلت للعلاء بن بدر ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وقد ذهب بصري وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك^(٦). وحدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن

(١) أخرجه الترمذي من طريق أبي إسحاق الهمداني به ثم قال: حسن غريب صحيح، وهذا قول أهل العلم لا نعلم أحداً كفر أحداً بالزنى أو السرقة أو شرب الخمر. (السنن، الإيمان، باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن ٢٦٢٦) وحكم عليه الزيلعي بأنه إسناد متصل ثابت (تخريج أحاديث الكشاف ٢٤٢/٣)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٤٥/٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٩٨/٤) قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٣٠١/٢) وصححه الألباني بطرقه (السلسلة الصحيحة ح ٢٢٧٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٣٤/٤٢ ح ٢٥٢٣٦) وضعفه محققوه بسبب ليث بن أبي سليم.

(٤) سنده ضعيف لإرساله.

(٥) أخرجه الحاكم من طريق هشيم به وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٤٤٦/٢) ولكن الحسن لم يسمع من عمران كما في كتب المراسيل.

(٦) سنده مقطوع، ويحيى بن عبد الحميد الحماني متهم بسرقة الحديث كما في التقريب، والمتن فيه غرابة.

أبي رواد، عن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ثم قرأ الضحاك: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٦) ثم يقول الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن^(١).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣) أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ (٣٥).

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخير البحر لتجري فيه الفلك بأمره وهي الجواري في البحر كالأعلام؛ أي: كالجبال، قاله مجاهد والحسن والسدي والضحاك: أي: هذه في البحر كالجبال في البر^(٢).

﴿إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ﴾ أي: التي تسير في البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب بل واقفة على ظهره؛ أي: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي: إنه في تسخير البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه لكل صبار؛ أي: في الشدائد شكور في الرخاء. وقوله: ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

وقال بعض علماء التفسير معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفت ذات اليمين أو ذات الشمال أبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيجاً من أرض أخرى غيرها لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ (٣٥) أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوَيْدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَجِّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَنبَأَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦) وَالَّذِينَ يَخْتَدُّونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩).

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن وكيع به (المصنف ١٦٢/٧) وسنده حسن.
(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد بلفظ: «السفن كالجبال»، وكذا أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

﴿فَأُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَلَّحَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باقٍ سرمدي فلا تقدموا الفاني على الباقي ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَخْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف.

﴿وَإِذَا مَا عَصِيبُوا هُمْ يَقْفَرُونَ﴾ أي: سجيبتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ليس سجيبتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمت الله^(١)، وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له؟ تربت جبينه»^(٢)،^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا إذا قدروا عفوا^(٤).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أعظم العبادات لله ﷻ: ﴿وَأَتَوْهُمْ سُورَىٰ يَنْتَهُمُ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم ﷺ.

﴿وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾^(٥) أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته: ﴿لَا تَزِرْ بِكَرْبِكُمْ إِلَیَّ الْيَوْمَ يُعْفَرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك نفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه ﷺ عن غوث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ ﷺ وهو في يده مصلتاً، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ

(١) أخرجه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها (صحيح البخاري، الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» ح ٦١٢٦، وصحيح مسلم، الفضائل، باب مباحثته ﷺ للأثام... ح ٢٣٢٧).

(٢) قال الخطابي: يحتمل أن يكون المعنى: خرّ لوجهه فأصاب التراب جبينه، ويحتمل أن يكون دعاء له بالعبادة كأن يصلي فيترب جبينه، والأول أشبه (فتح الباري ١٠/٤٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (الصحيح، الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفاحشاً ح ٦٠٣١).

(٤) سنده صحيح، وزائدة هو ابن قدامة الثقفي يروي عنه سفيان بن عيينة. (تهذيب التهذيب ٣/٣٠٦).

رسول الله ﷺ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه، وكذلك عفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره ﷺ ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه، وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمد بن مسلمة - التي سمّت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت، فقال ﷺ: «ما حملك على ذلك؟» قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء ﷺ قتلها به^(١)، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والله الحمد.

﴿وَحَزَوْنَا سِنَتَهُ سِنَتَهُ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) .

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَزَوْنَا سِنَتَهُ سِنَتَهُ مِثْلَهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمْثِلُ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وكقوله: ﴿وَلَنْ عَاقِبَتُهُ فَعَاقِبَتُكُمْ بِمِثْلِ مَا عَاقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] ولهذا قال ههنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صحَّ ذلك في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة.

ثم قال: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيغ، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون قال: كنت أسأل عن الانتصار في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) فحدثني علي بن زيد بن جدعان، عن أم محمد امرأة أبيه قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: قالت أم المؤمنين رضي الله عنها: دخل علينا رسول الله ﷺ وعندنا زينب بنت جحش رضي الله عنها، فجعل النبي ﷺ يصنع بيده شيئاً فلم يفتن لها، فقلت بيده حتى فطنته لها فأمسك، وأقبلت زينب رضي الله عنها تقحم لعائشة رضي الله عنها فنهاها، فأبت أن تنتهي، فقال لعائشة رضي الله عنها: «سُبِّهَا» فسببتها فغلبتها، وانطلقت زينب رضي الله عنها فأتت علياً رضي الله عنه فقالت: إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم، فجاءت فاطمة رضي الله عنها، فقال ﷺ لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلي رضي الله عنه: «إني قلت له ﷺ كذا وكذا، فقال لي كذا وكذا، قال: وجاء علي إلى النبي ﷺ وكلمه في ذلك»^(٣)، هكذا أورد هذا السياق، وعلي بن زيد بن جدعان، يأتي في رواياته بالمنكرات غالباً، وهذا فيه

(١) كل ما ذكره الحافظ ابن كثير من الوقائع قد وردت في الصحيحين أو أحدهما.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ١٤٩.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، والحديث ضعيف سنداً ومثناً، وعلي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

نكارة، والصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البهي، عن عروة، قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمت حتى دخلت عليّ زينب بغير إذن وهي غضبي، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها، ثم أقبلت عليّ فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري» فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قد يس في فمها ما تردّ عليّ شيئاً، فأريت النبي ﷺ يتهلل وجهه^(١)، وهذا لفظ النسائي.

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة رضي الله عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»^(٢). ورواه الترمذي من حديث أبي الأحوص، عن أبي حمزة واسمه ميمون، ثم قال: لا نعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يبدؤون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: «المستبأن ما قالوا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم»^(٤).

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجه.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد، حدثنا عثمان الشحام، حدثنا محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق منظره، فأخذت حاجتي فانطلق بي إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة فقال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتي إن استطعت أن تكون كما كان أخو بني عدي، قال: ومن أخو بني عدي؟ قال العلاء بن زياد: استعمل صديقاً له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد، فإن استطعت أن لا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت ذلك، لم يكن عليك سبيل ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥) فقال مروان: صدق والله ونصح، ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله، قلت: حاجتي أن تلحقني بأهلي، قال: نعم^(٥)، رواه ابن أبي حاتم.

ثم إن الله تعالى، لما ذمّ الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَكِنْ صَبْرٌ وَعَقْرٌ﴾ أي: صبر على الأذى، وستر السيئة ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

قال سعيد بن جبیر: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله بها؛ أي: لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل.

(١) السنن الكبرى للنسائي، التفسير، سورة الشورى (ح ١١٤٧٦) وسنن ابن ماجه، النكاح، باب حسن معاشره النساء (ح ١٩٨١)، وصححه البوصيري (مصباح الزجاجة ١١٥/٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ١٨٦٢).

(٢) سنده ضعيف لضعف أبي حمزة وهو ميمون الأعور: ضعيف (التقريب ص ٥٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي (السنن، الدعوات، باب من دعا على من ظلمه فقد انتصر ح ٣٥٤٧) وسنده كسابقه.

(٤) صحيح مسلم، النهي عن السباب (شرح النووي ٤٧٢/١٢).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة بسنده ومته (المصنف ٣٢٣/٨)، وسنده حسن.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي، حدثنا مصمّد بن يزيد خادم الفضيل بن عياض قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً، فقل: يا أخي اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله ﷻ، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى يعني ابن سعيد القطان، عن ابن عجلان، حدثنا سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله، فغضب النبي وقام، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقتت! قال: «إنه كان معك ملك يردّ عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان»، ثم قال: «يا أبا بكر: ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها الله، إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها كثرة»، وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة قال: ورواه صفوان بن عيسى كلاهما عن محمد بن عجلان، ورواه من طريق الليث، عن سعيد المقبري، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مرسلًا^(٢)، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو مناسب للصديق ﷺ.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْزِلْ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ۚ﴾ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَبِيرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَمْ يَنْزِلْ مِنْ سَبِيلٍ ۚ﴾ ﴿٤٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه ما يشاء كان ولا رادّ له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له، ومن يضل الله فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] ثم قال مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِإِثْمِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ﴾ أي: الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

(١) سنده صحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٩٠/١٥ ح ٩٦٢٤) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٣) سنن أبي داود، الأدب، باب في الانتصار (ح ٤٨٩٨)، ويتقوى بسابقه.

قال مجاهد: يعني ذليل^(١)؛ أي: ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يقولون يوم القيامة ﴿إِنَّ الْخَسِرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبائهم وأصحابهم وأهاليهم وقربائهم فخسروهم ﴿أَلَا إِنَّ الْفٰلِغِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ ءَوَّلِيَّةٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص.

﴿اَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّجَ بِهَا وَإِنْ نَضَاهُمْ سَيْئَةً يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَئِنْ لَمْ نَكُنْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُنْظِرًا﴾ (١٢) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَعْرِجُونَ ﴿١٣﴾ [القيامة] وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي: لست عليهم بمسيطر، وقال ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقال تعالى: [ههنا] (٢): ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّجَ بِهَا﴾ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِنْ نَضَاهُمْ سَيْئَةً﴾ أي: الناس ﴿سَيْئَةً﴾ أي: جذب وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشرب ويطر، وإن أصابته محنة يشرب وقنط، كان قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط» (٣) وهذا حال أكثر النساء، إلا من هداها الله تعالى وألهمها رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) زيادة من (حم) و(مع).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٨٢.

له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(١).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ بُرُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾ أي: يرزقه البنات فقط. قال البغوي: ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام^(٢). ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط، قال البغوي: كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنثى^(٣).

﴿أَوْ بُرُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا﴾ أي: يعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى؛ أي: هذا وهذا.

قال البغوي: كمحمد ﷺ^(٤).

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يولد له.

قال البغوي: كيعقوب وعيسى ﷺ^(٥).

فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له. ﴿إِنَّكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أي: دلالة على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر وأنثى، وحواء ﷺ مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى ﷺ من ذكر وأنثى، وعيسى ﷺ من أنثى بلا ذكر، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّكُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ ۝٥٣ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٤﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٥٣.

(٢) ذكره البغوي بنحوه (المصدر السابق).

(٣) ذكره البغوي بنحوه (المصدر السابق).

(٤) ذكره البغوي بنحوه (المصدر السابق).

(٥) ذكره البغوي بنحوه (معالم التنزيل ٤/ ١٣٢).

شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لم تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً»^(٢) كذا جاء في الحديث، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿إِنَّمَا عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ فهو علي عليم خبير حكيم. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ أي: وشرعه الذي أمر به الله ﴿الَّذِي لَمْ يَلَمْسْ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها [ﷻ] عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً^(٣).

آخر تفسير سورة الشورى. والحمد لله رب العالمين.

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٨٧.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ١٦٩ وليس في الصحيح.

(٣) زيادة من (مح).

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّكُمْ فِي أُرْ الْكِتَابِ لَلدِّينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَافِحًا أَمْ كُنْتُمْ فَرِحْتُمْ مَسْرِعِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ ۝٣﴾ أي: أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۝٤﴾ أي: بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٥﴾ أي: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝٦﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ فِي أُرْ الْكِتَابِ لَلدِّينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ۝٤﴾ بين شرفه في الملاء الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ ۝٥﴾ أي: القرآن ﴿فِي أُرْ الْكِتَابِ ۝٥﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس ومجاهد^(١): ﴿لَدَيْنَا ۝٥﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره^(٢) ﴿لَعَلِّي ۝٥﴾ أي: ذو مكانة وشرف وفضل قاله قتادة^(٣).

﴿حَكِيمٌ ۝٤﴾ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ لَقَرَأْنَا كَرِيمٌ ۝٧﴾ في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة] وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفَعُهُمْ مَطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس] ولهذا استنبط العلماء رحمهم الله من هاتين الآيتين أن المحدث لا يمس المصحف كما ورد به الحديث^(٤) إن صح؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف

(١) نسبه السيوطي إلى ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس، وأخرجه بمعناه الطبري بسند صحيح من طريق عروة بن عامر عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) الأثر تنممه لسابقه.

(٤) الحديث هو ما ورد في كتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم إلى أهل اليمن وفيه: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر» أخرجه الدارمي (السنن، الطلاق، باب لا طلاق قبل نكاح ١٦١/٢)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١٨٠/٨ ح ٦٥٢٥) وسنده حسن وله شواهد تؤكد ثبوته.

المشتملة على القرآن في الملاء الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى؛ لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنَّ فِي أَرْأَسِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ﴾ (١).

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ (٢) اختلف المفسرون في معناها:

فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به، قاله ابن عباس وأبو صالح ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير^(١).

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا؟﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عاد بعائده ورحمته فكرره عليهم ودعاه إليهم عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك^(٢)، وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول في معناه: إنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه وأمرأ له بالصبر عليهم: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ (٣) أي: في شيع الأولين ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤) أي: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسول، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات في ذلك كثيرة جداً. وقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: ستهتم^(٥).

وقال قتادة: عقوبتهم^(٦). وقال غيرهما: عبرتهم؛ أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (٧) [الزخرف] وكقوله: ﴿سَلَتْ اللَّهُ أَلْقَىٰ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادَةٍ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويتقوى بالآثار التالية فقد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه أيضاً الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح، وأخرجه أيضاً الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كما في تعليق التعليق (٣٠٩/٤) كلاهما بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ①﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ② وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ③ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ④ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑤ وَإِنَّا إِلَيْكَ رَبَّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ⑥﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد، ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طرقاً بين الجبال والأودية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ أي: أرضاً ميتة، فلما جاءهم الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها، ولهذا قال: ﴿لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: لتستوا متمكنين مرتفعين ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مقاومين، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد: مقرنين؛ أي: مطيقين^(١)، ﴿وَإِنَّا إِلَيْكَ رَبَّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: لصاصرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الآخروي في قوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّذُوا فَاذْكُرُوا خَيْرَ الزَّادِ الْفَقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] وباللباس الدنيوي على الآخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسَ النَّفَقَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري أيضاً بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه آدم والطبري أيضاً بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وأخرجه الطبري أيضاً بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه الطبري أيضاً بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله، عن أبي إسحاق، عن علي بن ربيعة، قال: رأيت علياً عليه السلام أتى بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثاً وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثلما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يعجب الربُّ تبارك وتعالى من عبده إذا قال ربِّ اغفر لي، ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»^(١). وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث أبي الأحوص، زاد النسائي ومنصور عن أبي إسحاق السبيعي، عن علي بن ربيعة الأسدي الوالبي به. وقال الترمذي: حسن صحيح، وقد قال عبد الرحمن بن مهدي، عن شعبة: قلت لأبي إسحاق السبيعي: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب، فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من علي بن ربيعة، ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدي، عن علي بن ربيعة الوالبي به^(٢).

حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن علي بن أبي طلحة، عن عبد الله بن عباس، قال: إن رسول الله ﷺ أُرِدْفَه عَلَىٰ دَابَّتِهِ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثاً، وحمد ثلاثاً، وهَلَّلَ واحدة، ثم استلقى عليه وضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله ﷻ عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك»^(٣) تفرد به أحمد.

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبي الزبير، عن علي بن عبد الله البارق، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلىٰ ربنا لمنقلبون، ثم يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي سَفَرِي هَذَا الْبَرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ وَاطْوِلْ لَنَا الْبَعِيدَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا وَاخْلُقْنَا فِي

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٤٨/٢ ح ٧٥٣) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٢) سنن أبي داود - الجهاد - باب ما يقول الرجل إذا ركب (ح ٢٦٠٢)، وسنن الترمذي، الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا ركب دابة (ح ٣٤٤٦) والسنن الكبرى للنسائي، عمل اليوم والليلة (ح ٨٨٠٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٢٢٦٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٧٦/٥ ح ٣٠٥٧) وضعف سنده محققوه.

أهلنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيئون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون»^(١). وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج، والترمذي من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبي الزبير به^(٢).

حديث آخر قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن عمرو بن الحكم بن ثوبان، عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج، فقلنا: يا رسول الله ما نرى أن تحملنا هذه، فقال ﷺ: «ما من بعير إلا في ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم، ثم امتهنوها لأنفسكم فإنما يحمل الله ﷻ»^(٣). أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خلف.

حديث آخر في معناه.

قال أحمد: حدثنا عتاب، أخبرنا عبد الله، وعلي بن إسحاق، أخبرنا عبد الله يعني ابن المبارك، أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرني محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإذا ركبتموها فسموا الله ﷻ ثم لا تقصروا عن حاجاتكم»^(٤).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ١٥﴾ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَابْنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوْ مِنْ يَنْشُؤُا فِي الْحَلِيبَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ١٩ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَجْرُمُونَ ٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى، كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٦﴾ [الأنعام] وكذلك جعلوا له في قسمي البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَكْثَرُ عَنِ الْإِنْفِ ١٦﴾ [النجم] وقال ههنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ١٥﴾ ثم قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَابْنِينَ ١٦﴾؟

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٤٤/٢) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (ح ١٣٤٢) وسنن أبي داود، الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا سافر (ح ٢٥٩٩)، وسنن الترمذي، الدعوات، باب ما يقول إذا ركب (ح ٣٤٤٧)، والسنن الكبرى (ح ١٠٣٨٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٥٨/٢٩ ح ١٧٩٣٨) وحسن سنده محققوه لأن ابن إسحاق صرح بالسماع في الرواية التي تلي هذه المذكورة (ح ١٧٩٣٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٢٦/٢٥ ح ١٦٠٣٩) وحسن سنده محققوه.

وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٧) أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون من ذلك وتنسبونه إلى الله ﷻ؟

ثم قال ﷻ: ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (٨) أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيبة أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليحجب ما فيها من نقص كما قال بعض شعراء العرب:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة يُتَمَّم من حُسن إذا الحُسن قَصَّرا
وأما إذا كان الجمال مَوْفُراً كحُسنك لم يحتج إلى أن يزورا
وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بُشِّرَ بنت: ما هي بنعم الولد نصرها بكاء، وبرها سرقة.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً ﴿سَتَكُنُّ شُهَدَائِهِمْ﴾ أي: بذلك ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: أحدها: جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتزهد عن ذلك علواً كبيراً.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخط في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: واحتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا في هذا الإحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهي عن عبادة ما سواه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل) وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف) وقال في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون ويتقولون.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: يعني: ما يعلمون

قدرة الله على ذلك^(١).

﴿أَمْ أَلَيْسَ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَمَهَّم بِهِ مُسْتَسْكُونَ﴾ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جَحْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ أَلَيْسَ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل شركهم ﴿فَمَهَّم بِهِ مُسْتَسْكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾ (٢٥) [الروم] أي: لم يكن ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهُتَدُونَ﴾ (٢٢) أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين ههنا. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أي: وراءهم ﴿مُهِتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل. ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتههم ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَفَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُّجْنُونٌ﴾ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ [الذاريات] وهكذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣).

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أُولَٰئِكَ جَحْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصله تعالى في قصصهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: كيف بادوا وهلكوا؟ وكيف نجى الله المؤمنين؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَافِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمِ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِكَنَّهُمْ سُقْفًا مِّن فَضْلِهِ وَمَعَاجِرٌ عَلَيْهَا يظهرون ﴿٣٣﴾ وَلِيُؤْمِنَهُمْ آتُونًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِفُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ ﴿٢٨﴾ أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله؛ أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها.

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها^(١)، وروي نحوه عن ابن عباس^(٢) وقال ابن زيد: كلمة الإسلام^(٣). وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ يعني المشركين ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ أي: فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة والندارة.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠) أي: كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح كفراً وحسداً وبغياً ﴿وَقَالُوا﴾ أي: كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلاً كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون: مكة والطائف، قاله ابن عباس^(٤)، وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد^(٥)، وقد ذكر غير واحد منهم أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي^(٦).

وقال مالك، عن زيد بن أسلم^(٧)، والضحاك والسدي: يعنون الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي^(٨).

وعن مجاهد: يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي وعنه أيضاً أنهم يعنون عتبة بن ربيعة. وعن ابن عباس: جباراً من جبابرة قريش، وعنه عليه السلام أنهم يعنون: الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي.

(١) أخرجه الفريابي بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد. (ينظر تغليق التعليق ٣٠٦/٤)، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بما سبق.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى بما يليه:

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، لكنه مرسل، بلفظ: «الرجل»: الوليد بن المغيرة قال: لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل عليّ هذه القرآن أو على أبي مسعود الثقفي، والقريتان: الطائف ومكة، وأبو مسعود الثقفي من الطائف واسمه: عروة بن مسعود، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بنحوه.

(٦) تقدم عن قتادة وعبد الرحمن بن زيد كما في الرواية السابقة.

(٧) سنده صحيح لكنه مرسل.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف، فيه بشر بن عمارة وهو ضعيف، عن الضحاك عن ابن عباس، وهو لم يلق ابن عباس.

وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف^(١). وقال السدي: عنوا بذلك: الوليد بن المغيرة وكنانة بن عمرو بن عمير الثقفي^(٢)، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم. بل إلى الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً. وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً.

ثم قال تعالى مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قيل: معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي^(٣) وغيره. وقال قتادة والضحاك ليملك بعضهم بعضاً^(٤) وهو راجع إلى الأول.

ثم قال: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقاتدة والسدي وغيرهم^(٥) ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: سلالم ودرجاً من فضة قاله ابن عباس ومجاهد وقاتدة والسدي وابن زيد وغيرهم^(٦) ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يصعدون وليبوتهم أبواباً؛ أي: أغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهِا يَتَكُونُونَ﴾ أي: جميع ذلك يكون فضة ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: وذهباً، قاله ابن عباس وقاتدة والسدي وابن زيد^(٧).

ثم قال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى؛ أي: يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها كما ورد به الحديث الصحيح^(٨). وورد في حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء» أسنده البغوي

(١) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك بلفظ: «العبيد والخدم سخر الله له»، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عن الحسن، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) أخرجه الطبري بالأسانيد المتقدمة عن ابن عباس وقاتدة والسدي وابن زيد.

(٧) أخرجه الطبري بالأسانيد المتقدمة عنهم أربعتهم.

(٨) أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك بنحوه (الصحيح، صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ح ٢٨٠٨).

من رواية زكريا بن منظور، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فذكره^(١).
ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ: «لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافراً منها شيئاً»^(٢).

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما ألى ﷺ من نسائه، فراه على رمال حصير قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء وقال: يا رسول الله هذا كسرى وقصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «أو في شاك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(٣) وفي رواية «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة».

وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(٤) وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتهم كما روى الترمذي وابن ماجه من طريق أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً شربة ماء أبداً» قال الترمذي: حسن صحيح^(٥).

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ فَيُلْقِيَ الْقُرْآنَ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٨﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي سَلَكٍ مُبِينٍ ﴿٣٩﴾ فَإِنَّمَا نَذِيرٌ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِضُونَ ﴿٤٠﴾ أَوْ نُرِيكَ الْآلِزَىٰ وَعَدَّتْهُمْ فَأَنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤١﴾ فَاسْتَسْيِمْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَسَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ أي: يتعمى ويتغافل ويعرض ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وكقوله: ﴿وَقِصَصَنَا لَكُمْ قُرْآنًا فَرِيقًا لَمْ يَرْثُوا أَيْدِيَهُمْ وَمَا خَلَقَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ﴾

(١) أخرجه البغوي من طريق زكريا بن منظور به (معالم التنزيل ٤/١١٣٨)، وأخرجه ابن ماجه (السنن، الزهد، باب مثل الدنيا ح ٤١١٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٣١٨).

(٢) المعجم الكبير ١٧٨/٦ (ح ٥٩٢١) وفي سننه زمعة بن صالح وهو ضعيف لكنه توبع في الرواية السابقة.

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة طه آية ١٣١.

(٤) صحيح البخاري، الأطعمة، باب الأكل في إناء مفضض (ح ٥٤٢٦)، وصحيح مسلم، اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة (ح ٢٠٦٧).

(٥) تقدم تخريجه قبل روايتين.

وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٥﴾ [فصلت]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴿١٨﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضلّه ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذي وكل به ﴿قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقَرِينُ﴾ وقرأ بعضهم «حتى إذا [جاءنا]»^(١)؛ يعني: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفح بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقَرِينُ﴾^(٢). والمراد بالمشرقين هاهنا هو: ما بين المشرق والمغرب وإنما استعمل هاهنا تغليياً كما يقال: القمران والعمران والأبوان، قاله ابن جرير وغيره^(٤).

ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

ولولا كثرة الباكين حولي على قتلاهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسلّي النفس عنه بالتأسي
قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسي وتسلية وتخفيف^(٥).

فقال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْرَكُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم.

وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٤٠﴾ أي: ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك.

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهب أنت ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الْآزَىٰ وَعَذَابَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم، ومملكه ما تضمنته صياصيهم! هذا معنى قول السدي^(٦) واختاره ابن جرير.

قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر قال: تلا فتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ فقال: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولن يري الله نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ. قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أرى ما يصيب أمته من بعده فما رئي ضاحكاً منبسطاً حتى

(١) كذا في (حم) وفي الأصل و(مع): «جانا».

(٢) وهي قراءة متواترة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتمه وسنده مرسل لأن سعيداً رواه بلاغاً.

(٤) ذكره الطبري بمعناه.

(٥) زيادة من (حم).

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

قبضه الله ﷻ^(١)، وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة نحوه^(٢)، ثم روى ابن جرير، عن الحسن نحو ذلك أيضاً^(٣).

وفي الحديث: «النجوم أمانة للسماء فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون»^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥) أي: خذ القرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه لشرف لك ولقومك، قال ابن عباس ومجاهد وقاتادة والسدي وابن زيد^(٦)، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه، وأورد البغوي ههنا حديث الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»^(٧). رواه البخاري^(٨)، ومعناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم، وقيل معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٩) [الأنبياء] وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١٠) [الشعراء].

﴿وَسَوْفَ تَسْتَخْلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له؟ وقوله: ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يَعْْبُدُونَ﴾^(١١) أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا»^(١٢).

- (١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، ورجاله ثقات لكنه مرسل.
- (٢) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة به وهو مرسل أيضاً.
- (٣) أخرجه الطبري من طريق أبي الأشهب عن الحسن وهو مرسل أيضاً، ويتقوى بسابقه.
- (٤) أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (الصحيح، فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه ح ٢٥٣١).
- (٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «إن القرآن شرف لك» وأخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة (المصنف ٤٥٦/١١) بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسنده صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.
- (٦) أخرجه البغوي من طريق شعيب عن الزهري به (معالم التنزيل ١٤٠/٤) وسنده صحيح.
- (٧) أخرجه البخاري من طريق شعيب به (الصحيح، المناقب، باب مناقب قريش ح ٣٥٠٠).
- (٨) أخرجه الطبري من طريق مجاهد به، وسنده ضعيف لأن مجاهداً لم يسمع من ابن مسعود، والقراءة شاذة تفسيرية. ويتقوى بالآثار التالية:

وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي عن ابن مسعود^(١)، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا^(٢) له، واختار ابن جرير الأول.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْكُمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عِهْدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُتَّهِدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عبده ورسوله موسى ﷺ أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظماً كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيِّهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم: ﴿يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ﴾ أي: العالم، قاله ابن جرير^(٣).

وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يعدون موسى ﷺ إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عِهْدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّْا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْعُونِ لِيَ آلِيَّ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٦﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَا يَكَادُ يَبِينُ ﴿٥٧﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّنِينَ ﴿٥٨﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٠﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً

(١) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الضحاك عن ابن مسعود وهو لم يلق ابن مسعود أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه وهو لم يلق ابن مسعود.

(٢) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن، وسنده معضل.

(٣) ذكره الطبري بمعناه.

مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء^(١).

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك؛ يعني: موسى وأتباعه فقراء ضعفاء وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿[النازعات]﴾.

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين، وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن أم ههنا بمعنى: بل، ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها «أما أنا خير من هذا الذي هو مهين»^(٢).

قال ابن جرير: ولو صَحَّتْ هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار فإنهم قرأوا ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ على الاستفهام^(٣).

(قلت): وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة والسدي: يعني ضعيف^(٤).

وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال^(٥) ﴿وَلَا يَكَاذُ يُونُسُ﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عبي حصر.

قال السدي: ﴿وَلَا يَكَاذُ يُونُسُ﴾ أي: لا يكاد يفهم.

وقال قتادة والسدي وابن جرير: يعني عبي اللسان^(٦).

وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمّله على هذا الكفر والعناد وهو ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يهر أبصار ذوي الألباب.

وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب. بل هو المهين الحقير خلقة وخلقاً ودينياً، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد.

وقوله: ﴿وَلَا يَكَاذُ يُونُسُ﴾ افتراء أيضاً فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٣٥ وهي قراءة شاذة تفسيرية.

(٣) ذكره الطبري بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٥) ذكره الطبري بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري بالسند المتقدم عن قتادة، وأخرجه أيضاً بالسند المتقدم عن السدي بلفظ: «الكلام».

جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله ﷻ أن يحلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له [ذلك] ^(١) في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُوْلُكَ يَمْوِسُ﴾ [طه: ٢٦] ويتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يُعاب بها ولا يُذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل، فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويح على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي. قاله ابن عباس وقتادة ^(٢) وغير واحد ﴿أَوْ جَلَّةٌ مَّعَهُ الْمَلَكِيُّكُمُ الْمُفْتَرِينَ﴾ أي: يكتفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر المعنوي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٣) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أسخطونا ^(٣).

وقال الضحاك عنه: أغضبونا، وهكذا قال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين ^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد الله بن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبي، عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له» ثم تلا ﷻ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٥).

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله، فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٦).

وقال عمر بن عبد العزيز رحمته الله: وجدت النعمة مع الغفلة، يعني: قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ^(٧).
وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ ^(٨).

(١) زيادة من (حم) و(مع).

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس ويتقوى برواية قتادة التي أخرجها الطبري بالسند المتقدم عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويتقوى بسابقه ولاحقه فقد أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٤٥.

(٦) سنده ضعيف لضعف يحيى بن عبد الحميد الحماني.

قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عبرة لمن بعدهم^(١).

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِثَّةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَوَلِمَ لِّلْسَاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُمْ لَكُومٌ عِدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ إِلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ قال غير واحد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك: [يضعون]^{(٢)(٣)}؛ أي: أعجبوا بذلك. [وقال قتادة: يجزعون ويضحكون]^(٤).

وقال إبراهيم النخعي: يعرضون^(٥)، وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ، فيما بلغني، يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٦٨﴾﴾... ﴿الآيات [الأنبياء].﴾

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبيري التميمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله الزبيري: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد: عُزيراً، والنصارى تعبد: المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبيري، ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كلُّ من أحبَّ أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» فأنزل الله ﷻ:

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) كذا في (حم) و(مح) والطبري، وفي الأصل والطبعات صحف بلفظ: «يضحكون».

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وأخرجه الطبري بسند ضعيف لإيهام شيخه ولكنه يتقوى بما سبق.

(٤) زيادة من (حم) و(مح) وأخرجه الطبري بالسند الصحيح المتقدم.

(٥) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء] أي: عيسى وعُزَيْر ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله ﷻ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٧﴾﴾... [الآيات [يوسف]]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه يعبد من دون الله، وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يصدون أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِثَّةً فِي الْأَرْضِ يَخْتَفُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّهُ لَوَعْلَمَ لِلسَّاعَةِ ﴿٦٠﴾﴾ أي: ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول: ﴿فَلَا تَمَتَّرْتُم بِهَا وَأَنْتُمْ عَنْ هَٰذَا صَرِطٌ مُّتَقَرِّمٌ ﴿٦١﴾﴾^(١).

وذكر ابن جرير من رواية العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٦٢﴾﴾... [الأنبياء] إلى آخر الآيات. فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله» فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصراني عيسى ابن مريم رباً؟ فقال الله تعالى: ﴿مَا صَرَفْنَاهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٦٣﴾﴾^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي رزين، عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصاري، قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألتني عنها رجل قط، ولا أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أو لم يفتنوا لها فيسألوا عنها؟ ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا أن لا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفتنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها.

قال: نعم إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أن النصراني تعبد عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام، وما تقول في محمد ﷺ؟ فقالوا: يا محمد أأنت تزعم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنت صادقاً كان آلهتهم لكما يقولون. قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون ﴿وَإِنَّهُ لَوَعْلَمَ لِلسَّاعَةِ ﴿٦٠﴾﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي أحمد مولى الأنصار، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٣٥٨/١، وسنده ضعيف لأن ابن إسحاق رواه بلاغاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٨٥/٥ - ٨٦ ح ٢٩١٨) وحسن سنده محققوه.

«يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» فقالوا له: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبد كما عبد قوم عيسى عيسى ﷺ. ونحو هذا قال قتادة^(٣): وقوله: ﴿وَقَالُوا أَلَّهِتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾. قال قتادة: يقولون آلهتنا خير منه وقال قتادة: قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَقَالُوا أَلَّهِتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا﴾ (٤) يعنون محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية، لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها وقد قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥). وقد رواه الترمذي وابن ماجه وابن جرير من حديث حجاج بن دينار به، ثم قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه^(٦)، كذا قال.

وقد روي من وجه آخر عن أبي أمامة رضي الله عنه بزيادة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملي، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبد الرحمن [السامي]^(٧)، عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال حماد: لا أدري رفعه أم لا؟ قال: ما ضلَّت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلَّت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٨).

(١) في سننه أبو أحمد مولى الأنصار لم أعرف من هو، ولا يضر لأنه توبع كما في الرواية السابقة حيث تابعه أبو يحيى مولى ابن عقيل الأنصاري، فيكون الإسناد حسناً لغيره.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند رجاله ثقات من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد لكنه مرسل ويتقوى بالمرسل الآتي.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند رجاله ثقات لكنه مرسل ويتقوى بالمرسل السابق فكلاهما يقوي أحدهما الآخر.

(٤) أخرجه الطبري من طريق قتادة عن أبي بن كعب وليس عن ابن مسعود وقاتة لم يدركهما فسنده منقطع، والقراءة شاذة تفسيرية.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٦/٥٤٠ ح ٢٢٢٠٤) قال محققوه: حسن بطرقه وشواهد.

(٦) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الزخرف (ح ٣٢٥٣) وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب اجتناب الدرع والجدل (ح ٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٥٩٣)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/٤٤٧).

(٧) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحف إلى: «السامي».

(٨) يشهد لشقه الأخير سابقه، ولا يضر تردد حماد في رفعه.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عبادة بن عباد، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صبَّ على وجهه الخل، ثم قال ﷺ: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإنه ما ضلَّ قوم قط إلا أوتوا الجدل» ثم تلا ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^(١).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى عليه الصلاة والسلام. ما هو إلا عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة. ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أي: بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾. قال السدي: يخلقونكم فيها^(٢).

وقال ابن عباس وقتادة: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضكم بعضاً^(٣)، وهذا القول يستلزم الأول.

قال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَعَلَّمُ لِلْسَّاعَةِ﴾ تقدم تفسير ابن إسحاق^(٤) أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام، وفي هذا نظر وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبير، أن الضمير في وإنه عائد على القرآن^(٥)، بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ثم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٦) يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا [النساء: ١٥٩] ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى ﴿وَأَنْتُمْ لَعَلَّمُ لِلْسَّاعَةِ﴾ أي: أمانة ودليل على وقوع الساعة.

قال مجاهد: ﴿وَأَنْتُمْ لَعَلَّمُ لِلْسَّاعَةِ﴾ أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم ﷺ قبل يوم القيامة^(٧)، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم^(٨)، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف جداً لأن جعفر وهو ابن الزبير: متروك (التقريب ص ١٤٠).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بلفظ: «خلفا منكم».

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) تقدم في تفسير بداية هذه الآية.

(٥) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن.

(٦) زيادة من (حم) و(مح).

(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه البستي بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس عن أبي هريرة، وأخرجه الثوري بسند حسن من =

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا﴾ أي: لا تشكُّوا فيها أنها واقعة وكائنه لا محالة ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ أي: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي: عن اتباع الحق ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنسوة ﴿وَلَا يُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية، وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن بعض ههنا بمعنى كل، واستشهد بقول لبيد الشاعر حيث قال:

نزال أمكنة إذا لم أرضها
أو يعتلق بعض النفوس حمامها^(١)

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس.

قال ابن جرير: إنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها^(٢)، وهذا الذي قاله محتمل.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما جئتكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٤) أي: أنا وأنتم عبيد له فقراء مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب ﷻ وحده.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَهِ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٦) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١٧) يَبْعَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتِلْكَ الْأَيَّاتِ وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٢٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُي الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٣).

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإنها كائنه لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

وقوله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (١٧) أي: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله ﷻ فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

= طريق أبي رزين عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند صحيح عن أبي مالك والحسن، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(١) استشهد به الطبري وهو في ديوان لبيد ﷻ ص ٣١٣.

(٢) ذكره بنحوه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي رضي الله عنه ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة، فذكر خليله فقال: اللهم إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أنني ملائكتك، اللهم فلا تضله بعدي حتى تربه مثلما أريتني، وترضى عنه كما رضيت عني، فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكك كثيراً وبكى قليلاً قال: ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال: ليشن أحكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك. ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أنني غير ملائكتك. اللهم فلا تهده بعدي حتى تربه مثل ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي.

قال: فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليشن كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بش الأخ وبش الصاحب وبش الخليل^(١)! رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين^(٢).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن أحمد، عن هشام بن عبد الله بن كثير، حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقعة عن معافي، حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي أحبته في»^(٣).

وقوله: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فيياس الناس منها غير المؤمنين^(٤).

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نظرائكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تتنعمون وتسعدون وقد تقدم في سورة الروم.

﴿يُعَاطَفُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي: زبادي آنية الطعام ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي آنية الشراب؛ أي: من

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومته، وسنده ضعيف لضعف الحارث وهو الأعور الكوفي كما في التقريب.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) ذكره ابن منظور (مختصر تاريخ دمشق ٧٩/٢٧) وسنده ضعيف لضعف حكيم بن نافع فهو منكر الحديث. (لسان الميزان ٣٤٤/٢).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومته، وفي آخره بلفظ: «غير المسلمين»، وسنده مرسل.

ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ وقرأ بعضهم: «تشتهيه الأنفس». ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي: طيب الطعام والريح وحسن المنظر.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد قال: إن عكرمة مولى ابن عباس أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحيفة من ذهب، ليس فيها صحيفة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله، شهوته في آخرها كشهوته في أولها، ولو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطي لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً»^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحي، حدثني عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هريرة ؓ أن أبا أمامة ؓ حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر الجنة فقال: «والذي نفس محمد بيده، ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر فيتحول الطعام الذي في فيه على الذي انتهى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن هو ابن موسى، حدثنا سكين بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضريير، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من له لسبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلاثمائة خادم ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحيفة - ولا أعلمه إلا قال: من ذهب في كل صحيفة لون ليس في الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء في كل إناء لون ليس في الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه ليقول: يا رب لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أي: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً.

ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَلَكُمْ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْفِيتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب، يعني: الصفار، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ؓ قال: قال

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثته، وسنده مرسل.

(٢) سنده ضعيف لأن الحسن لم يلق أبا هريرة ؓ، (المراسيل لابن أبي حاتم ص ٣٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٦/٥٤٤ - ٥٤٥ ح ١٠٩٣٢) وضعف سنده محققوه.

رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة، فيكون له حسرة فيقول: ﴿لَوْ أَنِّي هَدَيْتَنِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيكون له شكرياً» قال: وقال رسول الله ﷺ ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكاfer يرث المؤمن منزله من النار. والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة. وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤). وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الأنواع ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتمام النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُورُونَ ﴿٨٠﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٦) أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم. وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا فجزوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ﴾ وهو خازن النار.

قال البخاري: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ (٧٦) أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وقال: ﴿وَنَجَّيْنَاهَا الْأَشْقَى﴾ (٧٧) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُرَى ﴿٧٨﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٩﴾ [الأعلى] فلما سألو أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾. قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم قال: إنكم ماكثون (٧٩). رواه ابن أبي حاتم؛ أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ثم ذكر سبب شقتهم، وهو مخالفتهم للحق ومعادنتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة. واندموا حيث لا تنفعكم الندامة، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩).

(١) سنده ضعيف لأن الأعمش لم يسمع من أبي صالح (المراسيل لابن أبي حاتم ص ٧٢) وأبو بكر بن عياش في حفظه مقال.

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ح ٤٨١٩).

(٣) أخرجه الثوري والطبري والحاكم (المستدرک ٢/ ٤٤٨) كلهم من طريق عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قال مجاهد: أرادوا كيد شر، فكدناهم^(١)، وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل] وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى وردّ وبال ذلك عليهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: سرهم وعلاقتهم ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ مَلَكٌ أَلَمَ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا هَنَآءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴿﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لأنني عبد من عبده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر] وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الأنفين، ومنهم سفيان الثوري والبخاري^(٢)، حكاه فقال: ويقال: أول العابدين الجاحدين من عبد يعبد^(٣)، وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، حدثني ابن أبي ذئب، عن [ابن قسيط]^(٤)، عن بَعَجَةَ بن زيد الجهني أن امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضاً، فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن ترحم، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وقال: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] قال: فوالله ما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها تردّ، قال يونس: قال ابن وهب: عبد استكف^(٥). وقال الشاعر^(٦):

- (١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
- (٢) حكاه البخاري بلفظه: (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَوَدَّاعُوا يَمْلِكُ لِقَاضٍ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] بعد حديث رقم (٤٨١٩).
- (٣) وضحه الطبري بقوله: ووجهوا معنى «العابدين» إلى المنكرين الآبين، من قول العرب: قد عبد فلان من هذا الأمر، إذا أئف منه وغضب وأباه، فهو يعبد عبداً.
- (٤) كذا في تفسير الطبري وهو يزيد بن عبد الله بن قسيط (التقريب ص ٦٠٢) وفي الأصل: «أبي قسيط».
- (٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح، وابن أبي ذئب هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة (التقريب ص ٤٩٣).
- (٦) هو المرقش الأصغر كما في الشعر والشعراء ٣١٥/١.

متى ما يشأ ذو الودّ يضرّم خليله ويغبد عليه لا محالة ظالماً^(١) وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل اللهم إلا أن يقال: أن إن ليس شرطاً وإنما هي نافية، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين^(٢). وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي^(٣).

وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٤).

وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي: أول من عبده ووحده وكذبكم^(٥).

وقال البخاري: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ الأنفين وهما لغتان رجل عابد وعبد^(٦)، والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع.

وقال السدي: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً ولكن لا ولد له^(٧)، وهو اختيار ابن جرير، وردّ قول من زعم أن إن نافية. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له فلا ولد له. وقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُهُمْ يَخْرُسُونَ﴾ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُونَ﴾ في دنياهم ﴿حَقٌّ يُلْقَوْنَ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة؛ أي: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم. قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أي: هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبده أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام] أي: هو المدعو الله في السموات والأرض.

﴿وَبَارِكُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو خالقها ومالكها، والمتصرف فيها بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك؛ أي: استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً. ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿وَالْيَوْمَ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(١) الشاهد فيه: ويغبد، وقد استشهد به الطبري. (٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بمعناه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح عن معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) حكاه البخاري (الصحيح، التفسير، سورة الزخرف بعد حديث رقم ٤٨١٩).

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَعَةَ﴾ أي: لا يقدرון على الشفاعة لهم ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء منقطع؛ أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل. ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وقال محمد ﷺ، قيله؛ أي: شكاً إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه فقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان] وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود رضي الله عنه ومجاهد وقتادة^(١)، وعليه فسر ابن جرير.

قال البخاري: وقرأ عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه: (وقال الرسول يا رب)^(٢).

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال [فأبر الله]^(٣) قول محمد ﷺ^(٤). وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه ﷻ^(٥).

ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَهُ يَرْبِّ﴾ قراءتين إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما: أنه معطوف على قوله تبارك وتعالى: ﴿تَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠]. والثاني: أن يقدر فعل وقال قيله، والثانية الخفض وقيله عطفاً على قوله: ﴿وَعِنْدُ عِلْمِ السَّاعَةِ﴾ وتقديره: وعلم قيله^(٦).

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب. آخر تفسير سورة الزخرف، والله الحمد والمنة.

(١) قول مجاهد تقدم في الرواية السابقة، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (الصحيح، التفسير، سورة الزخرف بعد حديث ٤٨١٩) ووصله الحافظ ابن حجر بسنده إلى علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه (تغليق التعليق ٣٠٨/٤).

(٣) كذا في تفسير آدم بن أبي إياس والطبري عن مجاهد، وفي الأصل صحف إلى: «ما يراه».

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٥) تقدم قبل رواية البخاري.

(٦) ذكره الطبري بمعناه.

سُورَةُ الدُّخَانِ

وهي مكية

قال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عمر بن أبي خثعم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم يضعف، قال البخاري: منكر الحديث^(١).

ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبي المقدم، عن الحسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له» ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يضعف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة رضي الله عنه، كذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد^(٢).

وفي مسند البزار من رواية أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني قد خبأت خبأ فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدخ. فقال: «اخسأ ما شاء الله كان» ثم انصرف^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَالْكَتَبِ الْأَمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ﴿٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَ ثَوَابِكُمْ ﴿٨﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر كما قال تعالى:

(١) أخرجه الترمذي بسنده ومثله ونقده (السنن، فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل حم الدخان ح ٢٨٨٨)، وسنده ضعيف لضعف عمر بن أبي خثعم، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومثله ونقده (المصدر السابق ح ٢٨٨٩) وسنده ضعيف كما قرر الترمذي، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٤٧).

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٣٣٩٩)، وأخرجه الطبراني من طريق زياد بن الحسن بن الفرات عن أبي الطفيل (المعجم الكبير ٨٨/٥ ح ٤٦٦٦) وفي سنده زياد بن الحسن بن الفرات وهو صدوق يخطئ (التقريب ص ٢١٩) ولد شاهد في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه سيأتي تخريجه في الآية (١٠) من هذه السورة الكريمة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر]، وكان ذلك في شهر رمضان كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد ذكرنا في الأحاديث الواردة في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة^(١) فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان، والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري، أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال: إن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى»^(٢). فهو حديث مرسل ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده. وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف^(٣).

وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم لا يبدل ولا يغير، ولهذا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات فإن الحاجة كانت ماسة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [١] رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقها ومالكها وما فيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم متحققين ثم قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [٩] فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ [١٠] يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ [١١] رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ [١٢] أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ [١٣] ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ [١٤] إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ [١٥] يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ [١٦].

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون؛ أي: قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال تعالى متوعداً لهم ومهدداً: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [١٠].

قال سليمان بن مهران الأعمش: عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، عن مسروق قال: دخلنا المسجد؛ يعني: مسجد الكوفة عند أبواب كنده، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ

(١) أخرجه الطبري بسند فيه النضر بن إسماعيل البجلي ليس بالقوي.

(٢) أخرجه الطبري من طريق آدم بن أبي إياس عن الليث به، وسنده ضعيف لإرساله.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سلمة عن أبي مالك، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

يُدْخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ تَدْرُونَ مَا ذَلِكَ الدُّخَانُ؟ ذَلِكَ دُخَانٌ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ شِبْهُ الزَّكَامِ، قَالَ: فَأَتَيْنَا ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَكَانَ مُضْطَجِعاً، فَفَزَعَ فَقَعَدَ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ لِنَبِيِّكُمْ عليه السلام: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [ص] إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ سَاحِدَتَكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنْ قَرِيشاً لَمَّا أَبْطَأَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَاسْتَعْصَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم دَعَا عَلَيْهِمْ بِسَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ، وَجَعَلُوا يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَرُونَ إِلَّا الدُّخَانَ، وَفِي رَوَايَةٍ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَارْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُضِرِّ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ، فَاسْتَسْقَى صلى الله عليه وسلم لَهُمْ فَسَقُوا فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَلَيْهِ ذُونَ ﴿١٥﴾﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: فَيُكْشَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَمَّا أَصَابَهُمُ الرِّفَاحِيَّةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: فَقَدْ مَضَى خَمْسَةُ: الدُّخَانُ وَالرُّومُ وَالْقَمَرُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ^(١)، وَهَذَا الْحَدِيثُ مَخْرُجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَهُوَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا، وَعِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدَّةٍ عَنِ الْأَعْمَشِ بِهِ^(٢)، وَقَدْ وَافَقَ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ بِهَذَا، وَأَنَّ الدُّخَانَ مَضَى: جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ كَمُجَاهِدٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالضَّحَّاكَ وَعَطِيَةَ الْعَوْفِيِّ^(٣)، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مَسَافِرٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَسَّانٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهْيَعَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ قَالَ: كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ^(٤)، وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ جَدًّا بَلْ مُنْكَرٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: لَمْ يَمُضِ الدُّخَانُ بَعْدَ بَلِّ هُوَ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ كَمَا تَقْدُمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَرِيحَةَ حَذِيفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغَفَارِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ عُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكِرُ السَّاعَةَ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ وَالدَّابَّةُ وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالدِّجَالُ وَثَلَاثُ خُسُوفٍ: خُسُوفُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ بِهِ مُخْتَصِرًا عَلَى الشُّطْرِ الْأَخِيرِ فِي سَطْرِ (الصَّحِيحِ، التَّفْسِيرِ، سُورَةُ الدُّخَانِ، بَابُ ﴿فَارْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدُّخَانُ: ١٥ ح ٤٨٢٠])، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الضَّحَى بِهِ كَامِلًا بِنَحْوِهِ (الصَّحِيحِ، صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ، بَابُ الدُّخَانِ ح ٢٧٩٨).

(٢) سَنَنُ التِّرْمِذِيِّ، التَّفْسِيرِ، بَابُ وَمِنْ سُورَةِ الدُّخَانِ (ح ٣٢٥٤)، وَالسَّنَنِ الْكُبْرَى، التَّفْسِيرِ (ح ١١٤٨١) وَتَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ.

(٣) أَخْرَجَهُ آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَّاسٍ وَالتَّبْرِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ طَرِيقِ عَوْفِ الْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَأَخْرَجَهُ الْبُسْتِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنِ الضَّحَّاكَ.

(٤) سَنَدُهُ ضَعِيفٌ لِإِسْرَائِيلَ وَمَا قِيلَ فِي ابْنِ لَهْيَعَةَ.

بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبیت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه^(١)، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خبأت لك خبأ» قال: هو الدخ، قال ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك» قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد: كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يقرطمون العبارة، ولهذا قال هو الدخ؛ يعني: الدخان، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية فقال ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»^(٢).

ثم قال ابن جرير: وحدثني عصام بن رواد بن الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن أبي سعيد الثوري، حدثنا منصور بن المعتمر، عن ربيعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقبل معهم إذا قالوا، والدخان - قال حذيفة رضي الله عنه يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يَفْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ - يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخره وأذنيه ودبره».

قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً وإنما لم أشهد له بالصحة لأن محمد بن خلف العسقلاني، حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا، قال: فقلت: أقرأه عليه وأنت حاضر فأقر به؟ فقال: لا، فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جاءني به قوم فعرضوه عليّ، وقالوا لي: اسمعه منا، فقرءه عليّ، ثم ذهبوا به فحدثوا به عني أو كما قال^(٣)، وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث ههنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه في أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما في أول سورة بني إسرائيل في ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي، حدثني ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة والثالثة الدجال»^(٤). ورواه الطبراني عن هاشم بن

(١) صحيح مسلم، الفتن، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (ح ٢٩٠١).

(٢) صحيح البخاري، الجهاد، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي؟ (ح ٣٠٥٥) وصحيح مسلم، الفتن، باب ذكر ابن صياد (ح ٢٩٣٠).

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته ونقده، وعليه فسده ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لأن محمد بن إسماعيل بن عياش لم يسمع من أبيه. (التقريب ص ٤٦٨) ولمعظمه شواهد تقدمت في الصحيحين.

يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش به^(١) وهذا إسناده جيد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه الزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه». ورواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه موقوفاً^(٢)، وروى سعيد بن عوف، عن الحسن مثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي رضي الله عنه قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام وتنفخ الكافر حتى ينفذ^(٣).

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن [البيلماني]^(٤)، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل مسمع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد؛ أي: المشوي على الرضف^{(٥)(٦)}.

ثم قال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عليه، عن ابن جريج، عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت^(٧). وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن أبي عمر، عن سفيان، عن عبد الله بن أبي يزيد، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن ابن عباس فذكره، وهذا إسناده صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع، ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾^(٨) أي: بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ

(١) المعجم الكبير ٢٩٢/٣.

(٢) سنده ضعيف لأن الحسن لم يسمع من أبي سعيد الخدري.

(٣) سنده ضعيف لضعف الحارث وهو الهمداني الأعور وقد كذبه الشعبي كما في التقريب.

(٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صُحِفَ إلى: «السلماي».

(٥) أي: الحجارة المحممة.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن البيلماني.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج به وصححه ووافقه

الذهبي. (المستدرک ٤٥٩/٢).

يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٦﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٧﴾ [الطور] أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام] وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم]. وهكذا قال ههنا: ﴿أَفَنُفِئُّهُمْ الذِّكْرَ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنُ﴾ ﴿١٤﴾ يقول: كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه ﴿وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنُ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْأَشْتَنُ وَأَفَنُ لَهُ الذِّكْرَ﴾ الآية [الفجر: ٢٣] وكقوله ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأُذِجُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَفَنُ لَهُمُ التَّنَافُثُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾ [سبا].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ يحتمل معنيين:

(أحدهما): أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ [المؤمنون] وكقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

(والثاني): أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرّون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]. ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أفلحوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُوذَنَّ فِي مَلِئْنَا قَالِ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جِئْنَا اللَّهَ مِنهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم.

وقال قتادة: إنكم عائدون إلى عذاب الله^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم^(٢)، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب، وهو محتمل، والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) تقدم تخريجه في أول تفسير هذه الآيات المفسرة.

قال ابن جرير: حدثني ابن عليه، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة^(١)، وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه^(٢).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِيَّيْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيْ مَا يَكُمُ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾ وَإِيَّيْ عُدْتُ بِرَبِّي وَرَيْكَ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَرُّؤُسُؤُنَا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴿١١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَسْرِبِعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿١٣﴾ وَأَتْرَكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿١٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُبِينٌ ﴿٢٣﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه عليه الصلاة والسلام ﴿أَنْ أَذُوا إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ﴾ كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهَلَكَةِ﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِيَّيْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما أبلغكموه. وقوله: ﴿وَإِنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِيَّيْ مَا يَكُمُ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات.

﴿وَإِيَّيْ عُدْتُ بِرَبِّي وَرَيْكَ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس وأبو صالح: هو الرجم باللسان^(٣) وهو الشتم.

وقال قتادة: الرجم بالحجارة^(٤) أي: أعوذ بالله الذي خلقتني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل.

﴿وَإِنْ لَرُّؤُسُؤُنَا لِي فَاعْتَرِلُونِ﴾ أي: فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا، فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم وأقام حجج الله تعالى عليهم. كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن البصري.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بما أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

وَأَسَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩] وهكذا قال ههنا: ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَتُولَايَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿٩١﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ ﴿٩٢﴾ [طه].

وقوله ههنا: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا وبشره بأنهم جند مغرقون فيه وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى.

وقال ابن عباس: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ كهيئته وامضه^(١).

وقال مجاهد: رهوًا طريقًا يبسًا كهيئته^(٢). يقول: لا تأمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم، وكذا قال عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد، وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ ﴿٩٤﴾ وَزُرُوعٍ ﴿٩٥﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المنابر^(٤).

وقال ابن لهيعة: عن وهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار سخر الله تعالى له كل نهر بين المشرق والمغرب وذلل له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمدده فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله تبارك وتعالى له الأرض عيونًا، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله جل وعلا أوحى الله تعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره^(٥). وقال في قول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٩٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٩٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٩٧﴾ قال: كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسع خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزروع ما بين الجبلين

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «سمتاً». اهـ. أي: طريقاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) قول عكرمة وسماك أخرجه الطبري بسند حسن من طريق شعبة عن سماك عن عكرمة، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٤) أخرجه البستي بسند حسن من طريق إسماعيل بن أمية عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند جيد من طريق سالم الأفطس عن سعيد بن جبير.

(٥) في سنده عبد الله بن وهب فيه مقال وفيه تدليس لم يقبل إلا إذا صرح بالسماع وقد عنعنه.

(٦) في الأصل (مح) و(حم): بلفظ: «فأخرجناهم». اهـ. وهو خلط مع سورة الشعراء آية ٥٧.

كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلصها^(١).

﴿وَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهَيْنَ﴾ (٧) أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلموا ذلك جميعه في صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٨) [الشعراء]. وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَثَّلَ لَكُم رِيبُكَ الْحَسَقُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٧) [الأعراف].

وقال ههنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١٨) وهم بنو إسرائيل كما تقدم. وقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصري، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني يزيد الرقاشي، حدثني أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقدها وبكى عليه». وتلا هذه الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدتهم فتبكي عليهم^(٢). ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذي^(٣).

وقال ابن جرير: حدثني يحيى بن طلحة، حدثني عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد يعني الزبيري، حدثنا العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً رضي الله عنه هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من قبلك، إنه ليس من

(١) الخبر تمة لسابقه.

(٢) مسند أبي يعلى ١٦٠/٧ وسنده ضعيف لضعف موسى الرقاشي.

(٣) سنده كسابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لإرساله، ومطلعه له شواهد صحيحة.

عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ثم قرأ علي ﷺ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (١).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريم، حدثنا طلق بن [غنام]^(٢)، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبیر قال: أتى ابن عباس رجل فقال: يا أبا العباس رأيت قول الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (٣) فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقدته بكى عليه، وإذا فقدته مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض^(٣)، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا^(٤).

وقال سفيان الثوري: عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان يقال: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً^(٥)، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبیر وغير واحد، وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً^(٦)، قال: قلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسيحه فيها دوي كدوي النحل؟ وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكي عليهم السماء والأرض^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين، قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدرى ما بكاء السماء؟ قلت: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى بن زكريا عليه الصلاة والسلام لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً، وإن الحسين بن علي لما قتل احمرت السماء^(٨).

وحدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو زنيج، حدثنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل الحسين بن علي ﷺ احمرت آفاق السماء أربعة أشهر، قال يزيد:

(١) سنده ضعيف لضعف عباد بن عبد الله وهو الأسدي الكوفي (التقريب ص ٢٩٠).

(٢) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل صحف إلى: «غشام».

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتمه، وسنده حسن، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق الفضيل بن عياض عن منصور به.

(٤) أخرجه الطبري من طريق العوفي به وسنده ضعيف ويتقوى بسابقه.

(٥) سنده ضعيف لأن أبا يحيى القتات لين الحديث (التقريب ص ٦٨٤).

(٦) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات من طريق منصور عن مجاهد لكنه مرسل.

(٧) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد والطبري. (٨) سنده ضعيف لإرسال إبراهيم.

واحمرارها: بكاؤها^(١)، وهكذا قال السدي الكبير^(٢)، وقال عطاء الخراساني: بكاؤها أن تحمر أطرافها^(٣). وذكروا أيضاً في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذٍ إلا وجد تحته دم عبيط، وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة، وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سخف الشيعة وكذبهم ليعظموا الأمر ولا شك أنه عظيم، ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين عليه السلام ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب عليه السلام قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكان المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة، يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم خسفت الشمس فقال الناس: خسفت لموت إبراهيم! فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته^(٤).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٦٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٦١﴾﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أي: مستكبراً جباراً عنيداً كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وقوله: ﴿فَأَسْتَكَبرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦] من المسرفين؛ أي: مسرفاً في أمره سخييف الرأي على نفسه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُم عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾﴾ قال مجاهد: ﴿أَخْرَجْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على من هم بين ظهريه^(٥).

وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالماً^(٦)، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْحُوسٌ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي: أهل زمانه ذلك كقوله لمريم عليها السلام: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أي: في زمانها فإن خديجة عليها السلام إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة عليها السلام على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

(١) سنده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد (التقريب ص ٦٠١).

(٢) أخرجه الطبري روايته لهذا المتن غير مقبولة لأن السدي يتشيع.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج عن عطاء، وسنده ضعيف لإرسال عطاء.

(٤) أخرجه الشيخان من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. (صحيح البخاري، الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس ح ١٠٤٣) وصحيح مسلم، الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف (ح ٩١٥).

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة وشبه فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يردُّ كما حلَّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تُبْعِ، وهم سبأ، حيث أهلكهم الله وخرَّب بلادهم وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد، وكذلك ههنا شبههم بأولئك وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت جُمير وهم: سبأ كلما ملك فيهم رجل سموهُ تُبْعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس.

ولكن اتفق أن بعض تابعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذي مضى الحيرة^(١)، فاتفق أنه مرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يقرونه بالليل فاستحيا منهم وكفَّ عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاها وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة، فنهياه عن ذلك أيضاً وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر، ثم كرَّ راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى اليهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون من الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام، فتهدَّ معه عامة أهل اليمن.

وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة^(٢)، وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا ومما لم نذكر. وذكر أنه ملك دمشق وأنه كان إذا استعرض الخيل صفَّت له من دمشق إلى اليمن. ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بلفظ: «حَيْرَ الحيرة».

(٢) ينظر سيرة ابن هشام ١٩/١.

قال: «ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدري تُبَعِّع لعيناً كان أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً؟»^(١) وقال غيره: «عزيز أكان نبياً أم لا؟»^(٢) وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن محمد بن حماد الظهراني عن عبد الرزاق. قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعاً: «عزيز لا أدري أنبياء أم لا؟ ولا أدري ألُعِنَ تُبَعِّعاً أم لا؟»^(٣) ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وكأنه والله أعلم كان كافراً ثم أسلم وتابع دين الكليم. على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح ﷺ، وحج البيت في زمن الجُرهميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن.

وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوبة عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضي الله عنه وكعب الأحبار وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تُبَعِّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَعِّعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك والله الحمد والمنة.

وقال سعيد بن جبير: كسا تُبَعِّع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه^(٤)، وتُبَعِّع هذا هو تُبَعِّع الأوسط، واسمه: أسعد أبو كريب بن ملكيكرب اليماني^(٥)، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة، ولم يكن في حِمْير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي في آخر الزمان اسمه أحمد، قال في ذلك شعراً واستودعه عند أهل المدينة، فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره وهو:

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله باري النسب
فلو مدَّ عمري إلى عمر	لكنت وزيراً له وابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه	وفرجت عن صدره كل غم

(١) أخرجه الحاكم من طريق عبد الرزاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/٣٦) وصدره صححه ابن عبد البر (جامع بيان العلم وفضله ٥٠/٢).

(٢) أخرجه أبو داود من طريق عبد الرزاق به (السنن، السنة، باب في التخيير بين الأنبياء ح ٤٦٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٣٩٠٨).

(٣) يشهد له ما رواه أبو داود في الحديث السابق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن تميم بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير وفيه تميم بن عبد الرحمن ذكره البخاري وابن أبي حاتم وسكتا عنه (الجرح والتعديل ٢/٤٤٢).

(٥) ينظر جمهرة أنساب العرب ص ٤٣٨.

وذكر ابن الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حُبي ولميس»، وروي حبي وتماضر ابنتي تُبّع، ماتتا وهما شهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. وقد ذكرنا في سورة سبأ شعراً في ذلك أيضاً.

قال قتادة: ذكر لنا أن كعباً كان يقول في تُبّع نُبِعَت نَعَتَ الرجل الصالح: ذمَّ الله تعالى قومه ولم يذمه. قال: وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لا تسبوا تُبّعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهيعة، عن أبي زرعة - يعني: عمرو بن جابر الحضرمي، قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبّعاً فإنه قد كان أسلم»^(٢).

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لهيعة به^(٣).

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بزة، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تُبّعاً فإنه قد أسلم»^(٤).

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري تُبّع نبياً كان أم غير نبى»^(٥) وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدري تُبّع كان لعيناً أم لا» فالله أعلم ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى المدني، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً^(٦). وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرني تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبي رباح لا تسبوا تُبّعاً فإن رسول الله ﷺ نهى عن سبه^(٧).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيْمٌ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمِيعٌ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾﴾ [ص] وقال تعالى:

(١) أخرجه الطبري من طريق قتادة به، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع عائشة رضي الله عنها وقول عائشة له شاهد يأتي في رواية الإمام أحمد وعبد الرزاق فقد روي من عدة طرق.

(٢) سيأتي تخريجه في الروايتين التاليتين.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن حسن بن موسى به، وقال محققوه: حسن لغيره (المسند ٣٧/٥١٩ ح ٢٢٨٨٠).

(٤) أخرجه الطبراني بسنده ومثته (المعجم الكبير ١١/٢٩٦ ح ٦٠١٣) قال الهيثمي: فيه أحمد بن أبي بزة ولم أعرفه، وبقيه رجاله ثقات. (مجمع الزوائد ٨/٧٦)، ولا يضر إذ يشهد له سابقه.

(٥) تقدم تخريجه وصحته قبل عدة روايات. (٦) تقدم تخريجه وصحته قبل عدة روايات.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومثته، وسنده مرسل ويتقوى بما سبق.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ١٥ ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ١٦ [المؤمنون].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٧ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين.

وقوله: ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ أي: لا ينفع قريب قريباً كقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١٨ [المؤمنون] وكقوله: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ١٩ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرَتُونَ﴾ ٢٠ أي: لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ ٢١ أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله ﷻ بخلقه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٢ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٢٣ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ٢٤ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ٢٥ ﴿كَغَلَى الْحَمِيمِ﴾ ٢٦ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٢٧ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ٢٨ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ٢٩ ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ٣٠.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٢٣ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ٢٤ أي: في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل^(١)، ولا شك في دخوله في هذا الآية، ولكن ليست خاصة به.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٢٣ ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ٢٤ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء ﷺ: قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر^(٢)؛ أي: ليس له طعام من غيرها.

قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معيشتهم^(٣)، وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ٢٥ ﴿كَغَلَى الْحَمِيمِ﴾ ٢٦ أي: من حرارتها ووراءتها.

وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ ٢٧ أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه، ابتدره سبعون ألفاً منهم.

(١) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات لكنه مرسل.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه الحاكم من طريق الأعمش به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٥١/٢).

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس، وأبو يحيى هو القتات لين الحديث كما في التقريب، وله شاهد مرفوع يقوي تقدم ذكره.

وقوله: ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره.

قال مجاهد: ﴿خَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: خذوه فادفعوه^(١).

وقال الفرزدق:

ليس الكرام بنا حليك أياهم حتى تُردَّ إلى عطية تُعْثَلُ^(٢)

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وسطها ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿[الحج] وقد تقدم أن الملك يضربه بمقموعة من حديد، فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه، أعادنا الله تعالى من ذلك. وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أي: لست بعزيز ولا كريم^(٣).

وقد قال الأموي في مغازيه: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل - لعنه الله - فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ فَاؤُكَ﴾ ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ فَاؤُكَ ﴿[القيامة] قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، ولقد علمت أنني أ منع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم، قال: فقتله الله يوم بدر وأذله وعيَّره بكلمته وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور] ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ لِبَاسُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني، فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: الله في الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: في الآخرة وهو الجنة، قد آمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيدته وسائر الآفات والمصائب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا في مقابل ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم، وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) ديوان الفرزدق ٧٢٢/٢ واستشهد به الطبري.

(٣) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس عليه السلام.

(٤) سنده ضعيف جداً لأن أبا بكر الهذلي متروك (التقريب ص ٦٢٥).

وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالريش وما يلبس على أعالي القماش ﴿مُتَقَلِّدِينَ﴾ أي: على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥١) أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جِئْنَهُنَّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ﴿كَانَتْ أَلْيَافُهُنَّ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس رضي الله عنه رفعه نوح قال: لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها^(١).

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (٥٥) أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ هذا استثناء يؤكد النفي فإنه استثناء منقطع، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت"^(٢). وقد تقدم الحديث في سورة مريم عليها الصلاة والسلام.

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغر، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً"^(٣). رواه مسلم عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به^(٤). هكذا يقول أبو إسحاق، وأهل العراق يقولون: أبو مسلم الأغر، وأهل المدينة يقولون: أبو عبد الله الأغر.

وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهمان، عن الحجاج هو ابن حجاج، عن [قتادة]^(٥)، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها ولا يبأس ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه"^(٦).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليم بن عبد الله الرقي، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي، عن يحيى بن

(١) سنده ضعيف لجهالة الراوي عن أنس رضي الله عنه. (٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة مريم آية ٣٩.

(٣) سنده صحيح.

(٤) صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة (ح ٢٨٣٧).

(٥) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل صحف إلى: "عبادة".

(٦) يشهد له سابقه في صحيح مسلم.

سعيد الأنصاري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر رضي الله عنه قال: سئل نبي الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ: «النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون»^(١). وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره، حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصري، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون»^(٢).

وقال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: هل ينام أهل الجنة؟ قال ﷺ: «لا، النوم أخو الموت»، ثم قال: لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه إلا الثوري ولا عن الثوري إلا الفريابي^(٣)، هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجّاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب ونجاهم من المرهوب، ولهذا قال: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٤) أي: إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(٥).

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٦) أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعلمون.

ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلماً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك.

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَابُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٧) [المجادلة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٨) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ^(٩) [غافر].

آخر تفسير سورة الدخان، والله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الأوسط ١/ ٥٠٢ ح ٩٢٣) ونسبه الهيثمي إلى الطبراني في الأوسط والبزار وقال رجال البزار رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٥) وصححه السيوطي في الدر المنثور، والألباني بطرقه (السلسلة الصحيحة ح ١٠٨٧).

(٢) في سننه عبد الله بن محمد بن المغيرة ضعفه العقيلي (الضعفاء الكبير ٢/ ٣٠١)، وابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٥/ ١٥٨) وقد تابعه محمد بن يوسف الفريابي كما في الرواية التالية:

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح ٣٥١٧) وحكمه كما في الرواية قبل السابقة.

(٤) صحيح البخاري، الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (ح ٦٤٦٧).

سُورَةُ الْجَانثِيَةِ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّهِ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَلَنَجَا بِهِ الْاَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة والأجناس، والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً لأنه به يحصل الرزق ﴿فَلَنَجَا بِهِ الْاَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.

وقولوه: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي: جنوباً وشمالاً ودبوراً وصباً، برية وبحرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح ومنها ما هو عقيم لا ينتج، وقال أولاً: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم يوقنون ثم يعقلون وهو ترقُّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَلَنَجَا بِهِ الْاَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيِّنَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً غريباً في خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ وَيَلِكُلْ أَفْأَكُ أَشِيرُ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ؕ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ؕآيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ؕ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ؕ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾

أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ثم قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ﴾ أي: أفاك في قوله، كذاب حلاف مهين أثيم في فعله وقلبه كافر بآيات الله ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتَ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ أي تُقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُعْرِضُ﴾ أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّهُ يَسْمَعُهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها ﴿فَيُفِيضُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُوًّا﴾ أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذته سخرياً وهزواً ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو^(١).

ثم فسّر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعني: القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهْنَ رَيْبَهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو المقلق الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلْيَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢)
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَلْيُهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥).

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها.

﴿وَلْيَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة من الأقاليم النائية القصية، ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به؛ أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ (٥٢) [النحل].

وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كل شيء هو من الله. وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك^(٢).

(١) صحيح مسلم، الإمارة، باب النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه في أيديهم (ح ١٨٦٩).


(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا الفريابي، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار والظلمة والثرى. قال: واث ابن عباس فأسأله، فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله مما خلق ذلك كله، فرجع إليه فأسأله فتلا ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾^(١). هذا أثر غريب وفيه نكارة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصرُّوا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهد. هكذا روي عن ابن عباس وقتادة^(٢).

وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا ينالون نعم الله تعالى^(٣).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله تعالى يجزيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٤) أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٥)  **وَأَيَّتَنَاهُمْ بَيْنَتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ^(٦) **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ^(٧) **إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَلَيْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ أَكْثَرِيهِمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ^(٨) **هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ^(٩).

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المأكول والمشرب ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم ﴿وَأَيَّتَنَاهُمْ بَيْنَتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجة ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين، وقال ههنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ

(١) أبو أراكة لم أقف على ترجمته، وضعف متنه الحافظ ابن كثير، وأخرجه عبد الرزاق من طريق حميد الأعرج أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بما أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٩﴾ أَي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ثم قال: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا تَنْهَى سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْرٍ خِمٌّْ وَعَمَلَ عَلَىٰ صَبْرٍ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [الحشر] وقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا تَنْهَى﴾ أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مؤمل بن إهاب، حدثنا [مكبر]^(١) بن عثمان التنوخي، حدثنا الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد الباجي، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن الله تعالى بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي الله من الفاسقين، قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله، ونهي الله لله لا يؤتمن عليهن إلا الله.

قال أبو القاسم رحمه الله: «كما أنه لا يجتنى من الشوك العنب كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار»^(٢). هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أنهم وجدوا حجراً بمكة في أس الكعبة مكتوب عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات أجل كما يجنى من الشوك العنب^(٣).

وقد روى الطبراني من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى، عن مسروق أن تميم الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٤).

(١) كذا في (مح) ولسان الميزان، وفي الأصل صحف إلى: «بكبر».

(٢) أخرجه ابن حبان من طريق مكبر بن عثمان به (المجروحين ٤١/٣) وسنده ضعيف لضعف مكبر بن عثمان التنوخي قال ابن حبان منكر الحديث جداً (ينظر لسان الميزان ٨٥/٦).

(٣) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١٩٦/١).

(٤) المعجم الكبير ٥٠/٢ وأخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام من طريق هشيم عن حصين عن أبي الضحى به فضائل القرآن ص ٧٩ رقم ١٨٢، وهذان الطريقتان يقوي أحدهما الآخر، إذا سمع مسروق تميم الداري.

ولهذا قال [تعالى]: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال^(١): ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلِئَلْجَزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أي: إنما ياتمر بهواه، فما رآه حسناً فعله وما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، عن مالك فيما روي عنه من التفسير لا يهوي شيئاً إلا عبده.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين:

أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، والآخر وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه.

والثاني: يستلزم الأول ولا ينعكس.

﴿وَنَحْمَ عَلَى سَعْيِهِ وَفَلْيَهْ وَيَجْعَلْ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَمْ يَدْرِهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَنْهُمْ مَائِدَتُنَا يَنْتَحِبْنَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِطَائِفَتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يَسْئَلُكُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية^(٢) المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون فأما الحديث الذي أخرجه صاحبنا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول تعالى يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره»^(٣) وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً فقال: حدثنا أبو كريب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون إنما

(١) زيادة من (مح).

(٢) أي: الذين يقولون بالدور والتسلسل وهو اعتقاد باطل.

(٣) صحيح البخاري، التفسير، سورة الجاثية (ح٤٨٢٦) وصحيح مسلم، الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر (ح٢٢٤٦)، وسنن أبي داود، الأدب، باب في الرجل يسب الدهر (ح٥٢٧٤)، والسنن الكبرى للنسائي (ح١١٦٨٧).

يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا يميتنا ويحيينا، فقال الله تعالى في كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ويسبون الدهر فقال الله ﷻ: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»^(١)، وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شريح بن النعمان، عن ابن عيينة مثله. ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار» وأخرجه صاحبنا الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به^(٢).

وقال محمد بن إسحاق: عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: قال «يقول الله تعالى: استقرضت عبدي فلم يعطني وسبني عبدي، يقول وادهراه وأنا الدهر» ^(٣).

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» كانت العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَاقِلُهُمْ فَإِنشَأْنَا بَنِينَ﴾ أي: إذا استبدلنا عليهم وبني لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتْنَاهُ بَنَابَيْنًا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿أَتْنَاهُ بَنَابَيْنًا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَجَلَتْ ﴿٧﴾ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المرسلات]، ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٤﴾﴾ [هود] وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ لَكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج] أي: يرون وقوعه بعيداً والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

(۱) أخرجه الطبري بسنده ومتمه، واستغربه الحافظ ابن كثير.

(٢) تقدم نحوه قبل الرواية السابقة مخرجة من الصحيحين والسنن الكبرى للنسائي.

(٣) أخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/٤١٨).

﴿وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧) وَزَيَّ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس، فقال له: يا شيخ أما علمت أن الله تعالى يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تُعرف في المعافري حتى لحق بالله تعالى، ذكره ابن أبي حاتم^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَزَيَّ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أي: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال إن هذا إذا جيء بجهم فإنها تزفر زفرة، لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ويقول: نفسي نفسي نفسي! لا أسألك اليوم إلا نفسي. وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول: لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدني!

قال مجاهد وكعب الأحبار والحسن البصري ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أي: على الركب^(٢).

وقال عكرمة: جائية متميزة^(٣) على ناحيتها وليس على الركب، والأول أولى. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال: «كأنني أراكم جاثين بالكوم^(٤) دون جهنم^(٥)».

وقال إسماعيل بن أبي رافع المدني، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً في حديث الصور: فيتميز الناس وتجتو الأمم^(٦)، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَزَيَّ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ وهذا فيه جمع بين القولين ولا منافاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩] ولهذا قال عليه السلام: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها كقوله تعالى: ﴿يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ [القيامة].

ثم قال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص

(١) سنده معلق لأن ابن أبي حاتم لم يدرك الثوري.

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسنده صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(٣) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٤) الموضع المشرف، وأصل الكوم: من الارتفاع والعلو. (النهاية ٤/ ٢١٠).

(٥) سنده مرسل، وأخرجه البستي من طريق سفيان به. وسنده مرسل أيضاً.

(٦) تقدم حديث الصورة في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القَدَم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ثم قرأ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْذِرْ عَلَيْهِمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٣٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَغْدَرْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُرُؤًا وَعَرَّتْكُمْ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٤٠﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهي الجنة كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء^(٢). ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الواضح.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْذِرْ عَلَيْهِمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: لا نعرفها ﴿إِنْ نُنْظَرُ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهماً؛ أي: مرجوحاً ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ أي: بمتحققين.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿وَمَاؤْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾.

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم

(١) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وأخرجه البستي بسند حسن من قول ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مطولاً (الصحيح، التفسير، سورة ق، باب ﴿وَقُولْ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] ح (٤٨٥٠).

أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب. فيقول أفظنت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتي^(١).

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزؤون بها ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم فاطمأنتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبي بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين، قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أي: المالك لهما وما فيهما. ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعني السلطان؛ أي: هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه.

وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري» ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ بنحوه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو. آخر تفسير سورة الجاثية، والله الحمد والمنة.

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ٥١.

(٢) صحيح مسلم، البر والصلة، باب تحريم الكبر (ح ٢٦٢٠).

سُورَةُ الْحَقِّ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْمَكِينِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُنَزِّلُونَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَمْسَلُ وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله؛ أي: وسيعلمون غب ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا لله ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿أَوْ أَتُنَزِّلُونَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، ولهذا قرأ آخرون: «أو إثارة أثره من علم»؛ أي: أو علم صحيح تؤثرونه عن أحد ممن قبلكم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَتُنَزِّلُونَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو أحد يأثر علماً^(١).

وقال العوفي، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر^(٢).

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، عن صفوان بن سليم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ، أو أثره^(١) من علم، قال: الخط^(٢).

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم^(٣).

وقال الحسن البصري: أو إثارة شيء يستخرجه فيشره^(٤).

وقال ابن عباس ومجاهد وأبو بكر بن عياش أيضاً: ﴿أَوْ أَثَرَهُ مِمَّنْ عَلِمَ﴾ يعني: الخط^(٥).

وقال قتادة: أو إثارة من علم خاصة من علم^(٦).

وكل هذه الأقوال متقاربة. وهي راجعة إلى ما قلناه وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه وأحسن مثواه^(٧).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ أي: لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد حجارة صم.

وقوله: ﴿وَإِذَا خِشِيَ النَّاسُ أَنْ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) [مريم] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ فَإِنَّا لَنَجِدَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَا قُلُوبَنَا إِنَّا فَرَّغْنَاهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كُفًى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنَّا أَعْلَمُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٩).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تنلى عليهم آيات الله بينات؛ أي: في حال بيانها ووضوحها وجلالها يقولون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: سحر واضح وقد كذبوا وافترؤا وضلوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَا قُلُوبَنَا﴾ يعنون محمداً ﷺ قال الله: ﴿قُلْ إِنَّا فَرَّغْنَاهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي

(١) وهي قراءة شاذة تفسيرية.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٤٩/٣ ح ١٩٩٢) وصححه سنداه محققوه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري والحاكم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٥٤/٢).

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) رجح الطبري قول من قال: البقية من علم.

مَنْ اللَّهُ شَيْئًا ۖ أَي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني، وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم، أن يجبرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا ۝٢١﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۖ [الجن: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۝٢٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٢٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٢٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ۝٢٧﴾ [الحاقة] ولهذا قال ههنا: ﴿قُلْ إِنْ أَقَرَرْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ﴾ هذا تهديد ووعيد أكيد وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة؛ أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم وغفر ورحم، وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّوْنَ الْأَوَّلِينَ أَمَنَّا بِهَا فِيهِ تَمَلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٦﴾.

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ ما أنا بأول رسول^(١)، ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٢) [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله تعالى، ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ٣] هكذا قال^(٣)، والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله ﷻ هذه الآية^(٤).

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ أي: ما أدري بماذا أؤمر وبماذا أنهى بعد هذا^(٥).

وقال أبو بكر الهذلي: عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) هذا قول الحسن البصري وعكرمة وقد أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، ومن قال بالنسخ أيضاً قتادة فقد أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٤) أخرجه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه (صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الحديبية ح ٤١٧٢، وصحيح مسلم، الجهاد، باب صلح الحديبية ح ١٧٨٦).

(٥) لم أجد من أخرجه.

قال: أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة^(١)؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء، وهي امرأة من نسائهم أخبرته وكانت بايعت رسول الله ﷺ قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون ﷺ فاشتكى عثمان ﷺ عندنا فمرضناه، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله تعالى أكرمهم؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل بي».

قالت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزني ذلك فتمت فرأيت لعثمان ﷺ عينا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله»^(٢) فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم^(٣)، وفي لفظ له «ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به»^(٤) وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزني ذلك، وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نصّ الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والغميصاء وبلال وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قُتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة وما أشبه هؤلاء ﷺ وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين النذارة، وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٍدِيرٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيٍّ لِّنَذَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) •

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن

(١) أخرجه الطبري من طريق أبي بكر الهذلي به وأطول، وسنده ضعيف جداً. لأن الهذلي متروك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٥/٤٤٩، ٤٥٠ ح ٢٧٤٥٧) وصححه سنداً محققوه.

(٣) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة (ح ٣٩٢٩).

(٤) صحيح البخاري، التعبير، باب رؤيا النساء (ح ٧٠٠٤).

﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزل علي لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَتَأْمَنَ﴾ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَأَسْتَكَبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه.

وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعُمُّ عبد الله بن سلام عليه السلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام عليه السلام، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢] وقال: ﴿قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [القصص: ٥٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا [الأنعام: ١٨٨]. [الإسراء: ١٠٨].

قال مسروق والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام عليه السلام كان بالمدينة^(٢). رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم واختاره ابن جرير.

وقال مالك: عن أبي النضر، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام عليه السلام، قال: وفيه نزلت ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾^(٣). رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث مالك به^(٤)، كذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف والسدي والثوري ومالك بن أنس، وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم، وأشباهم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطأوا خطأ بيناً كما قال

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الشعبي عن مسروق.

(٢) أخرجه الطبري من طريق الشعبي عن مسروق، ورجاله ثقات لكنه مرسل.

(٣) سنده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام عليه السلام (ج ٣٨١٢)، وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن سلام عليه السلام (ج ٢٤٨٣)، والسنن الكبرى للنسائي، فضائل الصحابة (ج ٨٢٥٢).

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بما سبق وبالأثار التالية: فقد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه البُستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك وأخرجه البُستي بسند صحيح من طريق عبد الله بن عون عن الشعبي وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا؟ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون: في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة عليهم السلام هو بدعة لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: كذب قديم؛ أي: مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبير الذي قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق وغمط الناس»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنْشِئَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا﴾ تقدم تفسيرها في «حم السجدة»^(٢) وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [١٥] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [١٦].

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله: ﴿وَقَصَّىٰ رَبُّكَ الْأَثَمَ وَقَالَ لَأَنبَاؤُهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، أخبرني سماك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين؟ فلا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا ونزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ الآية^(٣). ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث شعبة بإسناده نحوه وأطول منه^(٤).

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حملة مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٢٢. (٢) أي: في سورة فصلت آية ٣٠.
(٣) مسند الطيالسي (ح ٢٠٨) وسنده صحيح.
(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة آية ٤٣.

وقد استدلل علي ﷺ بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفَضَّلْهُ فِي عَمَيْنِ﴾ [١٤] وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾^(١) [البقرة: ٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوي وصحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة ﷺ.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط، عن معمر بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان ﷺ، فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت: وما يبكيك؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله ﷻ في ما شاء، فلما أتى بها عثمان ﷺ أمر برجمها فبلغ ذلك علياً ﷺ: فاتاه فقال له ما تصنع، قال: ولدت تماماً لستة أشهر، وهل يكون ذلك، فقال له علي ﷺ: أما تقرأ القرآن: قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر قال: فقال عثمان ﷺ والله ما فطنت بهذا، عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها قال: فقال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه قال: ابني والله لا أشك فيه. قال: وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات، رواه ابن أبي حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله ﷺ: ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَمِيدِينَ﴾^(٢) [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرين شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٣).
﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي وشب وارتجل.

﴿وَيَبْلُغُ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تنامي عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين.

قال أبو بكر بن عياش: عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك^(٤).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو عبد الله القواريري، حدثنا عزرة بن قيس الأزدي، وكان قد بلغ مائة سنة، حدثنا أبو الحسن السلولي عمر بن أوس قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه، وإذا بلغ الستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه الله تعالى في أهل بيته، وكتب في السماء أسير الله في

(١) جاءت هذه الآية قبل قول ابن إسحاق التالي.

(٢) وقد تقدم تخريج الأثر عند تفسير هذه الآية من سورة الزخرف.

(٣) سنده حسن.

(٤) سنده مرسل.

أرضه»^(١). وقد روي هذا من غير وجه، وهو في مسند الإمام أحمد^(٢).

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله ﷻ.

وما أحسن قول الشاعر:

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل: [ابعد]^(٣)

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: في المستقبل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: نسلي وعقبتي ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها، وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد «اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا»^(٤) قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله تعالى المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ونتقبل منهم اليسير من العمل.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَدَ الْوَهْدِيُّ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة» قال: فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا قال: قلت فإن ذهب الحسنات؟ قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الْوَهْدِيُّ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(٥). وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان بإسناده مثله وزاد عن الروح الأمين. قال: قال الرب جلَّ

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند الكبير كما صرح الهيثمي وأعله بعزرة بن قيس الأزدي لأنه ضعيف (مجمع الزوائد ٢٠٥/١٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك ؓ وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً (المسند ١٢/٢١ ح ١٣٢٧٩).

(٣) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «أبطل».

(٤) أخرجه أبو داود (السنن، الصلاة، باب التشهد ح ٩٦٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٨٥٥).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومثته وتقدم تخريجه في تفسير سورة السجدة آية ١٧.

جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فذكره، وهو حديث غريب وإسناده جيد ولا بأس به^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن معبد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلائي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية، عن يوسف بن سعد، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي عليه السلام على أهل البصرة فقال له يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً عليه السلام، وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنه، فذكروا عثمان رضي الله عنه فقالوا منه، فكان علي عليه السلام على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم، فسأله فقال علي عليه السلام: كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحَبِّ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنه، قالها ثلاثاً. قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: الله لسمعت هذا عن علي عليه السلام؟ قال: الله لسمعت هذا عن علي عليه السلام^(٢).

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanَ اللَّهَ وَيَلِكُ ءِامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (٨) ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٩) ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْبَتُمْ طَبِيعَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠).

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز، والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه.

وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق^(٣) وفي صحة هذا نظر، والله تعالى أعلم.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر قاله ابن جريج^(٤).

وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبي بكر^(٥)، وهذا أيضاً قول السدي، وإنما هذا عام في كل من عَقَّ والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ عَقَّهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبي زائدة، عن إسماعيل بن أبي خالد، أخبرني [عبد الله المديني]^(٦) قال: إني لفي المسجد حين

(١) سنده كسابقه.

(٢) سنده حسن.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) أخرجه البُستي من طريق ابن جريج عن مجاهد، وسنده ضعيف لانقطاعه فإن ابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٥) أخرجه البُستي بسند حسن من قول عكرمة.

(٦) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل بياض مكان كلمة المديني، وما نقله الحافظ ابن حجر من رواية =

خطب مروان فقال: إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وأن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: [أهركلية] ^(١)؟ إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: أأنت الذي قال لوالديه أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: أأنت ابن اللعين الذين لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهم عائشة رضي الله عنها فقالت: يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت ما فيه نزلت ولكن نزلت في فلان ابن فلان، ثم انتحب مروان ثم نزل عن المنبر، حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف ^(٢)، وقد رواه البخاري بإسناد آخر ولفظ آخر فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً ^(٣)، فقال: خذوه ^(٤)، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذري ^(٥).

(طريق أخرى) قال النسائي: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية رضي الله عنه لابنه، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سُنَّةُ هِرَاقِلَ وقيصر! فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية. فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان [فضض من لعنة الله] ^(٦) ^(٧).

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ﴾ أي: أبعث ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ﴿وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ﴾ أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما ﴿وَبِكَآءٍ﴾

- = ابن أبي حاتم باسم: عبد الله المدني. (فتح الباري ٥٧٧/٨).
- (١) كذا في (حم) و(مع) وفتح الباري ٥٧٧/٨، وفي الأصل صحف إلى: أهو قلته.
- (٢) سنده ضعيف فإن عبد الله وهو البهي مولد مصعب بن الزبير يقال: اسم أبيه يسار: صدوق يخطئ كما في التقريب، وأصل القصة في الصحيح كما سيأتي ولكن ليس فيها ذكر اللعن.
- (٣) قال الحافظ ابن حجر: قيل قال له: بيننا وبينكم ثلاث، مات رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ولم يعهدوا... والذي في رواية الإسماعيلي: فقال عبد الرحمن: ما هي إلا هركلية. (فتح الباري ٥٧٧/٨).
- (٤) القائل هو مروان ويريد بذلك إلقاء القبض على عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه.
- (٥) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا...﴾ [الأحقاف: ١٧ ح ٤٨٢٧].
- (٦) كذا في (مع) والسنن الكبرى للنسائي، وفي الأصل صحف إلى: يقتص من لعنه، وفي (حم) صحف إلى: «بعض من لعنه الله».
- (٧) أخرجه النسائي بسنده ومثله (السنن الكبرى، التفسير سورة الأحقاف، باب قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا...﴾ [الأحقاف: ١٧ ح ١١٤٢٧]، وأخرجه الحاكم من طريق علي بن الحسين الدرهمي به وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع محمد لم يسمع من عائشة (المستدرک ٤٨١/٤).

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ أَي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَوَلَيْكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث^(١).

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة سهل بن داود من طريق هشام بن عمار، حدثنا حماد بن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبي، عن سليم بن حبيب، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله تعالى من فوق عرشه، وأمنت عليهم الملائكة: مضل المساكين» قال خالد الذي يهوي بيده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معي شيء «والذي يقول للمكفوف: اتق [الدابة]^(٢): وليس بين يديه شيء، والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذي يضرب الوالدين حتى يستغيثا^(٣)». غريب جداً.

وقوله: ﴿رَبِّكَ دَرَجَتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أَي: لكل عذاب بحسب عمله ﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أَي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ درجات النار تذهب سفلًا ودرجات الجنة تذهب علوًا^(٤).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْيَنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أَي: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المأكول والمشارب. وتنزه عنها ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم وبخهم وقرعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْيَنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾^(٥).

وقال أبو مجلز: ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْيَنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾^(٦).

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف، وهو الأعرابي، عن الحسن، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) كذا في (مح) و(حم)، وفي الأصل بياض.

(٣) ذكره ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق (٢٢١/١٠)، وأخرجه الطبراني من طريق هشام بن عمار به (المعجم الكبير ١١٧/٨ ح ٧٤٨٩) قال الهيثمي: حماد بن عبد الرحمن عن خالد بن الزبرقان كلاهما ضعيف (مجمع الزوائد ٢٥١/٤) وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن هذا الحديث فقال: هذا حديث منكر (العلل ٤١٣/٢).

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق قتادة عن عمر بنحوه، وقتادة لم يسمع من عمر رضي الله عنه، وقد أخرجه الطبري والبستي بنحوه من طرق أخرى تقويه.

(٦) نسبه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد.

من جنس عملهم فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموحجة والحسرات المتتابعة والمنازل في الدرجات المفطعة، أجارنا الله ﷻ من ذلك.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْيَدُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّكَ عَنْ هَاهُنَا وَأَنْتَ قَائِلٌ إِنَّكُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُنْفِئُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطْرَأٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذب من قومه ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام، بعثه الله إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حقف وهو الجبل من الرمل^(١)، قاله ابن زيد.

وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: الأحقاف وادٍ بحضرموت يدعى: برهوت تلقى فيه أرواح الكفار^(٢).

وقال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشحر^(٣).

قال ابن ماجه: باب إذا دعا فليبدأ بنفسه. حدثنا الحسين بن علي الخلال، حدثنا أبي، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله وأخا عاد»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْيَدُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله: ﴿جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾^(٥) فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿١٤﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]^(٦) أي: قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين ﴿أَجِئْنَا لِنُفَكِّكَ عَنْ هَاهُنَا﴾ أي: لتصدنا عن آلهتنا ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعْدُنَا﴾ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه ابن ماجه بسنده ومثته (السنن، الدعاء، باب إذا دعا أحدكم فليبدأ بنفسه ح ٣٨٥٢) وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (ح ٨٤٠).

(٥) كذا في (حم) وفي الأصل خطأ بلفظ: «تولوا».

(٦) وقد جاء بعدها قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] وهو خلط بين الآية ١٣ في فصلت وبين الآية ٣ في سورة هود.

استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَكِنِّي أَرْكُزُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدَيْنَاهُم﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو العذاب الذي قلت: فأنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿تُدْمِرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّيِّبِ﴾ [الذاريات] أي: كالشيء البالي ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكِنَهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم بقية.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاصراً بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال ﷺ، متقلداً السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص ﷺ وجهاً قال: فجلست فدخل منزله، أو قال رحله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال ﷺ: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟» قلت: نعم، وكان لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك فما هي الباب، فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت إن مثلي ما قال الأول: معزى حملت حتفها^(١)، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: «وما وافد عاد؟» وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً لهم يقال له قيل، فمرَّ بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير أفاديته، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحباب سود فتودي منها اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء فتودي منها، خذها رماداً مدداً، لا تبقى من عاد أحداً، قال: فلما

(١) هذا مثل معناه: لا تكن كالعنز تبحث عن المدينة. (فصل المقال ص ٤٥٦).

بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا قال أبو وائل: وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد^(١). ورواه الترمذي والنسائي^(٢) وابن ماجه كما تقدم في سورة الأعراف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى رأيت منه لهوته إنما كان يبتسم وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا: هذا عارض ممطرنا»^(٣). وأخرجاه من حديث ابن وهب^(٤).

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدم بن شريح، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه» فإن كشفه الله تعالى حمد الله ﷻ، وإن أمطر قال: «اللهم صيباً نافعا»^(٥).

طريق أخرى:

قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر الطاهر، أخبرنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج يحدثنا، عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيراً وخيراً ما فيها وخيراً ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت^(٦) السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها، فسألته فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيْنَهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا﴾»^(٧) وقد ذكرنا قصة هلاك قوم عاد في سورة الأعراف وهود^(٨) بما أغنى عن إعادته هنا، والله تعالى الحمد والمنة.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك بن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٠٦/٢٥ - ٣٠٨، ح ١٥٩٥٤) وحسن سنده محققوه.

(٢) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الذاريات (ح ٣٢٧٤)، والسنن الكبرى للنسائي (ح ٨٦٠٧). وحكم سندهما كسابقهما.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٦٦/٦) وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا...﴾ [الأحقاف: ٢٤] (ح ٤٨٢٨)، وصحيح مسلم، صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم (ح ٨٩٩).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٦٨/٤٢ ح ٢٥٥٧٠) وصح سنده محققوه.

(٦) أي: تهيأت للمطر.

(٧) صحيح مسلم، صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم... (ح ٨٩٩).

(٨) ينظر سورة الأعراف آية ٦٥ - ٧٢، وسورة هود آية ٥٠ - ٦٠.

مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم البدو إلى الحضرة، فلما رآها أهل الحضرة قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتهم، وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا، قال: عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب^(١)».

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَتَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِنْكِبُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطيكم مثله ولا قريباً منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب، والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه؛ أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ﴾ يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بينهاها وأوضحناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾ أي: فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم. ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكَ إِنْكِبُهُمْ﴾ أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا يَعْقِلُونَ﴾ أي: وافترأهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٥﴾ يَنْقُومَنَا أَيْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٧﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، سمعت عكرمة، عن الزبير، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿كَادُوا يَكُونُونَ

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٤٢/١٢ ح ١٢٤١٦) سنده ضعيف لضعف الملائي كما في التقريب ومجمع الزوائد (١١٣/٧).

عَلَيْهِ لَبَدًا [الجن: ١٩] قال سفيان: ألبد بعضهم على بعض كاللبد بعضه على بعض^(١)، تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير عن عكرمة، عن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصيين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) وقال الإمام الشهير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة: أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضي أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا مالكم، فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها يتغنون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء.

فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنحلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا أَحَدًا﴾ [الجن: ٢] وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] وإنما أوحى إليه قول الجن^(٢). رواه البخاري عن مسدد بنحوه^(٣)، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن أبي عوانة به^(٤)، ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث أبي عوانة^(٥).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده فإذا بالنبي ﷺ بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض^(٦)، ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما من حديث إسرائيل به، وقال الترمذي: حسن صحيح^(٧)، وهكذا رواه أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضاً بمثل هذا السياق بطوله^(٨)، وهكذا قال الحسن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٦/٣ ح ١٤٣٥) قال محققوه: حسن لغيره.

(٢) المسند ٢٥٢/١ ودلائل النبوة ٢/٢٥٠ وسنده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر (ح ٧٧٣).

(٤) صحيح مسلم، الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصحيح... (ح ٤٤٩).

(٥) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الجن (ح ٣٣٢٤) والسنن الكبرى، التفسير سورة الجن (ح ١١٥٦٠).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٨٣/٤ ح ٢٨٤ ح ٢٤٨٢) وصححه سنداه محققوه.

(٧) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الجن (ح ٣٣٢٤)، والسنن الكبرى، التفسير، سورة الجن (ح ١١٥٦٢).

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بسابقه.

البصري إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم^(١).

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله ﷻ وإبائهم عليه، فذكر القصة بطولها وأورد ذلك الدعاء الحسن «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك، ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين^(٢)، وهذا صحيح، ولكن قوله: إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر، فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دلَّ عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور، وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان، عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن النخلة ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ قال: صه، وكانوا تسعة وأحدهم زوبعة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إلى ﴿صَلِّ مُبِينًا﴾^(٣) فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً: قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج، كما ستأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار مما سنوردها ههنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً عن أبي قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسي، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن، قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً من أذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك يعني ابن مسعود أنه آذنته بهم شجرة^(٤)، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس، ويحتمل أن يكون في المرة الأولى، ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة؛ أي: أعلمته باستماعهم، والله أعلم، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة

(١) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات عن الحسن البصري لكنه مرسل، ويتقوى بالروايات التالية.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٤٤٤/٢) وسنده مرسل.

(٣) أخرجه الحاكم من طريق ابن أبي شيبة به وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٤٥٦/٢).

(٤) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب ذكر الجن (ح ٣٨٥٩)، وصحيح مسلم، الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح... (ح ١٥٣/٤٥٠).

رسول الله ﷺ، وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ^(١). ذكر الرواية عنه بذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبي وابن أبي زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبي، عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا اغتيل؟ استطير ^(٢)؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح - أو قال في السحر - إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا له الذي كانوا فيه فقال: «إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم» قال: فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال: قال الشعبي: سألوه الزاد، قال عامر: سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه أن يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم قال: فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن» ^(٣). وهكذا رواه مسلم في صحيحه عن علي بن حجر عن إسماعيل بن علية به نحوه ^(٤).

وقال مسلم أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود وهو ابن أبي هند، عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقل استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذ هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم» قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم» ^(٥). طريق أخرى عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمي، حدثني يونس، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله قال: إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُتُّ اللَّيْلَةَ أَقْرَأُ عَلَى الْجَنِّ وَاقِفًا بِالْحُجُونِ» ^(٦). طريق أخرى فيها أنه كان معه ليلة الجن.

(١) دلائل النبوة ٢/٢٢٧، وسيأتي تفصيل الروايات والحكم عليها.

(٢) أي: خُطف بسرعة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١/٤٣٦) وسنده صحيح.

(٤) صحيح مسلم، الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح بعد حديث ١٥٠/٤٥٠.

(٥) المصدر السابق (ح ١٥٠/٤٥٠).

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومثته وسنده ضعيف لأن عبد الله بن عبد الله وهو ابن عتبة بن مسعود لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه.

قال ابن جرير رحمته الله: حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمي عبد الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان بن سنة الخزاعي، وكان من أهل الشام قال: إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل» فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطأ ثم أمرني أن أجلس فيه ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة^(١) كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب، ذاهبين حتى بقي منهم رهط، ففرغ رسول الله، مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أثناني فقال: «ما فعل الرهط؟»، فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروت أو عظم. ورواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي زرعة وهب بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلي به^(٢).

ورواه البيهقي في الدلائل من حديث عبد الله بن صالح كاتب الليث، عن يونس به^(٣)، وقد روى إسحاق بن راهويه عن جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، فذكر نحو ما تقدم^(٤). ورواه الحافظ أبو نعيم من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المعلى، عن ابن مسعود رضي الله عنه، فذكر نحوه أيضاً^(٥).

[طريق أخرى:

قال أبو نعيم: حدثنا أبو مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: حدثنا عفان وعكرمة قالوا: حدثنا معتمر قال: قال أبي: حدثني أبو تميم عن عمرو، ولعله قد يكون قال البكالي يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: استتبعتني رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لي خطأ فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها فإنك إن خرجت هلك» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة^{(٦)(٧)}.

طريق أخرى:

قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن. قال: أجل، قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث وذكر أن النبي ﷺ

(١) أسودة: جمع قلة لسواد وهو الشخص.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفيه أبو عثمان بن سنة الخزاعي سئل عنه أبو زرعة فقال: لا أعرف اسمه (الجرح والتعديل ٤٠٨/٩)، وأخرجه النسائي من طريق ابن وهب به مختصراً على آخره (السنن، الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالعظم ٣٧/١، وصححه سنن الألباني في صحيح سنن النسائي ح ٣٨).

(٣) دلائل النبوة ٢٣٠/٢ وسنده كسابقه وأخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن صالح به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٥٠٣/٢).

(٤) في سنده قابوس فيه لين ويتقوى بما سبق.

(٥) أخرجه الطبراني من طريق موسى بن عبيدة به (المعجم الكبير ٨٠/١٠) وفيه موسى بن عبيدة وهو الربذي وهو ضعيف كما في التقريب، ويتقوى بما سبق.

(٦) زيادة من (حم) و(مح).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته مطولاً (المسند ٦/٣٣٢ ح ٣٧٨٨) وضعفه سنده محققوه.

خط عليه خطأً وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العجاجة^(١) السوداء فغشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات حتى كان قريباً من الصبح أتاني النبي ﷺ فقال: «أمنت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول: «اجلسوا» فقال ﷺ: «لو خرجت لم آمن أن يتخطفك بعضهم» ثم قال ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم رأيت رجلاً سوداً مستشعرين^(٢) ثياباً بيضاً قال ﷺ: «أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - والمتاع الزاد - فمعتهم بكل عظم حائل^(٣) أو بكرة أو روثة فقلت: يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ فقال رسول الله ﷺ: إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل. ولا روثاً إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقن أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بكرة ولا روثة»^(٤).

طريق أخرى:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن قتادة قال: أخبرنا أبو محمد بن يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: استتبعني رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرًا من الجن خمسة عشر بني إخوة وبني عم يأتوني الليلة أقرأ عليهم القرآن» فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد فخط لي خطأً وأجلسني فيه وقال لي: «لا تخرج من هذا» فبث فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل وروثة وحمه فقال: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء» قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن حيث كان رسول الله ﷺ قال: فذهبت فرأيت موضع مبارك ستين بعيراً^(٥).

طريق أخرى:

قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا عثمان بن عمر، عن المستمر بن الريان، عن أبي الجوزاء، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون، فخط لي خطأً ثم تقدم إليهم، فازدحموا عليه فقال سيد لهم يقال له وردان: أنا أرحلهم عنك. فقال: إني لن يجيرني من الله أحد^(٦).

(١) العجاجة: واحدة العجاج، وهو الغبار أو الدخان.

(٢) مستشعرين: استشعر الثوب: لبسه شعاراً: والشعار هو ما يلي الجسد من الثياب لأنه يلي شعره.

(٣) أي: متغير قد غيّر البلى.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثله، ورجاله ثقات إلا عبد الله بن عمرو بن غيلان ذكره البخاري في التاريخ الكبير وسكت عنه، وكذا سكت عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل.

(٥) أخرجه البيهقي بسنده ومثله (دلائل النبوة ٢/٢٣١) وفي سنده روح بن صلاح فيه مقال (لسان الميزان ٢/٥٣٩) وموسى بن علي بن رباح: صدوق ربما أخطأ كما في التقريب.

(٦) أخرجه البيهقي بسنده ومثله (دلائل النبوة ٢/٢٣٢) وأبو الجوزاء لم يسمعه من ابن مسعود ولهذا قال البخاري: في إسناده نظر (ينظر: الكامل في الضعفاء لابن عدي ١/٤٠٢).

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان بن أبي فزارة العبسي، حدثنا أبو زيد مولى عمرو بن حريث، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما كانت ليلة الجن قال لي النبي ﷺ: «أملك ماء؟» قلت: ليس معي ماء ولكن معي إداوة فيها نبيذ فقال النبي ﷺ: «تمر طيبة وماء طهور»^(١). رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث زيد به^(٢).

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله أملك ماء؟» قال: معي نبيذ في إداوة. قال ﷺ: «أصعب عليّ فتوضأ. فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله شراب وطهور». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطني من طريق آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه^(٣).

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي، عن ميناء، عن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إليّ نفسي يا ابن مسعود» هكذا رأيته في المسند مختصراً^(٤)، وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي قال: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن [ميناء عن ابن مسعود]^(٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «نعت إليّ نفسي يا ابن مسعود» قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: أبا بكر. قال: فسكت ثم مضى ساعة فتنفس فقلت: ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «نعت إليّ نفسي يا ابن مسعود» قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر. فسكت ساعة ثم مضى ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعت إليّ نفسي» قلت: فاستخلف قال ﷺ: «من؟» قلت: علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»^(٦). وهو حديث غريب جداً وأخرى به أن لا

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثنه وزيادة كلمة في آخره: فتوضأ، وضعف سنده محققوه لجهالة أبي زيد (المسند ٣٢٤/٧ ح ٤٢٩٦).

(٢) سنن أبي داود، الطهارة، باب الوضوء بالنبيذ (ح ٨٤)، وسنن الترمذي، الطهارة، باب ما جاء في الوضوء (ح ٨٨)، وسنده كسابقه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثنه (المسند ٣٩٨/١) وسنده ضعيف لما قيل في ابن لهيعة، وأخرجه الدارقطني وأعله بابن لهيعة (السنن ٧٦/١، ٧٧).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثنه، وقال محققوه: حديث شبه موضوع (المسند ٣٢٢/٧ ح ٤٢٩٤) وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ونقله عنه ابن عراق في تنزيه الشريعة (٣٧٧/١) وعلمته في ميناء وهو كذاب (مجمع الزوائد ٣١٨/٨).

(٥) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل صحف إلى: «ماء بن مسعود».

(٦) أخرجه الطبراني من طريق إسحاق بن إبراهيم به (المعجم الكبير ٨٢/١٠ ح ٩٩٧٠) وسنده كسابقه وعلمته في ميناء.

يكون محفوظاً، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده إن شاء الله تعالى، فإن في ذلك الوقت كان في آخر الأمر لما فتحت مكة ودخل الناس والجان أيضاً في دين الله أفواجاً نزلت سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ نَوَّابًا ۝﴾ [النصر] وهي السورة التي نعتت نفسه الكريمة فيها إليه كما نصَّ على ذلك ابن عباس رضي الله عنه، ووافقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليه، وقد ورد في ذلك حديث سنورده إن شاء الله تعالى عند تفسيرها^(١)، والله أعلم وقد رواه أبو نعيم أيضاً عن [الطبري]^(٢)، عن محمد بن عبد الله الحضرمي، عن علي بن الحسين بن أبي بردة، عن يحيى بن [سعيد]^(٣) الأسلمي، عن حرب بن صبيح، عن سعيد بن سلمة، عن أبي مرة الصنعاني، عن أبي عبد الله الجدلي، عن ابن مسعود رضي الله عنه... فذكره^(٤) وذكر فيه قصة الاستخلاف، وهذا إسناد غريب وسياق عجيب.

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ خطَّ حوله، فكان أحدهم مثل سواد النخل وقال: «لا تبرح مكانك فأقرئهم كتاب الله» فلما رأى المرعى قال: كأنهم هؤلاء وقال النبي ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم فوضأ به^(٥).

طريق أخرى مرسله:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهري، أخبرنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفاً جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبي ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: «أنظرني حتى آتيك» وخطَّ عليه خطأً وقال: «لا تبرح حتى آتيك» فلما خشيمهم ابن مسعود رضي الله عنه كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبي ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة»^(٦).

طريق أخرى مرسله أيضاً:

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى^(٧) وأن نبي الله ﷺ قال: «إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكلم يتبعني؟» فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله إن ذاك لذو ندبة، فأتبعه ابن مسعود رضي الله عنه أخو هذيل، قال: فدخل النبي ﷺ شعباً يقال

(١) سياًتي تخريجه في تفسير سورة النصر.

(٢) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل بياض.

(٣) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل بياض.

(٤) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٨١/١٠ ح ٩٩٦٩) وسنده ضعيف لضعف يحيى الأسلمي قال البخاري: مضطرب الحديث (التاريخ الصغير ٢/٢٥٤) وضعفه الهيثمي (مجمع الزوائد ٨/٣١٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١/٤٥٥) وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

(٦) سنده ضعيف لضعف حفص بن عمر العدني كما في التقريب، ولإرسال عكرمة لأنه لم يسمع من ابن مسعود.

(٧) تقع في الشطر الشمالي من الموصل.

له: شعب الحجون وخط عليه، وخط على ابن مسعود رضي الله عنه خطأ ليثبت به ذلك، قال: فجعلت أهال^(١) وأرى أمثال النسور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطاً^(٢) شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ، ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله: ما اللغظ الذي سمعت؟ قال ﷺ: «اختصموا في قتل فقضي بينهم بالحق»^(٣) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ﷻ وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنه. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه، وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي، وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهي عند مسلم، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى، والله أعلم، كما روى ابن أبي حاتم في تفسير ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الجن: ١] من حديث ابن جريج قال: قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين^(٤)، وتأوله البيهقي على أنه يقول فبتنا بشر ليلة بات بها قوم على غير ابن مسعود رضي الله عنه ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله الأديب، حدثنا أبو بكر الإسماعيلي، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو قال: كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بأداة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال ﷺ: «أئتني بأحجار أستنج بها ولا تأتني بعظم ولا روثه فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته» فقلت: يا رسول الله ما بال العظم والروث؟ قال ﷺ: «أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد، فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثه ولا عظم إلا وجدوه طعاماً»^(٥) أخرجه البخاري في صحيحه عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى بإسناده قريباً منه^(٦)، فهذا يدل على ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك، وسنذكر إن شاء الله تعالى ما يدل على تكرار ذلك.

وقد روى ابن عباس غير ما روى عنه أولاً من وجه جيد، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، حدثنا النضر بن عربي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله

(١) أي: أخاف.

(٢) اللغظ: الصياح والجلبة.

(٣) وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من ابن مسعود. (٤) وسنده مرسل أيضاً.

(٥) أخرجه البيهقي بسنده ومثته (دلائل النبوة ٢/٢٣٣) وفي سنده سويد بن سعيد وهو ضعيف كما في التقريب، وقد توبع في رواية البخاري فأخرجه عن أحمد بن محمد المكي عن عمرو بن يحيى به بدون قوله: أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد... إلخ. (الصحيح، الوضوء، باب الاستنجاء بالحجارة ح ١٥٥).

(٦) المصدر السابق.

تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية. قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم^(١). فهذا يدل على أنه روى القصتين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم: حيي وحسي ومنسى وساصر وناصر والازد وأبيان والأحقم^(٢).

وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحي من الجن كان يقال له: بنو الشيصان وكانوا أكثر الجن عدداً وأشرفهم نسباً، وهم كانوا عامة جنود إبليس^(٣).

وقال سفيان الثوري: عن عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود ؓ كانوا تسعة أحدهم: زويعة، أتوه من أصل نخلة^(٤)، وتقدم عنهم أنهم كانوا خمسة عشر، وفي رواية أنهم كانوا على ستين راحلة، وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة على أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرار وفادتهم عليه ؓ، ومما يدل على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، حدثني عمر هو ابن محمد قال: إن سالماً حدثه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ؓ قال: ما سمعت عمر ؓ يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب ؓ جالس إذ مرّ به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني أو أن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، عليّ بالرجل، فدعي له، فقال له ذلك فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني قال: كنت كاهنهم في الجاهلية قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك، قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفرع فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسهما ويأسها من بعد إنكاسها
ولحوقها بالقلاص^(٥) وأحلاسها^(٦)

قال عمر ؓ: صدق بينما أنا نائم عند آلهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح، أمر نجيج رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله قال: فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيج رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله، فقمتم فما نشبنا أن قيل هذا نبي^(٧). هذا سياق البخاري، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب بنحوه، ثم قال: وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر ؓ بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر ؓ، وسائر

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده حسن.

(٢) سنده ضعيف لإبهام شيخ سويد.

(٣) سنده مرسل.

(٤) أخرجه البستي من طريق سفيان الثوري به، وسنده حسن.

(٥) جمع قلوص وهي الفتية من النياق (فتح الباري ٧/١٨٠).

(٦) الأحلاس: ما يوضع على ظهور الإبل تحت الرحل. (المصدر السابق).

(٧) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب ؓ (ح ٣٨٦٦).

الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه^(١)، والله أعلم، وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه وهذا الرجل هو سواد بن قارب.

وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر رضي الله عنه فمن أرادَه فليأخذه من ثم، والله الحمد.

وقال البيهقي: حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح، أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني قراءة عليه، حدثنا [أبو جعفر]^(٢) أحمد بن موسى الحمار الكوفي، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه، حدثنا أبو بكر القصري، حدثنا محمد بن النواس الكوفي، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال: أيها الناس أفياكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة. فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس أفياكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت يا أمير المؤمنين وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر رضي الله عنه: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً، قال: فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر رضي الله عنه: يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال سواد رضي الله عنه: فإني كنت نازلاً بالهند وكان لي رثي^(٣) من الجن، قال: فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ جاءني في منامي ذلك، قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤي بن غالب ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وأنجاسها	وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ما مؤمنوا الجن كأرجاسها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	واسمُ بعينيك إلى راسها

قال: ثم أنبهني فأفرعني وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد، فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وتطلابها	وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ليس قدامها كأذئابها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	واسمُ بعينيك إلى قابها

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني ثم قال:

عجبت للجن وتخبارها	وشدها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى	ليس ذوو الشر كأخيارها
فانهض إلى الصفوة من هاشم	ما مؤمنوا الجن ككفارها

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي فما حللت تسعة ولا عقدت أخرى حتى

(١) دلائل النبوة ٢/٢٤٥.

(٢) كذا في (حم) و(مع) ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٤٨، وفي الأصل صُحف إلى: أبو حنيفة.

(٣) أي: الجني يعرض للإنسان.

أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينة يعني مكة، والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأي النبي ﷺ قال: «مرحباً بك يا سواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك» قال: قلت: يا رسول الله قد قلتُ شعراً، فاسمعه مني قال ﷺ: «قل يا سواد» فقلت:

أتاني رثي بعد ليل وهجعة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة: أتاك رسول من لؤي بن غالب
فشمريت عن ساقى الإزار [ووسطت]^(١) الدعلب الوجناء عند السباب
فأشهد أن الله لا شيء غيره وأنت مأمون على كل غائب
وأنت أدنى المرسلين شفاعه إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل إن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعه سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجمه وقال لي: «أفلحت يا سواد» فقال عمر: هل يأتيك رثيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني ونعم العوض كتاب الله من الجن^(٢). ثم أسنده البيهقي من وجهين آخرين^(٣). ومما يدل على وفادتهم إليه ﷺ بعدما هاجر إلى المدينة الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة، حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصي، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني من حدثه عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود ﷺ فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن. قال: أجل، قلت: حدثني كيف كان شأنه! فقال: إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه، وتركت فلم يأخذني أحد منهم، فمر بي رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا ابن مسعود، فقال ﷺ: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا، قال ﷺ: «فانطلق لعلني أجد لك شيئاً».

قال: فانطلقنا حتى أتى رسول الله ﷺ حجرة أم سلمة ﷺ، فتركني قائماً ودخل إلى أهله ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله ﷺ لم يجد لك عشاء فارجع إلى مضجعك، قال: فرجعت إلى المسجد فجمعت حصباء المسجد فتوسدته والتفتت بثوبي، فلم ألبث إلا قليلاً حتى جاءت الجارية فقالت: أجب رسول الله. فاتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامي خرج رسول الله ﷺ وفي يده عسيب من نخل فعرض به على صدري فقال ﷺ: «انطلق أنت معي حيث انطلقت» قلت: ما شاء الله فأعادها علي ثلاث مرات. كل ذلك أقول ما شاء الله فانطلق، وانطلقت معه حتى أتينا بقيق الغرقد فخطَّ ﷺ بعصاه خطأً ثم قال: «اجلس فيها ولا تبرح حتى آتيك» ثم انطلق يمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت قبله العجاجة السوداء ففرقت^(٤) فقلت: ألحق برسول الله ﷺ فإني أظن أن هوازن مكروا

(١) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: وأرقلت.

(٢) دلائل النبوة ٢/٢٤٨ ورواية البخاري تغني عما سواها.

(٣) دلائل النبوة ٢/٢٥٢.

(٤) أي: خفت.

برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت فأستغيث الناس، فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصاني أن لا أبرح مكاني الذي أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا» فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح ثم ثاروا وذهبوا، فأتاني رسول الله ﷺ فقال: «أمنت بعدي؟» فقلت: لا ولقد فزعت الفزعة الأولى حتى رأيت أن آتي البيوت، فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما أمنت عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شيء منهم؟».

فقلت: رأيت رجالاً سوداً مستشعرين بثياب بيض، فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين أتوني فسألوني الزاد والمتاع فمتعتهم بكل عظم حائل أو روثة أو بكرة» قلت: فما يغني عنهم ذلك؟ قال ﷺ: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذي كان فيها يوم أكلت فلا يستنق أحد منكم بعظم ولا بكرة»^(١) وهذا إسناد غريب جداً ولكن فيه رجل مبهم لم يسم.

وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد: حدثني [نمير بن زيد القيني، حدثنا أبي، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثني الزبير]^(٢) بن العوام رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف قال: «أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثاً، فمر بي فأخذ بيدي فجعلت أمشي معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح [مستشعرين بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة]^{(٣)(٤)} ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حبان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدورقي، حدثنا الوليد بن بكير التيمي، حدثنا حصين بن عمر، أخبرني عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هم بحية تنثني على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك فقلت لصحابي: امضوا فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها ثم نحيتها عن الطريق، فدفنتها وأدركت أصحابي في المتعشى. قال: فوالله إنا لقعود إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمراً. قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: فقلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواماً قواماً، يأمر بما أنزل الله تعالى، ولقد آمن بنبينا وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمئة عام. قال الرجل: فحمدنا الله تعالى ثم قضينا حاجتنا ثم مررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة، فأنبأته بأمر الحية فقال: صدقت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمئة سنة»^(٥). وهذا حديث غريب جداً، والله أعلم.

(١) سنده ضعيف لإيهام شيخ أبي سلام.

(٢) زيادة من (حم) و(مح).

(٣) سنده ضعيف لضعف نمير بن يزيد القيني كما في ميزان الاعتدال.

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٣٠٦، وسنده ضعيف لأن إبراهيم وهو النخعي لم يسمع من ابن مسعود.

(٥) (٢) زياد من (حم) و(مح).

قال أبو نعيم: وقد روى الثوري عن أبي إسحاق، عن الشعبي، عن رجل من ثقيف بنحوه^(١)، وروى عبد الله بن أحمد والطهراني عن صفوان بن المعطل: هو الذي نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة وأنهم قالوا: إنه آخر التسعة موتاً الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن، وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن عمه، عن معاذ بن عبيد الله بن معمر قال: كنت جالساً عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذ ينفخ من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمها واحدة واحدة حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها في عمامتي ودفنتها، فبينما أنا أمشي إذ ناداني مناد: يا عبد الله لقد هديت، هذان حيان من الجن بنو شعيبان وبنو قيس التقوا فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذي دفنته وكان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله ﷺ قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقاً فقد رأيت عجباً، وإن كنت كاذباً فعليك كذبك^(٢).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: طائفة من الجن ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: استمعوا وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقي: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا هشام بن عمار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: ما لي أراكم سكوتاً؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن] إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ونعمك ربنا نكذب فلك الحمد^(٣). ورواه الترمذي في التفسير عن أبي مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم به قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن فذكره ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير^(٤)، كذا قال، وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاهري عن زهير بن محمد به مثله^(٥).

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُنَّ مِنَّا صَلَاتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله: ﴿لَيَنْفَقَهُنَّ فِي

(١) وسنده ضعيف لإبهام شيخ الشعبي.
(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٣٠٥. وفي سنده معاذ بن عبيد الله بن معمر ذكره البخاري في التاريخ الكبير وسكت عنه وكذا ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢٣٢/٢ وأخرجه الترمذي من طريق زهير بن محمد به (السنن، التفسير، باب ومن سورة الرحمن ح ٣٢٩١) وصححه الألباني بشواهد (السلسلة الصحيحة ٢١٥٠).
(٤) تقدم تخريجه في الرواية السابقة.
(٥) دلائل النبوة ١/٢٣٢.

الَّذِينَ وَلَّيْتُمْ لَهُمُ الدِّينَ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [التوبة: ١٢٢]، وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَحَصَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.

فأما قوله تعالى في الأنعام: ﴿يَمَعَشَرُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فالمراد هنا مجموع الجنسيتين فيصدق على أحدهما وهو الإنسان كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا الذُّلُومُ وَالْمَرْحَاتُ﴾ [الرحمن: أي: أحدهما ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرا عنهم: ﴿قَالُوا يَفْقَهُمْ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَلَمْ يَذْكُرُوا عِيسَى لَأَنْ عِيسَى ۖ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلَ فِيهِ مَوَاعِظُ وَتَرْفِيقَاتُ وَقَلِيلٌ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْمَتَمِّ لَشَرِيعَةِ التَّوْرَةِ فَالْعَمْدَةُ هُوَ التَّوْرَةُ، فَلِهَذَا قَالُوا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، وَهَكَذَا قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ حِينَ أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقِصَّةِ نَزُولِ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ: بَخْ بَخْ! هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى يَا لَيْتَنِي أَكُونُ فِيهِ جَذْعًا.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والإخبار ﴿وَالِكِ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمال فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبره صدق وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات ﴿وَالِكِ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: في العمليات.

﴿يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم وهي سورة الرحمن ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل: إن من ههنا زائدة وفيه نظر لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبعض ﴿وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيز﴾ أي: ويقيكم من عذابه الأليم، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة، ولهذا قالوا: هذا في هذا المقام وهو مقام [تبجج]^(١) ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة^(٢). والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنسان يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف.

(١) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: "سح". بدون نقط.

(٢) سنده ضعيف لإبهام الراوي عن جرير.

(١) كرهه الأمر: اشتر عليه وبلغ منه المشقة.

فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر] ولهذا قال تعالى: ﴿بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم قال جل جلاله: مهدياً ومتوعداً لمن كفر به ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم أما هذا حق أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال وأشهرها أنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد ﷺ، قد نصَّ الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل فتكون ﴿يَنْ﴾ في قوله: من الرسل لبيان الجنس، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمي، حدثنا السري بن حيان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد بن سعد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه ثم ظل صائماً ثم طواه ثم ظل صائماً ثم قال: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها والصبر على محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله^(١). ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَمْ يَكُنْ﴾ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل] وكقوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ رُيُّ﴾ [الطارق]. ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ كقوله: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات] وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَانَ لَوْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [يونس: ٤٥].

وقوله: ﴿بَلَى﴾. قال ابن جرير يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون تقديره، وذلك لبث بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ^(٢). وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب. آخر تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد والمثنة.

(١) سنده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد كما في التقريب.

(٢) ذكره الطبري بنحوه.

سورة القتال (١) [وهي مدنية] (٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ① ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ② ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ ③

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ④ [الفرقان] ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم وأنقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي: أمرهم (٣). وقال مجاهد: شأنهم (٤).

وقال قتادة وابن زيد: حالهم (٥). والكل متقارب.

وقد جاء في حديث تشميت العاطس: «يهديكُم الله ويصلح بالكم» (٦).

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل؛ أي: اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

(١) وتسمى سورة محمد كما في المصاحف المعاصرة. (٢) زيادة من (حم) و(مع).

(٣) أخرجه الطبري والحاكم من طريق أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٤٥٧/٢).

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وعبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن زيد.

(٦) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ؓ (الصحيح، الأدب، باب إذا عطس كيف يُشمت ح ٦٢٢٤).

﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ
الْكُرْبُ أَوْزَارَهُمْ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ
﴿٤﴾ سَيَجْعَلُ اللَّهُ مَقْلَبَهُمْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥﴾ وَلِيَجْزِيَهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا كَمَّا ﴿٦﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ نَصْرَكُمُ اللَّهُ وَيَلْبِسْ
أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ
الرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ﴾ أي: أهلكتموهم قتلاً
﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ الأسارى الذين تأسروهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في
أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أسرارهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم
وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله ﷻ عاتب المؤمنين على
الاستكثار من الأسارى يومئذٍ، ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذٍ فقال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِي
أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَشْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ لَوْلَا
كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لِّمَسْئَلِكُمْ فِيمَا أَعْدَدْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال].

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله
تعالى: ﴿إِذَا أَسْلَحَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفي عن
ابن عباس^(١). وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج^(٢).
وقال الآخرون وهم الأكثرون: ليست بمنسوخة^(٣)، ثم قال بعضهم: إنما الإمام مخير بين
المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن
أبي معيط من أسارى بدر. وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟»
فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن تمنن على شاكرك، وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما
شئت^(٤). وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو
استرقاقه أيضاً، وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام
ولله ﷻ الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْكُرْبُ أَوْزَارَهُمْ﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة
والسلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان
عن الضحاك، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سفيان عن السدي، وأخرجه الطبري بسند صحيح من
طريق عبد الله بن المبارك عن ابن جريج.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن جريج عن عطاء (المصنف رقم ٩٣٨٩) وأخرجه عبد الرزاق بسند
صحيح عن معمر عن قتادة في التفسير.

(٤) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة (صحيح البخاري، المغازي، باب وفد بني حذيفة ح ٤٣٧٢، وصحيح
مسلم، الجهاد، باب ربط الأسير وجسه ح ١٧٦٤).

آخرهم الدجال»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، عن جبير بن نفير قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني سببت الخيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام، فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٢) وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير، عن سلمة بن نفيل [السكوني]^(٣) به^(٤).

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، عن جبير بن نفير، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فتح قالوا: يا رسول الله سببت الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب أوزارها قالوا لا قتال قال: «كذبوا الآن جاء القتال، ولا يزال الله تعالى يرفع قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم منهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك وعقر دار المسلمين بالشام»^(٥). وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد به^(٦)، والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل كما تقدم، وهذا يقوي القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب.

وقال قتادة: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» حتى لا يبقى شرك^(٧)، وهذا كقوله تعالى: «وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ» [البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: حتى تضع الحرب أوزارها؛ أي: أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله ﷻ، وقيل: أوزار أهلها بأن يذلوا الوسع في طاعة الله ﷻ وقوله: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده «وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ» أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتى آل عمران وبراءة في قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ» ﴿٧٢﴾ [آل عمران].

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة: «تَتَلَوْنَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٢٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/١٠٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح ١٩٣٥).

(٣) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل صحف إلى: «السلوني».

(٤) سنن النسائي الخيل ٦/٢١٤ وسنده كسابقه.

(٥) فيه عننة الوليد بن مسلم وهو كثير التدليس والتسوية كما في (التقريب ص ٥٨٤)، وقد صح كما تقدم عن سلمة بن نفيل.

(٦) أخرجه ابن حبان عن أبي يعلى به (الإحسان ح ٧٣٠٧) وسنده كسابقه.

(٧) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

وَيَسْأَلُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ وَيَذْهَبُ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾ [التوبة].

ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي، حدثنا ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مرة، عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال: عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويُزوج من الحور العين، ويأمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويُحلى حلة الإيمان»^(١). تفرد به أحمد رحمه الله.

حديث آخر: قال أحمد أيضاً: حدثنا الحكم بن نافع، حدثني إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معديكرب الكندي رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلى حلة الإيمان، ويُزوج الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه». وقد أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه^(٢).

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدين»^(٣) وروي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»^(٤) ورواه أبو داود^(٥) والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله: ﴿سَيِّدِهِمْ﴾ أي: إلى الجنة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس].
وقوله: ﴿وَيُضَلِّحُ بِأَلَمِهِ﴾ أي: أمرهم وحالهم ﴿وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾^(٦) أي: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٩/٣٢٢ ح ١١٧٨٣) وحسن سنده محققوه.

(٢) (المسند ٤/١٣١)، وسنن الترمذي، فضائل الجهاد، باب ثواب الشهيد (ح ١٦٦٣)، وسنن ابن ماجه، الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله (ح ٢٧٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٢٢٥٧).

(٣) صحيح مسلم، الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياها إلا الدين (ح ١٨٨٦).

(٤) المصدر السابق (ح ١٨٨٥).

(٥) سنن أبي داود، الجهاد، باب الشهيد يشفع (ح ٢٥٢٢). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٢٢٠١).

ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحداً^(١)، وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا^(٢).
وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له، فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه^(٣).
ذكرهن ابن أبي حاتم رحمه الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضاً رواه البخاري من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلس المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدي منه بمنزله الذي كان في الدنيا»^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٥) كقوله: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ كما جاء في الحديث: «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ورسوله ﷺ.

وقد ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش!»^(٥)؛ أي: فلا شفاه الله.
وقوله: ﴿وَأَصْلَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبونه ﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾^(٦).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا﴾^(١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ^(٢) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْجِيءٌ لَهُمْ^(٣) وَكَأَيْنَ مِنْ قَرْنٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ^(٤).

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٢) سنده صحيح. (٣) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٤) صحيح البخاري، المظالم، باب قصاص المظالم (ح ٢٤٤٠).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٢٠٠.

(٦) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل ورد تقديم قوله: ﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩] قبل قوله: «لا يريدونه».

عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؕ أَي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم؛ أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَشْتَلْنَا﴾.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ يَأْنٍ اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ﴾ ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر فلم يجب وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله بل أبقي الله تعالى لك ما يسوءك، وإن الذين عددت لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها، ولم أنه عنها، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعلُ هبل اعلُ هبل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال ﷺ: قولوا: «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ؕ أَي: يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ ؕ أَي: في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كما تأكل الأنعام خضماً وقضماً، وليس لهم همّة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(٢).

ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ؕ أَي: يوم جزائهم، وقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ يعني: مكة ﴿أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر أبي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حنش، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أتاه قال: فالتفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك» فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول^(٣) الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾^(٤).

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ٢٠٠.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر ؓ (صحيح البخاري، الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد ح ٥٣٩٣، وصحيح مسلم، الأشربة، باب المؤمن يأكل في معي واحد ح ٢٠٦٠).

(٣) أي: جمع ذحل وهو الحقد والثأر.

(٤) أخرجه الطبري عن محمد بن عبد الأعلى به، وسنده ضعيف جداً لأن حنشاً وهو الحسين بن قيس الرُّخبي: =

﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ﴿١٥﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ أي: على بصيرة ويقين من أمر الله ودينه بما أنزل في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أَفَن يَقَالُ إِنَّمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الحشر].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: نعتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾.

قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني: غير متغير^(١).

وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير مُتَن^(٢).

والعرب تقول: أسن الماء إذ تغير ريحه^(٣).

وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم: غير آسن؛ يعني: الصافي الذي لا كدر فيه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق قال: قال عبد الله عليه السلام: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك^(٤).

﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة.

وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضروع الماشية».

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [الصافات]، ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الواقعة]، ﴿بَيضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾ [الصافات].

وفي حديث مرفوع: «لم يعصرها الرجال بأقدامهم»^(٥).

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح.

وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل»^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن هارون، أخبرنا الجريري، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه،

= متروك (التقريب ص ١٦٨)، ومطلع الحديث له شواهد لكن ذكر نزول الآية، ولهذا قال القرطبي: وهو حديث صحيح (الجامع لأحكام القرآن ١٦/٢٣٥).

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) ذكره الطبري بنحوه. (٤) سنده صحيح.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر عن سعيد بن جبير.

(٦) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر عن سعيد بن جبير.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد»^(١). ورواه الترمذي في صفة الجنة عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي أياس الجريري وقال: حسن صحيح^(٢).

وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادي، حدثنا أبو عمران الجوني، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تَشُحُّبُ من جنة عدن في جوبة»^(٣) ثم تصدع بعد أنهاراً^(٤).

وفي الصحيح: «إذا سألتكم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن»^(٥).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مصعب بن حمزة الزبيري وعبد الله بن الصفر السكري قالوا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثني عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود قال دلهم، وحدثني أيضاً أبو الأسود، عن عاصم بن لُقَيْط قال: إن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله فعلام نطلع من الجنة؟ قال ﷺ: «على أنهار غسل مصفى، وأنهار خمر ما بها من صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله أولنا فيها زوجات مصلاحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير أن لا توالد»^(٦).

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة، عن يزيد بن هارون، أخبرني الجريري، عن معاوية بن قرة، عن أبيه، عن أنس بن مالك ﷺ قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر^(٧)^(٨). وقد رواه أبو بكر بن مردويه من حديث مهدي بن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٣/٢٤٦ ح ٢٠٠٥٢) وحسن سنده محققوه.

(٢) سنن الترمذي، صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة (ح ٢٥٧١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٠٧٨).

(٣) أي: الحفرة.

(٤) في سنده الحارث بن عبيد وهو صدوق يخطئ (التقريب ص ١٤٦) ويشهد له لاحقه، وأخرجه الإمام أحمد من طريق الحارث به (المسند ٣٢/٥٠٥ ح ١٩٧٣١) وضعفه محققوه.

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة آل عمران آية ١٣٣.

(٦) أخرجه الطبراني مطولاً (المعجم الكبير ١٩/٢١١)، وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند من طريق عبد الرحمن بن المغيرة الحزامي به مطولاً (المسند ٢٦/١٢١ - ١٢٨) وقال محققوه: إسناده ضعيف مسلسل بالمجاهيل عبد الرحمن بن عياش، ودلهم بن الأسود، وأبوه الأسود بن عبد الله بن حاجب مجهولون.

(٧) أي: الجيد للغاية.

(٨) أخرجه أبو نعيم من طريق يزيد بن هارون به (الحلية ٦/٢٠٥)، وسنده ضعيف لأن الجريري وهو سعيد بن =

حكيم، عن يزيد بن هارون به مرفوعاً^(١).

وقوله: ﴿وَلَمْ يَهَيَّأْ مِنْ كُلِّ الشَّيْءِ﴾ كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِهَةٍ مَّامِينَةٍ﴾ [الدخان] كقوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَنَكِهَةٍ زَوَاجٌ﴾ [الرحمن].

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: مع ذلك كله. وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ﴾ [أي: هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟]^(٢) ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حاراً شديداً الحر لا يستطيع ﴿فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء - عياداً بالله تعالى من ذلك.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [١٦] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَءَانَّهُمْ يَقُونَهُمْ﴾ [١٧] ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [١٨] ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [١٩].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي: الساعة. لا يعقلون ما قال ولا يكثرثون له. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ﴾ أي: والذين قصدوا الهداية وفهمهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُونَهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم.

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: وهم غافلون عنها ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ [٥١] ﴿أَرْفَتِ الْأَظْفَرُ﴾ [النجم] وكقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ [القمر] وقوله ﷺ: ﴿أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [١] [الأنبياء]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين.

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة^(٣). وهو كما قال ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي.

= إياس اختلط ورواية يزيد بن هارون بعد الاختلاط (تهذيب التهذيب ٥/٤ - ٧).

(١) ذكره ابن القيم سند ابن مردويه عن محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى حدثنا مهدي بن حكيم (حادي الأرواح ص ١٧٣) وسنده كسابقة.

(٢) زيادة من (حم) و(مع). (٣) ذكره النحاس في إعراب القرآن ١٨٥/٤.

وقال البخاري: حدثنا أحمد بن المقدم، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ إِنْ جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنذَرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]. ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّهُ لَهُمْ أَلْتَنَآؤُسٌ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ]. وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»^(٢).

وفي الصحيح: أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت»^(٣).

وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرجس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت من طعامه فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقال ﷺ: «ولك» فقلت: أستغفر لك. فقال رسول الله ﷺ: «نعم ولكم» وقرأ ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم نظرت إلى نُغْضٍ^(٥) كتفه الأيمن - أو كتفه الأيسر شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل^(٦)، ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به^(٧).

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو يعلى: حدثنا محمد بن عون، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نصيرة، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما فإن إبليس قال: إنما أهلك الناس

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٨٧.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (صحيح البخاري، الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت» ح ٦٣٩٨، وصحيح مسلم، الذكر والدعاء ح ٢١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الصحيح، صلاة المسافرين وقصرها ح ٧٧١).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ح ٦٣٠٧).

(٥) أي: أعلى كتفه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٨٢/٥) وسنده صحيح.

(٧) صحيح مسلم، الفضائل، باب إثبات خاتم النبوة (ح ٢٣٤٦).

بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»^(١).

وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٢)، والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود] وهذا القول ذهب إليه ابن جريج^(٣) وهو اختيار ابن جرير.

وعن ابن عباس: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في الآخرة^(٤).

وقال السدي: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم، والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله ﷻ وأمر به نكل عنه كثير من الناس كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ﴾ [النساء] وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتملة على حكم القتال ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فرعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء.

ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا؛ أي: في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: خلصوا له النية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثته (المسند ١/ ١٢٣ ح ١٣٦) وسنده ضعيف لضعف عثمان بن مطر (مجمع الزوائد ٢٠٧/ ١٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (المسند ١٧/ ٣٣٧ ح ١١٢٣٧) وحسن سنده محققه.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة.

قال البخاري: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان، حدثني معاوية بن أبي مزرّد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت [بحقوقي] ^(١) الرحمين فقال مه، فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك» قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ ^(٢) ثم رواه البخاري من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبي مزرّد به قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾» ^(٣). ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرّد به ^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا [إسماعيل بن علي، حدثنا عيينة] ^(٥) بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» ^(٦). ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث إسماعيل هو ابن علي به، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح ^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد [المرئي] ^(٨)، حدثنا محمد بن عباد المخزومي، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سرّه النساء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه» ^(٩). تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيح.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسئون أفأكافئهم؟ قال ﷺ: «لا، إذن تتركون جميعاً ولكن

(١) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل بياض.

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [القتال: ٢٢] ح ٣٨٣٠).

(٣) المصدر السابق (ح ٤٨٣١، ٤٨٣٢).

(٤) صحيح مسلم، البر والصلة، باب صلة الرحم (ح ٢٥٥٤).

(٥) كذا في (حم) و(مح) والمسند، وفي الأصل خلط الناسخ بين الإسمين فجاء بلفظ: «إسماعيل بن عيينة بن عبد الرحمن».

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٩/٣٤ - ٤٠ ح ٢٠٣٩٨) وصححه سننه محققوه.

(٧) سنن أبي داود، الأدب، باب في النهي عن البغي (ح ٤٩٠٢)، وسنن الترمذي، صفة القيامة، (ح ٢٥١١)،

وسنن ابن ماجه، الزهد، باب البغي (ح ٤٢١١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٩٨).

(٨) كذا في المسند وفي النسخ الخطية: «المراي».

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٨٦/٣٧، ٨٧ ح ٢٢٤٠٠)، وحسن سننه محققوه.

جد بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله ﷻ ما كنت على ذلك»^(١). تفرد به أحمد من هذا الوجه وله شاهد من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا فطر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»^(٢). رواه البخاري.

وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة^(٣)، أخبرنا قتادة، عن أبي ثمامة الثقفي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حجنة كحجنة^(٤) المغزل تكلم بلسان طلق ذلق، فتقطع من قطعها وتصل من وصلها»^(٥). وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَةٌ من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها بئته»^(٦). وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار به، وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولوية وقال الترمذي: حسن صحيح^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ، أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض فقال له عبد الرحمن ﷺ: وصلت رحمك، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمها من اسمي، فمن يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبته - أو قال: - من بئها أبته»^(٨). تفرد به أحمد من هذا الوجه، ورواه أحمد أيضاً من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن الرِّدَاد - أو أبي الرِّدَاد - عن عبد الرحمن بن عوف به، ورواه أبو داود والترمذي من رواية أبي سلمة، عن أبيه^(٩)، والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عيسى بن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٠٣/١١ ح ٦٧٠٠) وقال محققوه: حسن لغيره. وذكرنا بعض شواهد الصحيحة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٦٣/٢) وسنده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري من طريق فطر به (الصحيح، الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ ح ٥٩٩١).

(٤) هو المعوج رأسها.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته مع تقديم وتأخير (المسند ٣٨٨/١١ ح ٦٧٧٤) وضعفه محققوه لجهالة أبي ثمامة الثقفي.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٣/١١ ح ٦٤٩٤) وقال محققوه: صحيح لغيره.

(٧) سنن أبي داود، الأدب، باب في الرحمة (ح ٤٩٤١)، وسنن الترمذي، البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (ح ١٩٢٤). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤١٣٢).

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٩٨/٣ ح ١٦٥٩) وقال محققوه: صحيح لغيره.

(٩) (المسند ١/١٩٤)، وسنن أبي داود، الزكاة، باب في صلة الرحم (ح ١٦٩٤)، وسنن الترمذي، البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم (ح ١٩٠٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ١٤٨٦).

يونس، عن الحجاج بن الفرافصة، عن أبي عمر البصري، عن سليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(١) وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الألسنة وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم»^(٢).
ولالأحاديث في هذا كثيرة، والله أعلم^(٣).

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ (٢٧) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ (٢٨).

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه ونهاياً عن الإعراض عنه فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوماً ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)؟ فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر ﷺ حتى ولي فاستعان به^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ (٢٤) أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ (٢٥) أي: زين لهم ذلك وحسنه ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥) أي: غرهم وخدعهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ (٢٦) أي: مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبيتون. ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦) أي: ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ (٢٧) أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ولهذا قال ههنا: ﴿ذَٰلِكَ﴾

(١) تقدم تخريجه في سورة الكهف آية ١٤.

(٢) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٦/٢٦٣ ح ٦١٦٩) قال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم (مجمع الزوائد ٧/٢٨٧).

(٣) زيادة من (حم) و(مح).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، ورجاله ثقات لكنه مرسل.

يَأْنَهُمْ أَتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٣٨﴾ .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ ﴿٣٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَعَرَفْنَاهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٤٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٤١﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ ﴿٣٩﴾؟ أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فيبين فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ يقول تعالى ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿وَلَعَرَفْنَاهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفجواه، وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيراً فخير وإن شراً فشر» ^(١).

وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته ههنا، وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سميت فليقم، ثم قال: قم يا فلان، قم يا فلان قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ثم قال: إن فيكم - أو منكم - منافقين فاتقوا الله» قال فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال: بُعداً لك سائر اليوم ^(٢).

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم أي: لنرى.

(١) أسنده الحافظ في تفسير سورة الفتح آية ٢٩ وسيأتي تخريجه وتضعيفه هناك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣٦/٣٧ ح ٢٢٣٤٨) قال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة عياض الراوي عن ابن مسعود، ومثته منكر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَ أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٣٥﴾ .

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام أحمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة»: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل^(١)، ثم روي عن طريق عبد الله بن المبارك أخبرني بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها^(٢).

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: بالردة، ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية.

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ﴾ أي: المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعُدْكم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة، والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفارة قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿وَلَنْ يَتَرَكَ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً.

(١) أخرجه المروزي بسنده ومته (تعظيم قدر الصلاة ٢/ ٦٤٥ ح ٦٩٨) وسنده مرسل.

(٢) سنده حسن، وتقدم نحوه في تفسير سورة النساء آية ٤٨.

﴿إِنَّمَا لِلْحَيَوَةِ الدُّنْيَا لَهَبٌ وَلَهُوَ﴾ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَأْذِنُكُمُ ۖ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِخَلْوَاهُمْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٦﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءُ تُدْعَوْنَ لِتُخْفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا لِلْحَيَوَةِ الدُّنْيَا لَهَبٌ وَلَهُوَ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمُ ۖ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِخَلْوَاهُمْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِئْكُمْ بِخَلْوَاهُمْ﴾ أي: يحرجمكم تبخلوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق قتادة فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءُ تُدْعَوْنَ لِتُخْفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبإل ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه، فوصفه بالغني وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة ؓ قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»^(١). تفرد به مسلم بن خالد الزنجي، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه البستي من طريق مسلم بن خالد به. وفي سنده مسلم بن خالد الزنجي فيه مقال قد روي من طرق أخرى فأخرجه الترمذي من طريق شيخ من أهل المدينة عن العلاء به ثم قال: غريب في إسناد مقال. وأخرجه أيضاً من طريق عبد الله بن جعفر بن نجيع عن العلاء به (السنن، التفسير، باب ومن سورة محمد ﷺ ح ٣٢٦٠ و ٣٢٦١) وعبد الله بن جعفر بن نجيع: ضعيف (التقريب ص ٢٩٩)، وصححهما الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ٢٥٩٨ - ٢٥٩٩).

وأخرجه الحاكم من طريق عبد العزيز بن محمد عن العلاء به لكن بدون قوله «ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس». وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤٥٨).

سُورَةُ الْفَتْحِ

وهي مدنية

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قره قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع^(١) فيها قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته^(٢). أخرجاه من حديث شعبة به^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله ﷻ هذه السورة من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية^(٤).

وقال الأعمش: عن أبي سفيان، عن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية^(٥).

وقال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة. والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتانا فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض

(١) أي: ردد صوته بالقراءة وكيفيته: ١٠ ١٠ ١٠ ثلاث مرات هكذا ذكره البخاري في كتاب التوحيد (ح ٧٥٤) وينظر فتح الباري (٥٨٤/٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٢٤/٥) وسنده صحيح.

(٣) صحيح البخاري، التفسير، سورة الفتح ٤٨٣٥، وصحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب ذكر قراءة النبي ﷺ سورة الفتح يوم مكة (ح ٧٩٤).

(٤) يشهد له رواية البخاري عن البراء رضي الله عنه التالية.

(٥) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به ويشهد له ما يليه.

ودعا ثم صَبَّ فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أُصْدِرَتْنا^(١) ما شئنا نحن وركائبنا^(٢).
وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألتُه عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ، قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نزلت^(٣) على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء قال: فقال النبي ﷺ: «نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها» **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾** **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**^(٤). ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رضي الله عنه^(٥)، وقال علي بن المديني: هذا إسناد مديتي جيد لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾** مرجعه من الحديبية. قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إلي مما على الأرض» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله لقد بين الله ﷻ ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ: **﴿يَدْخُلِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** حتى بلغ **﴿فَوَرَّادًا وَّعِظِيمًا﴾** [الفتح: ٥]^(٦). أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به^(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مجمع بن يعقوب قال: سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري، عن عمه مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون^(٨) الأباعر فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نوجف فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾** قال: فقال: رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أي رسول الله أو فتح هو؟ قال ﷺ: «إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح» فقسمت خبير على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً. وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلاثمائة فارس أعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهماً^(٩). ورواه أبو

(١) أي: صرفتنا وقد روي.

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومته (الصحيح، المغازي، باب غزوة الحديبية ح ٤١٥٠).

(٣) أي: ألححت.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومته (المسند ٣١/١) وسنده صحيح.

(٥) صحيح البخاري، المغازي، غزوة الحديبية (ح ٤١٧٧)، وسنن الترمذي التفسير، باب ومن سورة الفتح (ح ٣٢٦٤)، والسنن الكبرى للنسائي التفسير، (ح ١١٤٩٩).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومته (المسند ١٩٧/٣) وسنده صحيح.

(٧) صحيح البخاري، الباب السابق (ح ٤١٧٢)، وصحيح مسلم، الجهاد والسير، باب صلح الحديبية (ح ١٧٨٦).

(٨) أي: يزجرون إيلهم ويدفعونها.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومته (المسند ٢٤/٢١٢، ٢١٣ ح ١٥٤٦٩) وضعف سنده محققوه.

داود في الجهاد، عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب به^(١).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو [بحر، حدثنا شعبة]^(٢)، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة قال: سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: لما أقبلنا من الحديبية عرسنا فنمنا فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم قال: فقلنا أيقظوه. فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: «افعلوا ما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي» قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٣). وقد رواه أحمد وأبو داود والنسائي من غير وجه عن جامع بن شداد به^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن زياد بن علاقة قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٥). أخرجه وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به^(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن ابن قسيط، عن ابن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه^(٧)، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله ﷺ أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٨) أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عوف الخراز - وكان ثقة بمكة -، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا مسعر عن قتادة، عن أنس قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - أو قال ساقاه - فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٩) غريب من هذا الوجه.

(١) سنن أبي داود، الجهاد، باب فيمن أسهم له سهماً (ح ٢٧٣٦).

(٢) زيادة من (حم) و(مع)، وفي الأصل بياض وسطه كلمة: «ثنا».

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وأخرجه أبو داود من طريق شعبة به. (السنن، الصلاة، باب في من نام عن الصلاة أو نسيها ح ٤٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٣٠).

(٤) (المسند ١/٤٦٤) والسنن الكبرى للنسائي (ح ٨٨٥٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٤/٢٥٥) وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿لَا يَغْفِرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ...﴾ [الفتح: ٢] (ح ٤٨٣٧)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (ح ٢٨١٩).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٦/١١٥) وسنده صحيح.

(٨) صحيح مسلم، الباب السابق (ح ٢٨٢٠).

(٩) أخرجه الطبراني من طريق عبد الله الخراز به (المعجم الأوسط ح ٥٧٣٧) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد ٢/٢٧٤) ويشهد له سابقه.

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) أي: بيناً وظاهراً والمراد به صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى الله وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمان الله إلا أجبتهم إليها» (١) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (٢) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَنْتَهُ عَنْكَ أَي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ (٣) أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٢).

وعن عمر بن الخطاب أنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٤) لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧).

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس وعنه: الرحمة (٣). وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة، يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم، وقد استدلل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب، ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

(١) أخرجه البخاري من حديث المسور بن مخرمة ومروان مطولاً (الصحيح، الشروط، باب الشروط في الجهاد ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الإسراء آية ٢٩.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قد تقدم حديث أنس حين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾^(١) أي: ماكثين فيها أبداً ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر ويرحم ويشكر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ كقوله: ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَرْفُ السَّوَةِ﴾ أي: يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام ومن الكفرة والمنافقين ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيْبًا حَكِيْمًا﴾^(٧).

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا^(٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا^(١٠).

يقول تعالى لنبهه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي: على الخلق ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب^(٢). ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه^(٣) ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحون الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره.

ثم قال لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ كقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبِلُونَ وَيُقْبَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١١) [التوبة].

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري: حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال سول الله ﷺ: «من سلَّ سيفه في سبيل الله فقد بايع الله»^(٤).

(١) تقدم تخريجه في مطلع تفسير هذه السورة الكريمة.

(٢) في الآية ٤٥.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ومعناه صحيح وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه وضعفه (ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/١٥٤).

وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله لبيعته الله يوم القيامة له عيان ينظر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِالْحَقِّ فَمَنْ تَكَفَّ فَإِنَّمَا يَنكُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث والله غني عنه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذٍ قیل: ألفاً وثلاثمائة، وقیل: وأربعمائة، وقیل: وخمسمائة، والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك:

قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة^(٢).

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به^(٣)، وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذٍ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى روي كلهم^(٤)، وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية، فجاشت بالماء حتى كففتهم فليل لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: كنا ألفاً وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لكفانا، وفي رواية في الصحيحين عن جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة^(٥).

وروي البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة^(٦)، [قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة قال ﷺ: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة]^(٧) قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال أربع عشرة مائة^(٨)، وروي

(١) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٩١/٥ ح ٢٢١٥)، وابن ماجه (السنن، المناسك، باب استلام الحجر ح ٢٩٤٤) من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم به بدون ذكر الآية، وصححه محققو المسند، والألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح ٢٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨ ح ٤٨٤٠].

(٣) صحيح مسلم، الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش. (ح ٧١/١٨٥٦).

(٤) صحيح البخاري، الأشربة، باب شرب البركة (ح ٥٦٣٩)، وصحيح مسلم، الإمارة، الباب السابق (ح ٧٤/١٨٥٦) واللفظ للبخاري ولفظ مسلم ليس فيه معجزة نبع الماء.

(٥) نفس المصدرين السابقين (صحيح مسلم ح ٧٢/١٨٥٦ وصحيح البخاري ح ٥٦٣٩).

(٦) أخرجه البخاري من طريق سعيد، وهو ابن أبي عروبة عن قتادة به (الصحيح، المغازي، غزوة الحديبية ح ٤١٥٣). وقد جمع الحافظ ابن حجر فقال: والجمع بين هذا الاختلاف عن جابر أنهم كانوا زيادة على ألف وأربعمائة، فمن اقتصر عليها ألغى الكسر، ومن قال: ألف وخمسمائة جبره (فتح الباري ١٠٢/٧).

(٧) زيادة من (حم) و(مح).

(٨) دلائل النبوة ٩٧/٤.

العوفي، عن ابن عباس أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين^(١)، والمشهور الذي رواه غير واحد عنه أربع عشرة مائة، وهذا هو الذي رواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن يحيى بن معين، عن شابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة^(٢)، وكذلك هو الذي في رواية سلمة بن الأكوع ومقل بن يسار والبراء بن عازب، وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير.

وقد أخرج صاحبها الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين^(٣).

وروى محمد بن إسحاق في السيرة عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه قالاً: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة^(٤) مائة، كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة، [كما سيأتي إن شاء الله تعالى]^(٥).

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة، ليلبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان، فبعته إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة، فخرج عثمان إلى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحملة بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون:

(١) سنده ضعيف لضعف العوفي والراوي عنه.

(٢) أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٩٨/٤) ويشهد له ما سبق في الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الحديبية (ح ٤١٥٥) وصحيح مسلم، الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (ح ١٨٥٧).

(٤) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٢٦٥/٣).

(٥) زيادة من (حم) و(مح).

بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر^(١)، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجذ بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقتة، قد صبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل^(٢).

وذكر ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان، سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادي رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ: بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفروا أبداً. فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى المودة والصلح^(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن [عبيد]^(٤) الصفار، حدثنا هشام، حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله» فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم^(٥).

قال ابن هشام: حدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي قال: إن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي^(٦).

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي فقال: أبسط يدك أبايعك. فقال النبي ﷺ: «علام تباعيني؟» فقال أبو سنان: على ما في نفسك، هذا أبو سنان وهب الأسدي رضي الله عنه^(٧).

وقال البخاري: حدثنا شجاع بن الوليد أنه سمع النضر بن محمد يقول: حدثنا صخر، عن

(١) قول جابر أخرجه مسلم (المصدر السابق ح ٦٨/١٨٥٦).

(٢) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٣١٥/٢).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ١١٢/٤. وسنده مرسل وله شواهد تقويه.

(٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحف إلى: «عبد».

(٥) سنده ضعيف لضعف الحكم بن عبد الملك (التقريب ص ١٧٥).

(٦) السيرة النبوية ٣١٦/٢، والسند الأول ضعيف لإبهام شيخ ابن هشام، والسند الثاني مرسل.

(٧) أخرجه البيهقي من طريق الحميدي به (دلائل النبوة ١٣٧/٤) وسنده مرسل.

نافع قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار، أن يأتي به، ليقاتل عليه ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر^(١).

ثم قال البخاري، وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع، عن ابن عمر قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال يعني: عمر: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ؟ فوجدهم يبايعون فبايع، ثم رجع إلى عمر، فخرج فبايع^(٢). وقد أسنده البيهقي، عن أبي عمرو الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم، حدثني الوليد بن مسلم... فذكره.

وقال الليث: عن أبي الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر ﷺ أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال: بايعناه على أن لا نفرّ ولم نبايعه على الموت^(٣). رواه مسلم عن قتيبة عنه.

وروى مسلم، عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله الأعرج، عن معقل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفرّ^(٤).

وقال البخاري: حدثنا المكي بن إبراهيم، عن يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت^(٥).

وقال البخاري أيضاً: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تنحيت فقال ﷺ: «يا سلمة ألا تبايع؟» قلت: قد بايعت، قال ﷺ: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته، قلت: علامَ بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت^(٦).

(١) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، المغازي، باب غزوة الحديبية ح ٤١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بسنده ومثله (المصدر السابق ح ٤١٨٧)، قال الحافظ ابن حجر: وقد وصله الإسماعيلي عن الحسن بن سفيان عن دحيم وهو عبد الرحمن بن إبراهيم عن الوليد بن مسلم بالإسناد المذكور. (فتح الباري ٥٦٧/٧).

(٣) أخرجه مسلم بسنده ومثله (الصحيح، الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ح ٦٧/١٨٥٦).

(٤) أخرجه مسلم بسنده ومثله (المصدر السابق ح ١٨٥٨).

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، الجهاد، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا ح ٢٩٦٠).

(٦) أخرجه البخاري بسنده بنحوه (الصحيح، الأحكام، باب من بايع مرتين ح ٧٢٠٨).

وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد^(١)، وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت^(٢).

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار يمامي، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويهما، ففقد رسول الله ﷺ على جباها يعني الركي^(٣)، فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة، فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ: «بايعني يا سلمة» قال: فقلت يا رسول الله: قد بايعتك في أول الناس قال ﷺ: «وأيضاً» قال ورأني رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني حجة أو درقة^(٤)، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس، قال ﷺ: «ألا تباع يا سلمة؟» قال: قلت يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم، قال ﷺ: «وأيضاً» فبايعته الثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟» قال: قلت يا رسول الله ﷺ لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذي قال الأول اللهم ابغني حبيباً هو أحب إلي من نفسي».

قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أسقي فرسه وأحسه وأكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض أتيت شجرة فكسحت شوكةا، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين قتل ابن زُئيم! فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة، وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي ثم قلت: والذي كرم وجهه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه! قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له: مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه» فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَنْظَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤]^(٥)، وهكذا رواه مسلم، عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه أو قريباً منه^(٦).

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب قال: كان أبي

(١) صحيح مسلم، الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش... (ح ١٨٦٠).

(٢) صحيح البخاري، الجهاد، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا (ح ٢٩٥٩).

(٣) أي: البثر. (٤) أي: نوع من التروس.

(٥) دلائل النبوة ١٣٨/٤ وأغلبه في صحيح مسلم كما يلي.

(٦) صحيح مسلم، الجهاد، باب غزوة ذي قرد وغيرها (ح ١٨٠٧).

ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قابل حاجين فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم فأنتم أعلم^(١).

وقال أبو بكر الحميدي^(٢): حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر رضي الله عنه قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً منا يقال له: الجد بن قيس مختبئاً تحت إبط بعيره، رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير به^(٣).

وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سفيان، عن عمرو سمع جابراً قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة، قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها^(٤). أخرجاه من حديث سفيان^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعشي، حدثنا محمد بن ثابت العبدى، عن خدّاش بن عياش، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر» قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضلّ بعيره فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيري أحب إليّ من أن أبايع^(٧).

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قرّة، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من يصعد الثانية ثنية المزار فإنه يحطّ عنه ما حطّ عن بني إسرائيل» فكان أول من صعد خيل بني الخزرج ثم تبادر الناس بعد، فقال النبي ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم، فإذا هو رجل ينشد ضالة، رواه مسلم، عن عبيد الله به^(٨).

وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً رضي الله عنه يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها فقالت حفصة: «وَلَا يَنْكُرُ إِلَّا

(١) صحيح البخاري، المغازي، غزوة الحديبية (ح ٤١٦٣) وصحيح مسلم، الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش... (ح ١٨٥٩).

(٢) مسند الحميدي ٥٣٧/٢ وسنده صحيح. (٣) صحيح مسلم، الباب السابق (ح ١٨٥٦/٦٩).

(٤) مسند الحميدي ٥١٤/٢ وسنده صحيح.

(٥) صحيح البخاري، الباب السابق، (ح ٤١٥٤)، وصحيح مسلم، الباب السابق (ح ١٨٥٦/٦٨).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله ٩٣/٢٣ (ح ١٤٧٧٨) وصححه سنده محققه.

(٧) في سنده محمد بن ثابت العبدى: صدوق لين الحديث. (التقريب ص ٤٧١) وأصله في الصحيح كما يلي:

(٨) صحيح مسلم، صفات المنافقين (ح ٢٧٨٠).

وَارِدُهَا» [مريم: ٧١] فقال النبي ﷺ: قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧٢] وفيه أيضاً عن قتيبة، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: إن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ: «كذبت لا يدخلها فإنه قد شهد بدرأً والحديبية»^(٢). ولهذا قال تعالى في الشفاء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١٢] كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [١٣] [الفتح].

﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ الْمَخْلُوفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَعَلَتْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [١١] بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا أَلَسَّوْا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا [١٢] وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا [١٣] وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١٤].

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم لذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ اللهُ فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسر أئركم وإن صانعتونا ونافقتونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص بل تخلف نفاق ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر ﴿وَلظنننن ظنًّا أَلَسَّوْا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد^(٣)، وقال قتادة: فاسدين^(٤)، وقيل هي لغة عمان^(٥).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

(١) أخرجه مسلم من طريق ابن جريج به (الصحيح، فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة ح٢٤٩٦).

(٢) أخرجه مسلم بسنده ومته (الصحيح، فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ح٢٤٩٥).

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيج عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) ذكره الطبري.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ لِنَأْخُذُهَا دُونًَا نَنَاصِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن نَتَّبِعُونَكَ كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَوْنَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥).

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾.

قال مجاهد وقتادة وجوير: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية^(١). واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ فَقُل لَّن نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَكِن نَفْعِلُوا مَعِيَ عِدًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (١٥)^(٢) [التوبة]. وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك وهي متأخرة عن عمرة الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ يعني: بشيظهم المسلمين عن الجهاد^(٣). ﴿قُل لَّن نَتَّبِعُونَكَ كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية [قبل سؤالكم] الخروج معهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَوْنَ﴾ أي: أن نشرككم في المغنم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَمْرِ شَدِيدٍ فَنَقِيلُهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِن تَطَبَعُوا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَٰن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ تَحْرِيٍّ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يَُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧).

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال:

(أحدها): أنهم هوازن، رواه شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير أو عكرمة أو جميعاً،

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

(٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن المنذر.

(٤) كذا في (حم) و(مع)، وفي الأصل بياض ولفظ: «لكم».

ورواه هشيم، عن أبي بشر عنهما^(١). وبه يقول قتادة في رواية عنه^(٢).

(الثاني): ثقيف، قاله الضحاك.

(الثالث): بنو حنيفة، قاله جويبر ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري وروي مثله عن سعيد وعكرمة^(٣).

(الرابع) هم أهل فارس، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس^(٤)، وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة في إحدى الروايات عنه^(٥).

وقال كعب الأحبار: هم الروم^(٦)، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقاتادة: وهم فارس والروم^(٧).

وعن مجاهد: هم أهل الأوثان^(٨).

وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جريج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق القواريري، عن معمر، عن الزهري في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد^(٩).

وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي خالد، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون^(١٠).

قال: وحدثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة» قال سفيان: هم الترك^(١١). قال ابن أبي عمر: وجدت في مكان آخر، حدثنا ابن أبي خالد، عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة رضي الله عنه ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلوا قوماً نعالهم

(١) أخرجه البستي والطبري بسند صحيح من طريق هشيم به.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (فضائل الصحابة ١٥١٧)، والطبري كلاهما من طريق ابن إسحاق عن الزهري.

(٤) أخرجه البيهقي بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به. (دلائل النبوة ١٦٦/٤).

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري من طريق الفرج بن محمد الكلاعي عن كعب.

(٧) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن، وأخرجه الطبري بسند صحيح عن ابن وهب عن ابن زيد.

(٨) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق محمد بن ثور عن معمر عن الزهري.

(١٠) أخرجه البستي بسنده ومثله، وفي سنده والد إسماعيل وهو مقبول كما في التقريب.

(١١) أخرجه الشيخان من طريق سفيان به بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجان

المطرقة». (صحيح البخاري، الجهاد، باب قتال الذين ينتعلون الشعر ح ٢٩٢٩) وصحيح مسلم، الفتن

وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء

(ح ٢٩١٢)، وأما لفظ: «صغار الأعين ذلف الأنف» فأخرجه مسلم (المصدر السابق ٢٩١٢/٦٤).

الشعر» قال: هم البارزون، يعني: الأكراد^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْهُمْ أَوْ فَسْلِمْهُمْ﴾ يعني: شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصر عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال ﷺ: ﴿إِنْ تَطِيعُوا﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم: كالعمى والعرج المستمر. وعارض: كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

قال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق أن عبد الرحمن بن عوف قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم^(٢).

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى يعني: ابن عبيدة، حدثني إياس بن سلمة، عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة نزل روح القدس، قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال: فبايع رسول الله ﷺ لعثمان بإحدى يديه على الأخرى

(١) أخرجه البستي بسنده ومثته، وفي سنه والد إسماعيل مقبول كما في التقريب.

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثته (الصحيح، المغازي، باب غزوة الحديبية ح ٤١٦٣).

فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف»^(١).

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٢) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٤﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٦﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي جميع المغنم إلى اليوم^(٢).
﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر^(٣)، وروى العوفي، عن ابن عباس ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: يعني: صلح الحديبية^(٤).

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي: لم ينلکم سوء مما كان أعداؤکم أضمره لکم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنکم الذين خلفتموهم وراء ظهورکم عن عیالکم وحريمکم.
﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم إنه العالم بعواقب الأمور، وإن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر كما قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].
﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادکم لأمره واتباعکم طاعته، وموافقتکم رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(٥) أي: وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرُونَ عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاد بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها فقال العوفي، عن ابن عباس: هي خيبر^(٥)، وهذا على قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ إنها صلح الحديبية، وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(٦).

(١) سنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة، وأخرجه الطبراني من طريق موسى به (المعجم الكبير ٩٠/١) وضعفه الهيثمي. (مجمع الزوائد ٨٤/٩).

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٣) تخريجه كسابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به بلفظ: «الصلح».

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بما يليه.

(٦) أخرجه البستي بسند حسن من طريق وهب بن جرير عن أبيه عن ابن إسحاق، وأخرجه البستي أيضاً بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن ابن زيد.

وقال قتادة: هي مكة^(١). واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم^(٢).

وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة^(٣).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن سماك الحنفي، عن ابن عباس ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم^(٤).

وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا لَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَآتَيْنَاكُمْ لَوْلَا الْأَذْذَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول تعالى مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلا نصر الله الإيمان على الكفر ورفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خير للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى، فأوقفوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم فقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه». قال: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾^(٥) الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا. قال عفان: فعفا عنهم ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(٦). ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما من طرق عن حماد بن سلمة به^(٧).

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بلاغاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن، وأخرجه البستي والطبري بسند حسن من طريق الحكم عن ابن أبي ليلى.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) سنده حسن وأخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة به.

(٥) تقدم تخريجه في تفسير الآية (١٠) من هذه السورة الكريمة.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٢٢/٣) وسنده صحيح.

(٧) صحيح مسلم، الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] =

وقال أحمد أيضاً: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البناني، عن عبد الله بن [المغفل]^(١) المزني قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال: اكتب «باسمك اللهم»، وكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله «فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله تعالى بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم» فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحداً أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) الآية. رواه النسائي من حديث حسين بن واقد به^(٣).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، حدثنا جعفر، عن ابن أبيزى قال: لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة قال له عمر: يا نبي الله، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع^(٤)؟ قال: فبعث ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حملة، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى [فأثاه عينه]^(٥) أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل» فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله، فيومئذ سمي سيف الله، فقال: يا رسول الله ابعثني أين شئت، فبعثه على خيل فلقي عكرمة^(٦) في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ إلى ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] قال فكفَّ الله النبي ﷺ عنهم من بعد أن أظفره عليهم [لبقايها]^(٧) من المسلمين كانوا [بقوا فيها]^(٨) كراهية أن تطأهم الخيل^(٩)، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبيزى بنحوه^(١٠)، وهذا السياق فيه نظر فإنه

= (ح) ١٨٠٨، وسنن أبي داود، الجهاد، باب في المن على الأسير بغير فداء (ح) ٢٦٨٨ وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الفتح (ح) ٣٢٦٤، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير (ح) ١١٥١٠.

- (١) كذا في المسند، وفي (مع)، والأصل: «المغفل».
- (٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٧/٣٥٤، ٣٥٥ ح ١٦٨٠٠) وصححه سنداه محققوه.
- (٣) السنن الكبرى، التفسير (ح) ١١٥١١، وأخرجه الحاكم من طريق الحسين بن واقد به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٣/٤٦٠).

- (٤) أي: الخيل.
- (٥) زيادة من (حم) و(مع)، وفي الأصل بياض.
- (٦) أي: ابن أبي جهل.
- (٧) في الأصل بياض واستدرك من (حم) و(مع).
- (٨) في الأصل بياض واستدرك من (حم) و(مع).
- (٩) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وسنده ضعيف لإرساله وأن ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي ضعيف.
- (١٠) سنده ضعيف لإرساله، وفي مثله غرابة كما قرر الحافظ ابن كثير.

لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالداً لم يكن أسلم بل قد كان طليعة للمشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح، ولا يجوز أن يكون [في عمرة القضاء]^(١) لأنهم قاضوه على أن يأتي في العام القابل فيعتمر، ويقيم بمكة ثلاثة أيام، ولما قدم ﷺ لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه.

فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح لأنه لم يسق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عرمرم، فهذا السياق فيه خلل وقد وقع فيه شيء فليتأمل والله أعلم. وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس قال: إن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً فأخذوا أخذاً، فأتي بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلي سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَאَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾^(٢) الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: ابن زُنيَمٍ اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فاتوه باثني عشر فارساً من الكفار فقال لهم: «هل لكم عليّ عهد؟ هل لكم عليّ ذمة؟» قالوا: لا، فأرسلهم وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَאَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية^(٣).

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: أنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر.

﴿وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ﴾ أي: صدوا الهدي أن يصل وهذا من بغيتهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال: ﴿لَوْ

(١) في الأصل بياض واستلرك من (حم) و(مح).

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لإبهايم شيخ ابن إسحاق.

(٣) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات عن قتادة لكنه مرسل بلفظ: «زُنيَمٍ» بدل «ابن زُنيَمٍ».

تَزِيلُوا ۖ أَي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَي: لسلطانكم عليهم فلقتلتوهم قتلاً ذريعاً.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو الزباع روح بن الفرغ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد مولى بني هاشم، حدثنا حجر بن خلف قال: سمعت عبد الله بن عوف يقول: سمعت جنيد بن سبغ يقول: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفيما نزلت ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾ قال: كنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين^(١). ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به، وقال فيه، عن أبي جمعة جنيد بن سبغ... فذكره^(٢)، والصواب أبو جعفر حبيب بن سباع، ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف به قال: كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة، وفيما نزلت ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة، عن أبي حمزة، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ؓ ﴿لَوْ تَزِيلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم^(٣).

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمَمَةً حِمَّةً لِّلْجَهَنَّمِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي قول: «لا إله إلا الله» كما قال ابن جرير وعبد الله ابن الإمام أحمد. حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير، عن أبيه، عن الطفيل، يعني ابن أبي بن كعب، عن أبيه ؓ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله»^(٤). وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة ؓ أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومثله (المعجم الكبير ٢/ ٢٩٠ ح ٢٢٠٤)، وأخرجه أبو يعلى من طريق حجر بن خلف به (المسند ٣/ ١٢٩ ح ١٥٦٠) قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ١٠٧) وجود سنده السيوطي في الدر المنثور، أما السند الآخر فهو كما يلي.

(٢) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٤/ ٢٩ ح ٣٥٤٣).

(٣) سنده حسن وأبو حمزة هو محمد بن ميمون أبو حمزة السكري (ينظر تهذيب التهذيب ٥/ ٣١٣ و ٩/ ٤٨٦).

(٤) أخرجه الطبري وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند كلاهما عن الحسن بن قزعة به (المسند ٣٥/ ١٧٦ ح ٢١٢٥٥) وضعف سنده محققوه لضعف ثوير وهو ابن أبي فاختة، وله شواهد ماثورة عن الصحابة والتابعين ؓ كما سيأتي.

(٥) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الفتح (ح ٣٢٦٥).

إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» وأنزل الله في كتابه وذكر قوماً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات] وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاستكبروا عنها، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة^(١)، وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري^(٢)، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري والله أعلم.

وقال مجاهد: كلمة التقوى الإخلاص^(٣).

وقال عطاء بن أبي رباح: هي «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»^(٤).

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن المسور: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(٥).

وقال الثوري: عن سلمة بن كهيل، عن عباية بن ربيعي، عن علي بن أبي طالب: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله والله أكبر»^(٦) وكذا [قال ابن عمر]، و^(٧) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ قال: يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى^(٨).

وقال سعيد بن جبيرة: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله والجهاد في سبيله».

وقال عطاء الخراساني: هي «لا إله إلا الله محمد رسول الله»^(٩).

وقال عبد الله بن المبارك: عن معمر، عن الزهري: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وقال قتادة: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله»^(١٠).

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبي رزين، عن

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الصفات آية ٣٥، والزيادة بعد الحديث مدرجة من قول الزهري كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري من طريق يحيى بن سعيد عن الزهري به.

(٣) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من ابن جريج عن عطاء.

(٥) في سنده عن عنة ابن إسحاق، ويتقوى بسابقه ولا حقه.

(٦) أخرجه الطبري والحاكم من طريق الثوري به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٤٦١).

(٧) زيادة من (حم) و(مح). (٨) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٩) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد عن سعيد بن جبيرة وعطاء الخراساني.

(١٠) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

عبد الله بن العلاء بن زبر، عن بشر بن عبد الله، عن أبي إدريس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ﴾ ولو حميتكم كما حموا لفسد المسجد الحرام، فبلغ ذلك عمر فأغلظ له فقال: إنك لتعلم أنني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله تعالى، فقال عمر رضي الله عنه: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقراً وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله^(١).

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون. أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالوا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ^(٢) المطافيل^(٣)، قد لبست جلود النمر يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة» ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة، قال: فسلكت بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قفرة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس: خلأت^(٤)، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا» قالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه. فنزل في قليب^(٥) من تلك القُلب فغرزه فيه، فجاش^(٦) بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء

(١) أخرجه النسائي (السنن الكبرى، التفسير ح ١١٥٠٥) وأخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن العلاء به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٢/ ٢٢٥).

(٢) العوذ: الناقة القرية الولادة.

(٣) المطافيل: ذوات الأطفال وهي النوق التي فيها اللبن.

(٤) أي: تصعبت وساء خلقها.

(٥) أي: بئر.

(٦) أي: فار بالماء الغزير.

في رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: وكانت خزاعة في عيبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، مشركها ومسلمها لا يخفون على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة، ولا يتحدث بذلك العرب، ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أحد بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر» فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بنحو مما تكلم مع أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش^(١)، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون^(٢) فابعثوا الهدى» فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى فقال: يا معشر قريش لقد رأيت ما لا يحل صدّ الهدى في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس على محله، قالوا: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك.

فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنا ولد، وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه فقال: يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لنقضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وإيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، قال: وأبو بكر ؓ قاعد خلف رسول الله ﷺ فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أبي قحافة» قال: أما والله لو لا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذا بها، ثم تناول لحية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة ؓ واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد، قال: فقرع^(٣) يده، ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل، والله أن لا تصل إليك قال: ويحك ما أفظك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة» قال: أغدّر، وهل غسلت سواتك إلا بالأمس؟ قال: فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره بأنه لم يأت يريد حرباً. قال فقام من عند رسول الله ﷺ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يبيصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما

(١) الأحابيش: جماعات من قبائل شتي تحالفت مع قريش.

(٢) أي: يتعبدون ويراعون حق الله تعالى وحرمة.

(٣) أي: ضرب.

رأيت ملكاً قط مثل محمد ﷺ في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم.
قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب، فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ﷺ ليعثه إلى مكة فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني. وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعزُّ مني بها عثمان بن عفان ﷺ. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته، فخرج عثمان ﷺ حتى أتى مكة، فلقه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه أردفه خلفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان ﷺ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. قال: واحتبسته قريش عندها قال: وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان ﷺ قد قتل.

قال محمد: فحدثني الزهري أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا تلن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، تكلم وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب ﷺ، فأتى أبا بكر ﷺ فقال: يا أبا بكر أوليس برسول الله؟ أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر ﷺ: يا عمر الزم غرزه حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله. فقال عمر ﷺ: وأنا أشهد، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ قال ﷺ: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني» ثم قال عمر ﷺ: ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيراً.

قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ فقال له سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكفُّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليه ردَّه عليه، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردَّوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال^(١) ولا أغلال^(٢). وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل

(١) أي: الغارة الظاهرة.

(٢) أي: الخيانة.

فيه، فتوالت خزاعة فقالوا: ونحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتوالت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنت ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك وأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب.

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، قال: وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه قال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت» فقام إليه فأخذ بتلابيبه قال وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شراً إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهداً وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجعل يمشي مع أبي جندل، ويقول: اصبر أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال: فضنَّ الرجل بأبيه، قال ونفذت القضية، فلما فرغاً من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم وهو [مضطرب] ^(١) في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس انحروا واحلقوا» قال: فما قام أحد، قال: ثم عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل، ثم عاد ﷺ بمثلها فما قام رجل، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقال: «يا أم سلمة ما شأن الناس؟» قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى إذا أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون، حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح ^(٢). هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي عن أبي إسحاق بنحوه ^(٣)، وفيه إغراب.

وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري به نحوه ^(٤)، وخالفه في أشياء، وقد رواه البخاري رحمه الله في صحيحه فساقه سياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال في كتاب الشروط من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، أخبرني الزهري، أخبرني عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهم حديث

(١) كذا في (حم) و(مح) والمسنند، وفي الأصل صحف إلى: «مضرب».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده وطوله (المسنند ٣١/٢١٢ - ٢٢٠ ح ١٨٩١٠) وحسن سنده محققوه. وسيأتي أغلبه في صحيح البخاري.

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦/٢. (٤) (المسنند ٤/٣٢٨).

صاحبه، قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديدية في بضع مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلَّد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة وسار، حتى إذا كان بغدير الأسطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلون وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس علي، أترون أن نميل على عيالهم وذريهم هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟» وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذري هؤلاء الذين أعانوهم، فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين، وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين، وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله ﷻ». أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، وفي لفظ: فقال أبو بكر ﷺ: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن» وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله تعالى» حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل، ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديدية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح^(١) رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد^(٢) مياه الحديدية، معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا^(٣)»، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي^(٤) أو لينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته

(١) أي: أنهم موضع النصح له والأمانة على سره. (فتح الباري ٥/٣٣٧).

(٢) أي: الماء الذي لا انقطاع له. (المصدر السابق ٥/٣٣٨).

(٣) أي: استراحوا.

(٤) السالفة هي: صفحة العنق، وكنتي بذلك عن القتل لأن القتل تنفرد مقدمة عنقه (المصدر السابق).

يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قاله رسول الله ﷺ فقال عروة بن مسعود فقال: أي قوم أستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: أستم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا^(١) علي جئتمكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة. قالوا: آتة، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر ﷺ: امصص بظر اللات أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة ﷺ قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أحر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. قال: أي غدر ألسنت أسعى في غدرك؟ وكان المغيرة بن شعبة ﷺ صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آتة. فقالوا: آتة. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، قال النبي ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له». فبعثت واستقبله الناس يلبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقال رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتة. فقالوا: آتة. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد

سهل لكم من أمركم» قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا النبي ﷺ بعلي عليه السلام وقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم، ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال له النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني، اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» فقال له النبي ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون: سبحان الله كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف^(١) في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ. فقال ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيز ذلك لك قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي: معشر المسلمين أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ﷻ. قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى» قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: «بلى» قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال ﷺ: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: «بلى أفأخبرتكم أنا تأتية العام؟». قلت: لا. قال ﷺ: فإنك آتية ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتية العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتية وتطوف به.

قال الزهري: قال عمر رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد

(١) أي: يمشي مشياً بطيئاً بسبب القيد (المصدر السابق ٣٤٤/٥).

بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ﴾ حتى بلغ ﴿بِعَصِمِ الْكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠] فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم. فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد».

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] حتى بلغ ﴿حِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقرأوا أنه رسول الله، ولم يقرأوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت^(١). هكذا ساقه البخاري ههنا، وقد أخرجه في التفسير وفي عمرة الحديبية وفي الحج وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهري به. ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان والمسور، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من ههنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السلمي، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين، ولو نرى قتلاً لقاتلنا، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال رضي الله عنه: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» فرجع متغيظاً فلم يصبر

(١) أخرجه البخاري بسنده وطوله (الصحيح، الشروط، باب الشروط في الجهاد (ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح^(١).

وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع آخر ومسلم والنسائي من طرق آخر عن أبي وائل سفيان بن سلمة، عن سهل بن حنيف به^(٢)، وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أقدر على أن أردّ على رسول الله ﷺ أمره لرددته^(٣)، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم. فقال ﷺ: «اكتب من محمد رسول الله» قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: «اكتب من محمد بن عبد الله» واشتروطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال ﷺ: «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله»^(٥). رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة [به]^(٦)^(٧).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن عكرمة بن عمار قال: حدثني سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. فقال رسول الله ﷺ: «امحُ يا علي اللهم إنك تعلم أنني رسولك، امح يا علي واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» والله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحوه من النبوة أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم^(٨). ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامي بنحوه^(٩).

وروى الإمام أحمد عن يحيى بن آدم، عن [زهير]^(١٠)، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية

- (١) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿إِذْ يَأْمُرُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ح ٤٨٤٤).
- (٢) صحيح مسلم، الجهاد والسير، باب صلح الحديبية (ح ١٧٨٥) والسنن الكبرى، التفسير (ح ١١٥٠٤).
- (٣) أخرجه البخاري بهذا اللفظ (الصحيح، الجزية والموادعة، باب ١٨ ح ٣١٨١).
- (٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ (المصدر السابق ح ٣١٨٢).
- (٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٦٨/٣) وسنده صحيح.
- (٦) زيادة من (حم) و(مح).
- (٧) صحيح مسلم، الجهاد، باب صلح الحديبية (ح ١٧٨٤).
- (٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله وكنى سماكاً بأبي زُميل (المسند ٢٦٣/٥ ح ٣١٨٧) وحسن سنده محققوه.
- (٩) سنن أبي داود، اللباس، باب لباس الغليظ (ح ٤٠٣٧) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٣٤٠٦).
- (١٠) كذا في (حم) و(مح) والمسند، وفي الأصل: «ابن نمير».

سبعين^(١) بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صُدَّتْ عن البيت حَتَّتْ كما تَحِرُّنُ إلى أولادها^(٢).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَبَعَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨﴾﴾.

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قافل وقع في نفس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفأخبرتكم أنك تأتية عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتية ومطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً حذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الإستثناء في شيء. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: في حال دخولكم.

وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة لأنهم في حال [دخولهم]^(٣) لم يكونوا محلّقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال. كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة^(٤).

وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمن حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة. فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحاً، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سمالك بن خرشة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة.

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان ﷺ

(١) كذا في النسخ، وفي المسند بلفظ: «ستين». والمثبت هو الصحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله مع الخلاف المتقدم (المسند ٦٥/٥ ح ٢٨٧٩) وضعف سنده محققوه لضعف محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

(٣) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «حربهم».

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٩٦.

قريباً من مَرِّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيـل والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: «دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح». فقال ﷺ: «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج». فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ﷺ غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول:

باسم الذي لا دين إلا دينه	باسم الذي محمد رسوله
خلوا بني الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله ^(١)	ضرباً يزيل الهام عن مقيله ^(٢)
ويذهل الخليل عن خليله	قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تتلى على رسوله	بأن خير القتل في سبيله
يا ربّ إني مؤمن بقبله.	

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء دخلها وعبد الله بن رواحة ﷺ أخذ بخطام ناقته ﷺ وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله	إني شهيد أنه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله	يا رب إني مؤمن بقبله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله ^(٣)
وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء مشى عبد الله بن رواحة ﷺ بين يديه وفي رواية: وابن رواحة أخذ بغرزه وهو يقول:	

خلوا بني الكفار عن سبيله	قد نزل الرحمن في تنزيله
--------------------------	-------------------------

(١) على تنزيله: أي: كما قتلناكم على إنكار تنزيله.

(٢) الهام: أعلى الرأس، ومقبله: موضعه.

(٣) ذكره ابن هشام (السيرة ٢/ ٣٧١) وسنده مرسل.

بأن خير القتل في سبيله يا ربّ إني مؤمن بقبيله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله^(١)
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله^(٢)

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل - يعني: ابن زكريا -، عن عبد الله - يعني: ابن عثمان - عن أبي الطفيل، عن ابن عباس، قال: إن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول ما يتباعثون من العجف^(٣)، فقال أصحابه لو انتحرنّا من ظهرنا^(٤) فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جمامة^(٥).

قال ﷺ: «لا تفعلوا ولكن اجمعوا لي من أزوادكم، فجمعوا له وبسطوا الأنطاع^(٦) فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع ﷺ بردائه ثم قال: لا يرى القوم فيكم غميرة^(٧)» فاستلم الركن ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتتنقزون نقر الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سنة. قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع^(٨).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم هؤلاء أجلد من كذا وكذا^(٩). أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به^(١٠).

(١) قال الحافظ ابن حجر وصحيح الرواية:

نحن ضربيناكم على تأويله كما ضربيناكم على تنزيله
(فتح الباري ٥٠١/٧).

(٢) أخرجه البيهقي من طريق عبد الرزاق به (دلائل النبوة ٣٢٣/٤) قال الدارقطني في «الأفراد» تفرد به معمر عن الزهري، وتفرد به عبد الرزاق عن معمر. (فتح الباري ٥٠١/٧).

(٣) أي: لا يستطيعون التصرف من الضعف والهزال.

(٤) أي: ذبحنا الإبل.

(٥) أي: راحة وشبع وري.

(٦) أي: غياً.

(٧) أي: الجلود.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٤٩٨/٤ ح ٢٧٨٢) وقال: إسناده قوي.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١/٢٩٥) وسنده صحيح.

(١٠) صحيح البخاري، الحج، باب كيف كان بدء الرمل؟ (ح ١٦٠٢) وصحيح مسلم، الحج، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة (ح ١٢٦٦).

وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة يعني من ذي القعدة، فقال المشركون إنه يقدم عليكم، وقد قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قال البخاري: وزاد ابن سلمة. يعني: حماد بن سلمة، عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامة الذي استأمن قال ارملوا، ليري المشركين قوتهم والمشركون من قبل قعيقعان^(١).

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليري المشركون قوته^(٢). ورواه في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق عن سفيان بن عيينة به^(٣).

وقال أيضاً: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد أنه سمع ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول الله ﷺ، انفرد به البخاري^(٤) دون مسلم.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر رسول الله ﷺ من العام المقبل فدخلها كما كان صالحيهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً أمره أن يخرج فخرج^(٥)، وهو في صحيح مسلم أيضاً.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله، قالوا: لا نقر بهذا ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال رسول الله ﷺ: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله» ثم قال رسول الله ﷺ: «أما رسول الله» قال: لا والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها».

فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج

(١) أخرجه البخاري بسنده ومثته (الصحيح، المغازي، باب عمرة القضاء ح٤٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثته (المصدر السابق ح٤٢٥٧).

(٣) صحيح مسلم، الحج، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة (ح١٢٦٦) والسنن الكبرى للنسائي (ح٣٩٧٣).

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثته (المصدر السابق ح٤٢٥٥).

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومثته (المصدر السابق ح٤٢٥٢).

النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي يا عم يا عم، فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي: وقال جعفر رضي الله عنه: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالها وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» وقال ﷺ لزيد: «أنت أخونا ومولانا» قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة رضي الله عنه؟ قال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرضاة»^(١) تفرد به من هذا الوجه.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فعلم الله تعالى من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين، ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه، وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فأخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على أهل جميع الأديان من سائر الأرض من عرب وعجم وملين ومشركين ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: أنه رسوله وهو ناصره.

﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِجْحَادِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ﴾ وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقُوَّةٍ يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(٢).

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وشبك ﷺ بين أصابعه^(٣) كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي

(١) أخرجه البخاري بسنده ومثته (المصدر السابق ح ٤٢٥١).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٨٤. (٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة التوبة آية ٧١.

خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتعلة على فضل الله وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول كما قال: ﴿وَرِضْوَنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ يعني: السمات الحسن^(١). وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا حسين الجعفي، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه. فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون^(٣).
وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم^(٤)، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجه في سننه عن إسماعيل بن محمد الطلحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف^(٥). وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان [رضي الله عنه]^(٦): ما أسر أحد سريره إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلي قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر»^(٧). العرزمي متروك.

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند حسن من طريق حميد الأعرج عن مجاهد.

(٣) سنده حسن.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن ماجه بسنده ومنته (السنن، إقامة الصلاة، باب ما جاء في قيام الليل ح ١٣٣٣) قال السخاوي: لا أصل له.. واتفق أئمة الحديث: ابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك (المقاصد الحسنة ص ٤٢٥، ٤٢٦).

(٦) زيادة من (مح).

(٧) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١٧١/٢) وسنده ضعيف جداً فإن العرزمي متروك، وحامد بن آدم: كذاب (لسان الميزان ١٦٣/٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن الهادي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»^(٢). ورواه أبو داود، عن عبد الله بن محمد النفيلى، عن زهير به^(٣).

فالصحابة ﷺ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهدبهم.

وقال مالك رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال ﷺ ههنا: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» ثم قال: «وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ» أي: فراخه «فَنَازَرَهُ» أي: شده «فَاسْتَقْلَقَ» أي: شبَّ وطال «فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ» أي: فكَذَلِكَ أصحاب رسول الله ﷺ آزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع «لِيَغِيْطَ بِهِمُ الْكُفَّارُ».

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله، في رواية عنه، بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم: ثم قال: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ» من هذه لبيان الجنس «مَغْفِرَةً» أي: لذنوبهم «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً. ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتضى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

قال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»^(٤).

آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة.

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ١٧/ ٣٣٠ ح ١١٢٣٠) وضعف سنده محققوه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٤/ ٤٣٢ ح ٢٦٨) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٣) سنن أبي داود، الأدب، باب في الوقار (ح ٤٧٧٦) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٣٩٩٦).

(٤) أخرجه مسلم بسنده ومثته (الصحيح، فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة ﷺ ح ٢٥٤٠).

سُورَةُ الْحَجُرَاتِ

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ أي: لا تسارعوا في الأشياء بين يديه؛ أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بِمَ تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله - لما يرضي رسول الله -». وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه^(١).

فالغرض منه أنه آخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «لا تقدموا بين يدي الله ورسوله» لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة^(٢).

وقال العوفي، عنه: نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه^(٣).

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه^(٤).

وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم^(٥).

(١) تقدم تخريجه في المقدمة في الحديث الثاني منها، وجود سنده الحافظ ابن كثير، ولعله أتبع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في تجويده (ينظر الفتاوى ١٣/٣٦٤).

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) أخرجه الطبري وآدم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٥) أخرجه البُستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك بلفظ: «يعني بذلك القتال، وما كان من =

وقال سفيان الثوري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل.

وقال الحسن البصري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا وكذا، لو صنع كذا، فكره الله تعالى ذلك^(١). وتقدم فيه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِمٌ﴾ بنياتكم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدب ثانٍ أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر ؓ.

وقال البخاري: حدثنا يسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، قال: كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر ؓ، رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ؓ أخيه بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر ؓ: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافاً، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قال ابن الزبير ؓ: فما كان عمر ؓ يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر ؓ^(٢). انفرد به دون مسلم.

ثم قال البخاري: حدثنا حسن بن محمد، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر ؓ: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية^(٣). ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمُ﴾ [الحجرات: ٥] الآية. وهكذا رواه هنا منفرداً به أيضاً.

وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عمر، عن مخارق، عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق ؓ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قلت: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار^(٤). حصين بن عمر، هذا وإن كان ضعيفاً لكن قد روينا من حديث

= أمورهم، ولا يصلح أن يقضى إلا بأمره ما كان من شرائع دينهم". وبهذا اللفظ أخرجه الطبري.

(١) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات لكنه مرسل.

(٢) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير باب ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ح ٤٨٤٥).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَقُولُونَ﴾ [الحجرات] ح ٤٨٤٧).

(٤) أخرجه البزار بسنده ومثله (مختصر زوائد مسند البزار ١٠٦/٢ ح ١٥٠٥) وسنده ضعيف جداً لأن حصين بن عمر متروك كما في التقريب ومجمع الزوائد (١١٢/٧) وله شاهد يقويه كما يليه.

عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة^(١) بنحو ذلك، والله أعلم.

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأني موسى بن أنس، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: [شر]^(٢) كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار^(٣)، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة فقال: «أذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة»^(٤). تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَرُفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، أنا من أهل النار حبط عملي وجلس في أهله حزينا ففقدته رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: «لا، بل هو من أهل الجنة» قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه فقال: بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل^(٥).

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت في بيته قال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو ما شأن ثابت أشتكى؟» فقال سعد: إنه لجاري وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ فانا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»^(٦). ثم رواه مسلم، عن أحمد بن

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٢/٤٦٢)، وحسنه الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/٦٧٣.

(٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «بشر».

(٣) ظن ثابت بن قيس رضي الله عنه ذلك لأنه كان خطيباً لوفد بني تميم (ينظر البداية والنهاية ٥/٤٢)، وفتح الباري ٨/٥٩١ وهذا من ورعه رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومثله (الصحيح، التفسير، باب ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ح ٤٨٤٦).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/١٣٧) وسنده صحيح.

(٦) أخرجه مسلم بسنده ومثله (الصحيح، الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله ح ١٨٧/١١٩).

سعيد الدارمي، عن حيان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة به، قال ولم يذكر سعد بن معاذ، وعن قطن بن بشير، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بنحوه، وقال ليس فيه ذكر سعد بن معاذ، حدثني هذبة بن عبد الأعلى الأسدي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يذكر عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية فاقتصر الحديث ولم يذكر سعد بن معاذ وزاد: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة^(١). فهذه الطرق الثلاث معللة لرواية حماد بن سلمة فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ، والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآيات نزلت في وفد بني تميم، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ قال: قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، قال: فمرَّ به عاصم بن عدي من بني العجلان فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدي إلى رسول الله ﷺ، قال: وغلبه البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول، فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي فشدي على الضبة بمسمار، فضرته بمسمار حتى إذا خرج عطفه وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله تعالى، أو يرضى عني رسول الله ﷺ، قال: وأتى عاصم عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره خبره فقال: «أذهب فادعه لي» فجاء عاصم عليه السلام إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله، فوجده في بيت الفرس فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك، فقال: اكسر الضبة، قال: فخرجاً فأتيا النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟» فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فقال النبي ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟» فقال: رضيت بيشري الله تعالى ورسوله، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ﴾^(٢) الآية، وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله ﷻ عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً^(٣).

(١) أخرجه مسلم بسنده ومته (المصدر السابق ح ١١٩/١٨٨) وما بعده.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومته، وفي سنده أبو ثابت بن ثابت بن قيس ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح والتعديل ١٩٥/٢)، وأخرجه الحاكم من طريق ابن شهاب الزهري عن إسماعيل بن محمد بن ثابت به وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرک ٢٣٤/٣).

(٣) أخرجه البخاري من حديث السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (الصحيح، الصلاة، باب رفع الصوت في المسجد ح ٤٧٠).

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأن محترم حياً وفي قبره ﷺ دائماً، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كما قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ آمَنُوا بِرُسُولِ اللَّهِ وَآوَلَتْكَ الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ أي: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها فكتب عمر ﷺ: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة.

ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي^(٢) فيما أورده غير واحد.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس، أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله فلم يجبه فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال ﷺ: «ذاك الله ﷻ»^(٣).

(١) سنده منقطع لأن مجاهداً لم يدرك عمر ﷺ.

(٢) واسمه فراس والأقرع لقب (ينظر: الإصابة ١/١٠٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣/٤٨٨) وسنده ضعيف لأن أبا سلمة بن عبد الرحمن لم يسمع الأقرع. (ينظر: تعجيل المنفعة وفتح الباري ٨/٥٨٢).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبي إسحاق، عن البراء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن حمدي زين وذمي شين، فقال ﷺ: «ذاك الله ﷻ»^(١). وهكذا ذكره الحسن البصري وقادة مرسلًا^(٢).

وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي عمرة قال: كان بشر بن غالب ولييد بن عطارد أو بشر بن عطارد ولييد بن غالب، وهما عند الحجاج جالسان، فقال بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومك بني تميم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير، فقال: أما إنه لو علم بأخر الآية أجابه ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧] قالوا: أسلمنا ولم يقاتلك بنو أسد^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن علي الباهلي، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود الطفاوي يحدث عن أبي مسلم البجلي، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا: فجاؤوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد يا محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٤) قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذني، فمدها فجعل يقول: «لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد» ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان به^(٤).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ يَدْعُو فَتَيْنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَهْتَلِفُونَ فَنُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَتَذَكَّرُونَ﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لثلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراءه، وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وقال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد متصل. (البداية والنهاية ٤٦/٥).

(٢) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه، ورجاله ثقات لكنه مرسل. وهذان المرسلان يقوي أحدهما الآخر ويقويان الرواية السابقة، ويقويان بها.

(٣) أخرجه الطبري عن ابن حميد عن مهران عن سفيان به، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرزائي وهو ضعيف والخبر مرسل ويقوى بما سبق.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وفي سنده داود بن راشد الطفاوي لين الحديث كما في التقريب. وفيه غرابة في قوله فأخذ رسول الله ﷺ بأذني فمدها...

الحال، وقد قررنا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري والله تعالى الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، وقد روي ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به. ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت: يا رسول الله أرجع إليهم فأدعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته. وترسل إلي يا رسول الله رسولا إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول لم يأت به وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بسراوات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسولاً ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسول الله ﷺ إلا من سخطة، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق؛ أي: خاف، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه وأتى الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بته ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة الله تعالى ورسوله. قال فنزلت الحجرات: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾^(١). ورواه ابن أبي حاتم، عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به^(٢). ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق به، غير أنه سماه الحارث بن سرار^(٣)، والصواب: أنه الحارث بن ضرار كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جعفر بن عون، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بني المصطلق

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومنتنه (المسند ٤٠٣/٣٠ - ٤٠٥ ح ١٨٤٥٩) وحسنه محققوه بشواهد دون قصة

إسلام الحارث بن ضرار.

(٢) (المعجم الكبير ٣/٣١٠ ح ٣٣٩٥).

(٣) حكمه كسابقه.

بعد الواقعة فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله قال: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون، قالت: فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصداً فسررنا بذلك وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال رضي الله عنه فأذن بصلاة العصر قالت: ونزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَتِهِمْ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرٌ ﴿١﴾﴾.

وروى ابن جرير أيضاً من طريق العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما ردّه كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، وإن النبي ﷺ استغشهم وهم بهم، فأنزل الله تبارك وتعالى عذرهم في الكتاب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ إلى آخر الآية^(٢).

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليصدقهم، فتلقوه بالصدقة فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك، زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه فلما جاؤوا أخبروا خالداً أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذي يعجبه فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التثبت من الله والعجلة من الشيطان»^(٣) وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم: ابن أبي ليلى ويزيد بن رومان والضحاك، ومقاتل بن حيان، وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه

(١) أخرجه الطبري بسنده ومثته، وسنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة وهو الربذي.

(٢) أخرجه الطبري من طريق العوفي به، وسنده ضعيف ويتقوى بالشواهد السابقة واللاحقة.

(٣) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند رجاله ثقات لكنه مرسل ويتقوى بسابقه ولاحقه، وقول قتادة أخرجه الطبري أيضاً بسند رجاله ثقات لكنه مرسل ويتقوى بسابقه ولاحقه إلا قوله «التثبت من الله والعجلة من الشيطان» فليس له شاهد.

(٤) قول ابن أبي ليلى أخرجه البستي بسند رجاله ثقات لكنه مرسل، وقول الضحاك أخرجه البستي بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان وهو مرسل.

ووقروه وتادبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم وخرجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٧﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿وَلَيَكُنَّ اللَّهُ حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنًا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حبيه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم.

قال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا علي بن مسعدة، حدثنا قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية والإيمان في القلب» - قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول - التقوى ههنا التقوى ههنا^(١).

﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار والعصيان، وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي، عن أبي رفاعة الزرقعي، عن أبيه [وقال غير الفزاري: عبيد بن رفاعة الزرقعي]^(٢) قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استوتوا حتى أثني على ربي ﷻ» فصاروا خلفه صفوفاً فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ [الحمد]^(٣) كله، اللَّهُمَّ لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللَّهُمَّ ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللَّهُمَّ إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللَّهُمَّ إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف. اللَّهُمَّ إني عائد بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعنا، اللَّهُمَّ حُبِّ إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللَّهُمَّ توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق»^(٤). ورواه النسائي في اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٧٤/١٩ ح ١٢٣٨١) وضعف سنده محققوه، وذكروا للشق الأخير شاهداً من صحيح مسلم برقم ٢٥٦٤.

(٢) الزيادة من المسند ولا توجد في النسخ الخطية، وهذه العبارة من الإمام أحمد فيها إشارة إلى إرسال الحديث.

(٣) كذا في (حم) و(مع) والمسند، وفي الأصل: «بياض».

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٢٤٦/٢٤ - ٢٤٧ ح ١٥٤٩٢) وقال محققوه: رجاله ثقات. =

مروان بن معاوية، عن عبد الواحد ابن أيمن، عن عُبيد بن رِفاعَة، عن أبيه به^(١).
وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنة وساءته سيئته فهو مؤمن»^(٢).

ثم قال: ﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدرته.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغين بعضهم على بعض: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فسامهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكره رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنه، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعلَّ الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣). فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه»^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي يحدث أن أنساً رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً وانطلق المسلمون

= وأخرجه البخاري من طريق زياد بن أيوب به (الأدب المفرد ح ٦٩٩) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح ٥٣٨)، وأخرجه الحاكم من طريق ابن أبي مسرة عن خلاد بن يحيى عن عبد الواحد بن أيمن به وصححه الحاكم وتعبه الذهبي بقوله: والحديث مع نظافة إسناده أخاف أن لا يكون موضوعاً، رواه عن خلاد: ابن أبي مسرة. (المستدرک ١/ ٥٠٦ - ٥٠٧) وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. (مجمع الزوائد ٦/ ١٢٥).

(١) السنن الكبرى، عمل اليوم والليلة، باب الاستنصار عند اللقاء (ح ١٠٤٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب (السنن، الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة ح ٢١٦٥)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ١/ ١١٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح ١٧٥٨).

(٣) صحيح البخاري، الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنه... (ح ٢٧٠٤).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٢.

يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: «إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَلَنْ طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١). ورواه البخاري في الصلح عن مسدد، ومسلم في المغازي، عن محمد بن عبد الأعلى كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه به نحوه^(٢).

وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصلح بينهما^(٣).

وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له: عمران، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها، فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل كان قد خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم الآية، فيحث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله تعالى^(٤).

وقوله: ﴿فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين أيدي الرحمن ﷻ بما أقسطوا في الدنيا»^(٥). ورواه النسائي، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى به^(٦). وهذا إسناد جيد قوي رجاله على شرط الصحيح.

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا»^(٧). ورواه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة به^(٨).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثته (المسند ٣/١٥٧) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، الصلح باب ما جاء في الإصلاح بين الناس (ح ٧٦٩١)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب في دعاء النبي ﷺ (ح ١٧٩٩).

(٣) سنده مرسل ويتقوى بما سبق. (٤) سنده ضعيف لإرساله.

(٥) جوده وقواه الحافظ ابن كثير.

(٦) السنن الكبرى، القضاء، باب ذكر الاختلاف على الزهري في هذا الحديث (ح ٥٩١٧).

(٧) سنده صحيح.

(٨) صحيح مسلم، الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (ح ١٨٢٧)، وسنن النسائي، آداب القضاء، باب فضل الحاكم العادل في حكمه ٣٢١/٨.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(١).

وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(٢).

وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك مثله»^(٣) والأحاديث في هذا كثيرة.

وفي الصحيح: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(٤).

وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً»^(٥) وشبك بين أصابعه.

وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»^(٦). تفرد به أحمد ولا بأس بإسناده.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَوْيَكُرُ﴾ يعني: الفئتين المقتلتين ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللَّغَنِيبِ بَلِّسَ الْأَلْسُنُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطن الحق وغمص الناس - ويروى - وغمط الناس»^(٧) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فنص على نهى الرجال، وعطف نهى النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس. والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ [الهمزة] والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَزٌ مِّشَامٌ يَمِيمٌ﴾ [الفلم] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم ويمشي بينهم بالنميمة

(١) (٢) تقدم تخريجهما في تفسير سورة الإسراء آية ٥٣.

(٣) تقدم تخريجهما في تفسير سورة غافر آية ٧.

(٤) تقدم تخريجها في تفسير سورة التوبة آية ٧١.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٣٧/٥١٧ ح ٢٢٨٧٧) وقال محققوه: صحيح لغيره. وقال

الهشمي: رجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/١٨٧).

(٦) تقدم تخريجها في تفسير سورة آل عمران آية ٢٢.

وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضاً.

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها. قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: حدثني أبو جبيرة بن الضحاك، قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا واحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾^(٢). ورواه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، عن وهيب، عن داود به^(٣).

وقوله: ﴿يَسَّسَ الْإِثْمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بثس الصفة والاسم الفسوق. وهو التنازع بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتنازعون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَتَابَرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليتجنب كثير منه احتياطاً وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وقال أبو عبد الله ابن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبي ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحمصي، حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي قيس النضري، حدثنا عبد الله بن عمر قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً»^(٤). تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه.

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى، بالآثار التالية: فقول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/٢٦٠)، وأخرجه الترمذي (السنن، التفسير، باب ومن سورة الحجرات ح ٣٢٦٨)، وقال: حسن صحيح، وأخرجه الحاكم كلاهما من طريق داود بن أبي هند به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرک ٤/٢٨١).

(٣) السنن، الأدب، باب في الألقاب (ح ٤٩٦٢) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤١٥١).

(٤) أخرجه ابن ماجه بسنده ومثله (السنن، الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله ح ٣٩٣٢)، وسنده ضعيف لضعف =

وقال مالك عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(١). رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف ومسلم، عن يحيى بن يحيى وأبو داود، عن العتيبي، عن مالك به^(٢).

وقال سفيان بن عيينة: عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» رواه مسلم والترمذي وصححه من حديث سفيان بن عيينة به^(٣).

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله القرمطي العدوي، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدني، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري، حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن» فقال الرجل: وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض»^(٤).

وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن زيد قال: أتني ابن مسعود برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرأ، فقال عبد الله: قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به^(٥). سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا ليث، عن إبراهيم بن نشيط الخولاني، عن كعب بن علقمة، عن أبي الهيثم، عن دُخين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل ولكن عظمهم وتهدهم، قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا وإني داع لهم الشرط فتأخذهم، فقال له عقبة: ويحك لا تفعل؟ فإني سمعت رسول الله يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا مؤودة من قبرها». ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد به نحوه^(٦).

وقال سفيان الثوري، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

= أبي ضمرة نصر بن محمد الحمصي كما في التقريب.

(١) أخرجه الإمام مالك بسنده ومثله (الموطأ، حسن الخلق، باب ما جاء في المهاجرة ح١٤) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، الأدب، باب «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ» [الحجرات: ١٢] (ح٦٠٦٦).

(٣) صحيح مسلم، البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابير (ح٢٥٥٩)، وسنن الترمذي، البر والصلة، باب ما جاء في الحسد (ح١٩٣٦).

(٤) (المعجم الكبير ٣/٢٢٨ ح٣٢٢٧) وسنده ضعيف لضعف إسماعيل بن قيس الأنصاري (مجمع الزوائد ٨/٧٨).

(٥) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الأدب، باب النهي عن التجسس ح٤٨٩٠) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٠٩٠).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤/١٥٣) وفي سننه أبو الهيثم مقبول كما في التقريب وأخرجه أبو داود (السنن، الأدب، باب في الستر عن المسلم ح٤٨٩٢)، والنسائي (السنن الكبرى، الرجم، باب الترغيب في ستر العورة ح٧٢٨٣) ورواه ابن عدي بسند ضعيف جداً (الكامل ٧/٢٥١٨) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (ح١٢٦٥).

يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها، ورواه أبو داود منفرداً به من حديث الثوري به^(١).

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن جبير بن نفير وكثير بن مرة، وعمرو بن الأسود والمقدام بن معديكرب وأبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدتهم»^(٢).

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضاً والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿يَكْبِتُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٣).

وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم، والتدابير: الصرم^(٤). رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرهما الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: حدثنا القعني، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٥). ورواه الترمذي، عن قتيبة، عن الدراوردي به وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير، عن بNDAR، عن شعبة، عن العلاء^(٦). وهكذا قال ابن عمر ومسروق وقتادة وأبو إسحاق ومعاوية بن قرة.

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن [سفيان]^(٧)، حدثني علي بن [الأقمر]^(٨)، عن أبي حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال غير مسدد:

(١) سنن أبي داود، الأدب، النهي عن التجسس (ح ٤٨٨٨) وصححه العراقي (تخريج إحياء علوم الدين (ح ١٧٣٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود بسنده ومته (السنن، الباب السابق ح ٤٨٨٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٨٩).

(٣) صحيح البخاري، الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد (ح ٦٠٦٤).

(٤) أي: أن يهجر كل واحد صديقه أو أخاه.

(٥) أخرجه أبو داود بسنده ومته (السنن، الأدب، باب في الغيبة ح ٤٨٧٤)، وأخرجه مسلم من طريق العلاء به بنحوه (الصحيح، البر والصلة، باب تحريم الغيبة ح ٢٥٨٩).

(٦) أخرجه الطبري والترمذي (السنن، البر، باب ما جاء في الغيبة ح ١٩٣٥) وسنده صحيح كسابقه.

(٧) زيادة من (حم) و(مح).

(٨) كذا في (حم) و(مح)، وسنن أبي داود، وفي الأصل ضُحِفَ إلى: «الأحمر».

تعني قصيرة، فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» قالت: وحكيت له إنساناً فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنساناً وإن لي كذا وكذا»^(١). ورواه الترمذي من حديث يحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع ثلاثهم عن سفيان الثوري، عن علي بن الأقرم، عن أبي حذيفة سلمة بن صهيب الأرحبي، عن عائشة رضي الله عنها به وقال: حسن صحيح^(٢).

وقال ابن جرير: حدثني ابن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، حدثنا حسان بن المخارق أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ؛ أي: إنها قصيرة فقال النبي ﷺ: «اغبتها»^(٣).

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا من رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اأذنوا له بئس أخو العشيرة!» وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس، وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»^(٤). وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على الترحيم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال تعالى: ﴿أَيُّبُ أَحْذَكْهُ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعاً فأكروهه ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ في العائد في هبته: «كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه»^(٥) وقد قال: «ليس لنا مثل السوء» وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»^(٦).

وقال أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(٧). ورواه الترمذي، عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه به وقال: حسن غريب^(٨).

(١) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الأدب، باب في الغيبة ح ٤٨٧٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٨٠).

(٢) سنن الترمذي، صفة القيامة، باب تحريم الغيبة (ح ٢٤٠٥).

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومثله، وفي سننه حسان بن المخارق ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح والتعديل ٢٣٥/٣)، وهو لم يسمع من عائشة رضي الله عنها.

(٤) صحيح مسلم، الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقه لها (ح ١٤٨٠).

(٥) أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الشيخان من حديث أبي بكره رضي الله عنه (صحيح البخاري، العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع» ح ٦٧)، وصحيح مسلم، القسامة، باب تحريم الدماء والأعراض والأموال (ح ١٦٧٩).

(٧) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الأدب، باب في الغيبة ح ٤٨٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٨٥).

(٨) سنن الترمذي، البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم (ح ١٩٢٨) وحكمه كسابقه.

وحدثنا عثمان بن أبي شيبة: حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله بن جريج، عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»^(١). تفرد به أبو داود.

وقد روي من حديث البراء بن عازب. فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»^(٢).

طريق أخرى عن ابن عمر:

قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن ذلهم، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله» قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك^(٣).

قال أبو داود: حدثنا حيوة بن شريح، حدثنا قتيبة، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد أنه حدثه أن النبي ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كسا ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة»^(٤). تفرد به أبو داود.

وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بقية وأبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخشمون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء

(١) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (المصدر السابق ح ٤٨٨٠) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٨٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ٣/ ٢٣٧ ح ١٦٧٥) قال الهيثمي: ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٨/ ٩٦) ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه الترمذي عن يحيى بن أكثم به ثم قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد. (السنن، البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن ح ٢٠٣٢) وسنده ضعيف لأن يحيى بن أكثم متهم بسرقة الحديث كما في التقريب، وشطر الأول له شواهد تقدمت يتقوى بها.

(٤) أخرجه أبو داود بسنده ومثله (السنن، الأدب، باب في الغيبة ح ٤٨٨١). وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٨٤).

الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» تفرد به أبو داود وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي به^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا أحمد بن عبدة، أخبرنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، أخبرنا أبو هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدرى قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا ما رأيت ليلة أسري بك؟ قال: ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء موكل بهم رجال يعمدون إلى عرض جنب أحدهم، فيجذون منه العذة مثل النعل ثم يضعونها في فم أحدهم. فيقال له: كل كما أكلت وهو يجد من أكله الموت يا محمد لو يجد الموت وهو يكره عليه، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون واللامازون أصحاب النيمة، فيقال: (أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) وهو يكره على أكل لحمه^(٢)؟ هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله في أول تفسير سورة سبحان والله الحمد والمنة.

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوماً ولا يفطرن أحد حتى آذن له، فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله ﷺ فيقول: «ظلمت منذ اليوم صائماً فأذن لي فأفطر فأذن له ويجيء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتين من أهلك ظلمتا منذ اليوم صائمتين، فأذن لهما فليفطرا، فأعرض عنه ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل من لحوم الناس؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا» ففعلتا، فقأت كل واحدة منهما علقة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار»^(٣). إسناده ضعيف ومتن غريب. وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون، حدثنا سليمان التيمي قال: سمعت رجلاً يحدث في مجلس أبي عثمان النهدي، عن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتتا تموتان من العطش، أراه قال بالهجرة، فأعرض عنه أو سكت عنه، فقال: يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتتا تموتان، فقال: ادعهما. فجاءتا قال: فجيء بقدرح أو عس، فقال لإحدهما: قيئي. فقأت من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدرح، ثم قال للأخرى: قيئي، فقأت قيحاً ودماً وصديداً ولحمياً ودماً عبيطاً^(٤) وغيره حتى ملأت القدرح، ثم قال: «إن هاتين صامتاً عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس»^(٥). وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي، كلاهما عن سليمان بن [طرخان]^(٦) التيمي به مثله أو نحوه، ثم رواه أيضاً من حديث مسدد، عن يحيى القطان، عن عثمان بن

(١) تقدم تخريجه في تفسير مطلع سورة الإسراء. (٢) تقدم تخريجه كسابقه.

(٣) أخرجه الطيالسي (المسند ح ٢١٠٧) وسنده ضعيف لضعف يزيد وهو ابن أبان الرقاشي.

(٤) أي: اللحم الطري غير النضيج.

(٥) أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٦/١٨٦) وسنده ضعيف لإبهام شيخ سليمان التيمي.

(٦) كذا في (حم) و(مح) والمسند، وفي الأصل صحف إلى: «طوعان».

غياث. حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان، عن سعد مولى رسول الله ﷺ، أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل في نصف النهار فقال: يا رسول الله فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «ادعهما» فجاء بعس أو قدح فقال لإحدهما: قيئي. فقأت لحمًا ودمًا عبيطاً وقيحاً، وقال للأخرى مثل ذلك ثم قال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما. أتت إحدهما للأخرى فلم تزالا تاكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحاً^(١). قال البيهقي: كذا قال عن سعد، والأول وهو عبيد أصح.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مخلد، حدثنا أبي أبو عاصم، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، عن ابن عمّ لأبي هريرة أنّ ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة قال: قال: (زنيت) قال: وتدري ما الزنا؟ قال: نعم أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: ما تريد إلى قول هذا؟ قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر؟ قال: نعم يا رسول الله قال: فأمر برجمه، فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجم رُجم الكلب؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مرّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلّا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فما نلتما من أخيكما أنفأ أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»^{(٢)(٣)}.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثني أبي. حدثنا واصل مولى ابن عيينة، حدثني خالد بن عرفطة، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة. فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون [المؤمنين]»^{(٤)(٥)}.

طريق أخرى: قال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبي سفيان وهو طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجت ريح منتنة، فقال النبي ﷺ: «إن نفرًا من المنافقين اغتابوا ناساً من المسلمين فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح»^(٦).

(١) (المسند ٤٣١/٥) وفي السندين العلة السابقة نفسها.

(٢) في (حم) و(مح) زيادة: إسناده صحيح، ولم أثبتها حسب الأصل ومن المستبعد أن يحكم عليه بالصحة ولم يصرح باسم شيخ أبي الزبير.

(٣) أخرجه أبو يعلى بسنده ومثله (المسند ١٤٦/٣ ح ١٥٧٦) وسنده ضعيف لجهالة شيخ أبي الزبير.

(٤) كذا في المسند، وفي (حم) و(مح) بلفظ: «الناس».

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٩٧/٢٣ ح ١٤٧٨٤) وحسن سنده محققوه، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد وحسن سنده الألباني (صحيح الأدب المفرد ح ٥٥٩).

(٦) أخرجه عبد بن حميد (المنتخب ح ١٠٢٨)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح ٥٦٢).

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿أَيُّبُ أَحْذَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ زُعم أن سلمان الفارسي كان مع رجلين من أصحاب النبي ﷺ في سفر يخدمهما ويخف لهما وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم، وبقي سلمان نائماً لم يسر معهم، فجعل صاحبه يكلمانه فلم يجده، فضربا الخباء فقالا: ما يريد سلمان أو هذا العبد شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام مقدور وخباء مضروب، فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً، فانطلق فأتى رسول الله ﷺ ومعه قدح له فقال: يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك. قال ﷺ: «ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد ائتموا» فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ فانطلقا حتى أتيا رسول الله فقالا: والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا. قال رسول الله ﷺ: «إنكما قد ائتمتما بسلمان بقولكما» قال: ونزلت ﴿أَيُّبُ أَحْذَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ أنه كان نائماً^(١).

وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المختارة من طريق حبان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر، رجل يخدمهما فناهما فاستيقظا ولم يهيئ لهما طعاماً فقالا: إن هذا لنؤوم فأيقظاه، فقالا له: ائت رسول الله ﷺ فقل له إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ويستأدمانك فقال ﷺ: «إنهما قد ائتمدا» فجاءا فقالا: يا رسول الله بأي شيء ائتمدنا؟ فقال ﷺ: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما» فقالا: استغفر لنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «مُرَاهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمَا»^(٢).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق، عن عمه موسى بن يسار، عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه في الدنيا قرب الله إليه لحمه في الآخرة، فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حياً، قال: فيأكله ويكلح ويصيح»^(٣) غريب جداً.

وقوله: ﴿وَأَنقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾ أي: تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود، وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه.

(١) سنده ضعيف للانقطاع بين السدي وسلمان الفارسي ؓ.

(٢) أخرجه الضياء من طريق عباد بن الوليد الغبري عن حبان بن هلال به بنحوه. (المختارة ٧١/٥ ح ١٦٩٧) وصححه سنده محققه. وأرى أن المتن فيه غرابة في آخره في ذكر الاستغفار، وأنه لا يتناسب مع مقام أبي بكر وعمر ؓ.

(٣) أخرجه الطبراني من طريق ابن إسحاق به (المعجم الأوسط ١٨٢/٢ ح ١٦٥٦) وسنده ضعيف لعنعه ابن إسحاق، وكذا أعلاه الهشمي (مجمع الزوائد ٩٢/٨) واستغربه الحافظ ابن كثير.

وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذاً أن يشني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يردّ عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك كما قال الإمام أحمد، حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا [يحيى بن] ^(١) أيوب، عن عبد الله بن سليمان أن إسماعيل بن يحيى المعافري أخبره، أن سهل بن معاذ بن أنس الجهني أخبره، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه، بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه حسبه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» ^(٢). وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله وهو ابن المبارك به بنحوه ^(٣).

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبي مريم، أخبرنا الليث، حدثني يحيى بن سليم أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيها نصرته، وما من امرئ ينصر امرءاً مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيها نصرته» ^(٤). تفرد به أبو داود.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣).

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب آخر كالقبائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك، وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل، وقد لخصت هذه في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب «الإنباه» لأبي عمر ابن عبد البر، ومن كتاب (القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم) فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ﷺ سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته.

(١) زيادة من (حم) و(مع) والمسند.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ٤٠٦/٢٤ ح ١٥٦٤٩) وضعف سنده محققوه.

(٣) أخرجه أبو داود من طريق عبد الله بن المبارك به (السنن، الأدب، باب من ردّ عن مسلم غيبة ح ٤٨٨٣) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٤٠٨٦).

(٤) أخرجه أبو داود بسنده ومثله المصدر السابق (ح ٤٨٨٤) وسنده ضعيف لجهالة إسماعيل بن بشير (التقريب ص ١٠٦).

وقال مجاهد في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾: كما يقال فلان بن فلان من كذا وكذا؛ أي: قبيلة كذا وكذا^(١).

وقال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها^(٢).

وقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك بن عيسى الثقفي، عن [يزيد]^(٣) مولى المنبث، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأصل مثرة في المال منسأة في الأثر» ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ.

قال البخاري: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «أكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(٥). وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان، ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله وهو ابن عمر العمري به^(٦).

حديث آخر:

قال مسلم رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». ورواه ابن ماجه، عن أحمد بن سنان، عن كثير بن هشام به^(٧).

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه البستي بسند صحيح عن ابن أبي عمر العدني عن سفيان بن حنبل.

(٣) كذا في (حم) و(مح) وسنن الترمذي، وفي الأصل صحف إلى: «زيد».

(٤) أخرجه الترمذي بسنده ومتمنه وتعليقه (السنن، البر والصلة، باب ما جاء في تعليم النسب ح ١٩٨٠)، وفي سنده عبد الملك بن عيسى الثقفي وهو مقبول كما في التقريب، ولشرطه الأخير شواهد صحيحة.

(٥) أخرجه البخاري بسنده ومتمنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [يوسف] ح ٤٦٨٩).

(٦) السنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ [يوسف: ٧] (ح ١١٢٤٩).

(٧) أخرجه مسلم، البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله (ح ٢٥٦٤).

حديث آخر:

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله»^(١). تفرد به أحمد^(٢).

حديث آخر:

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائي، سمعت محمد بن حبيب بن خراش العصري يحدث عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»^(٣).

حديث آخر:

قال أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس يعني ابن الربيع، عن شبيب بن غرقدة، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان»^(٤). ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه^(٥).

حديث آخر:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنىخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بأبائها، فالتاس رجلان: رجل برّ تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى، إن الله ﷻ يقول: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ

(١) سنن ابن ماجه، الزهد، باب القناعة (ح ٤١٤٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١٨٥/٥) وسنده ضعيف لأن بكرأ لم يسمع من أبي ذر (ينظر: مجمع الزوائد ٨/ ٨٧).

وأبو هلال هو محمد بن سليم الراسبي وهو ضعيف، وله شواهد تقوية منها ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ (المسند ٤١١/٥ ح ١٧٣١٣).

(٣) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٢٥/٤ ح ٣٥٤٧) وسنده ضعيف جداً لأن عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة: متروك (مجمع الزوائد ٨/ ٨٧).

(٤) الجعلان: جمع جعل وهي دوية.

(٥) أخرجه البزار بسنده ومثله وتعليقه (مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٢٢٤ ح ١٧٤٦) وقال الهيثمي: الحسن هو العرني: ضعيف. قال الحافظ ابن حجر: وشيخه لين.

وَأَنْتِ وَجَعَلْتَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾، ثم قال ﷺ: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم^(١). هكذا رواه عبد بن حميد، عن أبي عاصم الضحاك، عن مغل، عن موسى بن عبيدة به^(٢).

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن [عقبة]^(٣) بن عامر قال: إن رسول الله ﷺ قال: «أن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طُفُّ الصاع^(٤) لم يملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيلاً بخيلاً فاحشاً»^(٥). وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لهيعة به ولفظه: «الناس لآدم وحواء طُفُّ الصاع لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(٦). وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سماك، عن عبد الله بن عميرة زوج دُرَّة بنت أبي لهب، عن دُرَّة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال ﷺ: «خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله ﷻ، وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم»^(٧).

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقى^(٨). تفرد به أحمد.

(١) سنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة وهو الردي.

(٢) سنده كسابقه.

(٣) كذا في (حم) و(مح) والمسنَد، وفي الأصل ضُحَف إلى: «عينه».

(٤) أي: قريب بعضكم من بعض والمعنى: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتفاضل ليس بالنسب ولكن بالتقوى (النهاية ٣/١٢٩).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسنَد ٤/١٥٨)، ويحيى بن إسحاق هو السليحيني من قدماء أصحاب ابن لهيعة، وقد روى هذا الحديث عبد الله بن وهب وقتيبة بن سعيد عن ابن لهيعة، وحسنه محققو المسند برقم ١٧٤٤٦. وضعف سنده محققوه.

(٦) أخرجه الطبري عن يونس به، وسنده حسن كسابقه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسنَد ٤٥/٤٢١ ح ٢٧٤٣٤) وضعف سنده محققوه.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسنَد ٤٠/٤٦٣ ح ٢٤٤٥٤) وضعف سنده محققوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بكم خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في (كتاب الأحكام) والله الحمد والمنة.

وقد روى الطبراني، عن عبد الرحمن أنه سمع رجلاً من بني هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله ﷺ فقال غيره: أنا أولى به منك ولك منه [نسبة] (١)(٢).

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُحِبُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى منكرأ على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: أو مسلم؟ حتى أعادها سعد ﷺ ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: أو مسلم؟ ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلي منهم، فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار

(١) زيادة من (مع).

(٢) أخرجه الطبراني عن شيخه المقدم بن داود (المعجم الكبير ١/ ١٣٤ ح ٢٨٣) وضعف سنده الهيثمي لضعف المقدم. (مجمع الزوائد ٨/ ٨٧).

على وجوههم»^(١). أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به^(٢).

فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدلَّ على أن الإيمان أخص من الإسلام، وقد قرنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري والله الحمد والمنة.

ودلَّ ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء، ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدلَّ هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فادَّبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة^(٣) واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك.

وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبي^(٤).

قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة^(٥).

وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ^(٦)، والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد فادَّبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله: ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكُمَّلُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومثله (المسند ١/١٧٦) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة... (ح ٢٧)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (ح ٢٣٦).

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بمعناه، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بنحوه، وأخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد عن إبراهيم النخعي، وابن حميد هو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري بالسند المتقدم عن سعيد بن جبير، وأخرجه أيضاً سفيان الثوري بسند ضعيف عن رجل عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٥) أخرجه آدم والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيع عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة وهو مرسل.

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ أَي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أَي: في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثنا عمرو بن الحارث، عن أبي السمع، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذي إذا أشرف على طمع [تركه]» ^(١) الله ﷻ ^(٢).

وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أَي: أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ﴾ يعني: الأعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى راداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم والله المنة عليكم فيه ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي: في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن ^(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن محمد بن قيس، عن أبي عون، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك. فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم». ونزلت هذه الآية ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٤). ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبیر غير هذا الحديث.

- (١) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «يذكر».
- (٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومنتته (المسند ٨/٣) وسنده ضعيف لضعف رشدين، وضعف رواية أبي السمع عن أبي الهيثم.
- (٣) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه. (صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الطائف (ح ٤٣٣٠)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (ح ١٣٩).
- (٤) أخرجه النسائي من طريق يحيى بن سعيد الأموي به (السنن الكبرى، التفسير، سورة الحجرات ح ١١٥١٩) وسنده حسن. وأخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن أبي أوفى (المعجم الأوسط ١٠/٩ ح ٨٠١٢) وحسن سنده السيوطي في الدر المنثور، وقال الهيثمي: وفيه الحجاج بن أرطاة وهو ثقة لكنه مدلس، وبقيّة رجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد ١١١/٧).

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾.

آخر تفسير سورة الحجرات، والله الحمد والمنة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
سورة القصص	
تفسير الآيات: ١ - ٦	٥
تفسير الآيات: ٧ - ٩	٦
تفسير الآيات: ١٠ - ١٣	٧
تفسير الآيات: ١٤ - ١٧	٩
تفسير الآيات: ١٨ - ٢٤	١٠
تفسير الآيات: ٢١ - ٢٤	١١
تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٨	١٢
تفسير الآيات: ٢٩ - ٣٢	١٨
تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥	٢٠
تفسير الآيات: ٣٦ - ٣٧	٢١
تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٢	٢٢
تفسير الآية: ٤٣	٢٣
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٧	٢٤
تفسير الآيات: ٤٨ - ٥١	٢٥
تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٥	٢٨
تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٧	٣٠
تفسير الآيات: ٥٨ - ٥٩	٣١
تفسير الآيات: ٦٠ - ٦١	٣٢
تفسير الآيات: ٦٢ - ٦٧	٣٣
تفسير الآيات: ٦٨ - ٧٠	٣٤
تفسير الآيات: ٧١ - ٧٣	٣٥
تفسير الآيات: ٧٤ - ٧٧	٣٦
تفسير الآية: ٧٨	٣٧

الصفحة

الموضوع

٣٩	تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٢
٤١	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٢
٤٢	تفسير الآيات: ٨٣ - ٨٤
٤٣	تفسير الآيات: ٨٥ - ٨٨

سورة العنكبوت

٤٧	تفسير الآيات: ١ - ٧
٤٨	تفسير الآيات: ٨ - ٩
٤٩	تفسير الآيات: ١٠ - ١١
٥٠	تفسير الآيات: ١٢ - ١٣
٥١	تفسير الآيات: ١٤ - ١٥
٥٢	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨
٥٣	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٣
٥٤	تفسير الآيات: ٢٤ - ٢٥
٥٥	تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٧
٥٩	تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٠
٦٠	تفسير الآيات: ٣١ - ٣٧
٦١	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠
٦٢	تفسير الآيات: ٤١ - ٤٣
٦٣	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٥
٦٦	تفسير الآية: ٤٦
٦٨	تفسير الآيات: ٤٧ - ٤٩
٧٠	تفسير الآيات: ٥٠ - ٥٢
٧١	تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٥
٧٢	تفسير الآيات: ٥٦ - ٦٠
٧٤	تفسير الآيات: ٦١ - ٦٣
٧٥	تفسير الآيات: ٦٤ - ٦٩
٧٦	تفسير الآيات: ٦٧ - ٦٩

سورة الروم

٧٧	تفسير الآيات: ١ - ٧
٨٥	تفسير الآيات: ٨ - ١٠
٨٦	تفسير الآيات: ١١ - ١٩

الصفحة

الموضوع

٨٨	تفسير الآيتان: ٢٠ - ٢١
٨٩	تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٥
٩٠	تفسير الآيتان: ٢٦ - ٢٧
٩١	تفسير الآيتان: ٢٨ - ٢٩
٩٢	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢
٩٦	تفسير الآيات: ٣٣ - ٤٠
٩٧	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠
٩٨	تفسير الآيتان: ٤١ - ٤٢
٩٩	تفسير الآيات: ٤٣ - ٤٧
١٠٠	تفسير الآيات: ٤٨ - ٥١
١٠٢	تفسير الآيتان: ٥٢ - ٥٣
١٠٥	تفسير الآيات: ٥٤ - ٥٧
١٠٦	تفسير الآيات: ٥٨ - ٦٠

سورة لقمان

١٠٨	تفسير الآيات: ١ - ٧
١١٠	تفسير الآيات: ٨ - ١١
١١١	تفسير الآية: ١٢
١١٤	تفسير الآيات: ١٣ - ١٥
١١٥	تفسير الآيات: ١٦ - ١٩
١٢٦	تفسير الآيتان: ٢٠ - ٢١
١٢٧	تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٦
١٢٨	تفسير الآيتان: ٢٧ - ٢٨
١٢٩	تفسير الآيتان: ٢٩ - ٣٠
١٣٠	تفسير الآيتان: ٣١ - ٣٢
١٣١	تفسير الآية: ٣٣
١٣٢	تفسير الآية: ٣٤

سورة السجدة

١٣٨	تفسير الآيات: ١ - ٦
١٤٠	تفسير الآيات: ٧ - ١١
١٤١	تفسير الآيات: ١٢ - ١٤
١٤٢	تفسير الآيات: ١٥ - ١٧

الموضوع	الصفحة
تفسير الآيات: ١٨ - ٢٢	١٤٧
تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٥	١٤٩
تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٧	١٥١
تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٠	١٥٢

سورة الأحزاب

تفسير الآيات: ١ - ٣	١٥٤
تفسير الآيات: ٤ - ٥	١٥٥
تفسير الآية: ٦	١٥٩
تفسير الآيات: ٧ - ٨	١٦١
تفسير الآيات: ٩ - ١٠	١٦٢
تفسير الآيات: ١١ - ١٣	١٦٧
تفسير الآيات: ١٤ - ١٧	١٦٨
تفسير الآيات: ١٨ - ٢٠	١٦٩
تفسير الآيات: ٢١ - ٢٤	١٧٠
تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٤	١٧١
تفسير الآية: ٢٥	١٧٣
تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٧	١٧٤
تفسير الآيات: ٢٨ - ٢٩	١٧٩
تفسير الآيات: ٣٠ - ٣١	١٨١
تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٤	١٨٢
تفسير الآية: ٣٥	١٩٠
تفسير الآية: ٣٦	١٩٤
تفسير الآية: ٣٧	١٩٦
تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠	١٩٩
تفسير الآيات: ٣٩ - ٤٠	٢٠٠
تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤	٢٠٣
تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٨	٢٠٧
تفسير الآية: ٤٩	٢٠٩
تفسير الآية: ٥٠	٢١٠
تفسير الآية: ٥١	٢١٤
تفسير الآية: ٥٢	٢١٦

الموضوع	الصفحة
تفسير الآيتان: ٥٣ - ٥٤	٢١٩
تفسير الآية: ٥٥	٢٢٤
تفسير الآية: ٥٦	٢٢٥
تفسير الآيتان: ٥٧ - ٥٨	٢٤٥
تفسير الآيات: ٥٩ - ٦٢	٢٤٧
تفسير الآيات: ٦٣ - ٦٨	٢٤٩
تفسير الآية: ٦٩	٢٥٠
تفسير الآيتان: ٧٠ - ٧١	٢٥٣
تفسير الآيتان: ٧٢ - ٧٣	٢٥٤

سورة سبأ

تفسير الآيات: ١ - ٦	٢٥٩
تفسير الآيات: ٧ - ٩	٢٦٠
تفسير الآيتان: ١٠ - ١١	٢٦١
تفسير الآيتان: ١٢ - ١٣	٢٦٤
تفسير الآية: ١٤	٢٦٧
تفسير الآيات: ١٥ - ١٧	٢٦٩
تفسير الآيتان: ١٨ - ١٩	٢٧٤
تفسير الآيتان: ٢٠ - ٢١	٢٧٨
تفسير الآيتان: ٢٢ - ٢٣	٢٧٩
تفسير الآيات: ٢٤ - ٢٧	٢٨٢
تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٠	٢٨٣
تفسير الآيات: ٣١ - ٣٣	٢٨٤
تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٩	٢٨٥
تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٢	٢٨٨
تفسير الآيات: ٤٣ - ٤٥	٢٨٩
تفسير الآية: ٤٦	٢٩٠
تفسير الآيات: ٤٧ - ٥٠	٢٩١
تفسير الآيات: ٥١ - ٥٤	٢٩٢

سورة فاطر

تفسير الآية: ١	٢٩٦
تفسير الآيتان: ٢ - ٣	٢٩٧

الموضوع	الصفحة
تفسير الآيات: ٤ - ٨	٢٩٨
تفسير الآيات: ٩ - ١١	٢٩٩
تفسير الآية: ١٢	٣٠٣
تفسير الآيتان: ١٣ - ١٤	٣٠٤
تفسير الآيات: ١٥ - ١٨	٣٠٥
تفسير الآيات: ١٩ - ٢٦	٣٠٦
تفسير الآيتان: ٢٧ - ٢٨	٣٠٧
تفسير الآيات: ٢٩ - ٣٢	٣٠٩
تفسير الآية: ٣٢	٣١٠
تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥	٣١٤
تفسير الآيتان: ٣٦ - ٣٧	٣١٦
تفسير الآيتان: ٣٨ - ٣٩	٣٢٠
تفسير الآيتان: ٤٠ - ٤١	٣٢١
تفسير الآيتان: ٤٢ - ٤٣	٣٢٢
تفسير الآيتان: ٤٤ - ٤٥	٣٢٣

سورة يس

تفسير الآيات: ١ - ٧	٣٢٦
تفسير الآيات: ٨ - ١٢	٣٢٧
تفسير الآيات: ١٣ - ١٧	٣٣٢
تفسير الآيتان: ١٨ - ١٩	٣٣٣
تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٥	٣٣٤
تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٩	٣٣٥
تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢	٣٣٨
تفسير الآيات: ٣٣ - ٤٠	٣٣٩
تفسير الآيات: ٣٧ - ٤٠	٣٤٠
تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤	٣٤٤
تفسير الآيات: ٤٥ - ٥٠	٣٤٥
تفسير الآيات: ٥١ - ٥٤	٣٤٦
تفسير الآيات: ٥٥ - ٥٨	٣٤٧
تفسير الآيات: ٥٩ - ٦٢	٣٤٩
تفسير الآيات: ٦٣ - ٦٧	٣٥٠

الموضوع	الصفحة
تفسير الآيات: ٦٨ - ٧٠	٣٥٢
تفسير الآيات: ٧١ - ٧٦	٣٥٧
تفسير الآيات: ٧٧ - ٨٠	٣٥٨
تفسير الآيات: ٨١ - ٨٣	٣٦٠

سورة الصافات

تفسير الآيات: ١ - ٥	٣٦٣
تفسير الآيات: ٦ - ١٠	٣٦٤
تفسير الآيات: ١١ - ١٩	٣٦٥
تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٦	٣٦٦
تفسير الآيات: ٢٧ - ٣٧	٣٦٨
تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٩	٣٧٠
تفسير الآيات: ٥٠ - ٦١	٣٧٣
تفسير الآيات: ٦٢ - ٧٠	٣٧٧
تفسير الآيات: ٧١ - ٨٢	٣٨٠
تفسير الآيات: ٨٣ - ٩٨	٣٨٢
تفسير الآيات: ٨٨ - ٩٨	٣٨٣
تفسير الآيات: ٩٩ - ١١٣	٣٨٤
تفسير الآيات: ١١٤ - ١٣٢	٣٩٤
تفسير الآيات: ١٢٣ - ١٣٢	٣٩٥
تفسير الآيات: ١٣٣ - ١٤٨	٣٩٦
تفسير الآيات: ١٣٩ - ١٤٨	٣٩٧
تفسير الآيات: ١٤٩ - ١٦٠	٤٠٠
تفسير الآيات: ١٦١ - ١٧٠	٤٠١
تفسير الآيات: ١٧١ - ١٧٩	٤٠٣
تفسير الآيات: ١٨٠ - ١٨٢	٤٠٤

سورة ص

تفسير الآيات: ١ - ٣	٤٠٦
تفسير الآيات: ٤ - ١١	٤٠٨
تفسير الآيات: ١٢ - ١٦	٤١١
تفسير الآيات: ١٧ - ٢٠	٤١٢
تفسير الآيات: ٢١ - ٢٥	٤١٥

الصفحة

الموضوع

٤١٧	تفسير الآية: ٢٦
٤١٨	تفسير الآيات: ٢٧ - ٢٩
٤١٩	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٣
٤٢١	تفسير الآيات: ٣٤ - ٤٠
٤٢٩	تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤
٤٣١	تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٩
٤٣٢	تفسير الآيات: ٥٠ - ٥٤
٤٣٣	تفسير الآيات: ٥٥ - ٦٤
٤٣٤	تفسير الآيات: ٦٥ - ٧٠
٤٣٥	تفسير الآيات: ٧١ - ٨٥
٤٣٦	تفسير الآيات: ٨٦ - ٨٨

سورة الزمر

٤٣٨	تفسير الآيات: ١ - ٤
٤٤٠	تفسير الآيتين: ٥ - ٦
٤٤١	تفسير الآيات: ٧ - ٩
٤٤٢	تفسير الآية: ٩
٤٤٣	تفسير الآيات: ١٠ - ١٢
٤٤٤	تفسير الآيات: ١٣ - ٢٠
٤٤٥	تفسير الآيتين: ١٩ - ٢٠
٤٤٦	تفسير الآيتين: ٢١ - ٢٢
٤٤٧	تفسير الآية: ٢٣
٤٤٩	تفسير الآيات: ٢٤ - ٣١
٤٥٠	تفسير الآيات: ٢٧ - ٣١
٤٥٢	تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٥
٤٥٣	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤٠
٤٥٥	تفسير الآيتين: ٤١ - ٤٢
٤٥٦	تفسير الآيات: ٤٣ - ٤٥
٤٥٧	تفسير الآيات: ٤٦ - ٤٨
٤٥٨	تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٢
٤٥٩	تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٩
٤٦٤	تفسير الآيتين: ٦٠ - ٦١

الموضوع	الصفحة
تفسير الآيات: ٦٢ - ٦٦	٤٦٥
تفسير الآية: ٦٧	٤٦٦
تفسير الآيات: ٦٨ - ٧٠	٤٦٩
تفسير الآيات: ٧١ - ٧٤	٤٧١
تفسير الآيتان: ٧٣ - ٧٤	٤٧٢
تفسير الآية: ٧٥	٤٧٧

سورة غافر

تفسير الآيات: ١ - ٣	٤٧٩
تفسير الآيات: ٤ - ٦	٤٨١
تفسير الآيات: ٧ - ٩	٤٨٢
تفسير الآيات: ١٠ - ١٤	٤٨٤
تفسير الآيات: ١٥ - ١٧	٤٨٦
تفسير الآيات: ١٨ - ٢٠	٤٨٨
تفسير الآيتان: ٢١ - ٢٢	٤٨٩
تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٧	٤٩٠
تفسير الآيتان: ٢٨ - ٢٩	٤٩١
تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٥	٤٩٣
تفسير الآيات: ٣٦ - ٤٠	٤٩٥
تفسير الآيات: ٤١ - ٤٦	٤٩٦
تفسير الآيات: ٤٧ - ٥٦	٥٠٠
تفسير الآيات: ٥١ - ٥٦	٥٠١
تفسير الآيات: ٥٧ - ٥٩	٥٠٢
تفسير الآية: ٦٠	٥٠٣
تفسير الآيات: ٦١ - ٦٥	٥٠٥
تفسير الآيات: ٦٦ - ٧٦	٥٠٧
تفسير الآيتان: ٧٧ - ٧٨	٥٠٨
تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٥	٥٠٩
تفسير الآيات: ٨٢ - ٨٥	٥١٠

سورة فصلت

تفسير الآيات: ١ - ٥	٥١١
تفسير الآيات: ٦ - ٨	٥١٣

الموضوع	الصفحة
تفسير الآيات: ٩ - ١٢	٥١٥
تفسير الآيات: ١٣ - ١٨	٥١٨
تفسير الآيات: ١٩ - ٢٤	٥١٩
تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٩	٥٢٢
تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢	٥٢٤
تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٦	٥٢٨
تفسير الآيات: ٣٧ - ٣٩	٥٣٠
تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٣	٥٣١
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٥	٥٣٢
تفسير الآيات: ٤٦ - ٤٨	٥٣٣
تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٤	٥٣٤
تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٤	٥٣٥

سورة الشورى

تفسير الآيات: ١ - ٦	٥٣٧
تفسير الآيات: ٧ - ٨	٥٣٩
تفسير الآيات: ٩ - ١٢	٥٤١
تفسير الآيات: ١٣ - ١٤	٥٤٢
تفسير الآيات: ١٥ - ١٨	٥٤٣
تفسير الآيات: ١٦ - ١٨	٥٤٤
تفسير الآيات: ١٩ - ٢٢	٥٤٥
تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٤	٥٤٦
تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٨	٥٥١
تفسير الآيات: ٢٩ - ٣١	٥٥٣
تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٩	٥٥٦
تفسير الآيات: ٣٦ - ٣٩	٥٥٧
تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٣	٥٥٨
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦	٥٦٠
تفسير الآيات: ٤٧ - ٤٨	٥٦١
تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٣	٥٦٢
تفسير الآيات: ٥١ - ٥٣	٥٦٣

سورة الزخرف

٥٦٤	تفسير الآيات: ١ - ٨
٥٦٦	تفسير الآيات: ٩ - ١٤
٥٦٨	تفسير الآيات: ١٥ - ٢٠
٥٧٠	تفسير الآيات: ٢١ - ٣٥
٥٧١	تفسير الآيات: ٢٦ - ٣٥
٥٧٣	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤٥
٥٧٦	تفسير الآيات: ٤٦ - ٥٦
٥٧٧	تفسير الآيات: ٥١ - ٥٦
٥٧٩	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦٥
٥٨٣	تفسير الآيات: ٦٦ - ٧٣
٥٨٦	تفسير الآيات: ٧٤ - ٨٠
٥٨٧	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٩

سورة الدخان

٥٩٠	تفسير الآيات: ١ - ٨
٥٩١	تفسير الآيات: ٩ - ١٦
٥٩٦	تفسير الآيات: ١٧ - ٣٣
٦٠١	تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٧
٦٠٣	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٢
٦٠٤	تفسير الآيات: ٤٣ - ٥٠
٦٠٥	تفسير الآيات: ٥١ - ٥٩

سورة الجاثية

٦٠٨	تفسير الآيات: ١ - ١١
٦٠٩	تفسير الآيات: ١٢ - ١٥
٦١٠	تفسير الآيات: ١٦ - ٢٠
٦١١	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٣
٦١٢	تفسير الآيات: ٢٤ - ٢٦
٦١٤	تفسير الآيات: ٢٧ - ٢٩
٦١٥	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٧

سورة الأحقاف

٦١٧	تفسير الآيات: ١ - ٦
٦١٨	تفسير الآيات: ٧ - ٩
٦٢٠	تفسير الآيات: ١٠ - ١٤
٦٢٢	تفسير الآيتين: ١٥ - ١٦
٦٢٥	تفسير الآيات: ١٧ - ٢٠
٦٢٨	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٥
٦٣١	تفسير الآيات: ٢٦ - ٣٢
٦٣٢	تفسير الآيات: ٢٩ - ٣٢
٦٤٦	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥

سورة القتال

٦٤٨	تفسير الآيات: ١ - ٣
٦٤٩	تفسير الآيات: ٤ - ٩
٦٥٢	تفسير الآيات: ١٠ - ١٣
٦٥٤	تفسير الآيتين: ١٤ - ١٥
٦٥٦	تفسير الآيات: ١٦ - ١٩
٦٥٨	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٣
٦٦١	تفسير الآيات: ٢٤ - ٢٨
٦٦٢	تفسير الآيات: ٢٩ - ٣١
٦٦٣	تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٥
٦٦٤	تفسير الآيات: ٣٦ - ٣٨

سورة الفتح

٦٦٥	تفسير الآيات: ١ - ٣
٦٦٨	تفسير الآيات: ٤ - ٧
٦٦٩	تفسير الآيات: ٨ - ١٠
٦٧٦	تفسير الآيات: ١١ - ١٤
٦٧٧	تفسير الآيات: ١٥ - ١٧
٦٧٨	تفسير الآيتين: ١٦ - ١٧
٦٧٩	تفسير الآيتين: ١٨ - ١٩
٦٨٠	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٤
٦٨٣	تفسير الآيتين: ٢٥ - ٢٦

الموضوع	الصفحة
---------	--------

تفسير الآيات: ٢٧ - ٢٨	٦٩٥
تفسير الآية: ٢٩	٦٩٩

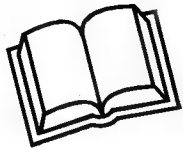
سورة الحجرات

تفسير الآيات: ١ - ٣	٧٠٢
تفسير الآيات: ٤ - ٥	٧٠٦
تفسير الآيات: ٦ - ٨	٧٠٧
تفسير الآيات: ٩ - ١٠	٧١١
تفسير الآية: ١١	٧١٣
تفسير الآية: ١٢	٧١٤
تفسير الآية: ١٣	٧٢٢
تفسير الآيات: ١٤ - ١٨	٧٢٦
فهرس الموضوعات	٧٢٩



مفكرة





مفكرة







مفكرة





مفكرة





مفكرة





مفكرة



دار ابن الجوزي 8428146



161661